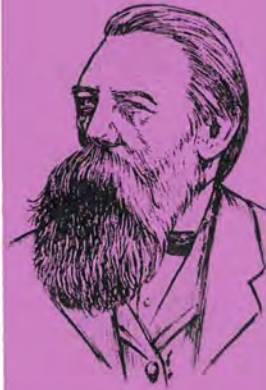
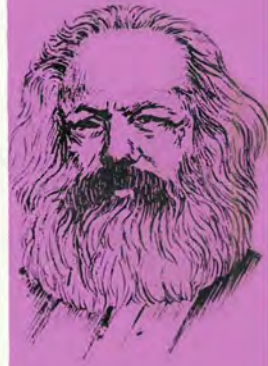


اوغست كورنو

# ماركس وانجلز

## حياتهما واعمالهما الفكرية



المجلد الثالث

التحول العميق لتصورهما العام عن العالم

جريدة الإيمان

إقامة ماركس في باريس

١٨٤٣ - ١٨٤٥



دار الحقيقة - بيروت

المكتبة  
الاشتراكية



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى

ايار ١٩٧٤

اوغست كورنو

# ماركس وانجلز

## حياتهما واعمالهما الفكرية

المجلد الثالث

التحول العميق لتصورهما العام عن العالم

جريدة إلى الإيمام

إقامة ماركس في باريس

١٨٤٣ - ١٨٤٥

نقل إلى العربية

إلياس مرقص

دار الحقيقة - بيروت



# الفصل الأول

## حياة ماركس في باريس

كان ماركس ، بنقده لفلسفة الحق عند هيجل وبمقالاته في **الحوليات الفرنسية - الألمانية** ، قد شرع يضع أسس المادية التاريخية والاشتراكية العلمية .

ومع احتفاظه بتصور هيجل عن التطور الجدلي للتاريخ الذي تحدده قوانين موضوعية ، فقد كان يعتبر ، بخلاف هيجل ، ان هذا التطور ليس نتاج عمل الروح المطلق بل هو نتاج الفاعلية السياسية والاجتماعية ، وكان يشرع في ادراك الدور الاولي للملكية الخاصة في تكوين المجتمع البرجوازي وللصراعات الطبقة في التحول الاجتماعي .

وبذلك كان يتجاوز ، مع المثالية الهيجلية ، انسانويّة فويرباخ . كان لا يزال مع فويرباخ يعتبر حذف الانخلاع الشرط الضروري للتحرر الانساني ، ولكنه كان بخلاف فويرباخ يتصور مسألة الانخلاع لا من وجهة النظر الدينية بل من وجهة النظر الاجتماعية ، الامر الذي كان يحدد عنده تصورا جديدا للفرد والمجتمع والدولة .

في نقده لفلسفة الحق عند هيجل ، كان يعتبر ان الانسان لا يستطيع ان يعيش ، لا في المجتمع البرجوازي ولا في الدولة السياسية ، حياة تتفق مع طبيعته الحقّة ، وكان يخلص من ذلك الى ضرورة استبدالهما بشكل جديد للمجتمع والدولة كان يدعوه الديمقراطية « الحقّة » .

وكان يعبر مرحلة الديمقراطية « الحقّة » الى الشيوعية في مقالاته في **الحوليات الفرنسية - الألمانية** : « المسألة اليهودية » و « مدخل الى نقد فلسفة الحق الهيجلية » .

في « المسألة اليهودية » ، الح على الطابع الناقص للتحرر السياسي الذي يبقى ازدواجية المجتمع البرجوازي والدولة السياسية ، وعارضه بالتحرر الانساني الذي يجب أن يحقق بالالغاء الجذري للملكية الخاصة ، السبب الاساسي للانخلاع .

في مقاله الثاني « مدخل الى نقد فلسفة الحقوق » ، الذي كتبه ابان انتقاله من

الديمقراطية الى الشيوعية في وقت بدأ فيه يتأثر بالبروليتاريا الثورية بشكل اكثر عمقا ، بين ان الغاء الملكية الخاصة سيكون عمل ثورة بروليتارية تقيم الشيوعية .

بتصوره عن الدور المقرر للصراعات الطبقة في التطور التاريخي ، كان ماركس يتحرر أكثر فأكثر من الايدولوجيا الفويرباخية ويخطو خطوة بالغة الاهمية في انضاج المادية التاريخية . ولكن بما أنه لم يكن لديه مفهوم واضح عن الطريقة التي بها يقود النظام الرأسمالي الى ثورة اجتماعية بواسطة تفاقم صراع الطبقات ، فقد كان ينظر الى هذا الصراع نظرة دوغمائية نوعا ما ، ويرى في البروليتاريا تجسد مصر الانسانية التي ، اذ سقطت مع البروليتاريا الى آخر درجات اللاانسانية ، فهي مدعوة الى أن تسترجع بها جوهرها المخلوع .

من اجل الوصول الى تصور أصح عن صراع الطبقات والثورة الاجتماعية والشيوعية ، كان على ماركس ان يكتسب بتحليل النظام الرأسمالي معرفة أعمق عن هذا النظام وعن قوانين تطوره .

### ماركس وباريس الثورية

كرس نفسه لهذه المهمة بدراسات فلسفية وتاريخية واقتصادية ، ستتيح له ان يبلغ تصورا جديدا عن العالم ، تصورا مؤسسا على مبادئ المادية الجدلية والتاريخية .

في باريس ، كان ماركس يسكن مع زوجته في ٢٨ ، شارع فانو Vaneau على الضفة اليسرى لنهر السين ، في بيت كان يقطنه ايضا جرمان مورر ، أحد قادة « رابطة العادلين » .

رغم كونه فقد مصدر دخله بزوال مجلة **الحواليات الفرنسية - الالمانية** ، استطاع ان يستمر في الانصراف لبحرته ودراساته ، بفضل حاصل مبيع نسخ المجلة التي كان روجه Ruge قد سلمه اياها بديلا عن إعطائه (١) ، وايضا بفضل حملة تبرعات نظمها أصدقاؤه في مدينة كولن وارسل اليه حاصلها البالغ الف ثالر في اواسط آذار ١٨٤٤ (٢) . وفي ٣١ تموز ١٨٤٤ استلم من ج. يونغ G. Yung

(١) انظر الجزء الثاني من هذا المؤلف .

(٢) رسالة من كلاسن الى ماركس ، ١٨٤٤/٣/١٣ ( انظر : كارل ماركس ، سيرة حياته ، موسكو ،

١٩٣٤ ، ص ٢١ ) .

مبلغ ثمانمئة فرنك تعويضا عن مئة نسخة من نسخ المجلة كانت قد صودرت (١) .  
هذا أتاح له موقتا تأمين معيشة أسرته . في أول ايار ١٨٤٤ ، أنجبت زوجته يني  
Yenny ولدهما الاول ، وكان ابنه ديميت يني ، بعد قليل ، سافرت الام الى  
المانيا لتقدم الولد الى أسرته (٢) .

يني ، التي لم تكن قد عرفت من قبل سوى الجو الخائق للمدن الالمانية  
الصغيرة ، باتت الآن تتطور بسرعة على الصعيد الفكري والسياسي الى جانب  
زوجها . في فترة الخطوبة ، كان قد كسبها للافكار الديمقراطية فكانت تدافع عن  
هذه الافكار ضد أفراد أسرتها الرجعيين . وتحت تأثير زوجها باتت الآن تتطور بسرعة  
نحو الشيوعية وتصبح مكافحة ثورية . وبنفس الشجاعة التي كانت قد اظهرتها في  
فترة خطوبتها ، باتت الآن تجعل نفسها مساعدا وسندا لزوجها في الصراعات القاسية  
التي يخوضها ، وهذا أمر استثنائي تماما عند نساء الطبقات اليسورة آنذاك .

في باريس ، حيث عاش حتى طرده في شباط ١٨٤٥ والتي لعبت بالنسبة له  
دورا مشابها لدور لندن بالنسبة لانجلز ، وجد ماركس ثلاثة عناصر كانت تؤلف  
حافزا قويا لفكره : تطور اقتصادي اكثر تقدما بكثير مما هو في المانيا ، حيث الصناعة  
كانت بالكاد تخرج من المرحلة الحرفية والمانيفاكشورية ، الامر الذي كان يتيح لماركس  
ادراكا افضل للطابع الذي يتخذه النظام الرأسمالي في طور الثورة الصناعية ،  
بروليتاريا من الآن وافرة العدد لها بالإضافة الى تقليد ثوري قوي وعي واضح  
لمصالحها الطبقية ، وأخيرا ، تجربة ثورة اجتماعية كبيرة ، هي ثورة ١٧٨٩ التي  
اكتملتها ثورة ١٨٣٠ .

كانت باريس آنئذ في ذروة غليان ثوري . بثورة ١٨٣٠ التي أمنت لها النصر  
النهائي على الملكية المطلقة وعلى الارستقراطية العقارية ، كانت البرجوازية الفرنسية ،  
او بالأصح فصيلتها القائدة ، البرجوازية الصناعية والمالية ، قد بلغت السلطة  
ووضعت مباشرة هذه السلطة في خدمة مصالحها الطبقية ، مستبعدة من الحكومة  
ليس فقط البروليتاريين بل أيضا الطبقات الوسطى ، الامر الذي كان يجعلها موضع  
هجمات عنيفة (٣) .

- 
- (١) رسالة من ج. يونغ الى ك. ماركس . كولن ، ١٨٤٤/٧/٣١ ( انظر المرجع السابق ، ص ٢٤ ) .  
(٢) عن حياة جني ماركس في باريس ، انظر دورنمان ، يني ماركس ، برلين ١٥٩٣ ، ص ٤٨ - ٥٦ .  
(٣) انظر ماركس : صراعات الطبقات في فرنسا من ١٨٤٨ الى ١٨٥٠ ، باريس ١٩٣٦ ، ص ٢٤ .  
« لم تكن البرجوازية الفرنسية هي التي تحكم في عهد لوي - فيليب ، بل فقط قطعة منها ، اصحاب  
البنوك ، ملوك البورصة وسكك الحديد ، مالكو مناجم الفحم والحديد ، اصحاب الغابات ، ومعهم قسم  
من الارستقراطية العقارية التي انضمت اليهم ، باختصار : الارستقراطية المالية . فهي التي كانت  
جالسة على العرش ، والتي كانت تعطي قوانينها في المجلسين وتوزع جميع المناصب من منصب وزير حتى  
منصب جاني مكتب تبغ » .

ان الفشل المتكرر لانتفاضات العمال والحرفيين الباريسيين التي تعاقبت منذ عام ١٨٣٠ لم يكن قد اضعف حماسهم الكفاحي ، وباريس كانت آنئذ تؤلف بؤرة قوية للتحريض الثوري كانت تنبسط فيها المذاهب الاشتراكية والشيوعية التي تحل محل مذهب سان سيمون St simon ومذهب فوريه Fourier اللذين تخطاهما التطور الاقتصادي والاجتماعي .

بعكس سان سيمون وفوريه اللذين ظللا بعيدين عن النضالات السياسية والاجتماعية ، كان المذهبيون والمحرضون الاشتراكيون والشيوعيون يدخلون هذه النضالات بقوة . كانوا على نحو متزايد الوضوح يدافعون عن مصالح الطبقات الوسطى او البروليتاريا ، ناقدين بحزم النظام الرأسمالي الذي كان لا ينفك يشدد برلترية الطبقات الوسطى واستغلال البروليتاريا .

مع وقوفهم في آن ضد الرأسمال الكبير وضد البروليتاريا اللذين كانا في نظرهم يحملان خطرا متساويا على الطبقات الوسطى ، كان المذهبيون الاشتراكيون يسعون في منظوماتهم الى تكييف النظام الرأسمالي مع مصالح هذه الطبقات . نجد بينهم ممثلي الاشتراكية الخيالية الاكثر تنوعا . كان هناك الى جانب اقتصاديين برجوازيين ذوي لون اشتراكي مثل سيسموندي Sismondi وبوريه Buret اشتراكيون مسحوبون مثل لامنيه Lamennais وبوشز Buchez ، سان سيمونيون مثل بازار Bazard الذي كان قد جمع في مذهب العناصر الاشتراكية في سان سيمونية ، فورييريون مثل ف. كونسيدران V. Considérant الذي كان ، في كتابه **المصير الاجتماعي** ( ١٨٣٧ ) وفي جريدته **الديموقراطية السامية** ، يعرض الافكار الاساسية لمذهب فوريه . كان هناك ايضا عدد من المذهبين مثل فيدال Vidal ، لورو Leroux بيكور Pecqueur ، انصار تشريك وسائل الانتاج ، الذين كانوا يعولون من اجل هذا التحويل على دعاية سلمية تستهدف اقناع الطبقات المالكة بضرورة اجراء اصلاح اجتماعي . ولقد كان برودون واحدا من هؤلاء ، رغم مظاهره الثورية ، لانه هو ايضا كان يريد تحقيق الاصلاح الاجتماعي لا بحذف النظام الرأسمالي ، بل بتكييفه مع مصالح الطبقات الوسطى .

هؤلاء المذاهب الاشتراكيون كانوا بوجه الاجمال يدعون الى اصلاح للمجتمع بواسطة تنظيم جديد للشغل في اطار النظام الرأسمالي ، الى اصلاح من شأنه ، مع استبقاء نظام الملكية الخاصة ، ان يؤمن ازدهار الطبقات الوسطى وان يفسح مجالا اوسع لمصالح العمال . مآثرتهم الرئيسية انهم كانوا بانتقاداتهم للنظام الرأسمالي يبينون كيف ان هذا النظام يقود ، بالازمات وبرلترية الطبقات الوسطى ، الى ثورة اجتماعية ، والاصلاحات التي يقترحونها تسمح باجتنابها .

كان عملهم يسانده الحزب الاشتراكي الديمقراطي بقيادة لوي بلان Louis Blanc و لودرو - رولن Ledru - Rollin وفلوكن Flocon . مثل الشارتيين كان هذا الحزب ينادي بالاستيلاء على السلطات العامة بوصفه افضل وسيلة لحل المسألة الاجتماعية . ولما كان هذا الحزب ، مثل المذاهب الاشتراكيين ، نصير تنظيم للشغل في اطار المجتمع البرجوازي ، فقد كان يشجب مثلهم الثورة الاجتماعية ويقلص العمل السياسي الى مطلب الاقتراع العام الذي سيقود الشعب الى سدة السلطة .

في معارضة الاشتراكيين ، كان الشيوعيون يدافعون عن مصالح البروليتاريا ، وهم يريدون لا اصلاح بل تدمير المجتمع البرجوازي لاقامة مجتمع شيوعي في مكانه . والمذاهب والمحرزون الشيوعيون الرئيسيون كانوا كابيه Cabet ، دزامي Dezamy بلانكي Blanqui . كابيه ، ذو اتجاه ديني ، كان يعتبر الديمقراطية سبيل بلوغ الشيوعية ، والاقتراع العام موضوع مطالب الشعب المباشرة ، وكان يريد ، مثل الاشتراكيين ، تحقيق الشيوعية بالدعاية والتربية (١) . دزامي كان يرفض اية تسوية مع البرجوازية ويبشر بشيوعية ملحدة (٢) .

بلانكي ، الذي كان قد استأنف التراث الثوري لبابوف تحت تأثير Babeuf بوناروتي Buonarroti ، كان يدعو الى الكفاح الطبقي للبروليتاريا التي لا تستطيع على حد تفكيره ان تتحرر الا بواسطة ثورة اجتماعية . مثل بابوف ، كان بلانكي ينظم مؤامرات وانتفاضات يراود لها ان تعطي السلطة للشعب (٣) .

ان عمل الاشتراكيين والشيوعيين كانت تسانده صحف ومجلات ك **الشعبي** ، **والاستقبل** ، **والديمقراطية السلمية** ، وايضا الى حد ما **الاصلاح** لـ **فلوكون** .

مهما كان يمكن ان تكون المذاهب الشيوعية جذابة بالنسبة لماركس ، فانه لم يكن بينها مذهب يستطيع ان يرشد فكره وعمله ، لانها كانت جميعا بدرجات متنوعة

---

(١) كابيه ( ١٧٨٨ - ١٨٥٦ ) كان ابان فترة اقامة في انكلترا قد درس يوتوبيا توماس مور Moore وتأثر بروبرت اوين Owen في ١٨٤٠ ، بعد عودته الى فرنسا ، كتب « الرحلة الى ايكاريا » التي لاقت نجاحا كبيرا . كان يصدر « الروزنامة الايكارية » و « الشعبي » وكان لهما عدد كبير من القراء . ( يوتوبيا = المكان غير الوجود ، المدينة الفاضلة المثالية الشيوعية ، عنوان كتاب توماس مور سنة ١٥١٨ ، ومنها الاشتراكية اليوتوبية اي الخيالية او الطوباوية ) .

(٢) دزامي ( ١٨٠٣ - ١٨٥٠ ) ، كاتب ومنظر شيوعي .

(٣) اوغست بلانكي ( ١٨٠٥ - ١٨٨١ ) . شارك مشاركة نشيطة في ثورة ١٨٣٠ ، ثم نظم جمعية « الفصول » السرية ، وقاد انتفاضة ١٨٣٩ . حكم اربع مرات بالموت على عمله الثوري ، وقضى نيف و ٢٥ سنة من عمره في السجن . انظر ستالين ، مؤلفاته ، ج ٤ ، برلين ١٩٥١ ، ص ٢٧٨ : « التاريخ يعرف في الادوار الثورية قادة بروليتاريين هم رجال عمل شجعان ومخلصون حتى التضحية بحياتهم ولكنهم منظرون ضعفاء ... بين هؤلاء لاسال في المانيا وبلانكي في فرنسا » .

ذات طابع طوباوي خيالي ، اذ هي تعارض المجتمع البرجوازي بمجتمع فكري مثالي بدلا من ان تبحث في هذا المجتمع عن اسباب دماره وحلول مجتمع شيوعي محله . ومع رفضه مباشرة المذاهب الاشتراكية التي كانت تميل الى تثبيت الطبقات الوسطى وايضا مذهب كابه الذي كان يدين مثلها الصراعات الطبقيّة والثورة الاجتماعية ، لم يكن ماركس يستطيع ان يرضى عن مذهب بلانكي الذي بما انه لم يكن يتصور الانتقال الجدلي من النظام الرأسمالي الى النظام الشيوعي فقد كان يفكر بإمكان تحقيق الشيوعية بواسطة انتفاضات ، الامر الذي لم يمنع بالطبع ماركس من ان يعجب اكبر اعجاب بالرجل الثوري الذي كان يدافع بشجاعة لا تقهر عن قضية البروليتاريا .

ان نفوذ بلانكي ، وايضا نفوذ كابه ولا منيه ، كان عميقا جدا ليس فقط على البروليتاريا الفرنسية بل ايضا على اعضاء « رابطة العادلين Bund der Gerechten الجمعية السرية التي كانت تجمع العمال والحرفيين الثوريين الالمان في باريس (١) .

بعد فشل انتفاضة ١٢ و ١٣ أيار ١٨٣٩ ، التي نظمها بلانكي ، كانت « رابطة العادلين » قد حلت . وقد التجأ بعض اعضائها ومنهم فلهم فايتلنغ wilhelm weitling الى سويسرة ، بينما البعض الآخر مثل عامل الطباعة كارل شابسر karl Schapper والساعاتي جوزيف مول Joseph Moll والحذاء هاينريش باور Heinrich Bauer ذهبوا الى لندن حيث أسسوا فرعا لرابطة العادلين : « اتحاد العمال الالمان » . اما الذين بقوا في باريس فقد كانوا يجتمعون حول الطبيب تصير كابه هرمان افربك H. Ewerbeck والدكتور ج. مورر G. Maurer (٢) .

(١) عن الحركة الشيوعية الالمانية في باريس ، انظر فر. انجلز : اسهام في تاريخ رابطة الشيوعيين ، مقدمة لكراس ل. ماركس : كشوف عن المحاكمة الشيوعية في مدينة كولن ، برلين ١٩١٤ ، ص ٣ . وبعدها ، انظر ش. آندلر : البيان الشيوعي . مدخل تاريخي وتعليقات ، باريس ص ٦ - ٢٠ ، ل. ك. كالر : فلهم فايتلنغ ، هوتنغر ، زوريج ، ١٨٨٧ ، ص ١ - ٣٠ ، ارشيف الدولة السري ، ٧٧ ، ٥٣٧ ، رقم ٤١ ، قضايا تتصل بالرقابة ، رقم ١١١ .

في سنوات ١٨٤٠ ، كان حوالي ١٠٠٠٠٠ الماني يعيشون في باريس . معظمهم حرفيون : خياطون ، حذاؤون ، نجارون ، كانوا بعد فترة يقضونها في هذه المدينة ، يعودون الى المانيا . الاكثر تقدما بينهم كانوا يشاركون في الحركة العمالية الثورية وكانوا اعضاء في « عصبة العادلين » .

(٢) د. ه. افربك (١٨١٦ - ١٨٦٠) ، مهاجر في باريس ، عضو « رابطة العادلين » ثم « رابطة الشيوعيين » ، كان في ١٨٤٨ - ١٨٤٩ مراسلا لباريسيا ل الجريدة الراينية الجديدة . د. جرمان مورر (١٨١٥ - ١٨٥٥) بعد دراسته الفلسفة في برلين هاجر في ١٨٣٣ الى باريس حيث كان احدهم مؤسسي « رابطة المنبوذين » ثم « رابطة العادلين » . اصبح عضوا في « رابطة الشيوعيين » وناضل من ١٨٤٨ الى ١٨٥١ في مدينة فرانكفورت - على - الماين . اعتقل في ١٨٥١ ، طرد من المانيا بعد سجن طويل وعاد الى فرنسا بعد فترة قضاه في سويسرة .

هذه الجماعات الثلاث التي كانت تتراسل بشكل نشيط تؤلف جنين « رابطة الشيوعيين » القادمة .

منذ وصوله الى باريس ، دخل ماركس في صلات مع اعضاء « رابطة العادلين » الذين كانوا يجتمعون في مقاه شتى (١) حيث يقومون بالدعاية الشيوعية (٢) ، ومع قادة الجمعيات السرية الفرنسية ، سواء بسواء .

مع معاشرته لرابطة العادلين ، ماركس لم ينتسب اليها (٣) . والسبب كان ولا شك انه لا يستطيع ان يتبنى مذهب هذه الرابطة ، وهو خليط غامض من بلانكية وكابيتية واشتراكية مسيحية وانسية فويرباخية (٤) . ومن جهة اخرى فقد كان يعتبر ، مثل فر. انجلز ، ان هذه الجمعيات السرية تعيق تنظيم مجموع الشفيلة وتعطي الحكومة بطابعها غير القانوني ذريعة لتدابير قمعية (٥) .

(١) ارشيف الدولة السري ، ٧٧، ٥٥ . من تقرير مرسل الى وزير الداخلية في بروسيا عن الشيوعيين الالمان في باريس ، باديس ٥ حزيران ١٨٤٥ . رئيس الشيوعيين : د. افرسك ( عنوانه : ٨ شارع فلوروس ) . اماكن التجمع : مقهى شرجر ( ٢٠ ، شارع الاولاد الطيبين ) ، مقهى شيفر ... ، مطعم شرايبر ... ، فندق الشهاب ... ، مقهى غيسر ... في هذا التقرير ، ورد ذكر مراسلة مع كارل شابر في لندن ( عنوان : ... ) .

(٢) ارشيف الدولة السري . وزارة الداخلية ، و ٧٧ ، د رقم ١٠ ، ص ٨١ . وثائق تتصل بالجمعيات الثورية للحرفيين الالمان . تقرير شرطة عن نشاط الشيوعيين الالمان . باريس ، اول شباط ١٨٤٥ . « من المؤسف حقا ... ان نرى كيف ان بعض محبي الدسائس يخدعون الحرفيين الالمان الساكنين بل وبعض التجار والمستخدمين بنية كسبهم الى الشيوعية ... الشيوعيون الالمان يجتمعون كل اسبوع امام حاجز العرش في صالة بائع نبيذ على الطريق العام . انه البيت الثاني او الثالث من اليمين على شارع فنسن ، حين ناتي من الباب . يجتمع فيه احيانا ٣٠ ، وفي احيان اكثر ١٠٠ الى ٢٠٠ الماني . استاجروا الصالة وهم يلقون الخطب حيث يدعون بصراحة الى قتل الماوك والفاء كل ملكية وحذف الاغنياء والدين ، باختصار : فظاعات . بامكانني ان اسمي شبانا المانا من عائلات محترمة يجرون ويفسدون ايام الاحاد . الشرطة تعلم ولا شك ان كثيرا من الالمان يجتمعون هنا يوم الاحد ، ولكن لعلها تجهل الهدف السياسي لهذه الاجتماعات . اكتب اليك هذا على عجل ، كي لا يستطيع بعد الآن امثال ماركس وهرفغ وفال وبورنشتاين ان يضلوا هؤلاء الشبان » .

(٣) انظر ٢. روجه : مراسلات ، برلين ١٨٨٦ ، ج ١ ، ص ٣٥٩ : « ماركس القى نفسه في الحركة الشيوعية الالمانية هنا ، القصد انه يعاشر الشيوعيين ، ولا افكر ان باستطاعته ان يعاق ادنى اهمية على نشاطهم السياسي المزري » . انظر ك. ماركس : الهر فوغت ( لندن ١٨٦٠ ) ، برلين ١٩٥٣ ، ص ٧٥ . « اثناء اقامتي الاولى في باريس ، عقدت صلات شخصية مع قادة « رابطة العادلين » ومع قادة معظم الجمعيات العمالية السرية ، ولكن دون ان انتسب الى اية منها » .

(٤) انظر فرانتس مهنغ : تاريخ ألمانيا ، برلين ١٩٤٦ ، ص ١٧١ « المذهب السري لرابطة العادلين كان خليطا غامضا من فلسفة المانية واشتراكية فرنسية » .

(٥) ميف I ، II ، MEGA ، ص. ٤٤ . فر. انجلز في جريدة عالم اخلاقي جديد ( الانكليزية ) « تقدم الاصلاح الاجتماعي في البر الاوروبي . فرنسا » . MEGA = « ماركس - انجلز - المؤلفات الكاملة » .

ولكنه كان يشعر بتعاطف عميق واعجاب كبير ازاء هؤلاء العمال والحرفيين الثوريين ، الذين كانت شجاعتهم وعزيمتهم وسخاؤهم وروحهم المتفانية في تضاد مع خسة وجبن البرجوازية الالمانية التي لم تكن قد اظهرت اي اشارة ثورة اiban حذف الصحافة الليبرالية . وعلى حد قوله : « عندما يجتمع العمال الشيوعيون ، فان الموضوع المباشر لاجتماعهم هو المذهب ، الدعاية ، الخ . ولكن في الوقت نفسه تلد عندهم حاجة جديدة ، حاجة الى الاجتماع ، وما لم يكن في البداية سوى ذريعة اللقاء يصبح هدفه . حين نرى عمالا اشتراكيين فرنسيين مجتمعين ، نستطيع على نحو افضل ادراك النتائج المرموقة لحركتهم . لم يعد التدخين والشرب والاكل سوى الحوافز الثانوية للقاءاتهم ، اما الاهداف الحقيقية لهذه اللقاءات فهي المناقشات التي تنمي روح الجماعة والتضامن . الاخاء بين البشر ليس عندهم محض جملة ، بل هو تعبير الواقع ذاته ، وكل النبل الانساني ينعكس على هذه الوجوه التي صلبها الشغل (١) » .

والشيوعيون الذين كان يعاشرهم كانوا يقدرونه أعلى تقدير . وهكذا فقد كتب ه. افرىك ، أحد قادة رابطة العادلين ، بعد عدة سنوات ، في كتابه «**المانيا والامان**» : « شارل ماركس هو بلا جدال عبقرية نقدية تعادل على الاقل ج. ا. ليسنغ G. E. Lessing . شارل ماركس ذو ذكاء غير عادي ، واطلاع واسع ، وعزيمة حديدية ، وبصيرة نافذة ، وقد اكب على دراسة المسائل الاقتصادية والحقوقية والسياسية والاجتماعية (٢) » .

---

(١) ميفا ، د ، ص ١٢٥ . مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة . انظر المرجع نفسه ، ص ٢٥٦ ، العائلة المقدسة « يجب ان يعرف المرء ما يحفز العمال الفرنسيين والانكليز من حماس للدراسة وعطش الى العلم وطاقة معنوية ورغبة عميقة في نمو لا ينقطع حتى يكون المرء فكرة عن النبل الانساني الذي يطعمهم » . انظر قضايا السلم والاشتراكية ، برلين ١٩٥٨ ، المزمرة ٢ . كارل ماركس وفويرباخ - مراسلات ١٨٤٣ - ١٨٤٤ اصدرها شوفنهاور وهائس ، ص ٩ . رسالة من ل. ماركس الى ل. فويرباخ ، باريس ١١ آب ١٨٤٤ . « يجب ان تكون قد حضرت اجتماعا لعمال فرنسيين حتى تستطيع ان تقدر الحماس الفتي وقوة الشكيمة التي تتجلى عند هؤلاء الرجال الذين ارهقهم الشغل . البروليتاريا الانكليزية تخطو هي ايضا خطوات جبارة ولكن ينقصها القاع الثقافي الذي يملكه الفرنسيون . ومن الاجحاف ان لا نؤكد ايضا ماتر الحرفيين الالمان في سويسرة ولندن وباريس ، على الصعيد النظري . عيبهم الوحيد كونهم لا يزالون تحت سطوة الروح الحرفية . ومهما يكن من امر فان التاريخ يشكّل بين هؤلاء « البرابرة » في مجتمعنا المتمدن العنصر الثوري الذي سيحرر البشرية » .

(٢) انظر ه. افرىك : المانيا والامان ، باريس ١٨٥١ ، صص ٥٨٧ - ٥٨٨ .

## دراسات كارل ماركس في باريس

بالارتباط مع الحركة الثورية ، التي كان يوثق الصلة معها أكثر فأكثر ، كان ماركس يقوم باعادة نظر شاملة في مفاهيمه . بعد ان تعرف في البروليتاريا على القوة القادرة وحدها على الاطاحة بالمجتمع البرجوازي ، باتت المسألة الجوهرية المطروحة عليه هي ادراك الاسباب الموضوعية للثورة البروليتارية . أجل كان قد أكد ضرورة هذه الثورة في مقالاته في **الحوليات الفرنسية - الألمانية** ، ولكن دون أن يكون قد رأى في اية شروط تصبح البروليتاريا طبقة ثورية .

باشراً أولاً بأول دراسة عميقة للثورة الفرنسية ، التي كانت تقدم له أكبر مثال في الازمنة الحديثة عن ثورة جامعة ، ذات طابع اقتصادي وسياسي واجتماعي معا (١) .

بما أنه ولد في اقليم عدلت الثورة الفرنسية بنيته الاقتصادية والاجتماعية تعديلاً عميقاً ، فقد كان منذ طفولته متألفاً مع الافكار الاساسية لهذه الثورة . في طوره الهيفلي - الشاب ، الذي اتسم بطابع جذرية ديمقراطية ، كان قد اعتبر الحزب الأكثر تقدماً في المؤتمر ، حزب الجبل ( أو اليقائية ) ، الحزب الثوري النموذجي (٢) . وأبان توجهه نحو الشيوعية ، في ١٨٤٣ ، كان قد بدأ يدرس بصورة متعمقة تاريخ الثورة الفرنسية ، التي باتت تظهر له النموذج الكامل لثورة برجوازية (٣) .

كان قد عرض الطابع الاساسي لهذه الثورة ووسم حدودها في « المسألة

---

(١) انظر مجلة الفكر ( الفرنسية ) ، ١٩٣٩ ، رقم ٣ ، ص ٢٤ - ٣٧ . مقال جان مونترو ، الثورة الفرنسية وفكر ل. ماركس . انظر ٢. روجه ، مراسلات ، ج ١ ، ص ٣٤٣ . رسالة روجه الى فويرباخ ، باريس ، ١٥ ايار ١٨٤٤ . « انه ( ماركس ) يقرأ كثيراً . يعمل بطريقة كثيفة جداً . عنده مهارة ناعمة تنحط احياناً الى مضمض لمبة ديكالكتية ، ولكنه لا ينجز اي شيء ، يقطع كل بحث ليفطس في محيط جديد من الكتب ... وهو أكثر عصبيّة وعنفاً من اي وقت مضى ، خصوصاً حين يمرض نتيجة العمل وحين يمضي ثلاث او حتى اربع ليال على التوالي بلا نوم » . انظر جريدة اللوحة اليومية ، رقم ١٦٨ ، ٢٢ تموز ١٩٢١ . رسالة من روجه الى دنكر ، باريس ، ٢٩ آب ١٨٤٤ . « كان ماركس يريد ان ينقد الحقوق الطبيعية عند هيفل من وجهة النظر الشيوعية ، ثم ان يكتب تاريخاً عن عهد المؤتمر ، واخيراً نقداً لكل الاشتراكيين . انه يريد دوماً ان يكتب عما قرأه في المقام الاخير ، ولكنه يواصل قراءاته بلا توقف وينقل منها مختارات جديدة . اعتقد انه ما زال ممكناً ان يكتب كتاباً كبيراً جداً ، ليس مجرداً أكثر مما يجب ، ويحشر فيه كل ما كدسه » .

(٢) انظر الجزء الاول من هذا الكتاب .

(٣) قسراً في تموز وآب ١٨٤٣ المؤلفات الآتية : مذكرات الجروندي جان باتيست لوفه ، عضو المؤتمر ، نداء الى الاجيال للسيدة رولان ( وهي ايضاً من حزب الجروندي ) . ثورات فرنسا وبرابان تاليف مونفاريار .

اليهودية » . في مقابل التحرر السياسي الذي حققته الثورة البرجوازية الفرنسية التي أبقت التعارض بين المجتمع والدولة ، بين البرجوازي والموطن ، كان قد وضع التحرر الانساني ، ثمرة ثورة لم تعد سياسية بل اجتماعية ، من شأنها بواسطة إلغاء الملكية الخاصة ان تحذف التعارض بين المجتمع والدولة باعطائهما معا طابعا انسانيا .

في مقاله « مدخل الى نقد فلسفة الحق الهيغلية » ، كان قد بين ان نجاح البرجوازية في هذه الثورة يعلّل بواقع انها جسدت بادىء بدء بوصفها طبقة صاعدة مصالح الشعب العامة . مباشرة بعد انتصارها على العهد القديم ، كانت البرجوازية قد احتكرت السلطة ، الامر الذي كشف حدود التحرر السياسي الذي لا يفيد الا الطبقة المنتصرة . واذ رفض ماركس صورة التحرر هذه ، فقد اعتبر انه بات الآن للبروليتاريا ان تحقق التحرر الانساني بثورة شيوعية .

رغم حدودها ونواقصها ، ظلت الثورة الفرنسية بالنسبة له نموذج ثورة. جامعة تحول جذريا العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية (١) .

وهذا ما يعلّل كون ماركس ، عندما طرحت عليه مسألة الثورة البروليتارية ، قد اكب على دراسة الثورة الفرنسية دراسة بهذا الاتساع والعمق ، وبشكل خاص على دراسة حقبتها الرئيسية ، حقبة المؤتمر ، التي كان يفكر بكتابة تاريخها (٢) .

وقد قرأ لهذه الغاية خطب سان جوست Saint Gust وروبسبير Robespierre ، ومذكرات عضو المؤتمر ر. لوفاسور - دو - لاسارت ، التي تتصل بالصراع بين الجيرونديين والجبليين (٣) ، والمحاضر الرسمية لمناقشات المؤتمر بمؤلفات بابوف Babeuf

(١) انظر فر. انجلز ، مقدمة كتاب ل. ماركس « برومر لسوي بونابارت » ، باريس ١٩٤٥ ، ص ٢ - ٤ . « فرنسا هي البلد الذي فيه سمرت صراعات الطبقات في كل مرة اكثر من اي بلد اخر حتى القسار الكامل ... فرنسا في ثورتها العظيمة دمرت الاقطاعية واعطت سيطرة البرجوازية طابع طهر كلاسيكي لا نجد مثيلا له في اي بلد اخر . كذلك ان كفاح البروليتاريا الثورية ضد البرجوازية المسيطرة ينجلي هنا في شكل اكثر حدة منه في أي مكان اخر . ولهذا السبب كان ماركس ليس فقط يدرس بشغف خاص تاريخ فرنسا الماضي ، بل ايضا يتابع عن كثب تطورها الراهن ، يجمع المواد المكروسة لاستخدام لاحق ، الامر الذي يفسر كونه لم يفاجأ يوما من قبل الحوادث . »

(٢) انظر ٢. روجه ، مراسلات ، ١٨ ، ص ٢٤٣ . رسالة الى فويرباخ ، باريس ١٥ ايار ١٨٤٤ . « ماركس يريد بالمقابل ان يكتب تاريخ المؤتمر ، وقد كنس لهذا الغرض المراجع اللازمة ووصل الى مفاهيم جديدة وخصبة جدا . تخلى مرة اخرى عن نقد « فلسفة الحق الهيغلية » وهو يريد ان يستخدم وجوده في باريس لكتابة هذا الكتاب عن المؤتمر ، وهذا صحيح تماما » . وايضا ص ٣٦٢ ، رسالة الى فلايشر ، باريس ٩ تهوز ١٨٤٤ . « ... كان يرمي الى كتابة مؤلف في السياسة ، ولكنه لم يعرده بعد لسوء الحظ . ثم اراد ان يكتب تاريخا عن المؤتمر وقد قرأ كثيرا لهذا الغرض . الان يبدو كأنه تخلى عن هذا المشروع . »

(٣) ميغا ، I ، ج III ، صص ٤١٩ - ٤٢٤ . مختارات من مذكرات ر. لوفاسود .

لم يكتب تاريخ المؤتمر ، ولكن الدراسات التي قام بها لهذه الغاية أسهمت كثيرا في توسيع وتوضيح مفاهيمه عن الصراعات الطبقيّة والثورة الاجتماعيّة والتطور التاريخي . فدراسة الثورة الفرنسيّة كانت تبين له كيف ان هذه ولدت من صراعات الطبقات المتولدة بدورها من التطور الاقتصادي ، كيف ان الدولة بوصفها المدافع عن مصالح الطبقة المسيطرة مارست سلطتها لصالح البرجوازية ، وكيف اخيرا خلال تطورها احتدم الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا ، وهو الصراع الذي يطبع الزمن المعاصر . ومن هذه الدراسة كان يستخلص ايضا هذا الدرس الا وهو ان طبقة قائدة لا تدع نفسها تفقد امتيازاتها بدون ان تدافع عنها الى النهاية وان تحولا جذريا للتنظيم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي يتطلب صراعات ثورية لا رحمة فيها .

هذا التصور لدور صراعات الطبقات المقرر في التطور التاريخي كان يتوضح عنده بقراءة كبار المؤرخين البرجوازيين الفرنسيين : أوغستين تيري Aug. Thierry ، مينييه Mignet ، تير Thiers ، غيزو Guizot ، الذين كانوا ، بدراستهم لتطور البرجوازية الفرنسيّة منذ العصور الوسطى ، قد أكدوا الدور الحاسم لصراعات الطبقات في هذا التطور (١) .

الامر الذي ساهم اكبر مساهمة في تطور مفاهيم ماركس ، كان ، الى جانب دراسة الثورة الفرنسيّة والمذاهب الاشتراكية والشيوعية ، دراسة الاقتصاد السياسي التي باشرها منذ اواخر عام ١٨٤٣ والتي تابعها بشكل منهجي في عام ١٨٤٤ (٢) . حلل مؤلفات أهم الاقتصاديين الحديثين الفرنسيين والانكليز الذين كانوا قد اعترفوا بأن الشغل هو العنصر الوحيد منتج الثروات . ولكنه ، بعكس هؤلاء الاقتصاديين الذين كانوا يركزون على تحليلهم للتطور الاقتصادي ليبرروا ويمجدوا النظام الرأسمالي ، كان يخلص من تحليله لهذا النظام ، حيث العامل

(١) لينين : ماركس ، انجلز والماركسيّة ، برلين ١٩٤٦ ، ص ١٦ . « كان زمن عودة الملكية في فرنسا قد انجب نخبة من المؤرخين (تيري، غيزو، مينييه ، تير) لم يكن باستطاعتهم حين عموموا المعطيات التاريخيّة سوى الاعتراف بان الصراعات الطبقيّة هي مفتاح تطور كل التاريخ الفرنسي . »  
من المناسب ان نذكر هنا ان ماركس لم يدع ابدا انه اكتشف وجود ودور صراعات الطبقات ، انظر الرسائل المختارة لماركس وانجلز ، برلين ، ١٩٥٣ ، ص ٨٦ . رسالة لـ ماركس الى ج. مائتره في هذا الصدد انه برهن ان تشكل الطبقات يقرره تطور قوى الانتاج وعلاقات الانتاج وان الصراعات الطبقيّة من شأنها في العصور الحديثة ان تقود بطريق ثورة بروليتارية الى تكوين مجتمع بلا طبقات . فايدماير ، لندن ١٨٥٢ . « فيما يخصني ، ليس لي فضل اكتشاف وجود الطبقات في المجتمع الحديث وصراعاتها ... الجديد الذي آتيت به انني بينت ان وجود الطبقات مرتبط بمراحل تاريخيّة محددة لتطور الانتاج . »

(٢) انظر انجلز : مقدمة راس المال ، ج ٢ ، باريس ، ١٩٠٠ ، ص ٨ . « ماركس بدأ دراساته في الاقتصاد السياسي عام ١٨٤٣ في باريس ، حيث اكب على تحليل كبار الاقتصاديين الفرنسيين والانكليز . »

المأجور ، البروليتاري ، المنتج الرئيسي للثروات بشغله ، مستغل ومضطهد ، الى ادانته (١) .

هذه الدراسات ، التي كانت تعطي تصوره للشيوعية وللتاريخ قاعدة اقتصادية صلبة ، كانت تجعله ، بالتضافر مع دراسات الثورة الفرنسية والمذاهب الاشتراكية والشيوعية ، يميل نحو تصور مادي للعالم . هذا التوجه كانت تعززه الدراسة المتعمقة التي خص بها آنذاك المادية الفرنسية والانكليزية ، التي كان يحلل تياريهما الكبيرين العلمي والاجتماعي ، اللذين كان يشترقهما من فيزياء ديكارت Descartes . كان يبين ان هذين التيارين تطورا تحت تأثير تطور الانتاج واحساسية لوك Locke والصراع الذي تخوضه البرجوازية ضد العهد القديم وانه ينبثق من التيار الثاني اتجاه اشتراكي نقطة وصوله الشيوعية . وبتجاوزه حدود المادية الميكانيكية للقرن الثامن عشر العائدة الى حدود الايدولوجيا البرجوازية ، كان ماركس يلقي في المؤلفات التي كان يكتبها آنذاك أسس تصور جديد للمادية ذي طابع جدلي وتاريخي (٢) .

### ماركس والهيغلون الشباب

ان مشاركة ماركس المتزايدة النشاط في الحركة الثورية (٣) ، التي كانت يرافقها عنده تحول ايدولوجي عميق ، كانت تحدده موقفه ازاء الهيغلين الشباب الفوضوي الاتجاه والديمقراطيين مثل روجه وهر فغ Herwegh ، وموقفه ازاء الاشتراكيين الإصلاحيين مثل برودون والشيوعيين الطوباويين مثل باكونين وهس Hess وفاتنلغ weitling

(١) عن تفصيل دراسات ماركس في الاقتصاد السياسي ، انظر ميغا ، ١ ، ٣٥ ، ص ١٠٧ - ١١٠ و ٤٢٧ - ٥٨٣ ، والفصل الثاني من هذا الكتاب . انظر ماركس ، مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي ، برلين ١٩٥١ ، المقدمة ، ص ١٢ . « ان دراساتي ( المقصود التحليل النقدي لفلسفة الحق الهيغلية والدراسات اللاحقة ) قادتني الى هذه النتيجة ، الا وهي ان العلاقات الحقوقية ومختلف اشكال الدولة لا يمكن ان تعال لا بذاتها ولا بما يدعى تطورا عاما للروح الانسانية ، بل تحددها الشروط المادية للحياة ، الشروط التي كان هيغل على غرار انكليز وفرنسيي القرن الثامن عشر يلخصها تحت اسم المجتمع البرجوازي ، وان تشريح هذا المجتمع يؤلفه الاقتصاد السياسي . »

(٢) حول المادية الفرنسية في القرن ١٨ ، انظر م. د. تسيبنكو : كفاح مادي القرن ١٨ الفرنسيين ضد المثالية ، باريس ١٩٥٥ . عن تحليل ماركس النقدي لمادية القرن ١٨ ، انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب ( فصل « العائلة المقدسة » ) . عن تجاوز المادية الميكانيكية من قبل ماركس وانفراج المادية الجدلية والتاريخية ، انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب (« مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة » ) . (٣) في ٢٣ آذار ١٨٤٤ ، اشترك في ولية نوقشت فيها مسألة الدعاية الدولية الديمقراطية ، انظر رسالة روجه الى كوشلي ، ٢٤ آذار ١٨٤٤ ( الاصل موجود في معهد الماركسية - اللينينية بموسكو ) . انظر ل. ماركس ، سيرة حياته ، ص ٢١ . وقد تعاون من جهة اخرى مع الجريدة الباريسية الالمانية Vorwarts ( الى الامام ) ، حين اتخذت طابعا ثوريا .

بينما كان من الان يقف بوضوح ضد الهيفيلين الشبان الفوضويين والديمقراطيين من طراز روجه ، الذين كانوا يكافحون البروليتاريا والشيوعية بشكل سافر ، كان موقفه اقل وضوحا ازاء الاشتراكيين والشيوعيين الخياليين . أجل كان ينفصل عنهم بقدر ما كان يرى ان مذهبهم لا تستجيب لاشتراطات كفاح البروليتاريا الطبقي ، ولكن بما انه لم يكن بعد قد ادرك اسباب وطبيعة عيوبهم لذا فان نقده لم يكن له الطابع الحاد القاطع الذي سيكون له بعد قليل ، عندما سيتثبت مذهب في خطوته الكبرى .

كان انضمامه الى الشيوعية الثورية يعزز قطيعته مع « الهيفيلين الشباب » في برلين الذين كانوا يسلكون اكثر فأكثر طريق الفوضوية .

بعد رفضه التعاون مع **الحوليات الفرنسية - الالمانية** ، كان برونو باور Bruno Bauer ، الذي تحول نهائيا عن الحركة التقدمية ، قد كرس جهده مع شقيقه ادغار لوضع نقد للبرالية والثورة الفرنسية . المؤلف الذي كتبه آنذاك ، وعنوانه **تاريخ السياسة والثقافة والعقلانية في القرن الثامن عشر (١)** ، كان اضعف ايضا من المؤلف السابق : **حوادث جديرة بالذكر من التاريخ المعاصر ضد الثورة (٢)** ، الذي كان قد كتبه أيضا بالتعاون مع شقيقه ادغار .

هذا الكتاب ، المؤلف من سلسلة أخبار لا رابط بينها ، كان شاهدا على عجز ب. باور عن فهم حقبة تاريخية (٣) .

مع شقيقه ادغار ، كان برونو باور يصدر ايضا **الجريدة العامة الادبية** ، في دار النشر العائدة لشقيقهما اغبرت Egbert في مدينة شارلوتنبورغ (٤) .

في هذه المجلة ، التي كانت تؤلف نوعا ما نسخة معارضة **للحوليات الفرنسية** -

(١) برونوباور : **تاريخ السياسة والثقافة والانوار في القرن ١٨ ( بالالمانية )** ، جزئين ، شارلوتنبورغ ، ١٨٤٣ - ١٨٤٥ .

(٢) برونو وادغار باور : **اخبار عن تاريخ الزمن الحاضر منذ الثورة** ، شارلوتنبورغ ، ١٨٤٣ .

(٣) انظر النقد الصادر في جريدة الى الامام ، رقم ٧٠ ، ٢١ ايلول ١٨٤٤ . « ان المجلد الثاني من تاريخ القرن الثامن عشر لبرونو باور لا يستجيب حتى للحد الأدنى مما كان يمكن توقعه من هذا المؤلف... ولئن كان من الممكن ابان صدور المجلد الاول التردد في اصدار حكم ، فان الشك لم يعد ممكنا الان وقد صدر الجزء الاول من المجلد الثاني . لا يمكن ان نتخيل شيئا اكثر اقتضابا واكثر تفككا من هذا الخليط من قصص مجهولة ، لا يمكن ان نتخيل شيئا يشهد على احتقار اكبر من هذا في طريقة تناول المفكرين البارزين وعلى عدم فهم كهذا لتطور المانيا في القرن الماضي . »

(٤) **الجريدة الادبية العامة** ، مجلة شهرية يصدرها ب. باور عند ا. باور في شارلوتنبورغ . الدفاتر ١ الى ١٢ . ديسمبر ١٨٤٣ الى اكتوبر ١٨٤٤ . وقد صدرت طبعة ثانية لهذه المجلة في شكل كتاب بعنوان : **كفاح النقد ضد التناقضات الراهنة** ، بقلم برونو باور ، ادغار باور ، وآخرين . شارلوتنبورغ ، عند ا. باور ، ١٨٤٧ .

الالمانية ، كان يرونو وادغار باور ومعاونوهما يعرضون مفاهيمهم الفردية والفوضوية . السهولة التي بها خنقت الحكومة البروسية الصحافة المعارضة واللامبالاة التي بها قبل الشعب أو « الجمهور » حذف كل مظاهر الروح ، كانتا بالنسبة لهم الدليل على أن رجال التقدم قد ضلوا الطريق حين تحالفوا مع الجمهور وانه من الضروري سلوك درب جديد (١) .

منطوين على أنفسهم وميَّالين أكثر فأكثر الى الاعتقاد بأنهم يجسدون الروح المطلق ، الوعي الكلي ، كانوا الآن يعتبرون الشعب ، « الجمهور » ، عائقا أمام انبساط الروح (٢) . الواجب الحاضر بالنسبة لرجال التقدم كان ، على حد قولهم ، الانصراف عن الحركات السياسية والاجتماعية ، واللحن الثابت في مقالاتهم كان نقدا لا ينضب معينه لـ « الجمهور » ، الخصم الرئيسي للتقدم ، المسؤول عن فشل كل المشروعات السامية للبشر (٣) .

(١) انظر ب. باور ، صعود وسقوط الراديكالية في عام ١٨٤٢ ، طبعة ثانية ، برلين ١٨٥٠ ، ج ٢ ، ١٧ . « اثناء مفادته المانيا ... استطاع روجه ان يرى ان الحكومات الالمانية قد نالت ، في منعها المؤلفات التي كانت تطلع العالم على افكار الفلسفة الجديدة ، موافقة ممثلي الشعب ومساندة الجمهور الكبير اللامبالي » ، ص ١٧٢ . « اللامبالاة الادبية التي ظهرت في تلك الشهور الحزنة كانت من طبيعة اخرى غير ما يفكر به روجه . كانت هي اللامبالاة تجاه الادب ، اذا عطينا بالادب تعاقب المؤلفات الخلاقة للاستقراطية الفكرية وللفصيلة انصارها وخصوصها ، لا مبالاة كانت تظهر ايضا تجاه هذه الاستقراطية وكانت على طريق التحول الى ثورة ضدها . »

(٢) انظر الجريدة الادبية العامة ، الدفتر الخامس ، نيسان ١٨٤٤ ، ص ١٢ . هيرتسل رسالة من زوريخ : « فقط في خاتمة حملة تطابقت مع نهاية عام ١٨٤٢ ، ثبت موقف الاحزاب نهائيا . عندئذ فقط ظهر « الجمهور » في شكله الخالص . جمهور « استطاع النقد ان يتحرر منه بفضل كفاح عمره الوف السنين ، خالقا بذلك تعارضا قاطعا بينه وبين الجمهور ، تعارضا لم يعرف التاريخ مثيلا له من قبل . »

(٣) انظر الصحيفة الادبية العامة ، الدفتر الثامن ، تموز ١٨٤٤ ، صص ١٨ - ٢٦ : « ما هو الان موضوع النقد ؟ » . انظر المرجع نفسه ، الدفتر الاول ، ديسمبر ١٨٤٣ . ٢ . باور ، مؤلفات اخيرة عن المسألة اليهودية ، ص ٣ . « في الجمهور وليس في مكان اخر يجب البحث عن العدو الحقيقي للروح » ، ص ٢ « ان اسوا شهادة ضد مؤلف من المؤلفات هو حماس الجمهور له » . ص ٢ « كل افعال التاريخ الكبرى كان مآلها الاول الفشل وانعدام الاثر الدائم لان الجمهور اهتم بها وتحمس لها . الروح تعرف الان أين يجب ان تبحث عن خصمها الوحيد ، انه في ثروة واهتمام وخمول الجمهور . » . هذا الاحتقار للجمهور ، للشعب ، يأتي مباشرة من هيفل ، انظر فلسفة الحقوق ، شتوتفارت ١٨٣٨ . الفقرة ٣٠٢ ص ٤١١ . « ان موقع الدول الوسط له كائن رئيسي منع الافراد من ان يتحولوا الى « جمهور » وان ينهضوا في هذا الشكل ، بواسطة فكر واردة غير عضوين ، ضد الدولة » .

هذا النقد لـ « الجمهور » كان يرافقه نقد للراديكالية السياسية والاجتماعية التي كانت تستند اليه .

ان العيب الجوهرى للراديكاليين كان ، على حد قولهم ، نقص الشجاعة ، النقص الذي اظهره خصوصا في الفترة التي كانوا يعتبرونها حاسمة بالنسبة لمصير المانيا الا وهي سنة ١٨٤٢ . لم يكن لهم لا ارادة ولا شجاعة الكفاح ، لذا فقد عولوا في البداية على مشيئة الدولة لتحقيق اهدافهم . بعد استفحال الرجعية ، نقلوا املهم على الشعب ، على « الجمهور » وانضموا الى الشيوعية التي ارادوا منها تحويل المجتمع والدولة بالفاء الانانية ، أي عمليا بحذف الفردية .

في معارضة الراديكالية السياسية والاجتماعية ، في معارضة نقد الدولة والمجتمع ، كانوا يضعون النقد الخالص ، الحر ، المطلق ، الذي كان يرمي مع النضالات المتبدلة من أجل سيادة الشعب والنظام الدستوري جميع العقائد الدينية والسياسية والاجتماعية (١) .

واذ كان يمارس ذاته في ميدان النظرية الخالصة حيث يستطيع أن يحدد كما يشاء مسيرة التاريخ ، فقد كان النقد المطلق يحلق بانفصال سلطاني فوق مصادفات الحياة الواقعية .

هذا النقد المطلق ، الذي كان يقصر نشاطه على ملاحظات ساخرة عن الاحداث والاحزاب ، كان قليل الخطر على الذين يمارسونه لاسيما وانه كان يوجه هجماته بفطنة كبيرة لا ضد الحكومة البروسية بل ضد الليبرالية والشيوعية . كان يصفى الليبرالية بقوله انها تعبير الوعي البرجوازي ، أي تعبير شكل خاص وبالتالي ناقص من الوعي الكلي ، وكان يصفى بنفس الكيفية الشيوعية ، التي كان هجومه عليها

(١) الصحيفة الادبية العامة ، الدفتر السادس ، ايار ١٨٤٤ ، رسالة من الاقاليم ، ص ٣٤ . « ان النقد لا يتخذ حزبا ولا يريد ان يكون حزبا . انه وحيد ... انه ينفصل عن كل شيء . انه يعتبر كل مبدا مشترك ، لازم لتشكيل حزب ، عقيدة ( دوغما ) يكون محرما عليه ، في اطار حزب ، ان ينقدها وان يلقيها » . انظر المرجع نفسه ، الدفتر الثامن ، آب ١٨٤٤ ، ب . باور ، « ١٨٤٢ » ص ٧ : « كما قلنا ، لم يعد للنقد طابع سياسي ، كان قبل قليل يعارض افكارا وافكار ومنظومات بمنظومات وآراء بآراء ، ولقد رمى الان كل فكرة وكل منظومة وكل رأي » . انظر المرجع المذكور ، الدفتر الخامس ، نيسان ١٨٤٤ . محاضرات هينريش السياسية ، مجلسدان ، هاله ، ١٨٤٣ ، ص ٢٣ . « المفاهيم العقيدية عبت نسبة الى قوى الهية ، لان الانظار كانت مغلقة عن العالم الواقعي ... ، لان الناس لم يكونوا يعرفون كل ثروة العلاقات الانسانية ، المحتوى الجبار للتاريخ والمعنى الحقيقي للانسان . المفهوم حل محل الانسان ، جدل المفاهيم تحول الى قتال الهي ، الوحيد الذي عرفه الفلاسفة الذين لانهم لم يفهموا صراع التاريخ لذلك لم يحملوا أي فكرة عن قتال الجمهور ضد الروح ، القتال الذي هو جوهر كل التاريخ الماضي . »

أشد أيضا من هجومه على الليبرالية (١) .

وباعطائهم النقد طابعا مطلقا ، كان « المعتقون » يعينون له كمهمة أن يحلر جوهر الأشياء ذاته بتجاوز كل التظاهرات الخاصة للوعي الكلي الذي حل عندهم محل الفكرة المطلقة لهيغل . بينما كانت هذه الأخيرة ، التي تجمع في ذاتها الواقعي والعقلي ، تحقق جوهرها بالانبساط الجدلي لكيونتها ، كان الوعي الكلي يحقق جوهره بتجاوزه ، على طريقة أنا فيخته ، كل التظاهرات الخاصة لكيونته . وهكذا بتحويله الانبساط الجدلي الذي كان عند هيغل ذا طابع موضوعي الى انبساط ذاتي محدد من قبل فاعلية الوعي الكلي ، كان النقد المطلق يقدم لنفسه بوصفه تجسيد هذا الوعي الكلي (٢) وهم القدرة على تغيير العالم كما يشاء وعلى تحديد سير التاريخ . بما أنه لم يكن له أي قبض على العالم الواقعي ولم يكن يستطيع إذ أن يضع لنفسه أي هدف إيجابي ، فقد كان عليه أن يكتفي بنضال وهمي ضد عالم يعجز عن تحويله .

هذا النقد كان نقطة وصول تطور المعتقين السياسي والفكري . إذ لم يجدوا بعد القمع الذي أصاب الليبرالية في أواخر عام ١٨٤٢ أي دعم في البرجوازية التي كانت ضعيفة بشكل خاص في برلين ، فقد تنكروا لماضيهم ذاته ، ماضي كفاحهم ضد الدولة الرجعية البروسية ، وباتوا يعطون عملهم طابعا رجعيا ، باجتناهم وتبريرهم هذه الدولة وباداتهم النضال الموجه ضدها (٣) .

**الصحيفة العامة الأدبية** لم تجد سوى صدى قليل بين المثقفين ولم تجد أي صدى لدى الجمهور ، الأمر الذي كان من جهة أخرى موضع فخر عند محرريها .

برونو باور ، الذي لم ينجح حتى في اكتساب مساهمة كل المعتقين والذي كان

---

(١) عن نقد الليبرالية ، انظر الصحيفة العامة ، الدفتر الثالث ، شباط ١٨٤٤ ، كارل ريشهاردت . دفاع عن كتابه . البرجوازية البروسية . انظر نفس المرجع ، الدفتر الرابع آذار ١٨٤٤ .  
١. يونفنتيس : المجلة الشهرية من أجل الأدب والحياة العامة لبيردمان Biedermann ، ١٨٤٢ - ١٨٤٣ . في هذه الانتقادات ، لم يرد اسم ماركس أبدا ، مع أنها موجهة الى حد كبير ضد الصحيفة  
الرائية والحوليات الفرنسية - الألمانية .

(٢) بعد فكهم الواقع عن الفكرة بتحويلهم هذه الفكرة الى الوعي الكلي ، بات « المعتقون » يعطون الوعي الكلي طابعا ذاتيا ، بتجسيدهم إياه في أفراد نخبة ، في أرستقراطية فكرية يضمونها ضد الجمهور ، الأمر الذي سيسمح لسترنر Stirner ، الذي يدفع الفردية والذاتوية الى نتائجها الأخيرة ، بتحويل كل شيء الى أنا وفاعليته .

(٣) انظر الصحيفة العامة الأدبية ، الدفتر العاشر ، أيلول ١٨٤٤ ، ص ١٠ - ٢٠ . ب. باور : « كراسات كونيفسبرغ الأدبية » . في هذا المقال ، حيث يجادل ضد ليبرالي كونيفسبرغ ، كان ب. باور يزعم أنه من غير الممكن معارضة الدولة بالشعب ، بما أنه محوي فيها .

عليه ان يكتفي ، فيما عدا شقيقه و ي. فاوخر Y. Faucher (١) ، بمعاونين من الدرجة الثانية مثل ا. بونفنتس ، شزليفا ، ك.ا. ريشهاردت ، ف. بك (٢) ، كان فوق ذلك يرى نهوض مجلتي منافستين ضد مجلته ، مجلتي يصدرهما ل. بول L. Buhl (٣) وهما : **مجلة برلين الشهرية (٤) ، و أوراق المانيا الشمالية** التي كان اتجاهاها مماثلا لاتجاه **الصحيفة العامة الادبية (٥) .**

(١) يوليسوس فاوخر ( ١٨٢٠ - ١٨٧٨ ) . مقالاته في الصحيفة العامة الادبية تتميز عن مقالات الاخرين باستناد الى المراجع امثـن .

(٢) Ernest Yungnitz ( توفي في عام ١٨٤٨ ) كان قد اصدر في ١٨٤٢ كتابا من الدين والكنيسة في فرنسا حتى حل الجمعية التأسيسية . في ١٨٤٤ كتب كتابين : الدين والكنيسة في فرنسا منذ حل الجمعية التأسيسية حتى سقوط رويسبير ، وتاريخ الحياة الدينية في المانيا في القرن الثامن عشر . في ١٨٤٧ ، اصدر مع الاخوة باور تاريخ الثورة الفرنسية حتى تأسيس الجمهورية .  
Szeliga ، اسم مستعار لفرائتس زيشلين فون شيشلنسكي ( ١٨١٦ - ١٩٠٠ ) ضابط بروسي صار جنرال مشاة .

C. E. Reichhardt ، طابع ومجلد ، اصدر في اوائل ١٨٤٤ كراسا عن البرجوازية البروسية كما يراها رجل من الشعب ، عبر فيه عن سخط الحرفيين . وعندما منعت الرقابة هذا الكراس ، استطاع ان يرفع المنع ببيان أكد فيه ولاده وامتح الرقابة .

F. Beck كان شاعر الجماعة مع خسارة باقي الشعر . انظر الصحيفة العامة الادبية ، الدفتر الرابع ، آذار ١٨٤٤ . ف. بك : « أغنية خياط » .

(٣) لودفيغ بول ( مولود في ١٨١٤ ، توفي في اوائل الثمانينات ) شارك مشاركة نشيطة في حركة اليسار الهيفلي ، وانضم الى فردوية ب. باور وشترنر . كان يترجم انذاك تاريخ عشر سنوات ، مؤلف ل. بلان L. Blanc ، الصادر في برلين عامي ١٨٤٤ و ١٨٤٥ .

(٤) مجلة برلين الشهرية منعتها الرقابة . صدرت في شكل كتاب في مناهيم عام ١٨٤٤ وكانت تحوي قسما من المقالات المكرسة لـ لجنة الوطني والتي حذفها الرقابة . من فهرس المواد :

ل. بوهل : رسالة مفتوحة . احكام محكمة الرقابة العليا .

م. شترنر : ملاحظات موقفة عن الدولة القائمة على الحب .

ل. بول : الطابع الحقيقي للدستور القائم على « الدول - الولايات » .

غرافل : مذكرة عن تنظيم الادارة البروسية وغيوبها .

ا. باور : من الماطفية .

ا. مين : آراء عن أهمية الحركة الالمانية واتجاهاتها .

ل. بوهل : مسألة ملكية وحقوق .

م. شميدت ( شترنر ) : كتاب E. Sue « اسرار باريس » .

(٥) أوراق المانيا الشمالية من أجل النقد والادب والترفيه ، صادرة من تموز ١٨٤٤ الى نيسان ١٨٤٥ . من فهرس المواد :

الدفتر الاول ، تموز ١٨٤٤ : مجلات نقدية جديدة ، الحوليات الفرنسية الالمانية لارنولد روجه .

فيغان : رسولان لانجيل البشرية الاخر . موندت : تاريخ المجتمع ، تطوره الحديث ومسائله .

ك. غرون : الثقافة الحققة .

←

هكذا في « الكتاب المفتوح » الذي كان بمثابة مقدمة لمجلة برلين الشهرية ، كان ل. بوهل يعلن عزمه على مكافحة جميع الاحزاب السياسية ، لانها عاجزة عن نقد الوضع القائم نقدا جذريا : « ان النضال الذي نخوضه موجه ضد كل وضع الاشياء الحاضر . كيف يمكن أن نشترك مع الذين يلوكون على الدوام كلمة « تقدم » ولكنهم يكشفون عجزهم عن الانفصال عن وضع الاشياء المذكور . نحن نصد كل الذين يناضلون من أجل الشكل ضد هذا الوضع ، ولكنهم لا يقطعون معه ولا يستطيعون ، نتيجة نقص الشجاعة والمبادئ ، بلوغ الحرية . . . نحن لا نريد استبدال شكل للدولة بآخر ولم نشكل حزبا ، لان هدفنا هو الاقناع فقط . وبما أننا أحرار من كل قيد ، فاننا نستطيع ، بحكم موقفنا النظري المحض ، أن نطالب بحق البحث الحر وأن نأمل ، ببقائنا هكذا خارج الاحزاب ، عدم الوقوع تحت الملاحقات . . . بل ولماذا لا يمكن أن يتحقق هنا حلف شبيه بالحلف الذي قام في فرنسا بين أنصار الملكية الشرعية (١) والجمهوريين ؟ كفاحنا ضد عقلانية وليبرالية « الوسط العادل » الا يجب أن يؤمن لنا عطف الحكومة ؟

اذ نطالب لانفسنا باستقلال مطلق ، لا يمكن أن يخطر في بالنا أن نقرر الآخرين . فمبدؤنا ان يكون كل سيد نفسه وأن يصدر بنفسه شريعته . وليس لنا ان نقرر ما اذا كان تحقق هذا الاشتراط ممكنا أو غير ممكن ، قريبا أو بعيدا . . . يكفيننا أن يكون ضروريا حتى يكون ممكنا الحديث عن الحرية الحقة (٢) » .  
هذه الجملة الجميلة عن النقد المطلق والحرية الحقة ، التي كانت قناع خوف

---

→ « الدفتر الثاني ، آب ١٨٤٤ ، شيليفا : نقد مؤلف « هذا الكتاب ملك للملك . » . موجه : فلهم فايتلنغ ، الجيل الجديد .

- الدفتر الثالث ، ايلول ١٨٤٤ : ١. باور : ايضا رسول . الادب الالمانى في فرنسا .
- الدفتر الرابع ، اكتوبر ١٨٤٤ : ل. فويرباخ ، كوبن « برودون » ، مقال أول .
- الدفتر الخامس ، نوفمبر ١٨٤٤ : كوبن « برودون » ، مقال ثان . تنظيم الشغل .
- الدفتر السادس ، ديسمبر ١٨٤٤ : اجتماع جمعية برلين المحلية لمساعدة الطبقات الكادحة .
- الدفتر التاسع ، آذار ١٨٤٥ : « الوحيد وخاصيته ، لشتترنر » .
- الدفتر العاشر ، نيسان ١٨٤٥ : « مساعدة الطبقات الكادحة » .

(١) او الشرعيين legitimistes : هم، في فرنسا عهد ملكية تموز ( عهد الملك لوي فيليب ١٨٣٠ - ١٨٤٨ ) ، أنصار الفرع الاول الاصلي من اسرة بوربون ، الذي سقط اثر ثورة تموز ١٨٣٠ . لوي فيليب فرع آخر ( فرع اورليان ) من الاسرة وقد استولى على العرش اثر الثورة المذكورة التي قام بها الشعب الجمهوري ) .

(٢) انظر مجلة برلين الشهرية ، ص ٢٢ ، ٣ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ .

البرجوازي الصغير من الدخول في معارك حقيقية (١) ، كانت تساند ، بالواقع ، رغم مظاهرها الزائدة الثورية ، السياسية الرجعية لحكومة بروسيا . ان أحد المساهمين في أوراق المانيا الشمالية ، ف. كوبن F. koeppen ، وهو صديق قديم لماركس ، ذهب الى حد الدفاع عن الرقابة ، فكتب يقول ان حظر كل نقد جذري وفظ يرغم الكاتب على التعبير عن أفكاره في شكل أكثر دقة ونعومة وان النقد من جهة أخرى بما انه يقفه خارج السياسة لذا فهو يستطيع تماما أن يتكيف مع الرقابة (٢) . وعلى أي حال فان ذلك كان يناسبهم لدرجة ان الرقيب استطاع ، بعد صدور العدد الاول من **الصحيفة العامة الادبية** ، أن يعلن أن صحافة كهذه لا تؤلف أي خطر على الحكومة (٣) .

الفوضوية ، التي اليها كان يميل « المعتقون » ، كانت تجد انذاك منظرها عند ماكس شترنر ، الذي كان ييسط في كتابه « **الوحدية وخاصيته** » الصادر في نوفمبر ١٨٤٤ ، النتائج الاخيرة للفردوية (٤) . كان قد عرض مبادئها الاولى في مقالته « ملاحظات موقفة عن الدولة المؤسسة على الحب » الصادر في **مجلة برلين الشهرية** (٥) . في مقدمة هذه المجلة ، كان بوهل قد أكد أننا بدلا من مهاجمة الدولة مباشرة بوصفها خصما للحرية نصل الى نفس النتيجة بتبياننا انه ما من شكل للدولة والدستور

(١) انظر ج. ماير : **مجلة للسياسة** ، ١٩٢٠ ، المزمة الثالثة ، ص ٣٥ . « اذ شعروا انهم مفوضا بعيدا في جو السياسة الخطر ... هؤلاء الثوريون في حذاء وربب المنزل اعلنوا مع الاطناب ان السياسة عمل من النوع الادنى وان المهمة الوحيدة الجديرة بروح حر وبالنقد المطلق هو الالفاء النظري لوضع الاشياء الموجود . »

(٢) انظر أوراق المانيا الشمالية ، الدفتر الثاني ، آب ١٨٤٤ . « رسالة برلين ، ٢٦ تموز » ، ص ٨٨ . « ان النقد يرتفع فوق الاهواء والمواطف ، لا يعرف لا ولما ولا كرها مع او ضد أي شيء . ولذا فهو لا يقف ضد الرقابة ليناضل ضدها » . ص ٨٩ ، « النقد ليس له لا هدف ايجابي ولا هدف عملي ، لذا لا يمكن مطالبته بمكافحة الرقابة من اجل تأمين حرية الصحافة . »

(٣) ملاحظة الرقيب على الدفتر الاول من **الصحيفة العامة الادبية** : « بالنسبة لاتجاه المقالات الثلاثة ، يمكن القول بشكل عام انها جميعا مشبعة بروح محض نافية ، دون ان يكون محتواها بسبب ذلك مستحقا لأي حذف . »

(٤) انظر فون هارتمان : **فينومينولوجيا الوعي الاخلاقي** ، برلين ١٨٧٩ ، ص ٨٠٤ . « نرى هنا كيف ان القيمة المطلقة التي يعطيها شترنر للانا هي النتيجة العملية للواحدية الذاتية لفيخته ، الذي لم يكن يستطيع ، باتخاذ وجه نظر اخلاقية مثالية ، ان يتصور وبالأحرى ان يتبنى النتائج التي تفترضها فلسفته » .

(٥) انظر **مجلة برلين الشهرية** ، ص ٣٤ - ٤٩ . م. شترنر « ملاحظات موقفة على الدولة المؤسسة على الحب » . مقال منقول في : ج. ه. ماركس ، كتابات ماكس شترنر الصغيرة ووده على نقاد كتابه « **الوحدية وخاصيته** » ( ١٨٤٢ - ١٨٤٧ ) ، برلين ، ١٨٩٨ ، ص ٧١ - ٨٠ .

يستجيب لمفهوم الحرية (١) . وانطلاقا من هذا التصور ، يعرض شترنر في مقاله ان الدولة الثورية والدولة المسيحية تضطهدان الحرية سواء بسواء . في الدولة الثورية ، على حد قوله ، المواطن محروم من الحرية ، بحكم خضوعه المطلق للدولة . اما الدولة المسيحية ، المؤسسة على الحب ، فهي أيضا تحذف الحرية ، لان الحب يشترط ان يضع المرء فاعليته لا في خدمة فرديته ، اناه ، بل في خدمة الغير ، الامر الذي يؤول من جانب هذه الدولة الى استعباد للفرد اكبر أيضا (٢) .

من هذا النقد للدولة الثورية والدولة المسيحية ، كان شترنر ينتهي الى ان جميع اشكال الدولة قابلة للادانة بالتساوي لانها جميعها تحمل كعاقبة ضرورية حذف الحرية .

بعد هذا النقد للدولة ، وقف شترنر ، في مقال عن رواية « أسرار باريس » لوجين سو Eugène Sue ، صدر أيضا في مجلة برلين الشهرية ، ضد المسيحية

(١) مجلة برلين الشهرية ، نص اوردته ج. هـ. ماكي ، ص ١١٨ .

« كنا نعلم ان حكما يرتكز على مبدأ السلطة لا يستطيع ان يقبل نقدا من شأنه ان يدمر وضع الاشياء القائم . لذا فقد اتخذنا لنفسنا مهمة تحليل اسس وذرائع هذا الحكم : دولة ، قانون ، حق ، نظام شرعي ، تقدم شرعي ، دين ، قومية ، وطنية الخ . اذا لم تكن نستطيع مهاجمة الدولة نفسها وتبيان انها اداة اضطهاد ، فقد كنا نصل الى نفس النتيجة ، بمرضا ان جميع اشكال الدولة وان جميع الدساتير الموجودة لا تستجيب لمفهوم الحرية الحقيقي » .

(٢) انظر م. شترنر : ملاحظات وقتية على الدولة المؤسسة على الحب ، مجلة برلين الشهرية ، صص ٤٥ - ٤٧ .

« لنقارن الحب مع الاستقلال الذاتي او الحرية . في الحب ، يحدد الانسان نفسه ، وكيف نفسه ، ولكنه يفعل ذلك لا حبا بذاته بل حبا بالغير . هذا التقرير الذاتي يتوقف على الغير ، انه ايضا تقرير من قبل الغير . بالمقابل ، ان الانسان الحر لا يتحدد لا من اجل ولا من قبل الغير بل فقط من اجل ومن قبل ذاته . لا يعتبر الا ذاته ويوجد فيها الدافع الضروري الى تقرير ذاتي يتيح له ان يفعل بشكل عقلي وحر في آن . ان يكون المرء محبدا من قبل الغير او من قبل نفسه ، ان يستلهم الحب او العقل ، هما شيان مختلفان تماما . الحب يرتكز على مبدأ ان كل ما نفعله هو حبا بالقرينة والعمل يرتكز على مبدأ ان الانسان لا يفعل الا من اجل ذاته . في الحالة الاولى ، ان اعتبار الغير هو الذي يجعلني افعّل ، في الثانية انا لنفسي دافع افعالي . من يحدده الحب يفعل حبا بالله ، باخوته ، الخ ، ليس له ارادة خاصة ، من يحدده العقل لا يريد ان يحقق اية ارادة سوى ارادته ، لا يحترم الا من له ارادة خاصة وليس من يطيع ارادة الغير . اجل الحب محق ضد الانانية ، اذ ان تبني ارادة الغير وتحقيقها انبل من اطاعة رغبة يولدها موضوع ما ايا كان ، وانبل ان ندع انفسنا نتحدد من قبل الغير من ان لا يكون لنا اي تحديد خاص . ولكن الحب ليس محقا ضد الحرية ، اذ لا يوجد تقرير ذاتي بدون حرية . ان الحب هو الشكل الاسمي والاجمل لاضطهاد الانسان من قبل نفسه ، الطريقة الاكثر مجدا للتضحية بالذات وتدمير الذات ، الانتصار المذهب على الانانية ، ولكن الحب بتدميره الارادة الشخصية التي ليست سوى حس ورغبة الذات لا يتيح للارادة المحض ، التي هي وحدها تمنح الانسان كرامته كإنسان حر ، ان تنمو وتتطور » .

الاجتماعية ، التي كانت رائجة آنذاك ، قائلا ان الاثر الوحيد لهذه المسيحية الاجتماعية هو جر المظلوم الى الخضوع لمصره . بيد انه لم يكن قادرا على اعطاء حل ايجابي للمسألة السياسية والمسألة الاجتماعية سواء بسواء ، مكتفيا بتأكيد ان الدولة والمجتمع البرجوازي منخوران مفنغان لدرجة انهما سينحلان تلقائيا (١) .

بعد فضح الدولة والمجتمع بوصفهما قوى عليا ، مثل الدين ، تسود وتضطهد الانسان الذي خلقها ، يعرض شترنر في كتابه **الوحيد وخاصيته** ان الانا ، مع ارادته وفاعليته اللامحدودتين ، المطلقتين ، يؤلف الواقع الانساني الوحيد الحق (٢) . واذ لا يمنح قيمة الا للانا ، فقد كان يمجّد الانانية بوصفها المبدأ الاساسي للفاعلية الانسانية ويرمي كل ما يعارضها مدعيا فرض واجبات عليها باسم مبدأ أعلى . هذا المحطم الحديد للايقونات كان يقلب كل الاصنام : الله ، روح العالم لهيغل ، الدولة ، المجتمع ، وأيضا الجوهر الانساني لغويرباخ والوعي الكلي لبرونو باور . فقد كان يرى فيها تجسيدات جديدة للفكرة المطلقة لهيغل . حملاته الاكثر حدة كانت موجهة ضد الليبرالية وضد الشيوعية ، اللتين كان يلومهما على كونهما تضحيان بالفرد على مذهب مجردات كالدولة او المجتمع .

ان نقد شترنر ، شأنه شأن نقد ب. باور ، لم يكن يحمل سوى الازدراء للواقع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي . باحلاله محل العالم الواقعي عالما وهميا ، كان يجعل التاريخ مشهد أشباح .

هذا النقد ، المفصول عن كل واقع ، الذي يخلق في المطلق بشعور من التهكم والشفقة ازاء الاعراض والمصادفات ، كان بالضبط نفي كل الجهود التي بذلها « الهيجليون - الشبان » للمشاركة في الحركة التقدمية . ولم يكن بوسع ماركس وانجلز ان يقبلا بهذا التسليم والتنازل وسيفضحان بلا رحمة ، في **العائلة المقدسة** اولاً ثم في **الايدولوجيا الالمانية** ، هذا **النقد الناقد** الذي لم يكن رغم مظهره الشامخ المتكبر المتصلب سوى عجز وعقم .

## ماركس وروجه

باعتناقه الشيوعية ، كان ماركس سيقطع ليس فقط مع « المعتقين » بل ايضا مع روجه والديمقراطيين من طرازه للذين لا يبخلون بالتنازلات الكلامية لصالح الطبقة العاملة طالما باستطاعتهم ان يخلطوا الشيوعية مع مذهب انساني غامض ولكنهم يقفون

(١) انظر ج. هـ. مكي ، ص ١٠١ . عن هذا النقد لرواية « اسرار باريس » من قبل شترنر ، انظر نقد ماركس لهذا الكتاب في **العائلة المقدسة** ، انظر الفصل الثالث من هذا المجلد .

(٢) م. شترنر : **الوحيد وخاصيته** ، طبع فيفان ، لايبستيف ، ١٨٤٤ .

ضدها بحزم فور ادراكهم طبيعتها الحقيقية .

الخلاف بخصوص هرفغ Herwegh ، الذي كان قد فصل ماركس عن روجه ابان زوال **الحوليات الفرنسية الالمانية** ، لم يكن سوى مناسبة عرضية لقطيعتهما ، اما سببها الحقيقي فقد كان تباعد المفاهيم الذي بات الآن كاملا ، والذي كان اعتناقهما المشترك للانسانية قد حجب بعض الوقت (١) .

كان روجه ، بتأويله الانسية كتعبير عن مبدأ الحرية ، يضمها في آن مقابل الشيوعية التي يفهمها كتجل للانانية على الصعيد الاجتماعي ، ولده حسد وجشع غير المالكين ومقابل الوطنية التي يرى فيها تجليا للانانية على الصعيد القومي (٢) .

اذ يقرن الانسية بالكوسموبوليتية (٣) ، كان يفكر انها ستحقق بالتربية والتعليم ، اللذين كان يرى فيهما الوسيلة الوحيدة لتأمين تحرر البشر الحقيقي ، التحرر الذي لا يصيب ، على حد تفكيره ، المجتمع البرجوازي والملكية الخاصة بأي أذى (٤) .

واذ ينكر على العمال والحرفيين القدرة على ان يتحرروا بقواهم الذاتية ، فقد كان يلومهم على نقص ثقافتهم وعلى انانيتهم التي تحملهم على المطالبة بمساواة تؤدي الى تسوية عامة للمجتمع من الاسفل (٥) .

بعد قطيعته مع ماركس ، تحول نفوره من الشيوعية الى حقد حقيقي . في

---

(١) انظر مقالة انجاز عن ماركس في قاموس العلوم السياسية ، بينا ، ١٨٨٩ - ١٨٩٤ ، د ، ص ١١٢ - ١١٤ : « ان فشل الحوليات الفرنسية الالمانية كان ناجما عن الصعوبات البالغة لنشرها في ألمانيا وايضا عن الخلافات البدئية العميقة التي ظهرت بين رئيسي التحرير . فقد ظل روجه نصيرا للفلسفة الهيفلية والراديكالية السياسية ، بينما ولج ماركس دراسة الاقتصاد السياسي والاشتراكيين الفرنسيين وتاريخ فرنسا . »

(٢) انظر ٢. روجه ، مراسلات ، ج ١ ، ص ٣٥٦ . رسالة الى شتار . باريس ٢٨ ايار ١٨٤٤ : « هل الحقيقة والحرية لهما وطن ، والارض ياسرها ليست الاطار الوحيد الجدير بالروح الذي يتحرر بتحويلها ؟ الوطن رمز انقسام الشعوب ، الحرية رمز اتصالها . »

انظر ايضا ص ٣٦١ ، رسالة الى فلايشر ، ٩ تموز ١٨٤٤ . « السبب السياسي لتنمية كل وطنية هو الحرية ... بدون تنمية الوطنية لا يمكن كسب ألمانيا الى الحرية . »

انظر روجه ، المؤلفات الكاملة ، طبعة ثانية ، مانهايم ، ١٨٤٧ ، ج ٦ ، ص ٢٧٣ وبمعها ، الوطنية . (٣) انظر روجه ، رسائل مجادلة ، مانهايم ، ١٨٤٧ ، ص ٣٧١ - ٣٧٤ - ٣٧٩ .

(٤) انظر روجه ، المراسلات ، ج ١ ، ص ٣٤٦ . رسالة الى فويرباخ ، باريس ١٥ ايار ١٨٤٤ : « ولكن المسألة الاساسية تبقى دائما ذاتها : كيف نعلم التربية ، كيف نحقق تحرر كل فرد ؟ هذه ، في رأبي ، مسألة التاريخ الابدية ، وانه لامر عظيم ان يسمى الآن الى حلها مباشرة . »

(٥) المرجع السابق ، ص ٣٥٩ . رسالة الى فلايشر ، باريس ، ٩ تموز ١٨٤٤ : « ان الحرفيين الالمان اللذين لا يريدون حذف الملكية الاطالاهم لا يملكون شيئا لاجزون عن تحويل وضع الاشياء القائم عجز اعضاء البرشنشافت Burschenschaft من قبل . »

( البرشنشافت : حركة الطلاب الالمان في سنوات ١٨١٨ ، ١٨٢٣ الخ ) .

رسائله بات يعرب بمزيد من الحدة عن غضبه وسخطه على أنصار الشيوعية ولا سيما على الشيوعيين الألمان (١) . أنهم ، على حد قوله ، رجال محدودون وجشعون ، شديدو التعلق بالمال ، ينتظرون الثراء من الشيوعية ، وعندهم يتحالف التصوف الديني مع أحط الميول (٢) . ولقد كان نقده حقودا بشكل خاص ازاء ماركس ، حيث كان يدع نفسه يسير في طريق أتبع الشتائم ، مع اعترافه له ببعض الموهبة (٣) . وقد دفعه هذا الحقد الى ان يمنع فروبل Frobel ، بوصفه شريكا ممولا في « الكونتوار الادبي » ، من نشر مؤلفات لماركس ، املا في دفع هذا الاخير نحو البؤس (٤) .

## ماركس وهرفنغ

بدون ان تصل الى حد القطيعة كما مع روجه ، تراخت علاقات ماركس مع

(١) المرجع نفسه ، ص ٣٧٢ ، رسالة الى والدته ، باريس ١٢ نوفمبر ١٨٤٤ : « ان الاتجاه المقرف، الاناني ، الشخصي ، الذي اتخذه هنا الشيوعيون ، كما اتخذه في برلين « المعتقون » ، يوقظ في نفسي كرها شديدا لهذه الحالة . » . ص ٣٤٢ ، رسالة الى والدته ، باريس ، ٢٨ آذار ١٨٤٤ : « الأشد سوءا هم الشيوعيون الألمان الذين يزعمون تحرير كل الناس بتحويلهم الى حرفيين والذين يريدون استبدال الملكية الخاصة باشتراكية الاموال وبتوزيع عادل للثروات ، ولكنهم ، في انتظار ذلك ، هم شخصا متعلقون جدا بالملكية الخاصة ولاسيما بالمال . »

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٥٨ ، رسالة الى فلاشر ، باريس ٩ تموز ١٨٤٤ . كذلك ص ٤٠٤ ، رسالة الى د. بروتس ، ١٤/١/١٨٤٦ .

(٣) الرسائل ، ج ١ ، ص ٣٦٧ . رسالة الى امه ، باريس ٦ اكتوبر ١٨٤٤ : « ماركس شخص مبتذل تماما ويهودي وقح » .

انظر ايضا ص ٣٨١ . رسالة الى فلاشر ، ١٨٤٤/١٢/٦ : « ماركس يعلن نفسه شيوعيا في حين انه بالواقع ليس سوى اناني متعصب . انه قادر على ان يلج ، كانه بابوف Babeuf جديد ، مع صرير وهزه ، جميع الذين يعترضون طريقه » .

انظر صحيفة اللاوحة اليومية ، رقم ١٦٨ ، ١٩٢١/٧/٢٢ . رسالة من روجه الى ماكس دنكر Max Dunker باريس ١٨٤٤/٨/٢٩ : « ماركس يثر اشمزازا الفرنسيين بكلبيته ووقاحته . انه يعتقد ان كل الحضارة الفرنسية يجب ان تهلك ، وبما ان البشرية الجديدة لا يمكن ان تكون في البداية الا غير انسانية وحيوانية ، فقد تبنى بذاته هذه الصفات . العمال الفرنسيون اكثر انسانية بما لا يقاس من هذا الانساني المظوع الانسانية . اذا لم يهلك نفسه بحياته الفوضوية وغروره وافراطه في العمل واذا لم يضيع ، برغبته في تأكيد اصلاته كشيوعي ، كل حس للاشكال البسيطة والنبيلة ، يمكن ان نامل شيئا ما من علمه الواسع بل ومن دياكتيكته القليل التدقيق في الامور » .

(٤) انظر روجه ، الرسائل ، ج ١ ، ص ٣٧٩ . رسالة الى فروبل ، باريس نوفمبر ١٨٤٤ : « طالما ساكون الشريك الممول للكونتوار الادبي سيكون عليك ان لا تنشر كتبنا لماركس ، اذا تقدم اليك بطلب ذلك . انت تعرف ولا ريب علاقتي مع هذا الشخص » .

الشاعر هرفغ Herwegh ايضا . كان ماركس قد تعرف عليه في مدينة كولن ، ابان رحلة هذا الاخير في المانيا في اواخر ١٨٤٢ . عقب طرده من سويسرة في اوائل ١٨٤٣ ، ذهب هرفغ ، بعد زواجه من اما سيفموند ، وهي ابنة تاجر برليني غني ، في رحلة زفاف في جنوبي فرنسا ، ثم ، بعد فترة قصيرة قضاها في اوستاند ( ساحل بلجيكا ) حيث تعرف على فر . انجلز ، ذهب الى باريس حيث اقام حتى آب ١٨٤٤ (١) . ولقد كان هرفغ يقدر كثيرا ماركس وقد ساعده آنذاك (٢) ، ولكنه كان ، مثل روجه ولو بدرجة اقل ، ينفر من القسوة الشديدة التي كان ماركس يخوض بها الكفاح الثوري (٣) .

مثل روجه وفروبل ، كان قد قبل الشيوعية طالما كان يمكن ان تخطط مع انسية غامضة ، ولكنه رماها ، مثل روجه وفروبل ، منذ ان ظهرت له في شكل مذهب ثوري للبروليتاريا (٤) . الامر الغالب عنده ، كما عند الديمقراطيين البرجوازيين من طراز روجه وفروبل ، كان ليبرالية ملونة بفردية ذات منحى فوضوي ، لم يكن يريد ان يحدها باكثر من عاطفة تضامن انساني غامضة (٥) .

(١) انظر تقرير الشرطة عن اقامة هرفغ في باريس . ارشيف الدولة السري ، وثائق وزارة الداخلية ، عن جمعيات الحرفيين الثورية ( ١٨٤١ - ١٨٤٣ ) . « في هذه اللحظة ، هرفغ ، شاعر « قصائد رجل حي » ، هو هنا ، يعاشر كثيرا فندي Veneday احد مؤسسي « رابطة الكفنيين » ، وعلى ما يبدو سيمكث هنا بعض الوقت » .

(٢) انظر ف. فلوري : « الشاعر هرفغ ( ١٨١٧ - ١٨٧٥ ) » ، باريس ، ص ١٢٦ . (٣) انظر مراسلات ج. هرفغ ، نشر مارسيل هرفغ ، طبعة ثانية ، مونيخ ١٨٩٨ ، ص ٣٢٨ . « كارل ماركس كان ذا هيئة معبرة وعينين داكنتين غير كبيرتين ولكنهما متوقدتان ذكاء ... شعره الاسود الغزير يظل جبهته . باستطاعته ان يجسد تماما آخر السكولاستيين . ولقد كان هذا الشغل الذي لا يتعب والبالغ العلم يعرف العالم في النظرية اكثر منه بالممارسة . كان واعيا تماما قيمته ... والسخرية التي كان يسلفها على خصومه كان لها برودة وحدة فاس جلد » .

(٤) انظر ف. فلوري ، المرجع المذكور ، ص ٣٤١ . رسالة من فويرباخ الى كريغ ، ١٨٤٥ : « اشعر عنده ( عند هرفغ ) نفسا قريبة . انه في الصميم حر ، جدي ومرح . شيوعي مثالي في الجوهر وليس في الشكل . لا شيء عنده من الشيوعي المحترف ، الارثوذكسي ، المذهبي ، المتصلب . كل شيء نبيل ، لا شيء مبتذل في شيوعيته اذ لسوء الحظ ! ان فوارق الطبيعة الانسانية تتظاهر هنا كما في أي مجال » . انظر فلوري ، مؤلفات ج. هرفغ الصادرة بعد وفاته ، سانت - اتيان ، ص ٨٦ . دفتر ملاحظات لـ ١٨٤٢ - ١٨٤٣ : « اني اكبر الملوك والرعا . في الاثنين ، الانسان ملغى بشكلين » ، ص ٨٧ : « اني اكبر المطلق ، شيوعية او ملكية ، مرتدبا كاسكيتا او قبعة » .

(٥) انظر فلوري ، مؤلفات .... ، دفتر ملاحظات لعام ١٨٤٤ ، ص ٨٧ - ٨٨ : « كنت اريد ان اكون حرا وحدي ، ولكن هذا مستحيل . الحرية لا توجد الا في التضامن . ان يكون الانسان حرا معناه حتى هنا ان يعبر ... تضامن في الحرية . لا استطيع ان اكون حرا بدونكم ، ولكن ليس لكم الحق ، اذا كان يرضيكم ان تصيروا كلابا ، ان تجعلوا مني كلبا . لذلك اريد تدميركم ، وهذا حق الفردية .... الحرية غير موجودة في أي حزب . لذا علي لكي اجدها ان ارتفع فوق حزبي . اريد ان احمي مستقبلي وان لا ادفن نفسي في حزب » .

بعد دفاعه عنه ضد حكم روجه القاسي ، بات ماركس يلاحظ ان روجه لم يكن مخطئا تماما في تقديره ، اذ كان هرفغ ينجر ويستسلم لحياة « المجتمع » الباريسي ويتحول عن النضال السياسي (١) .

في الوقت الذي كان فيه يفقد قوته الثورية ، كانت عبقريته الشعرية تنحدر ولن يسترجع النبرات الفنائية التي كانت قد جعلت منه منشد الشبيبة التقدمية الالمانية (٢) .

وكان ماركس في تلك الآونة يبتعد أيضا عن كارل هاينتسن Heinzen ، وهو مساهم سابق في **الصحيفة الراينية** أصبح مثل روجه وهرفغ خصما للشيوعية (٣) .

### ماركس و هـ. هاينه

بالمقابل ان علاقات ماركس مع هـ. هاينه H. Heine ازدادت وثوقا وصداقة . بخلاف هرفغ الذي كانت عبقريته الشعرية في أفول ، كان هاينه يؤلف آنذاك أجمل قصائده الهجائية في باريس ، حيث كان قد اغترب بعد ثورة ١٨٣٠

(١) انظر روجه ، مراسلات ، ج ١ ، ص ٣٦٢ . رسالة الى شتار ، باريس ١٨٤٤/٧/١١ : « هرفغ الذي يدرك الان ان شاعريته قد عجزت عن توليد الحماس للحرية في المانيا ، يدع نفسه للامبالاة الاشد كابة . يسهر ويعربد كسيد كبير ويلاحق سيدات عجائز . ليس ربوسعه ان يغلسق شيئا بعد الان . الاضطرابات الشيوعية في سيليزيا كان من المفروض ان تلهمه ، ولكنه هنا ترك هاينه Heine يسبقه » . انظر المرجع نفسه ص ٥١ . رسالة من روجه الى السى فلايش ١٨٤٤/٥/٢٠ : « هرفغ ليس فيلسوفا . انه يدور مثل الهواء . انه ضجر الى ما لا نهاية وفاقد تماما قوة الإرادة » .

(٢) انظر ف. مهرنغ F. Mehring : مساهمة في تاريخ الادب الالمانى ، برلين ١٩٤٨ ، ص ١٣٥ . في ١٨٤٧ ، كتب هاينه بصدد هرفغ : « كان له بعض الموهبة الشعرية وقد استطاع ان يثمرها جيذا . وهو الان فقير وفارغ مثل مبلر في نهاية شوطه . سيكون عليه بعد الان ان يسكت وان يعيش من مجده الماضي . »

لم يكن هذا صحيحا ، اذ ان هرفغ ، رغم كونه لن يعود الشاعر الثوري الذي كان ، سوف يشترك اشتراكا نشيطا في ثورة ١٨٤٨ وفي تشكيل الحركة الاشتراكية في المانيا في الستينات .

(٣) كارل هاينتسن ( ١٨٠٩ - ١٨٨٠ ) ، مستخدم بين ١٨٤٠ و ١٨٤٣ في شركة سكك حديد الراين في مدينة كولن ، اصبح في ١٨٤٢ مساهما نشيطا في **الصحيفة الراينية** وفي صحيفة لايبتيغ العامة . من شباط الى آب ١٨٤٤ كان مستخدما في شركة تأمين ضد الحريق وقد نشر كتابا بعنوان البروقراطية البروسية ، انتقدها فيه بمنف . صودر الكتاب ولحق صاحبه . هربا من السجن ذهب الى باجيك حيث أصدر كتابا جديدا بعنوان امر استبدادي ، طبع سكاربك ١٨٤٤ ، شجب فيه معا ادارة وعدالة بروسيا . بعد ان عقد في البداية علاقات ودية مع ماركس ، صار واحدا من الد أعدائه . انظر ميغا ١ ، ج ١ ، ص ٣٢١ - ٣٢٢ . رسالة من هاينتسن الى ك. ماركس ، مدينة آخن Aix - la - Chapelle ١٦ شباط ١٨٤٤ . في هذه الرسالة ، عرض وديا على ماركس مساهمته في **الحوليات الفرنسية** - الالمانية .

تفاديا لضربات الرجعية (١) . تحت تأثير الحركة السان - سيمونية (٢) ، كان على الفور قد اهتم بالمسألة الاجتماعية التي كانت تبدو له اولية أكثر من اهتمامه بالمسائل السياسية (٣) .

بعكس بورن Boerne الذي كان يفكر ان الشعب سيتجحر بسقوط الملوك واقامة الجمهورية ، كان هاينه يعتبر ان تحرر الشعب مسألة ذات طبيعة اقتصادية واجتماعية بشكل جوهري ولا يمكن ان تجد حلها الا بتحويل عميق للمجتمع (٤) . بعد ان شاطر في البداية مفاهيم السان سيمونيين الذين كانوا يرون في تطور

(١) رسائل هاينه ، نشر ف. هيرث ، مونيخ وبرلين ، ١٩١٧ ، ج ٢ ، ص ٣٩ . رسالة من هاينه الى هارنهاغن فون انسه ، ١٦ - ٧ - ١٨٢٣ : « كان لي ان اختار بين الفاء السلاح والقتال مدى حياتي . لقد اخترت الطريق الثاني ولم افعل ذلك بقلب خفيف . لئن حملت السلاح ، فلأنني اجبرت على ذلك من قبل احتقار الذين تعميمهم روح الطبقة - الطائفة . كل اتجاه حياتي كان مقروا من قبل مهدي » .

(٢) كان هاينه قبل ذهابه الى باريس قد اعتنق السان سيمونية التي كان يقرأ لسان حالها le Globe (الكوكب) . ( انظر الرسائل ، ج ١ ، ص ٥٤ . رسالة الى موزس موزر ، بوستدام ٢٢ نيسان ١٨٢٩ ) . عاشر في باريس محرري هذه الجريدة وظل حتى نهاية حياته على صلات مع زعيمى الحركة ، ميشيل شفاليه Chevalier وبروسبر انفانتين Enfantin ، والى هذا الاخير اهدى كتابه من المانيا .

(٣) انظر ه. هاينه ، الاعمال الكاملة ، طبع ا. الستر ، لايبتيغ وفيينا ، ١٨٩٠ ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ . رحلة من مونيخ الى جنوه ( ١٨٣٠ ) : « ما هي المهمة الكبرى لعصرنا ... انها تحرير العالم كافة ، ولاسيما أوروبا ، التي اذ بلغت سن الرشد تتحرر الان من وصاية الامتيازات ، من الارستقراطية . بعض الفلاسفة ينتكرون للحرية ويحاولون ان يصنعوا الحجج الاكثر دقة ليبيّنوا لنا ان الوف البشر لم يخلقوا الا كي يكونوا دابات لبضعة الوف من الفرسان المتنازين ، لن ينجحوا في اقناعنا ظالما لن ينجحوا كما يقول فولتير في برهان ان البعض ولدوا مع السرج على ظهورهم والاخرين مع الهماز في قدمهم ... كانت الثورة اشارة تحرر الانسانية ... نحن ايضا نريد ان نعيش ونموت في دين الحرية هذا . »

(٤) انظر الرسائل ، برلين ١٩٠٦ ، ج ٢ ، ص ٣٦ . رسالة هاينه الى ه. لاويه ، ١٠ تموز ١٨٢٣ . « هذه المسائل ( المسائل الجوهرية للثورة ) لا تتصل لا باشكال الحكومة ولا بالاشخاص ولا باقامة الجمهورية او بالحد من سلطات الملكية ، بل تخص الرفاه المادي للشعب . الدين الروحاني كان شافيا وضروريا ، ظالما كانت غالبية البشر الساحقة تعيش في البؤس ولم يكن لها من عزاء سوى الدين السماوي . ولكن منذ ان اتاح تقدم الصناعة والاقتصاد انتزاع البشر من البؤس ، منذ هذا الحين ... نفهموني . والناس سيفهمونا ، حين سنقول لهم انه من الان سيأكلون لحم البقر بدلا من البطاطا وسيمملون اقل ويرقصون اكثر . صدقوني ، البشر ليسوا حمرى . »

انظر المرجع نفسه ، ص ٦١ . رسالة من هاينه الى ه. لاويه ، مدينة بولوني - على - البحر ، ٢٣ - ١١ - ١٨٢٥ : « يجب اقامة تمييز واضح دقيق بين المسائل السياسية والمسائل الاجتماعية . في المسائل السياسية ، يمكن اجراء كل التنازلات التي نريد ، اذ ان الاشكال السياسية للدولة والحكومة ليست الا وسائل ، ملكية او جمهورية ، دستور ديمقراطي او ارستقراطي ، هي امور في ذاتها لا مبالية ، ما دام الكفاح من اجل المبادئ الحيوية ، من اجل مبدأ الحياة ذاته لم يحسم . »

الصناعة الوسيلة الوحيدة لتأمين رفاه الشعب ويعتبرون العمال والصناعيين جماعة متجانسة توحيدها مصالح واحدة ويهملون الصراعات الطبقة المتولدة من النظام الرأسمالي ، كان قد وصل بسرعة الى فكرة دور صراعات الطبقات المقرر في تطور التاريخ وكان يرى في الاشتراكيين أولا ثم في الشيوعيين ابطال الازمنة الحديثة المكلفين بتحرير البشرية (١) .

كان ذلك احدى الموضوعات الرئيسية في المقالات التي كان يرسلها الى **الصحيفة العامة** في أوغسبورغ ، والتي كان فيها يؤكد الدور التاريخي الذي ستلعبه الطبقة العاملة قريبا (٢) .

رغم اقتناعه بحتمية ثورة اجتماعية وبالنصر النهائي للشيوعية ، لم يكن هائنه قادرا على حماية نفسه من بعض النفور ازاءها . هذا الشعور كان مرده الى مزاجه الارستقراطي (٣) وإلى الخوف الذي تولده فيه سيطرة الشعب التي تعني بالنسبة

(١) انظر هـ. هائنه ، الأعمال الكاملة ، لوتيس ، باريس ١٨٥٥ ، صص ٣٧٦ - ٣٧٧ . « نعم ، بيار لورو Pierre Leroux فقير ، كما كان سان سيمون وفوريه ، والفقر السماوي لهؤلاء الاشتراكيين الكبار قد اغنى العالم بكنز من افكار فتحت لنا آفاقا جديدة من التمتع والسعادة » .

(٢) نفس المرجع ، لوتيس ، المقدمة ، صص ١١ و ١٢ . « لئن كان الجمهوريون يقدمون لمراسل صحيفة أوغسبورغ موضوعا شائكا جدا ، فقد كان الامر كذلك بدرجة اعلى بكثير فيما يتصل بالاشتراكيين و ، لندع القول باسمه الحقيقي ، فيما يتصل بالشيوعيين . ومع ذلك فقد نجحت في طرق هذا الموضوع في صحيفة أوغسبورغ . ولقد حذفت رسائل عديدة من قبل الصحيفة التي كانت تذكر الحكمة القديمة : « لا يجب رسم الشيطان على الحائط » . ولكن لم يكن بوسعها ان تخفق كل رسائلي ، و ، كما قلت ، وجدت وسيلة مكنتني من ان اعالج في اعمدها الحذرة موضوعا كانت اهميته الرعبة مجهولة تماما في ذلك العهد : رسمت الشيطان على حائط جريدتي و ... جعلت له دعاية جيدة . الشيوعيون المنتشرون بشكل منفرد في كل الاقطار والحرومون من وعي واضح لاتجاهاتهم المشتركة ، تعلموا بواسطة صحيفة أوغسبورغ انهم موجودون فعلا وعرفوا ايضا بهذه المناسبة اسمهم الحقيقي ، الذي كان مجهولا تماما من قبل اكثر من واحد من اولاد المجتمع القديم اللقطاء الساكنين . بفضل صحيفة أوغسبورغ ، نالت كومونات الشيوعيين المنتشرة اخبارا صحيحة عن تقدم قضيتهم الدائم ، وتعلموا بدهشة كبيرة انهم ليسوا باي حال جماعة صغيرة ضميعة ، بل هم اقوى الاحزاب جميعا ، ان يومهم اجل لم يات بعد ولكن انتظارا هائنا ليس بضياع وقت بالنسبة لرجال يملكون المستقبل » .

(٣) انظر احاديث مع هائنه ، نشر هوبن ، بوتسدام ١٩٤٨ ، ص ٤٦٥ . ذكريات ألكس فايل Alex weill . « كنت - يقول هائنه - جمهوريا صادقا . ولكن حين رايت زيد حزبي ، من حدائين ورجال يصلحون في اقصى احتمال لاصلاح اواني التبول ، يمشون فوق قدمي باحذيتهم الموحلة ، يخاطبونني بلا كلفة ، يدعونني خائنا ويهوديا ، يحكمون علي بلا استئذان مع انتظار لحظة جري الى القفلة ، اذا ما آل الحكم يوما الى هؤلاء المعتوهين ، حين رايت معشر الضنادع هذه تقفز من وراء سياجاتها ومستنقعاتها لتكون صدى لذكورها وليلعن الجميع ان نقيتهم الجمهوري ائمن من غنائسي البلبلي وسيميش اكثر ، تحولت عنهم مستظلمة واقتربت من الملكية الدستورية التي تكفيني تماما » .

له نهاية اعز شيء عنده ، نهاية الجمال والفن (١) . هذا يفسر كونه ، في بداية اقامته في باريس ، جانب في كثير أو قليل الحركة السياسية والاجتماعية وانضم ظاهرا الى ملكية لوي - فيليب الدستورية التي لن تلبث بالحقيقة ان تبدو له شكلا من احط اشكال السيطرة الطبقية (٢) . رغم نفوره ازاء الديمقراطيين والشيوعيين فقد كان يسهم اسهاما كبيرا بمقالاته في تطور الفكر والحركة الثوريين . بعدما بين في كتابه عن فرنسا ( ١٨٣٢ ) ان عهدا من الثورات الاجتماعية سيعقب الان عهد الثورات السياسية ، كان يلح وكان اول من ألح ، في مؤلفه **مساهمة في تاريخ الدين والفلسفة في ألمانيا** ، على المفزى السياسي العميق للفلسفة المثالية الالمانية ، التي كان يرى فيها الانعكاس الايدولوجي للحركة الثورية الفرنسية (٣) . كان ايضا يلفت الانتباه الى الشارتيه ، التي كان يعتبرها حركة اجتماعية ابعد مدى من الثورة الفرنسية . بعد منع كتبه في بروسيا عام ١٨٤١ ، اشترك هاينه اشتراكا مباشرا اكثر ونشيطا اكثر في النضالات السياسية والاجتماعية . هذا الاجراء حفز حماسه الكفاحية فكتب بعد قليل الى ناشره كامبه في هامبورغ انه بات مصمما على خوض

(١) انظر ه. هاينه ، مقدمة لوتيس ، مرجع مذكور ، ص ١٢ . « هذا الاعتراف بان المستقبل ملك للشيوعيين ، فعلته بتخوف وقلق شديدين ... اذ انني لا افكر ، الا بكرة ورعب ، بالعهد الذي سيستولي فيه محطمو الصور القاتمون هؤلاء على السلطة ، بايديهم الخشنه سيحطمون بلا رحمة كل تماثيل الجمال العزيزة على قلبي ، سيكسرون كل هذه الدمى والزخارف ، منتوجات الفن الغريبة ، التي كان الشاعر يحبها جدا ، سيدمرون خمائلهم من اشجار الفار ويزرعون محلها البطاطا ... واحسرتاه ! ان مؤلفي « كتاب الأغاني » سيستخدمه السمان فيصنع منه اكياسا يسكب فيها البن وتبغ الفصح لعجائز المستقبل . واحسرتاه ، ارى كل ذلك ويتناهي حزن لا يوصف حين افكر في الخراب الذي به تهدد البروليتاريا المنتصرة ابياتي التي ستهلك مع كل العالم القديم الرومانسي . ومع ذلك ، فاني بصديق اعترف بان هذه الشيوعية نفسها المعادية بهذه الدرجة لكل مصالح وميولي تمارس على نفسي سحرا لا استطيع مقاومته » .

(٢) انظر ف. مهنغ : مساهمة في تاريخ الادب ، برلين ، ١٩٤٨ ، ص ١٧٢ . « بما انه (هاينه) كان يكره من اعماق نفسه الملكية القديمة ، حيث يهيمن ملاك الاراضي والخوارنة ، وبما انه كان يكره ايضا الجمهورية بسبب هيمنة الجمهور التي كان يخشاها ، لذا كانت الملكية الدستورية هي شكل الدولة الذي يفترض منطقيا ان ينال تفضيله ، ولكنه كان نافذ البصرة لدرجة لا يستطيع معها الا ان يتعرف فيها على احد احقر اشكال السيطرة الطبقية » . انظر ايضا ، ب. رايمان ، التيارات الرئيسية في الادب الالمانى ، برلين ١٩٥٦ ، ص ٦٩٩ .

(٣) انظر انجلز : ل. فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، مختارات ماركس وانجلز ، برلين ١٩٥٨ ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ . « وراء هؤلاء الاساتذة بفرداتهم الفاضلة والمدنية وعباراتهم الثقيلة والمملة كان على الثورة ان تختبر ؟ الاشخاص الذين كانوا آنذاك يعتبرون ممثلين للثورة لم يكونوا بالعكس هم الليبراليون ، اي اعنف خصوم تلك الفلسفة التي كانت لا تبدو صالحة الا لبلبلة العقول ؟ ولكن ما لم يره لا الحكومات ولا الليبراليون ، رآه رجل على الاقل ، منذ عام ١٨٣٠ . صحيح « ان اسمه كان هاينريش هاينه » .

نضال لا هوادة فيه ضد الحكومة البروسية (١) . كما كتب بعد وقت قليل الى ه. لاوبه ان اللحظة قد جاءت للمشاركة بنشاط في الكفاح الذي تخوضه **حوليات** روجه **والصحيفة الراينية** (٢) .

كانت حالته الذهنية الثورية تجد تعبيرها في قصيدة بعنوان «رحلة في البحر» (١ - ٦ - ١٨٤٣) أعلن فيها قراره بالاشتراك في النضال مع رفاق جدد (٣) . هؤلاء كانوا مؤسسي **الحوليات الفرنسية - الألمانية** ، روجه وخصوصا هس Hess وماركس ، وقد انضم اليهم عند رجوعه من رحلة الى هامبورغ في ديسمبر ١٨٤٣ (٤) . ماركس وروجه - اللذان كانا الان ، بعد ان نقدها بقسوة ، يقدران روجه الثورية (٥) - ناشده ان يستخدم عبقريته الشعرية ليجلد الرجعية بلا رحمة (٦) .

- (١) انظر هاينه : الوسائل ، ص ٣٩١ . رسالة هاينه الى كامبه ، ٢٨ - ٢ - ١٨٤٢ : « افكر انه يجب الدخول في نضال مكشوف ضد بروسيا . لا نصل الى شيء باظهار انفسنا متساهلين » .
- (٢) الرجوع نفسه ، ص ٣٩٥ . رسالة هاينه الى لاوبه ، ٧ - ١١ - ١٨٤٢ : « يجب ان لا نلعب دور مذهب بروسين ، بل علينا بالعكس ان نوفق عملنا مع عمل حوليات مدينة هاله و الصحيفة الراينية ، لا يجب في اي مكان ان نخفي تعاطفانا السياسية وعداءنا الاجتماعية ، علينا ان نفصح الشر بلا رحمة وان ندافع عن الخير بحزم » .
- (٣) المرجع الآنف ، الاعمال الكاملة ، ج ١٠ ، ص ٣٠٨ .  
رحلة بحرية

ضحك وغناء ! اضواء الشمس ترقص وتشتع . الامواج تهز الزورق الفرح .  
كنت فيه ، ونفسي خفيفة ، مع اصدقاء عزيزين .  
الزورق تحطم الى الف قطعة . اصدقائي ، سباحون سيئون ، غرقوا في الوطن ، بينما العاصفة قدفتني على ضفاف نهر السين Seine .  
ركبت زورقا جديدا مع رفاق جدد ، الامواج الغريبة تحملني هنا وهناك ، كم وطني بعيد وكم قلبي ثقیل !  
ولكن يعود الفناء والضحك . الريح تصفر ، المتراس يقطق .  
في السماء ينطفئ النجم الاخير . كم ثقیل قلبي وكم بعيد وطني !  
(٤) عن هذه الحقبة في حياة هاينه ، انظر ه. كاوفمان : ألمانيا ، حكاية لفصل الشتاء ، اطروحة دكتوراه ، برلين ، ١٩٥٦ .

- (٥) انظر آ. روجه ، مراسلاته ، ١٥ ، ص ٢٥١ . رسالة روجه الى شقيقه ل. روجه ، باريس ٢٨ - ٨ - ١٨٤٢ : « الباردة تحدثت ايضا مع هاينه . لا تستطيع ان تصدق كم ان هذا التعلب ذو افكار راديكالية في جلساته الخاصة ، مثل شيلنغ Schelling في كارلسباد » .
- (٦) المرجع الآنف ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ . رسالة روجه الى كاب ، ١٨ - ٢ - ١٨٧٠ : « هذا التوجه ( نحو الهجاء السياسي ) مرده ماركس وانا . فقد قلنا له : « دعك من شكاوى الفرام الابدية واظهر للشعراء الهجائيين طريقة العمل الصحيحة بالكرباج » . ايضا ج ١ ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ . رسالة روجه الى زوجته ، باريس ١١ - ٩ - ١٨٤٣ : « يجب الاعتراف بان حملات هاينه على وضع المانيا السياسي البائس افضل من حملاته على الحب والشعر والدين . انا الذي شجعت على زراعة هذا اللون » .

هذا ما فعله و ، اذ وعى الاتجاه الجديد الذي جلبه تحول مفاهيمه السياسية والاجتماعية لنشاطه الادبي ، فقد كتب في ٢٠ - ٢ - ١٨٤٤ الى ناشره كامبه يقول له ان اشعاره ستأخذ الان طابعا سياسيا موسوما أكثر (١) . هذا الطابع ظهر أولا بأول في هجاء رشيقي للملك الرومانطقي والرجعي لودفيغ بافاريا ، نشر في **الحوليات الفرنسية - الألمانية** ، وفي **القصائد الراهنة و القصائد الجديدة** . هذا التوجه الجديد لفكره ولنشاطه الادبي تجلى أيضا بواقع أن نقده بات يتخذ الان طابعا اجتماعيا ، موسوما بشكل خاص في القصيدة الشهيرة « عمال نسيج سيليزيا » المنشورة في جريدة **الى الامام** . كان يمجّد في انتفاضة عمال النسيج لا حركة عمال جياغ بل التظاهرة الثورية الاولى للبروليتاريا الألمانية ، التي كان يترجم بشكل رائع عن روحها التمردية بالاضافة الى بؤسها الشديد (٢) .

(١) انظر هـ. هاينه ، رسائله ، ٢٠ ، ص ٧٤ .

(٢) عمال النسيج الفقراء .

( الى الامام ، ١٠ - ٧ - ١٨٤٤ ) .

لا دموع في عيونهم القاتمة .

جالسين امام انوالهم يصرون استأنهم .

يا المانيا العجوز ، ننسج كفك .

ننسج فيه لعنة مثقلة .

ننسج ، ننسج !

لعنة للاله الاعمي والاصم .

الذي توسلنا اليه بايمان طفل .

عبثا انتظرنا ورجونا ..

لمب بنا ، فصحك علينا .

ننسج ، ننسج !

لعنة للملك ، للملك الاغنياء

الذي لم يستطع بؤسنا ان يلبينه ،

الذي انتزع منا اخر قرش لنا ،

ويجعلنا الان نرمى بالرصاص كالكلاب .

ننسج ، ننسج !

لعنة للوطن الباطل ،

حيث لا يزدهر سوى الكلب والمار ،

والذي يرسل رائحة نفسه .

يا المانيا العجوز ، ننسج كفك .

ننسج ، ننسج !

هذا الطابع الجديد لشعره كان يظهر أيضا في أهجوتيه السياسية والاجتماعية الكبيرة : **المانيا ، حكاية لفصل الشتاء** . وقد كتب فرانتس مهرانغ يقول : « ان هذا المؤلف هو أجرا قصيد كتبه هاينه ، قصيد يفيض روحا هجائية وخماسية . تلك رقصة لهب تلتهم عالما لتولد من رماده عالما جديدا . بلا انقطاع ستدوي في كفاح البروليتاريا هذه الابيات الظافرة : « يا أصدقاء أريد أن اغني أغنية جديدة ، أغنية أفضل . نريد ان نقيم هنا على الارض المملكة السماوية . نريد أن نكون سعداء في هذه الدنيا وأن لا نقاسي البؤس بعد الان ، لا نريد ان نرى بعد الان بطونا كسولة تلتهم منتج أيد كدودة . في هذه الدنيا ينبت ما يكفي من الخبز لكل رجال الارض وأيضا ورود ورنود وجمال ولذة ولم نذكر القضاة الملبسة . نعم ، حمض محلى للجميع ، حين ستنفلق القرون ، والسماء سنتركها للملائكة والعصافير (١) . »

وقد تراخت العلاقات بين هاينه وروجه عندما توجه هذا الاخير ، بعد قطيعته مع ماركس ، أكثر فأكثر نحو ليبرالية غامضة مصبوعة باللاسامية .

وبالمقابل فان علاقاته مع ماركس ازدادت ودا ووثوقا . كان ماركس ، مثل انجلز (٢) ، شديد الإعجاب بهاينه وقد سبق ان دافع عنه ضد الحملات التي تعرض لها اثر كتابه عن بورن Boerne . كان ينظر الى عيوبه نظرة غفران ، فقد كان يقدر انه لا يجب أن نطبق على الشعراء نفس المعيار الذي نطبقه على البشر الآخرين . كان يثمن عند هاينه ليس فقط عبقريته الشعرية بل أيضا حدسه العميق الذي كان قد سمح له بأن يميز الطابع الثوري للفلسفة الالمانية والدور الحاسم للنضالات الاجتماعية في التاريخ المعاصر ، وكذلك الكفاح الباسل الذي كان يخوضه في سبيل التحرر الانساني . هاينه ، من جهته ، الذي كان قد اعترف بكل الاهمية التاريخية

(١) انظر ف. مهرانغ ، مؤلفات صادرة بعد وفاته ، ٢٥ ، ص ١٨ . انظر أيضا الى الامام ، ١٩ - ١٠ - ١٨٤٤ « قصائد هاينه الجديدة » . ( تحت عنوان المانيا . حكاية شتاء ، اصدر هاينه عند هوفمان وكامبه مجلدا صغيرا من قصائد هي بلا جدال عمل من افضل اعمال هذا الشاعر الملهء ذكاء كما هو مليء عاطفة . لقد انتزعت قوة الافكار الجديدة من غفوته ، فدخل كامل السلاح في الحلبة رافعا راية جديدة ومضى الى الامام كطبال جسور يدق نداء الاجتماع » .

(٢) انجلز الذي كان باديء بدء قد ادان كتاب هاينه عن بورن واعتبره مرتدا جاحدا ( انظر ميغا ، ١ ، ج ٢ ، ص ٥٣٥ . رسالة الى ف. غريبير ، ٣٠ - ٧ - ١٨٣٩ ) كان بعد ذلك قد عدل رايه تماما . وقد كتب بتاريخ ٥ - ١٠ - ١٨٤٤ في جريدة العالم الاخلاقي الجديد ( الانكليزية ) يقول : « اصدر هنري هاينه ، اعظم الشعراء الالمان الاحياء حاليا ، مجلدا من قصائد سياسية ، بعضها يتمتع باشتراكية . انه مؤلف « نشيد عمال نسيج سيليزيا » الشهر ، الذي انوي اعطاء ترجمة عنه » . انظر ميغا ، ١ ، ج ٢ ، ص ٣٤١ .

للشيوعية (١) ، كان يتعلم الان على معرفة أهدافها وقادتها معرفة أقرب وذلك بمعاشرته لماركس . كان يعجب في ماركس بالقائد الثوري الحق الذي يوحّد عمق التفكير مع طاقة لا تلين وبه كان يفكر ، لا شك ، حين سيصف القادة الشيوعيين بأنهم رجال عازمون يتحلون بفهم واضح واردة حديدية (٢) .

هاينه ، الذي كان آنئذ في ذروة انتاجه الشعري ، رغم كونه بدأ يتأثر بالمرض المرعب الذي سيودي به ، كان يتردد كثيرا على ماركس حيث كان دوما يستقبل كضيف يرحب به . واذا كان يقدر عند ماركس ليس فقط المفكر بل أيضا الكاتب ، فقد كان يعرض طوعا قسائده لنقده ونقد زوجته التي كان معجبا بروحها النافذة والمهرفة (٣) . وصار هكذا العديد من القصائد ثمرة تعاون ودي ، لم يكن مع ذلك بالغ السهولة دوما نظرا لحساسية الشاعر الزائدة (٤) .

(١) انظر هـ. هاينه ، لوتيس ، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ . صحيفة أوغسبورغ العامة ، رسالة بتاريخ ٢٥ حزيران ١٨٤٢ ( نص فرنسي ) : « اتحدث من جديد عن الشيوعيين وهم الحزب الوحيد في فرنسا الذي يستحق انتباهها لا يفتقر . يمكن ان اطالب بنفس الانتباه لبقايا الحركة السان سيمونية ، فمعتنقوها لا يزالون احياء تحت لافتات غريبة في كثير او قليل ، وكذلك للفورييريين Fouriéristes الذين لا يتحركون بنشاط ، ولكن هؤلاء الرجال المحترمين يجرحهم فقط الكلام ، المسألة الاجتماعية من حيث هي مسألة ، الفكرة ، ليسوا محركين من قبل ضرورة سماوية ، ليسوا الادوات المقدرة التي تستخدمها ارادة الكون العليا لتنفيذ احكامها . عاجلا او آجلا ستنقل عائلة السان سيمونيين المشتتة وكل اركان حزب الفورييريين الى جيش الشيوعية التنامي على الدوام وباعارتهم للحاجة الفظة الكلام الذي يعطي الشكل سينتقلون نوعا ما بدور آباء الكنيسة » .

انظر هـ. هاينه ، ص ٢٥٨ ، صحيفة أوغسبورغ العامة ، رسالة ٢٠ حزيران ١٨٤٢ . « شيوعية ، ذلك هو الاسم السري لهذا الخصم الجبار الذي يعارض عهد البرجوازية بعهد البروليتاريين مع كل نتائجه . بالنسبة لنا ، نحن نعلم فقط ان الشيوعية ، رغم كونها ليست موضع نقاش كثير في الوقت الحاضر ، هي البطل القاتم الذي اليه يعود دور رئيسي وان كان دورا وقتيا في التراجيديا الحديثة والذي لا ينتظر سوى الجواب لكي يدخل على المسرح » .

(٢) انظر المرجع نفسه ، المؤلفات الكاملة ، ج ٦ ، ص ٥٥٣ ، الاعترافات . « ان الزعماء السريين كثيرا او قليلا للشيوعيين الا انهم هم مناطق كبار تخرج اقواهم من المدرسة الهيغلية . انهم يمثّلون على الأرجح اقدر عقول واقوى ارادات في المانيا . هؤلاء الدكاترة في الثورة واتباعهم العازمون المنيذون هم الرجال الوحيدون في المانيا الذين يفيضون حياة وهم اصحاب المستقبل » .

(٣) انظر نويه تسايث ( الازمنة الجديدة ) ، السنة التاسعة ، ج ١ ، ص ٣٨ ، ايلول ١٨٩٠ . بول لافارغ ، ذكريات عن ماركس : « هاينه هذا الهجاء الذي لا يرحم كان يخشى سخرية ماركس ولكن كان يحمل اكبر اعجاب للروح النافذة والمهرفة لزوجة هذا الاخير » .

(٤) المرجع السابق ، السنة الرابعة عشر ، ج ١ ، ص ١٦ - ١٧ ، تقويم عمالي نمسوي للعام ١٨٩٥ مدينة برون ، ذكريات اليونور ماركس - آفلنغ ( ابنة ماركس ) : « ثمة فترة كان فيها هاينه ياتي يوميا ليرى ماركس وزوجته وليقرأ عليهما ابيانه وياخذ رايهما فيها . وكان باستطاعة ماركس وهاينه ان يراجعا الى ما لانهاية قصيدة صغيرة من عشرة اسطر ، مع وزن كل كلمة ، مع تصحيح القصيدة وتهذيبها الى ان يكون كل شيء كاملا وان يكون كل اثر للشغل قد اختفى . كان الامر يقتضي صبرا كبيرا لان هاينه كان

أحيانا بالعكس ، كان هاينه هو الذي ينجذ الزوجين . هكذا في أحد الأيام وجدهما الشاعر يائسين أمام طفلهما جني التي لم تكن بلغت من العمر سوى شهور والتي كانت فريسة انتفاضات ، فنصح بمفطس حمار ، هيئه بنفسه وغطس فيه الطفلة ، ولعله بذلك أنقذ حياتها (١) .

ان تأثير ماركس كان عميقا على هاينه ، في هذه السنة التي كانت إحدى أخصب سنوات حياته الشعرية ، وهاينه مدين له جزئيا بتحفته السياسية « المانيا . حكاية شتاء » التي سعى ماركس بنشاط الى اطلاق الناس عليها والتي نشرت في الاعداد الأخيرة من « الى الامام (٢) » . كان هاينه قد توجه اليه لهذه الغاية ، علما انه أفضل من يفهمه ويقدره (٣) . في رسالته ، أفصح له عن سعادته بقضاء الشتاء معه . هذا الأمل لن يتحقق الا جزئيا اذ في بداية شباط طرد ماركس من باريس . ليس بلا حسرة انفصل عن هاينه وقد كتب اليه : « من جميع الذين أغادرهم هنا ، أنت من أترك بأشد الحسرات . أحب لو أحملك معي في حقائي (٤) » .

بعد ذهاب ماركس ، أصبح هاينه ، الذي كان مدينا له جزئيا بالازدهار الأخير لفكره وشعره ، أصبح مرة أخرى مشطورا بين يقينه في انتصار الشيوعية وخوفه من هذا الانتصار ، وفي الآلام الفظيعة التي كانت تجعل الآن من حياته درب الصلب والموت والتي كانت تدفعه الى البحث عن تهدئة في الرجوع الى الدين ، احتفظ الى النهاية بهذا المزيج الفريد من تخوف وانجذاب الذي كانت الشيوعية توحيه له .

»»»→

ذا حساسية مرضية ازاء أي نقد . كان أحيانا يصل عند ماركس وهو يكي حرفيا لان كاتباً غامضاً قد هاجمه في جريدة . لم يكن ماركس آنذ يعرف شيئا أفضل من توجيهه نحو زوجته التي كانت بدكانها ورقتها تعيد الشاعر اليأس الى العقل » .

(١) انظر الأزمة الجديدة ، السنة ١٤ ، ص ١٧ .  
(٢) انظر رسالة من ماركس الى كامبسه ، باريس ، ١٨٤٤/١٠/٧ : « اذا كان هاينه لا يزال في هامبورغ ، ارجوك ان تشكره على ارسال قصائده وان تقول له انني اذا لم اعرف عليها بعد فلانني اريد ان اعلن في نفس الوقت عن القسم الاول ، الموشحات » .

(٣) انظر الرسائل ، ج ٢ ، ص ٢١٢ . رسالة من هاينه الى ماركس ، هامبورغ ، ٢١ ايلول ١٨٤٤ : « عزيزي ماركس . كتابي طبع ولكنه لن يصدر الا بعد ١٠ او ١٥ يوما كي لا يسبب مباشرة فضيحة . ارسل اليك اليوم بروفات القسم السياسي ، حيث بشكل خاص قصيدتي الكبيرة ، وذلك لاهداف ثلاثة ، اولا لكي تتسلى ، ثم لكي تعرف على الكتاب في الصحافة الالمانية ، واخرا لكي تسمى ، اذا ارتأت ذلك ، الى نشر بداية القصيدة الجديدة في الى الامام ... الوداع ، يا صديقي العزيز ، اعذر خريشتي الفوضوية . لا استطيع ان اعيد قراءة ما كتبت ، ولكننا لا نحتاج لكثير من الاشارات لكي نفهم احدا الآخر » .

(٤) انظر ارشيف غرونبرغ ، ج ٩ ، ١٩٢ ، ص ١٢٢ . رسالة لـ ماركس الى هاينه ( على الأرجح ١٨٤٥/٢/١ ) .

## ماركس والاشتراكية « الحققة »

فويرباخ - م. هس - ك. غرون

رابطا اكثر فأكثر فكره وعمله بنضال البروليتاريا ، كان ماركس مساقا ليس فقط الى ان يقطع مع « المعتقين » والديمقراطيين البرجوازيين ، بل ايضا الى ان يلفظ كل الوان الاشتراكية والشيوعية الطوباويتين ، بدءا من الاشتراكية « الحققة » حتى شيوعية فايتلنغ .

في ذات اللحظة التي كان فيها ماركس يضع اسس المادية التاريخية ، كان عدد من الاشتراكيين الالمان يدخلون ، تحت دفع م. هس M. Hess ، في طريق الاشتراكية « الحققة » .

كان هس يستعير الامر الجوهري في مذهبه عن فويرباخ الذي لم يكن يتوصل الى تخطي المرحلة الفكرية التي كان قد بلغها في ١٨٤٣ مع الاطروحات الموقته لاصلاح الفلسفة ومبادئ فلسفة المستقبل .

بعد رفضه الاسهام في الحويلات الفرنسية - الالمانية ، تحت حجة انه يجب التقدم بفطنة أشد في طريق الدعوة الثورية التي ليست المانيا ، على حد تفكيره ، ناضجة لها بعد ، كان فكره قد دخل في فترة ركود (١) .

ان مشاركته النشيطة والخصبة في الحركة التقدمية كانت ، موقتا على الاقل ، منتهية . واذ ثابر على اقتناعه بأن الامر الجوهري من أجل تحرر البشر هو اعتاقهم من سيطرة الدين ، فقد كان يرى في الحركة الديمقراطية والاشتراكية والشيوعية بشكل رئيسي وسيلة لتحقيق هذا التحرر (٢) ويعتبر ان مشاركته الاكثر جدوى في

- (١) انظر فر. انجاز : لودفيغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية ، لايتسينغ ص ٢١ .
- (٢) انظر مراسلات ل. فويرباخ ، اصدار ك. غرون ، لايتسينغ ١٨٧٤ ، ج ١ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ . رسالة من فويرباخ الى فر. كاب ، بروكبرغ ١٨٤٤/١٠/١٥ : « ان صورة الصانع الخياط فايتلنغ تؤلف تضادا ، مفروحا ومعزيا في آن ، مع كل التظاهرات المقررة لانحلال دولنا . في هذا الصيف فقط تعلمت معرفة الشيوعية عن بعض القرب ، بين امور اخرى على يد مؤلف فايتلنغ « ضمانات التناسق والحربة » . كم ادعشتني ثقة وروح هذا الرفيق الخياط . انه بالحقيقة نبى طبقة . انا مدين بمعرفته لصاحب حرفة شاب مدرب على الشيوعية . كم لفت نظري ايضا روح الجد وعطش المعرفة عند هذا الحرفي الشاب . ماذا يمثل كل عقبالنا من الطلاب ازاء هذا الشجاع ! بالحقيقة سنرى قريبا - وهذا في اتجاه تطور البشرية وليس في اتجاه تطور الافراد - ، سنرى انقلابا ، حيث يصير الاسياد خدما والخدم اسايادا . هذا سيكون نتيجة الشيوعية لا ما تطمح اليه . ان اجيالا جديدة من اذهان جديدة ستولد ، كما فيما مضى ، من حضن القبائل الجرمانية الفظة ، من الجمهور الاكثر خشونة ، ولكن الاكثر تعظشا للعلم . الان نرى من الان بدايات هذا التحول النظري والديني الحثوم ؟ بينما ينحط الملوك بان يصيروا منافقين واثقياء ، يرتفع الحرفيون الى الالحاد ، لا الى الالهاد القديم ، التافه والفاقر والريبي ، بل الى الالحاد الحديث ، الایجابي ، الفاعل ، الديني » .

هذا العمل هي ان يتابع ويعمق نقده للدين .  
بما انه كان يعتقد ان الافكار تمارس بالتربية والتعليم تأثيرا مقررًا على التطور  
الانساني ، فقد ظل ماديا في تصوره العام للعالم ، ولكنه كان مثاليا في تصور تطور  
التاريخ .

هذا التصور المثالي الذي يفسر بموقفه المناهض للثورة الذي يقربه من روجه  
وهرفغ كان يطبع بشكل خاص مذهبه الاجتماعي ، انسانيته . هذه الانسية  
ستتحقق بطريق النقد الديني ، الذي سيعطي كل البشر وعسي جوهرهم الحقيقي ،  
وعني الجماعة الانسانية والتضامن الذي يربط كل فرد بهذه الجماعة . أجل كانت  
توجد عنده بعض الملاحظات التي كان يمكن ان تؤلف مسودة مذهب اشتراكي ، مثلا  
الجمال - الحكم الآتية : «انما البؤس البشري هو الذي ينبج الله» (١) . «الكائن  
الالهي ليس سوى تعويض عن غياب الالهي في العالم وعند الانسان» (٢) . «الانسان  
يعوض الجوهر الانساني الذي ينقصه بكائن فكري مثالي» (٣) .

ولكن بما انه كان ينغزل اكثر فاكثر عن الحركة السياسية والاجتماعية ، لذا لم  
يكن يتوصل الى اخراج مذهب اجتماعي من هذه الملاحظات .

رغم كونه لم يستخلص هو نتائج عملية من هذه الجملة - الحكم ، فقد كانت  
فلسفته تقود الى الاشتراكية بالمطلب الذي تفترضه ، مطلب تحويل جذري للمجتمع  
يلغي التعارض بين الواقع الانساني للانسان وجوهره الحقيقي (٤) .

هذا يفسر كون شيوعية هس مثل شيوعية ماركس امكنهما في اصلهما الانتساب  
الى انسية فويرباخ واستلهاهما . بخلاف ماركس وانجلز ، اللذين كانا ، بتوجههما  
نحو الشيوعية الثورية ، يتبعدان عن انسية فويرباخ ويصلان ، بلفظهما الطوباوية ،  
الى تصور الضرورة التاريخية للشيوعية ، كان هس ، بتفهقر لفكره بالمقارنة مع  
مقاله عن «جوهر المال» الذي كان يمثل ذروة فكره ، يعزّز الطابع الطوباوي في  
مذهبه ، داخلا في طريق الاشتراكية «الحقة» المؤسسة مثل الانسية على تصور  
انسانية غير متميزة اجتماعيا ، مقيمة خارج التاريخ .

اذ فقد وظيفته كمراسل لـ **صحيفة كولن** ووجد نفسه مقطوع الرزق ، اضطر  
هس الى مفادرة باريس وعاد في اوائل ١٨٤٤ الى كولن .

مفصولا عن ماركس وعن التأثير المباشر للشيوعيين الفرنسيين ، شدد هس  
الطابع المثالي لمذهبه . بما انه لم يكن يلاحظ ان استبدال المجتمع البرجوازي

(١) انظر ل. فويرباخ ، **الاعمال الكاملة** ، ج٢ ، ص ٣١٨ .

(٢) نفس المكان ، ص ٣١٥ .

(٣) نفس المكان ، ص ٣١٥ .

(٤) نفس الشيء ، ص ٣٥٨ .

بمجتمع شيوعي يقرره ويحدده تطور النظام الرأسمالي ذاته ، فقد كان يسوع الشيعية بمعارضته ، على طريقة الطوباويين ، المجتمع البرجوازي بتنظيم اجتماعي مثالي . هذا المثل الأعلى الاجتماعي ، كان لا يفتأ يسراه في التحقيق المتآني للحرية والمساواة ، الذي يجعل من مذهبه مزيجا من فوضوية وشيوعية .

كان يعرض مفاهيمه في مقال طويل : « أسئلة واجوبة : الشغل واللذة . المال والعبودية » ، نشر في **الي الامام** ٢١ و ٢٨ / ١٢ / ١٨٤٤ . هذا المقال مثير للاهتمام بشكل خاص من حيث هو « رائد » **للبيان الشيوعي** الذي جرى تصويره في البداية ، كما هو معلوم ، على طريقة Catéchisme ( موجز تعليم مسيحي بالاسئلة والاجوبة ) ، كسلسلة من اسئلة واجوبة . في هذا المقال ، يذهب هس ، كما في « فلسفة العمل action ، من مبدأ ان التحرر الانساني يجب ان يكون له كموضوع ، كهدف ، فاعلية الانسان الحرة . هذه الفاعلية يجب ان تجمع في ذاتها ، كما يريد فوريه ، الشغل واللذة ، اذ من هذا التوحيد وحده يمكن ان تولد للانسان حياة منسجمة . هذا يشترط ، على حد قول هس ، ان يكون الشغل فاعلية حرة ، اذ هكذا فقط يمكن ان يكون متعة للانسان » (١) .

في المجتمع البرجوازي ، الفاعلية الحرة مستحيلة ، فما يحكم هنا هو الشغل المفروض الذي يجعل الانسان عبدا والحياة الانسانية حياة بهيمية (٢) .

(١) الى الامام ، ٢١ / ١٢ / ١٨٤٤ ، ص ٣ وبمعناها . م . هس : أسئلة واجوبة - الشغل واللذة . « هذا الانسجام بين الشغل واللذة لا يحصل الا في اسلوب حياة عضوي ، في حياة منظمة ، وليس في حياة ليست كذلك » .

٢ - ما هي انواع الشغل الموجودة ؟ - هناك الشغل النظم والشغل الذي ليس كذلك ، بتعبير آخر هناك الفاعلية الحرة والشغل القسري ، الشغل الحر والشغل المفروض .

٣ - ما هي الفاعلية الحرة والشغل المفروض ؟ - الفاعلية الحرة هي كل ما هو ثمرة دافع داخلي ، الشغل المفروض هو بالعكس كل ما يعمل بالاجبار وبالضرورة . الشغل الذي هو نتاج دافع داخلي يؤلف لذة تزيد متعة الحياة ، فضيلة تحمل ثوابها في ذاتها . وبالعكس اذا كان الشغل حاصلًا تحت حكم دافع خارجي ، فانه يؤلف عبثا يسحق ويدل الطبيعة الانسانية ، رذيلة تولدها شهوة الربح ، شغلا ماجورا ، شغل عبث » .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤ : « في مجتمعنا ليست الفاعلية نتاج دافع داخلي ، ثمرة لذة وحُب الشغل ، بل نتاج دافع خارجي ، سببها بوجه عام الضرورة او شهوة المال ... ان الافراط في ممارسة بعض الفاعليات المادية او الفكرية ، الافراط الذي لا يستجيب للطبيعة الانسانية الحقة والذي هو مثار لان هذه الاخيرة مسحوقة ، يجعل ان اية فاعلية للبشر تتخذ الان طابعا لا انسانيا وبهيميا .

في المجتمع الراهن هل من الممكن ان تنمي وان تبسط كل القوى الانسانية وان تستخدم القوى المبسوطة هكذا ؟ ولا باي شكل . فنحن معاقون ومعتلون في بسط وفي استخدام قدراتنا وقوانا على حد سواء . لا يمكن ان يوجد في مجتمعنا لا تربية ولا تعليم عام ، لا تبادل ولا استعمال لقوانا . معظمها يبقى مجمدا وما يستخدم مضطهد بوجه عام » .

هذا النزاع لانسانية الانسان في المجتمع البرجوازي هو - وهس يأخذ هنا مجددا الفكرة المركزية في مقاله عن جوهر المال - نتيجة جبروت المال الذي يرغب البشر على بيع شغلهم وحياتهم (١) . ان تسلط المال الذي يمثل سعر شراء أو قيمة تبادل الحياة الانسانية يولد تجارة عامة ومعها استغلالا واستعبادا كليا للبشر (٢) .

في المجتمع المؤسس على المال والمحكوم من قبله ، تكون منتوجات الطبيعة والشغل الانساني محتكرة من قبل لصوص ، الامر الذي يحول دون اعطاء كل فرد الحصة التي تعود اليه شرعا ويولد العسف والبؤس (٣) .

هذا المجتمع المؤسس على المال ، الذي يعتلّ بكل العواقب المتولدة من سيطرة المال ، يجب ان يستبدل بنظام اجتماعي جديد ، فيه سيكون الشغل منظما والامكانية

(١) نفس المرجع ، ص ٤ : « لماذا في مجتمعنا الراهن من غير الممكن بسط واستخدام قوانا الانسانية؟ لاننا نجعل بعضنا بعضا بالتبادل عبيدا وذلك بشراء وبيع انفسنا » .

(٢) م. هس : « اسئلة واجوبة - المال والعبودية » ( الى الامام ، رقم ١٠٤ ، ١٨٤٤/١٢/٢٨ ، ص ٢) .  
« ١ - ما هو المال ؟ - انه قيمة الفاعلية الانسانية معبرا عنها بأرقام ، ثمن شراء او قيمة تبادل حياتنا .

٢ - فاعلية الانسان هل يمكن ان تقاس وان تقدر بأرقام ؟ - ان فاعلية الانسان ، شأنها شأن الانسان نفسه ، لا يمكن ان تشتري ، لانها تؤلف حياة الانسان عينها التي لا يمكن تقديرها بثمن ولا تعويضها بمبلغ من المال .

٣ - من هو الذي يمكن ان يباع او الذي يبيع نفسه لقاء مال ؟ - الذي يمكن بيعه هو عبد والذي يبيع نفسه له نفس عبد .

٤ - ماذا يجب ان نستنتج من وجود المال ؟ - يجب ان نستنتج وجود السرقة ، لان المال عينه اشارة الرق » .

(٣) انظر م. هس ، « اسئلة واجوبة - الثروة والعبودية » ، الى الامام ، رقم ١٠٤ ، ٢٨ - ١٢ - ١٨٤٤ ، ص ٤ .

(٦) من هو الذي يحتكر لنفسه منتوجات المجتمع والطبيعة ؟ انه اللص الذي يأخذ من المجتمع ما هو ملك المجتمع وما يجب ان يكون تحت تصرف المجتمع لصالح الجميع . انه قاتل بحكم كونه يحرم البشر الآخرين من وسائل عيشهم وعملهم ويأخذ حياتهم او حريتهم .

(٨) هل المجتمع الراهن يضمن لكل فرد ما يحتاجه للحياة والشغل ؟ ليس مضمونا للأفراد الا حيازة ما بإمكانهم في بعض الشروط القانونية ان يكسبوه او ان يتسارقوه فيما بينهم ، اي ما يكسبونه بخدعات عبد ، بالشغل المأجور ، او بالارث ، الهبة ، الربا ، ألعاب القمار ، المضاربات ، التاجرة او الفش .

(١٢) ما هي الحرية ؟ - حر من ليس عليه ان يجبر طبيعته ، من يعيش ويفعل طبقا لها ويستطيع هكذا ان يخرج كينونته بحرية .

(١٣) هل يستطيع الانسان في مجتمعنا ان يعيش وان يعمل طبقا لطبيعته ؟ - لا ، عليه ان يفرض عليها صفطا وقسرا دائمين . تارة لا يستطيع اشباع رغبته في العلم ، تارة حسه الفني ، ميله الى الشغل ، جوعه ، عطشه ، حاجاته الفيزيائية الابتدائية .

معطاة لكل فرد بأن ييسط فاعليته بحرية وفق قابلياته (١) .  
 محل المال، أي محل قيمة الإنسان مقدرة بالدرهم، ستحل القيمة الانسانية الحقيقية ، وفي الوقت نفسه ستحل المباراة محل المزاومة . في هذا المجتمع الجديد المنظم تنظيما متناسقا ، لن تكون منتوجات الطبيعة والشغل الاجتماعي ملكا للأفراد الخاصين ، بل ستكون ملكا للجماعة ، الامر الذي سيؤمن لكل فرد ، الى جانب فاعلية حرة ، قسطا عادلا من الخيرات المنتجة (٢) .

هذا التحول للمجتمع سيتحقق بشكل رئيسي بالتربية والتعليم ، اللذين بتصفيتهما غرائز البشر السيئة ، سيتيحان تنظيم انتاج وتوزيع الثروات تنظيما عقلانيا (٣) .

(١) المرجع نفسه ، « في الشغل وفي اللذة » ، الى الامام ، رقم ١٠٢ ، ٢١ - ١٢ - ٨٤٤ ، ص ٤ . ثم « الثروة والحرية » ، ٢٨ - ١٢ - ١٨٤٤ ، ص ٤ .  
 (١٠) ما هي انواع الشغل الممكنة في مجتمع فيه الطبيعة الانسانية مبسطة عند جميع الناس وكل انسان يستطيع ان يستخدم كل مواهبه ؟ - في مجتمع كهذا ، الفاعلية الوحيدة الممكنة هي الفاعلية الحرة .

(٢) من ينتج الثروة ؟- الطبيعة والمجتمع الانساني .  
 (٤) منتوجات الطبيعة هل هي ملك الافراد ؟- لا ، انها ملك جماعي للجماعة .  
 (٥) منتوجات المجتمع هل هي ملك الافراد ؟- لا ، انها ملك المجتمع .  
 (٢) م. هس ، « أسئلة وأجوبة - عن الشغل وعن اللذة » ، ٢١ - ١٢ - ١٨٤٤ ، ص ٣ وبعبدا .  
 (١) ما هي الثروة ؟- تدعى ثروة منتوجات الطبيعة والشغل التي تؤمن معا الحياة والفاعلية الانسانية .

(٢) هل يستطيع الفرد ان يخلق ثروات بدون تعاون البشر الاخرين والقوى الطبيعية ؟ - لا ، ان الفرد ، مع كل قواه وفدراته ووسائله ، ليس هو نفسه الا منتوجا من منتوجات الطبيعة والمجتمع ، كفرد معزول ، انه عاجز ولا يستطيع ان يخلق ثروات . الانسان لا يستطيع ان يعيش وان يعمل الا في علاقات وثيقة مع الطبيعة والانسانية .

(٧) ما هي الملكية الفردية في المجتمع الجماعي ؟- انها الحق المضمون لكل فرد في ان يحوز ما يحتاجه ليعيش ويعمل .

(١٧) حسب أي مبادئ يجب أن تدار الثروة الجماعية وأن ينظم تبادل المنتوجات ؟ - حسب قوانين الطبيعة البشرية وحاجاتها .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٤ .

(١٤) ما الذي سيفهم فعلا للبشر حريتهم وملكيتهم الحق ، ثروهم الحق ؟- هذا سيحصل أولا بالتربية .

(١٥) ماذا نعني بالتربية ؟- بالتربية يجب ان نعني أولا التطور الجسمي ، قاعدة كل تطور ... ثانيا التعليم العام المعطى للجميع في مؤسسات عامة حيث ستزرع كل بذور الفضائل والقدرات البشرية. من هذه المؤسسات سينتقل الطلاب الى مراكز فاعليات توجههم اليها ميولهم ومواهبهم الخاصة . هنا تكتمل تربية الافراد الاجتماعية .

(١٦) ماذا يجب ان نفعل عدا ذلك لكي تكون الملكية الحق والحرية مضمونتين لكل البشر ؟- لهذه

في هذا المقال ، كان هس ماثرة ربط المسألة الاجتماعية وحلها بالفاعلية الإنسانية ، بشغل الانسان المعبر تعبيرا جوهريا ، تجليا أساسيا ، لحياته . ولكن ، بخلاف ماركس ، الذي كان يخرج من تحليله للشغل تصورا جديدا لطابع البراكسيس « Praxis » ودورها الثوري في حياة وتاريخ البشر ، كان هس ، بنظره مثل الاصلاحيين الى الشغل وشروط الشغل خارج نضالات الطبقات ، يرى ، لا في الثورة الاجتماعية بل في تعميم التربية والتعليم الوسيلة الاقدر على حل المسألة الاجتماعية . كان مقاله بمثابة تراجع عن مؤلفاته السابقة ، وبخاصة عن الترياركية Triarchie الأوروبية ، حيث كان قد بين ان حل المسألة الاجتماعية ستأتي به الثورة الاجتماعية المتولدة من تفاقم صراعات الطبقات ، وعن فلسفة العمل ، حيث كان قد شدد على ضرورة الانتقال من التأمل النظري الى الفعل العملي لتحويل العالم ، وعن جوهر المال ، حيث كان قد علل بمذهب الانخلاع الفويرباخي أصل وطابع سيطرة المال . أما في هذا المقال حيث يشدد على ضرورة تحويل اجتماعي لتأمين فاعلية الانسان الحرة ، فهو يفرق هذه الأطروحة في أدب مسطح ، في سلسلة من أفكار عامية عن الشغل الحر المعارض للشغل العبد ، عن التنظيم المتناسق للمجتمع المعارض للاستغلال المتولد من سيطرة المال . هذه الأفكار المبذلة التي كانت بديلا عن دراسة واضحة للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية كانت تشكل اكمل تضاد مع التحليل العميق لطبيعة الانسان ولعلاقاته مع بيئته الذي به كان ماركس يسند ويسوغ هذه الأطروحة ذاتها . ان مذهب هس ، الذي كان مثل معظم الاصلاحيين المعاصرين يريد تغيير طابع الشغل بتنظيمه دونما اعتبار لشروط هذا التنظيم الواقعية ، كان يتألف من خليط غريب من أفكار مأخوذة عن فويرباخ وفوريه وبرودون . كان هس يشدد مع فويرباخ على وجوب أن يتحرر البشر من الفردوية والانانية كي يحققوا كينونتهم الحققة ، جوهرهم الجماعي . وكان يستعير من فوريه مفهوم تنظيم متناسق للمجتمع بتوحيد الشغل واللذة ، حيث يتلاءم شغل كل فرد مع قابلياته وأذواقه ، وأخيرا كان يفكر مع برودون أن التحويل الاجتماعي له كهدف جوهري ان يؤمن لكل فرد قسطا عادلا من الثروات المنتجة .

ان هذا المذهب كان عليه أن يقدم العناصر الجوهرية في الاشتراكية « الحققة » التي بدأت تتشكل آنذاك في مدينة كولن ، في دائرة هس وأصدقائه .

→

الغاية ، يجب ان لا تكتسب الثروة الجمعية من قبل الافراد الخاصين وان لا تترك للمصادفة ، بل بالعكس يجب ان تسيّر من قبل المجتمع الذي سيمطي لكل فرد الحصة التي تعود اليه .

ملاحظة : propriété = ملك ، ملكية ، و ، خاصة ، خاصية ، خصائص ... من صفة propre = خاص ، خاص بـ . - الألمانية والفرنسية واحد في هذه النقطة .

رغم كونه مشبوها وخاضعا لمراقبة الشرطة، استطاع هس أن يعيش في كولن، بدون أن يقلق كثيرا ، في بيت والده ، الذي كان يتمتع بالاعتبار المتصل برجل صناعة ميسور (١) . وهنا تابع دعاية نشيطة وظل على صلات مع أصدقائه في باريس الذين كانوا يتوجهون اليه من أجل العمل الثوري المطلوب في المانيا (٢) . بعد انفصاله عن روجه (٣) ، قطع أيضا مع الهغليين الشباب في برلين وكتب في نهاية العام نقدا حادا لكتاب شترنر : **الوحيد وخاصيته (٤)** .

في كولن ، هس تصادق مع كارل غرون Karl Grün وأسس معه وممع بعض أنصار انسية فويرباخ ، من أمثال هرمان بتمان وج. يونغ ، حلقة اشتراكية الميل ، وداخل هذه الحلقة نضج مذهب الاشتراكية « الحققة » .

الاتجاه الاصلاحى ، الذي كان عند هس معدلا ومخففا بعلاقاته مع ماركس وأنجلز ، كان يتظاهر بشكل أوضح بكثير عند أصدقائه ، الذين كانوا يحولون جوهر الاشتراكية الى انسية فويرباخ فينزعون منها العناصر العينية التي كانت لها في الاشتراكية الفرنسية .

هذا الاتجاه الاصلاحى كان مشددا بشكل خاص عند كارل غرون . كارل غرون ، المولود في ١٨١٧ ، بعد ان درس الفلسفة والفيلولوجيا في بون وبرلين ، حيث تعرف على ماركس ، كان قد أصبح في عام ١٨٤٢ محرر صحيفة المساء في مانهايم . وائر طرده من دوقية بادن الكبرى بسبب الاتجاه الراديكالى المعطى لجريدته (٥) ، ذهب الى كولن حيث ساهم في صحيفة كولن وفي جريدة توير (تريف) . بعد أن كان ديمقراطيا ذا صبغة سان سيمونية ، اقترب كارل غرون من الفورييرية ، التي صار نفوذها ، الظاهر في مقالاته في جريدة توير ، غالبا في مجلة لسان الحال الاسبوعية (٦)

(١) هذا يظهر من تقرير لرئيس اقليم الراين ورد فيه : « هس يعيش عند أبيه الذي له سمعة رجل أعمال ميسور ، ماهر ومجد . انه يعيش حياة منزلة نسبيا ويهتم على ما يقال بأعمال أدبية . انه يعاشر بشكل خاص دافوبرت اوبنهايم . » انظرات. زلوسيسني : موسى هس ، الطبعة الثانية ، برلين ١٩٢١ ، ص ١٦ .

(٢) هكذا كتب هاينه الى ماركس بتاريخ ٢١ - ٩ - ١٨٤٤ : « اكتب الى هس ... ان يعرف بكتابي في الصحافة ، فور صدوره ، ولو أدى ذلك الى عواء خصومنا » . انظر جريدة نوي تسايت ، السنة ١٤ ، ١٤ ، ص ص ١٦ - ١٧ .

(٣) انظر الجزء الثاني من هذا المؤلف .

(٤) هس ارسل هذا المقال الى مجلة بياغلند الشهرية التي يصدرها له. غرون . ولكن منعت المجلة فحواله الى كراس بعنوان الفلاسفة الآخرون صدر في دار مشتادت عام ١٨٤٥ .

(٥) انظر له. غرون : طردى من بادن ، نقلى الى بالاتينا ، وتبريري امام الشعب الالمانى ، الكونتوار الادبي ، زوريخ ١٨٤٤ .

(٦) لسان الحال او الفاضح الراينى - الفستفالى ، صدرت في مدينة فيزبل wesel .

التي اصدرها بدءا من تموز ١٨٤٤ . رافضا الليبرالية ، أعلن ، في مقدمة مجموعة من مقالاته في صحيفة **مانهايم المسائية** ، وهي مقالات كانت قد أصابتها الرقابة ، أعلن اعتناقه للفوريرية (١) .

بما أن فوريه كان يدين كفاح البروليتاريا الطبقي والثورة الاجتماعية ، كان ممكنا بدون مخاطر زائدة الاستناد اليه . هذا يفسر نجاحه لدى الاصلاحيين ، لاسيما في حلقات المثقفين الديمقراطيين والاشتراكيين الصغيرة التي كانت تشكل آنذاك في بروسيا ، وبشكل خاص في منطقة الراين . ان نمو وتطور هذه الحلقات التي كانت مركز مناقشات اكاديمية عن الاشتراكية ، كان يسهله النضال ضد الفقر ★ الذي كانت الحكومة البروسية قد بادرت اليه .

وقد ثبت لك . غرون في هذا الاتجاه شبه الاشتراكي من قبل العلاقات الوثيقة التي كان يقيهما آنذاك مع هس ، الذي قاده بطريق انسية فويرباخ الى الاشتراكية « الحققة » . واذ كان أبعد أيضا من هس عن مفاهيم ماركس وأنجلز ، فقد شرع يعرض ، بأسلوب كاتب مقالات مسلسل ، أفكار الاشتراكية « الحققة » التي كان يلفها أكثر ، جاعلا من الاصلاح الاجتماعي تقريبا مسألة تربية وتعليم فقط (٢) . هذه الاشتراكية « الحققة » التي كانت ، مثل الفيلانتروبية ( حركة محبي البشر ، أهل الخير والاحسان ) ، تعطي نفسها مهمة حذف الفقر بدون اصابة المجتمع البرجوازي ، ستنتشر بسرعة فائقة في المانيا ، بصورة رئيسية في وسط البرجوازية الصغيرة وستعرف رواجاً كبيراً حتى عام ١٨٤٨ (٣) .

(١) **احجار للبناء** مع رسالة الى اصدقائه في اوسنابروك ، بقلم كارل غرون ، دار مشتات ، مند لسكه ، ١٨٤٤ .

✽ **paupérisme** كلمة انكليزية في استعمالها الاول ، يقصد بها بشكل خاص ظاهرة الفقر الواسعة الخيفة التي لازمت انطلاق الثورة الصناعية .

(٢) **كارل غرون : « الثقافة الحقيقية »** . محاضرة القيت في ٢٨ - ٤ - ١٨٤٤ في بيلفلد لصالح عمال الفزل الفقراء في منطقة رافنسبرغ ، دار مشتات ١٨٤٤ .

(٣) عن النهوض الاول للاشتراكية الحقيقية ، انظر ميغا ، ١ ، ح٤ ، ص ٣٣٩ . فر . أنجلز في العالم الاخلاقي الجديد ١٣ - ١٢ - ١٨٤٤ . « ويسرني في الوقت نفسه ان يكون بوسعي الإشارة الى ان الشعب الالمانى ، رغم تاخره بعض الشيء ، حسب العادة ، في اثاره المسألة الاجتماعية ، يسعى الآن الى تعويض الوقت الضائع . بالحقيقة انه لشيء مدهش ان نرى سرعة تقدم الاشتراكية في ذلك البلد . قبل عامين ، لم يكن هناك سوى فردين معزولين يهتمان بالمسألة الاجتماعية ، ولم يفض على طبع اول مؤلف اشتراكي سوى عام واحد ... ما هي الآن الحالة في المانيا ؟ في مكان هذين الشخصين المسكينين اللذين كانا يكتبان عن الاشتراكية لجمهور يجهل هذه القضية او لا يعنى بها ، يوجد عشرات من الكتاب الجديدين يشرون بالانجيل الجديد لالوف الناس المتعطشين الى تعلم كل ما يتصل بهذه القضية ، عندما عدد من الصحف ... وليس هناك مجلة واحدة ، خارج المجلات التي تأخذ وحيها من الحكومة مباشرة ، الا وتنشر مقالات لصالح الاشتراكية والعمال الاشتراكيين » . انظر ايضا ، ت . أولكرس : **الحركة الاشتراكية والشيوعية** ، لايبتيغ ١٨٤٤ .

## ماركس وباكونين

كان لماركس في باريس علاقات جيدة مع باكونين وبرودون ، فخلافاتهم المذهبية لم تكن بعد على ما يكفي من الحدة لتحدث قطيعة بينهم . ولكن كما كان يتفارق أكثر فاكثر في الآراء مع هس كذلك كان ينفصل عنهما منذ ذلك الحين لسببين مختلفين ، عن باكونين لأنه لم يكن يوافق على ترفيته الفوضوية الاتجاه ، عن برودون لأن هذا الأخير بوصفه مدافعا عن الطبقات الوسطى لم يكن يدفع إلى النهاية نقده للملكية الخاصة والمجتمع البرجوازي .

وصل باكونين إلى باريس في تموز ١٨٤٤ ، بعد أن أقام في زوريخ من يناير إلى حزيران ١٨٤٣ ثم اعتبارا من هذا التاريخ في برن وفي بروكسل ، واستقبل وديا من قبل بورنشتاين Boernstein ، صاحب جريدة « إلى الامام » ( بالالمانية ) الذي أعطاه في مقر الجريدة غرفة كان فيها يجتمع محررو إلى الامام الذين كانوا يخوضون مناقشات حامية عن الفلسفة والسياسة والشيوعية (١) .

في الأيام الأولى لاقامته في باريس ، عقد باكونين علاقات متصلة مع هرفغ ومع روجه ، الذي كان قد تعرف عليه في درسدن عام ١٨٤٢ . وقد حاول أن يكسب روجه إلى شيوعيته الفوضوية ولكن بلا نجاح ، إذ أن روجه بات عدوا عنيفا للشيوعية في كل أشكالها . روجه ، الذي كان يقدر طبيعته الأنيسة والمرحة والاندفاعية ولكنه كان يلوم حياة التشرذ التي يعيشها (٢) ، حاول أن يحوله عن

(١) انظر هـ. بورنشتاين : خمسة وسبعون عاما في العالم القديم والجديد ، لايبتيغ ، ١٨٨١ ، ١٤ ، ص ٣٥٧ . « كان عندي عدة غرف غير مشغولة ، في أكبرها كان يسكن موقنا الروسي باكونين أي كان له في هذه الغرفة الكبيرة سرير ميدان وصندوق وكوب معدني ، لم أعرف رجلا حاجاته أقل من حاجات باكونين . أبان جلسات هيئة التحرير كان ١٢ إلى ١٤ شخصا يجتمعون في هذه الغرفة ، بعضهم واقف والبعض الآخر متنقل ، وكلهم يدخلون بشكل مخيف ويناقشون بالقص ما يمكن من الحيوية والحماس .

انظر لـه. غرون : « م. باكونين » ، الجسور ، ٤١ ، ص ١٨٧٦ ، ٤٩٨ : « باكونين وروس آخرون ، أذكر منهم كونتا اسمه تولستوي ، كانوا يقضون كل وقتهم في قراءة الصحف ، يجعلون نهارهم ليلا وليلهم نهارا . لا يهتمون أبدا قبل الظهر ، يتناولون طعام الفطور ، ثم يتناولون الغداء في الساعة السادسة ويمكثون في المقهى حتى الساعة الثالثة ، الرابعة ، وحتى الخامسة صباحا . عندئذ يعودون إلى النوم وفي منتصف الظهر يستأنفون الدورة الجهنمية » .

(٢) انظر أ. روجه ، المراسلات ، ١٤ ، ص ٣٦٩ ، رسالة روجه إلى فروبل ، باريس ، ١٦ - ١٠ - ١٨٤٤ : « باكونين كما تعلم هو الآن هنا . أنه دائما معافي ، ممتلئ أملا ، ولذو مزاج لا يكثر صفوه . ولكنني اعتقد أنه لئن كان يستطيع أن يبرز على صعيد العلاقات الشخصية فإن الأمر سيختلف على الصعيد السياسي » . انظر المرجع نفسه ص ٣٧٤ ، ٣٧٦ . رسالة روجه إلى فلاشر ، باريس ٢٣ - ١١ - ١٨٤٤ : « الترفية العاطفية الفنية في مضمار الحرية تصبح عند باكونين تهاونا غير

ماركس . ولما رأى باكونين يقترب من هذا الاخير ، قرر روجه ، الذي كان فوق ذلك مستاء من كون باكونين لا يهتم ظاهرا بتسديد المال الذي كان قد استدانته منه ، ان يتبعه عنه (١) .

وسيدكر باكونين في وقت لاحق ، بعد مضي زمن طويل على قطيعتهما ، علاقته مع ماركس . يعترف له بفكر بالغ العمق والقوة ولكنه يقسو ويحجف في حكمه على طباعه : « ماركس وأنا - يقول باكونين في ١٨٧١ - «معارف قديمة» . صادفته لأول مرة في باريس عام ١٨٤٤ . كنت آنذاك مغتربا . قامت بيننا صداقة لا بأس بها . كان آنذاك أكثر تقدما مما كنت بكثير ، كما انه يبقى اليوم ليس أكثر تقدما فقط ، بل أيضا أكثر علما مني بما لا يقاس . لم أكن آنذاك أعلم شيئا من الاقتصاد السياسي ، لم أكن بعد تخلصت من مجرداتي الميتافيزيقية واشتراكتيني لم تكن الا بالفريزة . أما هو فرغم كونه أصغر سنا فقد كان منذئذ ملحدا ، ماديا عالما ، واشتراكيا متفكرا . وفي تلك الحقبة بالتحديد انضج أسس منظومته الحاضرة .



اخلاقي ، ينادي به لكل انسان ، ليس واقعا بل مبدئيا ، الامر الذي لا يمنعه من ان يكون ودودا وانسانيا لدرجة يغفل المرء من ضيق فكره . الا ان هذا التسيب الرفوع الى مستوى مبدأ وكذلك المظهر الملل اللامبالي التمسح الذي يريد نفسه ارسقراطيا يثيران اشمئزازي مثل الجرب ... القيمة الحقيقية لصديقنا باكونين تصبح شيئا فشيئا بالنسبة لي امرا مشكوكا فيه مثل قيمة فون رينتروب . لقد مضت سنوات عديدة على المشاريع التي كان يعزم على تحقيقها ، واخشى ان يمضي بالطريقة نفسها بقية حياته .

(١) انظر المرجع نفسه ، ص ٢٨٥ . رسالة روجه الى والدته ، باريس ١٧ - ١٢ - ١٨٤٤ : « تصوري ان باكونين ، الذي انقلذته من سيبيريا ومن اخطار اخرى عديدة ، الامر الذي كلفني مالا كثيرا ، تصوري ان باكونين يلتحق وراء ظهري بهؤلاء الرعاع ( المقصود ماركس والشيوعيون ) ... لست بحاجة لاقول لك انني لن اعيد ابدا الصلة مع هؤلاء الناس » . انظر ايضا ٢ . روجه ، « ذكريات عن ميشيل باكونين » ، الصحيفة الحرة الجديدة ، فينا ، ٢٨ و ٢٩ ايلول ١٨٧٦ .

« بعد ذهابه من درسدن ، وجد نفسه مضطرا الى ان يحسب هو ايضا حساب الضرورات المادية وانا نفسي كنت واحدا من هؤلاء الذين تحسسوا بذلك . العائلة تركته لوارداته الخاصة ورحل هربا ليس فقط من ملاحظات السلطات الروسية بل ايضا من ملاحظات دائنيه . ان موقفه السلبي من نقطة بهذه الدرجة من الماهوية قد ابعثني عنه ، وعندما في شباط رفض والده ان يدفع لي الورقة الموقعة من ابنه انتفتحت عيني ووجدت نفسي مخدوع اخوتنا في هيفل . ومع ذلك لم احفظ له صحيفة على ذلك . بعد زوال العوليات ، صادفته من جديد في باريس ، تصالحنا ، ولكن التقضايا المالية استبعت من علاقاتنا بشكل صريح . بالقابل ، صارت القضية الاقتصادية قاعدة كل مناقشاتنا النظرية التي اصاب كل اشكال الاشتراكية . كانت آرائي في هذه النقطة تختلف عن اراء ماركس ، بينما كان باكونين يتحالف معه ومع الشيوعيين . ومع ذلك حين صادفته فيما بعد في شارع ديفولي وبدات معه نقاشا على هذه النقطة ، لم يشأ الاعتراف بهذا الخلاف معي . بل على العكس اعلن لي ان الثورة سوف تتحقق على الصعيد السياسي لا على صعيد الاشتراكية وان الشيوعية منطقيا مستجيبة » .

التقينا مرارا وكنت أحترمه كثيرا لعلمه وتفانيه الجامع والمجد ، وان خالطه دوما غرور شخصي ، لقضية البروليتاريا ، وكنت أسمى بشغف الى محادثته الفريدة المثقفة والخفيفة الروح دوما ، حين لا يلهما حقد رخيص ، وهو أمر واقع كثيرا لسوء الحظ ! غير انه لم تقم بيننا في وقت من الاوقات مودة صريحة . مزاجانا لم يكونا متآلفين . كان يدعوني مثاليا عاطفيا وكان على حق وكنت ادعوه مغرورا مأكرا وغدارا وكنت ايضا على حق . « (١) » .

متسلط ومغرور وغدار ، ولكن ايضا ذكي بشكل عال وعالم جدا ، ذلك كان الحكم الذي اعطاه باكونين عن ماركس منذ لقائهما الاول ولم يغير رأيه فيما بعد . هذا الرأي يظهر ايضا في مقارنة عقدها بين ماركس وبرودون . كان يعترف بأن ماركس ، في تصوره العام عن العالم ، متفوق على برودون الذي لا يستطيع التخلص من مثاليته ، ولكنه كان بالمقابل يقدّر ان برودون يغلب ماركس بحس للحرية عميق ، حس على حد قوله ينقص ماركس تماما . « الآن نعترف بأن ماركس مفكر اقتصادي رصين جدا ، عميق جدا . له هذا الامتياز الهائل على برودون الا وهو كونه واقعيًا ، ماديا . برودون ، رغم كل الجهود التي بذلها لزعة تقاليد المثالية الكلاسيكية ، ظل طيلة حياته مثاليا لا يصلح ، يستوحى كما قلت له قبل وفاته بشهرين ، الكتاب المقدس تارة والحقوق الرومانية تارة ، وميتافيزيا دوما حتى نهاية اظافره . مصيبته الكبيرة انه لم يدرس يوما العلوم الطبيعية ولم يملك طريقتهما . كان له غرائز عبقرية جعلته يستشف الطريق الصحيح ، ولكنه ، اذ تجرّه عادات ذهنه السيئة او المثالية ، كان يعود دوما الى السقوط في الاغلاط القديمة ، مما جعل برودون تناقضا دائما ، عبقرية قوية ، مفكرا ثوريا ، يتخطى دائما ضد اشباح المثالية ولم يستطع يوما طردها .

ماركس كمفكر هو في الطريق الجيد . لقد اقام كمبدأ ان جميع التطورات السياسية والدينية والقانونية في التاريخ هي لا أسباب بل نتائج التطورات الثورية . تلك فكرة عظيمة وخصبة ، لم يخترعها بشكل مطلق ، فقد استشفها وافصح عنها جزئيا كثيرون قبله . ولكن ، في الحاصل ، له يعود شرف كونه اقامها بشكل متين

(١) انظر م. تتلو : م. باكونين ، حياته مع مختارات من مؤلفاته ، ( بالفرنسية ) ، المكتبة الوطنية ، ١٩٠١ ، ص ٧١ . مخطوطة ( فرنسية ) لباقونين : علاقات الشخصية مع ماركس ( ١٨٧١ ) . انظر ايضا باكونين : رسالة الى اخوان الحلف في اسبانيا ، ١٨٧٢ ، ص ١٣ ( بالفرنسية ) . « لنبدأ بانصاف خصومنا حيث يستحقون . ماركس ليس رجلا عاديا . انه ذو ذكاء عال ، وعلم واسع جدا خصوصا في المسائل الاقتصادية ، وهو فضلا عن ذلك رجل كان ، على حد علمي منذ عام ١٨٤٤ زمن لقائي الاول معه في باريس ، دائما وبصدق مخلصا تماما لقضية تحرر البروليتاريا ، القضية التي قدم لها خدمات لا جدال فيها ، ولكنه اليوم يعرضها للخطر بفروده الهائل وبطبعه الحقود المؤذي وبميله الى الدكتاتورية داخل حزب الاشتراكيين الثوريين » .

ووضعها أساسا لكل منظومته الاقتصادية . من جهة أخرى ، كان برودون قد فهم وأحس الحرية على نحو أفضل منه بكثير . برودون حين لم يكن يصنع مذهبا وميتافيزياء كان عنده الفريزة الثورية الحققة . كان يعبد الشيطان ويعلن « الفوضى » . ★ من الممكن تماما أن يكون ماركس قادرا على الارتفاع نظريا الى منظومة للحرية أكثر عقلانية أيضا منها عند برودون ، ولكن غريزة برودون تنقصه . كالماني وكيهودي ، انه من رأسه الى قدميه محب للتسلط (١) .

هذا الحكم لباكونين على ماركس وبرودون يعلل ليس فقط بمزاجه وطبعه بل أيضا وخصوصا بموقعه ازاء حركة العمال . كان يؤلف مع ماركس تضادا كاملا . فقد كان عملاقا يلتهمه نشاط فياض ، بجسد حسب كلمة بيلينسكي Bieliniski مبدأ الحركة الابدية ويدع نفسه لسبيل حياة لا عنان لها (٢) . في آن واحد مهيج وهائج ، خاض ومخضوض ، قادر على جذب وجر الجماهير ، واقدر على تمثيل أفكار الغير منه على اظهار اصالة فكرية ، لقد كان يدع نفسه بسهولة لفكرة تستولي عليه يميل الى دفعها الى حدها الأقصى ويعيرها رنين موهبته الخطابية الجميلة .

كان رجلا خرج من طبقته او سقطت رتبته ، يتعاطف مع أقرانه ، مع المثقفين ذوي الاتجاه الفوضوي أولا ، ثم فيما بعد مع الـ Lumpenproletariat ، مع البروليتاريا الرثة والتي كانت عندها عاطفة الثورة على المجتمع البرجوازي ذات طابع فردي أكثر منه اجتماعي . ان « حياة النور » التي كان يعيشها كانت تفترض ، اذا وزنا الامور ، بعض اللااخلاق . ومع ارتياده الاوساط الثورية ، كان ضيف الصالونات الارستقراطية في شارع سان جرمان Bd. Saint - Germain (٣) ، الامر الذي كان من الطبيعي أن يجعله موضع اشتباه (٤) .

ماركس كان عكسه بالتام . فكل شيء كان عنده نظاما وانضباطا في الفكر وفي العمل . ذكاؤه الصاحي لم يكن يدع أي مكان للعاطفة والفموض والارتجال ، وكان يضع في خدمة هذا الذكاء ارادة عنيدة .

★ anarchie = لا رئاسة ، لا سلطة . وهو مذهب برودون ، شترنسر ، باكونين ، كروبوتكين الخ ، « الفوضوية » . « الفوضويون » لا يعتبرون انفسهم انصار الفوضى désordre ، يرفضون المفهوم الشائع ، يعتبرون السلطة مصدرا من مصادر الفوضى ... . (١) انظر م. نتلو ، ص ٧٠ . باكونين : رسالة الى اخوان الحلف في اسبانيا ، ص ١٥ ، ١٦ . (٢) الفوضويون لا يدعون تنظيمهم حزبا بل حلقا او عهدا ، اتحادا او فيدراسيون الخ . (٣) رسالة بيلينسكي الى بوتكين ، ١٨٤٢/١١/٧ ، مذكورة في مقال دراغومانوف عن « م. باكونين » ، المجلة الاشتراكية ( بالفرنسية ) ، نوفمبر ١٨٩٥ ، ص ٥٤٩ . « ان مبداء الحركة الابدية هو الذي يرقد في اعماق نفسه » .

(٢) انظر ٢. روجه ، المراسلات ، ج ١ ، ص ٢٧٠ . رسالة من روجه الى فلايشمر ، باريس ١٨٤٤/١٠/٢٠ : « هنا في حي مونمارتر ، علاقاته مع صاحبة سان جرمان لا تزعجني بأي حال » .

(٤) انظر الى شرح لاحق ( بعد حوالي الصفحة ) .

هذا التعارض في المزاج كان يوازيه افتراق عميق في المذاهب ، فمذهب ماركس كان يتميز بصرامة علمية متزايدة ، ومذهب باكونين بترفيه فوضوية اللون كانت تقربه من برودون وتبعده عن ماركس ، الذي كان يؤول باكونين صرامته وصلابته المذهبتين على انهما علامة غرور واستبداد . هذا الافتراق المذهبي يعكس بموقفهما المختلف ازاء حركة العمال . فبينما كان باكونين باقيا ان صح القول على هامش هذه الحركة ، فان ماركس وانجلز بارتباطهما معها اكثر فاكثرا كانا يضحيان بكل شيء لصالح انتصار البروليتاريا والشيوعية .

عدا باكونين ، كان ماركس يعاشر أيضا بعض الارستقراطيين الروس الذين كانوا يعيشون نفس حياة التشرذم التي كان يعيشها وكانوا أحيانا يظهرن نفس اللاأخلاقية (١) . بينهم الكونت تولستوي ، صديق بوشكين والديسميري السابق\*، الذي اصبح في عام ١٨٣٧ عميلا للحكومة الروسية (٢) ، ، و. ي. سazonوف ،

(١) انظر فوي تسايث ، ١٩١٢ - ١٩١٣ ، ج١ ، ص ٧١٥ وبمدها . ريانانوف : « ماركس ومعارفه الروسية في الاربعينات » . انظر له . ماركس : رسائل الى كوجلان ، باريس ١٩٣٠ . رسالة من ماركس الى كوجلان ، ١٢/١٠/١٨٦٨ : « تقضي الارستقراطية الروسية شبابها في الجامعات الالمانية وفي باريس . تبحث بشغف عن كل الافكار المتطرفة التي يمكن ان يقدمها القرب ، ولكن من باب الشراهة الخفى . هكذا كان يعمل قسم من الارستقراطية الفرنسية في القرن الثامن عشر . » ليس لاجل الخياطين والحذائين « هذا ما كان يقوله فولتير عن افكاره الليبرالية . ذلك لا يمنع هؤلاء الروس انفسهم من ان يصيروا اوغادا بدخولهم في خدمة الدولة » .

(\*) نسبة الى انتفاضة ( او انتفاضات ) ديسمبر ١٨٢٥ ، التي قام بها ضباط روس ( يوم تنصيب القيصر نيقولا الاول ) بقيادة جمعيات سرية . هذا التحرك كان اول محاولة ثورية روسية ضد القيصرية وهو يدين الطور الاول ( طور النبلاء ) في تاريخ الثورة الروسية الذي يستمر حتى ١٨٦١ ) .

(٢) انظر مراسلات ماركس - انجلز ، ميغا ١١١ ، ج١ ، ص ٣٦ . رسالة انجلز الى مكتب المراسلات الشيوعي في بروكسل ، باريس ، ١٦ ايلول ١٨٤٦ : « ان تولستوي هذا ليس احدا اخر سوى تولستونا ، ذلك القلب الكريم الذي كان يزعم انه يريد بيع املاكه في روسيا . عدا الشقة التي كان يقودنا اليها ، كان هذا السيد يملك بيتا رائعا في شارع ماتوران حيث كان يستقبل الدبلوماسيين . البولونيون وكثير من الفرنسيين كانوا يعلمون ذلك منذ زمن طويل ، فقط الراديكاليون الالمان - وكان يرى من المفيد ان يظهر امامهم راديكاليا - كانوا يجهلون ذلك . باكونين نفسه ، الذي كان لا شك يعرف هذه القصة التي كان الروس يعرفونها ، مشبه جدا » .

انظر ف. داف : ماركس وباكونين ، امستردام ١٩٠٠ ، ص ١١ : « بعد خطاب القاه في اجتماع لصالح بولونيا ، طرد باكونين من باريس . بهذه المناسبة القى الوزير دوشال خطابا ملتصا حول باكونين . ما هي الاشياء التي لم يكن الوزير يريد ان يكشفها ! فقط هذا . ردا على طلب معلومات من الحكومة عن باكونين ، اجاب السيد كيسيليف ، ممثل روسيا في باريس : « انه رجل غير محروم من الموهبة وقد استخدمناه . ولكنه في هذه المرة ذهب بعيدا ولم يعد باستطاعتنا ان نتقبل وجوده في باريس » . كيسيليف هذا نفسه حاول فضلا عن ذلك ان ينشر بين المقربين البولونيين شائعة ان باكونين ليس اكثر او اقل من عميل » .

العضو القديم في الجمعية الاشتراكية الروسية الاولى ، التي كان ينتمي اليها هرزن  
Herzen وأوغاريف Ogarev ، الذي كان قد جاء الى باريس في عام ١٨٤٠ بعد حل  
هذه الجمعية في ١٨٣٤ .

### ماركس وبرودون

أكثر وثوقا منها مع باكونين كانت العلاقات التي عقدها ماركس في باريس مع  
برودون الذي كان في نظره أكبر اشتراكي فرنسي معاصر . بعد تأكيده في مذكرة عن  
الملكية جعلته شهيرا أن الملكية مصدر اللامساواة والاجحافات الاجتماعية، كان برودون  
قد وضع في كتابه « **عن خلق النظام في البشرية** » ( ١٨٤٣ ) تسويفا فلسفيا وتاريخيا  
واقتصاديا في آن لاشتراكية تركز على الملكية الصغيرة الخاصة بالطبقات الوسطى .  
ما يميزه عن المذهب الاشتراكيين الآخرين كان اتجاهه فوضويا يجد تعبيره في ادانة  
الدولة حيث يظهر له تدميرها بمثابة الشرط المسبق والضروري لكل اصلاح اجتماعي  
حقيقي . والفوضوية التي يميل اليها برودون مثل باكونين لها عنده تعليلها لا في كونه  
رجلا مقط مرتبته الطبقة بل في كونه يدافع عن مصالح الطبقات الوسطى ، التي  
تؤلف الفوضوية بالنسبة اليها التعبير الايديولوجي عن رغبة في الانعتاق لا تستطيع  
تحقيقها بقواها الخاصة .

ولقد مكث برودون في باريس من شباط الى نيسان ١٨٤٤ ثم من ايلول ١٨٤٤  
الى شباط ١٨٤٥ . من الاجانب عاشر بصورة رئيسية روحه ، باكونين ، ك. غرون ،  
ماركس ، الذين معهم كان يتناقش خاصة في الفلسفة الالمانية . يمكن ان تكون فكرة  
عن هذه المناقشات بفضل هرزن الذي ينقل في مذكراته محادثة بين باكونين وبرودون  
عن هيفل امتدت على ليلة بطولها (١) .

كانت علاقاته مع ماركس علاقات مواصلة بشكل خاص خلال الخريف والشتاء  
١٨٤٤ - ١٨٤٥ . وكانت مناقشاتهما تصيب بشكل رئيسي الهيفلية ، التي كان  
ماركس يجهد ، دون نجاح كبير ، لتلقيه الامر الجوهري فيها . وسيتحدث ماركس

(١) انظر هرزن ، مذكرات ، المؤلفات ، ح ١١ ، ص ٥٢ . « لقد صادفته ( برودون ) احيانا عند  
باكونين الذي معه كان على صلة وثيقة ... برودون كان في تلك الآونة يتردد عليه ليستمع عنده الى  
حديث رايشل عن بيتهوفن وباكونين عن هيفل . على كل حال كانت المناقشات الفلسفية تدوم أكثر من  
المناقشات عن السمفونيات ... ذات مساء في ١٨٤٧ ، كارل فوغت ، الذي يسكن ايضا في شارع بورغونيا  
والذي كان كثيرا ما يأتي لرؤية رايشل وباكونين ، مل من سماع المناقشات التي لا تنتهي عن الفينومينولوجيا  
فعاد الى منزله . في اليوم التالي ، ذهب لياخذ رايشل ... فدعش لسماعه رغم الساعة الصباحية  
محادثة صاخبة . وحين فتح الباب ، رأى برودون وباكونين جالسين في نفس المكان امام النار المطفأة في  
الموقد يفتخان باختصار المناقشة البائدة في العشية » .

بعد عشرين سنة عن هذه المناقشات فيقول : « اثناء اقامتي في باريس عام ١٨٤٤ ، دخلت في علاقات شخصية مع برودون . اذكر هذا الظرف لانني الى درجة ما مسؤول عن sa sophistication ( حدلته ، فلكنه ) ، وهي كلمة يستعملها الانكليز للتعبير عن تزييف سلعة ما . في مناقشات طويلة كثيرا ما كانت تمتد ليلة بكاملها ، كنت أحفنه حقنا هيغلية كبيرة ، لغير صالحه أبدا ، اذ بما انه لم يكن يعرف الالمانية فانه لم يكن يستطيع ان يدرس الامر بعمق . وما كنت قد بداته تابعه السيد كارل غرون بعد طردي من فرنسا . اصف ان استاذ الفلسفة الالمانية هذا كان يمتاز عليّ في كونه لا يفهم شيئا مما كان يعلمه (١) » .

برودون لا يذكر علاقاته الشخصية مع ماركس لا في رسائله ولا في دفاتر ملاحظاته . تلميحه الوحيد الى مناقشاته مع المثقفين الالمان موجود في رسالة بتاريخ ١٨٤٥/١/٩ يقول فيها ان هؤلاء قد امتدحوه على كونه وصل الى نفس النتائج التي وصل اليها هيغل الذي لم يحدث ان قرأه برودون وهو يعترف بذلك (٢) .

بعكس ماركس الذي كان يريد ، مدافعا عن مصالح البروليتاريا ، ان يستبدل المجتمع البرجوازي بمجتمع شيوعي ، كان برودون ، المدافع عن مصالح الطبقات الوسطى وبخاصة الفلاحين الصغار والحرفيين ، يريد لا تدمير المجتمع البرجوازي بل اصلاحه ليلائم مصالح هذه الطبقات .

رغم جملة الثورية مثل كلمته الشهيرة : « الملكية هي السرقة » التي كان قد اخذها عدا ذلك عن بريسو Brissot (٣) ، فقد كان يريد جوهريا حماية الطبقات المتوسطة ضد الرأسمال الكبير والبروليتاريا .

مدفوعا بالرغبة في حماية وابقاء الملكية الصغيرة الخاصة بهذه الطبقات ، كان يقف في آن ضد حق الملكية المطلق الذي يعزز الرأسمال الكبير وضد الشيوعية التي كان يعتبرها خطرا أكبر أيضا بالنسبة للطبقات الوسطى ما دامت تتعرض لمبدأ الملكية

(١) انظر رسالة له. ماركس الى شفايتسر عن برودون ، منشورة في جريدة الاشتراكي - الديمقراطي ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨/١/١٨٦٥ . رسالة منقولة في له. ماركس : بؤس الفلسفة ، باريس ١٩٢٢ ، الملحق رقم ١ ، ص ٢٢٥ .

(٢) انظر برودون : مراسلات ، باريس ١٨٦٠ ، ج٢ ، ص ١٧٦ . رسالة برودون الى برغمان ، ١٨٤٥/١/١٩ : « حسب المعارف الجديدة التي اقمتهنا هذا الشتاء ، لقد فهمت بشكل جيد جدا من قبل عدد كبير من الالمان ، الذين اعجبوا بالعمل الذي قمت به كي اصل لوحدي الى ما يزعمون انسه موجود عندهم . لا يستطيع بعد ان احكم على القرابة الموجودة بين ميتافيزيائي ومنطق هيغل مثلا ، لانني لم اقرا هيغل في يوم من الايام » .

(٣) انظر ج. ب. بريسو : ابحاث فلسفية عن حق الملكية وعن الارض معتبرين في الطبيعة وفي المجتمع ، ( بالفرنسية ) ، برلين ١٧٨٢ . ( كان بريسو صحفيا ، صار عضوا في الجمعية التشريعية وفي المؤتمر ، وهو احد قادة الجيرونديين ، اعدم في ١٧٩٣ ) .

الخاصة بعينه (١) .

كان يلوم حق الملكية المطلق على كونه يقود بتطور المزاخمة الى الاحتكار ، الى التملك الظالم لمنتوج شغل الغير ، الى نزع ملكية وسحق الطبقات الوسطى والسوى البؤس العام للشعب (٢) . وكان يدين بعنف اكبر ايضا شيوعية الخيرات السني يعتبرها سببا للعبودية والاذلال (٣) . بعيدا عن أن يطلب حذف الملكية الخاصة ، كان بالعكس يريد تعميمها في شكل ملكية صغيرة مجعولة في متناول الجميع . واذ يتصور الملكية الصغيرة في شكل حيازة possession ، نوع من ملكية منقوصة ، لا تؤمن دخلا الا بعمل الذي يستثمرها ، فقد كان يضعها في معارضة الملكية المطلقة وشيوعية الخيرات معا (٤) ، ويقلصها الى حق ملكية محدود ، الى حق انتفاع ، وتبقى للدولة سلطة حذفه في حال وقوع تجاوزات (٥) .

بهذا الدفاع عن الملكية الصغيرة في شكل الحيازة التي تبدو له وحدها كفيلة بتأمين استقلال الشغل ، كان برودون ، وهو من أرومة فلاحية وحرفية ، يعبر عن مطامح الطبقات الوسطى نصف - المبرلتره المعادية بالتساوي للرأسمال الكبير الذي يسحقها وللبروليتاريا التي عنها يبعدها تعلقها بالملكية الخاصة .

مثل جميع المصلحين ، المدافعين عن مصالح الطبقات الوسطى ، كان برودون

(١) انظر برودون : ما هي الملكية او ابحاث عن مبدأ الحق والحكومة ، مذكرة اولى ، ١٨٤٠ ، ص ٢١٧ - ٢٤٤ . طابع الجماعة ( الاشتراك ، الشيوعية ) والملكية . تحديد شكل المجتمع . خلاصة . انظر المراسلات ، ٢٠ ، ص ٢٣١ . رسالة الى تيسو ، ليون ، ١٨٤٦/١٢/١٣ : « هذا ما كنت اعنيه منذ مذكرتي الاولى حين قلت انني لست مالكا ولا شيوعيا ، وهذا نفي مزدوج يؤول الى القول : الملكية والاشتراك ( الخاصة والجماعية ) اثنان متناقضان ، antinomies ، مبدآن غير ممكني التحقيق وضروريان في نفس الوقت » .

(٢) انظر برودون : ما هي الملكية ؟ مذكرة اولى . كل الجزء الاول .

(٣) انظر المرجع نفسه ، ص ٢١٩ : « الاشتراك لا مساواة ، ولكن في الاتجاه المعاكس بالمقارنة مع الملكية . الملكية هي استقلال الضعيف من قبل القوي ، الاشتراك هو استقلال القوي من قبل الضعيف... الشيوعية اضطهاد وعبودية » . كان يعارض ايضا « التماثل السعيد والفبي الذي يراد به تقييد شخصية الانسان الحرة ، الفاعلة ، الحاكمة ، غير الخاضعة » الذي هو في رأي برودون العاقبة المحتومة لمشاعية الخيرات .

(٤) انظر المراسلات ، ح ٢٠ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ . رسالة برودون الى غيومان ، ١٨٤٦/١١/٢١ .

انظر برودون : ما هي الملكية ؟ مذكرة اولى ، ص ٢٤٢ : « العيازة الفردية شرط الحياة الاجتماعية... الملكية انتحار المجتمع... احذفوا الملكية ( الخاصة ) واحفظوا العيازة ( الاقتناء ) ... تطردوا الشر من الارض » .

(٥) انظر برودون : ما هي الملكية ؟ مذكرة ثانية . رسالة الى السيد بلانكي ، استاذ الاقتصاد السياسي في كونسرفاتوار الصنائع ، باريس ١٨٤١ .

يتخذ موقع وسيط بين الرأسمالية والاشتراكية (١) . كان يسمى منذ ذلك الحين الى ان يقيم ، وهذا ما سيفعله بصورة مفصلة ومنهجية في كتابه فلسفة البؤس او منظومة التناقضات الاقتصادية (١٨٤٦) ، تركيبا من الرأسمالية والاشتراكية ، مدافعا مع الاقتصاديين البرجوازيين عن مبدأ الملكية الخاصة ضد الاشتراكيين وناقدا مع هؤلاء عيوب الرأسمالية (٢) .

ان منظومة التوسط هذه المطابقة لوضعه الطبقي كانت تستجيب لها طريقة قائمة على تكيف الاضداد يستخدمها في تبرير موقفه الواسطي . فقد كان ، بتحويل للجدل الهيجلي ، يولد التركيب لا كما يفعل هيجل وماركس من تشدد الاضداد ، الامر الذي يستجيب لموقف ثوري ، بل من تخفيفها وتكييفها ، الامر الذي كان يجعل الجدل محولا ومزيفا على هذا النحو اساس مذهب تسوية (٣) .

بهذا المنهج ، منهج تكيف الاضداد ، الذي كان بتحبيدها وابطالها يشل الحركة الجدلية ، كان برودون يتميز بالاساس عن ماركس الذي كان يفكر بعكسه ان التقدم لا يمكن ان يأتي الا من تفاقم التناقضات الاقتصادية وصراعات الطبقات .

(١) انظر نفس الرجوع ، مذكرة اولى ، ص ٢١٧ . « كي اجعل ذلك كله في صيغة هيجلية ساقول اذا: الجماعة ( الاشتراك ، الشيوعية ) ، اول نمط ، اول تعديل للاجتماعية ، هي الحد الاول للتطور الاجتماعي ، الاطروحة ، الملكية ( الخاصة ) ، تمير الجماعة المتناقض ، يجعل هذا الحد الثاني الاطروحة المضادة . بقي ان نكتشف الحد الثالث ، التركيب ، وسيكون لدينا الحل المطلوب . والحال ، ان هذا التركيب ينتج بالضرورة عن تصحيح الاطروحة بالاطروحة المضادة ، اذن ينبغي ، بفحص اخر لخصائصهما ، استبعاد ما تحويانه من معاد للجماعة ، والبقيتان ستؤلفان باجتماعهما نمط الاجتماع الانساني الحقيقي» . انظر ايضا المراسلات ، ٢٥ ، ص ص ٤٦ - ٤٧ . رسالة برودون الى آكرمان ، ١٨٤٢/٥/٢٣ . ٢٥ ، ص ١٥٨ ، رسالة برودون الى آكرمان ، ١٨٤٤/١٠/٤ .

(٢) انظر رسالة لـ ماركس الى شفايتسر عن برودون المنشورة في الاشتراكي الديمقراطي ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨/١/١٨٦٥ . مذكرة في بؤس الفلسفة ، الملحق ١ ، باريس ١٩٢٢ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ . « ولكن رغم مظاهره كمحطم للايقونات ، يوجد في هذا المؤلف الاول ، منذ هذا المؤلف الاول ، هذا التناقض وهو ان برودون من جهة يقاضي المجتمع ومن وجهة نظر ويعيني الفلاح الصغير ( فيما بعد البرجوازي الصغير ) الفرنسي ، ومن الجهة الاخرى يطبق عليه المعيار الذي انتقل اليه من الاشتراكيين » .

(٣) انظر رسالة ماركس الى شفايتزر عن برودون ، الرجوع المذكور ، ص ٢٢٣ : « طبيعة برودون كانت تجعله على الديالكتيك ؟ ولكن بما انه لم يفهم يوما الديالكتيك العلمي لذا لم يصل الا الى السفسطة . بالواقع كان ذلك ينبع من وجهة نظره البرجوازية الصغيرة . فالبرجوازي الصغير ، شأنه شأن مؤرخنا رومر Raumer يقول دائما من جهة ومن جهة اخرى . تياران متعارضان ، متناقضان ، يسيطران على مصالحه المادية وبالتالي على رؤاه الدينية والعلمية والفنية ، على اخلاقه ، واخيرا على كل كيانه . انه التناقض الحي . واذا كان ، فضلا عن ذلك ، مثل برودون ، رجلا خفيف الروح ، فانه لا يلبث ان يلعب مع تناقضاته ذاتها وان ينضجها حسب الظروف في مفارقات مذهبة ، صاخبة ، احيانا لامعة » .

هذا الموقف الواسطي وهذا المنهج المسوّي يعلل مفهمته المثالية للتاريخ . بدلا من أن يفسر ، كما شرع ماركس وأنجلز يفعلان ، تطور التاريخ الحديث بتطور النظام الرأسمالي وبتفاهم الصراعات الطبقيّة بين البرجوازية والبروليتاريا ، كان يخضعه على طريقة الطوباويين لتحقيق مثل أعلى اخلاقي واجتماعي ، وبخاصة لتحقيق فكرة العدالة ، التي كان يجعلها في آن محرّك وهدف التاريخ .

هذا يفسر أيضا عداءه الاساسي ازاء الثورة الاجتماعية الذي حدد موقفه السياسي المتردد بل أحيانا المضاد للثورة جوهريا الذي كان يجد تعبيره منذ ذلك الحين في مديحه للملك لوي فيليب (١) والذي سينتظار فيما بعد في مديحه لنابوليون الثالث . إذ كان يدين الثورة الاجتماعية والصراعات الطبقيّة ، فقد كان مساقا الى أن يعتبر ، على طريقة محبي البشر ، البروليتاريا طبقة بائسة دون أن يرى فيها العنصر الثوري المدعو لتدمير المجتمع البرجوازي .

ولما كان محمولا مثل جميع الطوباويين الى أن يعتبر نفسه مسيحا جديدا ، فإن هذا الميل كان يدفعه نحو غرور هائل يتخذ في بعض الاحيان ابعادا لا تصدّق (٢) .

هذا التعارض الاساسي بين ماركس وبرودون لم يكن بعد يتجلى الى حد عدم السماح بعلاقات جيدة بينهما . ماركس الذي كان ، في **الصحيفة الرايانية** وفي رسالة

---

(١) مذكرته الثانية عن الملكية تنتهي بتأكيد لولائه الملكي . انظر ص ١٧٧ .

انظر الرسائل ، ج ٢ ، ص ٧٥ . رسالة برودون الى فلوري ، ١٨٤٣/١/٢٢ : « ان عهد لوي فيليب ، كاعداد لنظام جديد ، واحد من عهود التاريخ الاكثر جدارة بالملاحظة » .

(٢) انظر رسالة لـ ماركس الى شفايتزر عن برودون ، مرجع مذكور ، ص ٢٣٢ - ٢٣٤ : « الشعوذة العلمية والتكيفات السياسية لا تنفصل عن وجهة نظر كهذه . لا يبقى سوى حافظ واحد ، غرور الفرد ، وكما بالنسبة لجميع المفردين لا يعود الامر الا اثر اللحظة ، نجاح اليوم . هكذا يضع بالضرورة النوق محض الاخلاقي الذي حمى روسو Rousseau مثلا من كل تلوث ولو ظاهر ، مع السلطات الموجودة » .

انظر الرسائل ، ج ٢ ، ص ٨٨ - ٨٩ . رسالة برودون الى موريس ، ١٨٤٣/٨/٤ : « الذين سيقومون بهذه التضحية ( تضحية ان يقرؤوا كتابه « عن خلق النظام في البشرية » ) ... لن يندموا على ذلك . سيتعلمون من الامور اكثر مما انتج ( من امور جديدة ) منذ ستين سنة . هذا ، بانتظار حكم النقد ، ما اجروا ان افكره عن مؤلفي » .

انظر المرجع نفسه ، ص ١١٢ - ١١٣ . رسالة برودون الى آكرمان ١٨٤٥/١١/٢٥ : « انتظر منه ( من كتابي : عن خلق النظام ... ) ثورة في الدراسات الفلسفية اكبر ايضا من الثورة التي حققها كمنط . ستجد عندي اشياء لم تسمع حتى هذا اليوم في عالم المفكرين ، اشياء تكشف بالجملة والتفصيل مخطئا جديدا للخلافة ، وإن اثر هذه الاشياء لا يمكن مقارنته ( اذا لم اكن مخطئا ) الا بالاثر الذي نتج عن ظهور منظومة نيوتن » .

الى روجه قد مجّد في برودون افضل اشتراكي فرنسي (١) ، كان يقارنه آئنڊ ، في مقال في **الى الامام** ، بفايتلنغ weiting وكان يعتبر مذكرته عن الملكية افضل مؤلف للاشتراكية الفرنسية (٢) .

كان ماركس يقدّر أولا بأول عند برودون موقفه المناهض للدين ، وهو الموقف الذي كان يميزه عن معظم الاشتراكيين والشيوعيين الفرنسيين آنذاك (٣) . فقد كان برودون يعتبر الدين عقبة امام التقدم العلمي والاجتماعي ، ولكن بخلاف ماركس الذي كان يريد الغاء كل شكل من اشكال الدين كان يفكر بالاستعاضة عن الدين التقليدي بدين جديد هو دين العلم .

وما كان ماركس يقدّره اكثر من أي شيء آخر عند برودون كان نقده للاقتصاد السياسي البرجوازي الذي كان برودون يأخذ عليه كونه يضع ، كما توضع مسئلة او مصادرة ، الملكية الخاصة كبداً أساسي ، بدون اخضاعها لتحليل نقدي ، وكان يعترف له كمأثرة رئيسية بكونه على وجه التحديد قد باشر هذا التحليل .

ومع تقديره لمآثر برودون ، كان ماركس يلومه ، في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** ، على كونه لم يدفع الى النهاية نقده للاقتصاد البرجوازي وكونه وقف مثله على مستوى الملكية الخاصة في انضاجه لمنظومته .

رغم هذه التحفظات ، ظلت علاقاته مع برودون ودية أثناء وجوده في باريس . كان لا يزال بينهما ما يكفي من النقاط المشتركة التي تتيح تقارباً على الاقل موقفاً كانا كليهما يستفيدان منه . فقد كان ماركس يجد عند برودون عناصر عديدة تؤيد تصوراتهِ الجديدة ، ليس فقط نقداً معمقاً للملكية الخاصة بل ايضاً تأكيداً أن

(١) انظر ميغا ١ ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ . الصحيفة الراينية ، رقم ٢٨٩ ، ١٦/١٠/١٨٤٢ . لـ. ماركس: الشيوعية وصحيفة أوغسبورغ العامة .

انظر نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٧٣ . رسالة ماركس الى روجه ، كروزيياخ ، ايلول ١٨٤٢ . روجه لم يكن عنده نفس الراي عن برودون ، وقد انتقد كتابه « خالق النظام في الانسانية » في رسالة بعث بها الى ماركس بتاريخ ١١/٨/١٨٤٢ ( انظر ميغا ، ١ ، ج ٢ ، ص ٣١٤ ) : « برودون اصدر لتوه كتاباً كبيراً هو منظومة حقيقية : خلق النظام في البشرية او مبادئ التنظيم السياسي . القسم النظري المنظومي ضعيف جداً ، بالمقابل انه يبدي راديكالية شديدة ازاء الدين . ينفيه ، ينقد الفلسفة كفسطة يعارضها بالعلوم . لست بعد متقدماً بشكل كاف في هذه القراءة ولكني ارى من الان ان فاعليته العملية تفوق نظريته ، تفوق ايمانه في بناء منطقي منظومي ومطلق » .

(٢) انظر ميغا ، ١ ، ج ٢ ، ص ١٨ ، الى الامام ، ٧ و ١٠/٨/١٨٤٤ . لـ. ماركس : ملاحظات هامشية .

(٣) انظر رسالة ماركس عن برودون في الاشتراكي الديمقراطي ، مرجع مذكور ، ص ٢٣٢ : « على اي حال ، كان لهجماته على الدين والكنيسة فصل محلي كبير في وقت كان فيه الاشتراكيون الفرنسيون يفاخرون بمواظفهم الدينية وكانها تتوق على فولتيرية القرن الثامن عشر وعلى الاتحاد الالمانى في القرن التاسع عشر » .

الاقتصاد السياسي يؤلف قاعدة التاريخ ويضبط التطور الاجتماعي (١) . تلك بالحقيقة لم تكن عند برودون سوى ملاحظات معزولة وموزعة مشتتة تتباين بحدّة عن جملة مفهوماته المثالية .

وبالمقابل ، ان تأثير ماركس على برودون لم يكن شيئا ممكن اهماله . هذا نستخلصه بشكل خاص من رسالة كتبها برودون الى برغمان في ٢٤ - ١٠ - ١٨٤٤ . عرض فيها وجوب لفظ وجهة النظر المثالية والذاتية في دراسة التطور الاجتماعي . على حد قوله : « ... الاجتماع ، الاخلاق ، العلاقات الاقتصادية ، هذا كله ، كي لا نكون عسفيين ، يجب ان يدرس موضوعيا ، في الاشياء . يجب التخلي عن وجهة النظر الذاتية ، المعتمدة الى هنا من قبل الفلاسفة والمشرّعين ، والبحث خارج مفهومة العادل والخير الفامضة عن القوانين التي يمكن أن تخدم في تحديده ( تحديد التطور الاجتماعي ) والتي يجب ان تكون معطاة لنا موضوعيا في دراسة العلاقات الاجتماعية التي خلقتها الوقائع الاقتصادية (٢) » .

ان تصورا ماديا للتاريخ كهذا التصور لا يصادف لا في مؤلفات برودون السابقة ولا في مؤلفاته اللاحقة ، ولا يمكن الشك في أنه لئن كان يتكلم هكذا ، وهو أمر ناشز عنده ، عن مفهومة غامضة للعدل والخير ، وعن ضرورة دراسة العلاقات الاجتماعية التي تخلقها الوقائع الاقتصادية ، من وجهة نظر ليست ذاتية بل موضوعية ، فذلك تحت التأثير المباشر لماركس .

بعد طرد ماركس ، سيفترق سبيلاهما اكثر فأكثر تحت فعل تعارض مفاهيمهما الاقتصادية والاجتماعية . هذا الافتراق سيظهر بعد عامين في وضع النهار ، والنقد الذي لا رحمة فيه الذي سيوجهه ماركس الى برودون في *بؤس الفلسفة* سينهي علاقاتهما .

### فلهم فايتلنغ والشيوعية في سويسرة

كان ماركس في تلك الفترة يحتفظ باعجاب كبير لـ ف. فايتلنغ w. weitling بسبب الطابع الثوري لمذهبه وعمله . كان يقارنه مع برودون ، فيعتبره أعظم منظر للطبقة العاملة الالمانية ، وفي جوابه على روجه ، الذي كان قد أنكر عن هذه الطبقة القدرة على التعلم وعلى التحرر ، ذكره كأروع مثال عن البروليتاري الثوري . « فيما

(١) انظر برودون : عن خلق النظام في البشرية . بشكل خاص الفصلين ٤ و ٥ ، عن الاقتصاد السياسي والتاريخ .

(٢) انظر الرسائل ، ٢٤ ، ص ١٦٦ .

يتصل بدرجة وقدرة التربية للعمال الالمان ، اكتفي بالتذكير بالمؤلفات العبقريّة لفائتلنغ weitzling الذي كثيرا ما يتخطى برودون من الوجهة النظرية وان كان ادنى منه من وجهة التأليف Composition . هل تستطيع البرجوازية ، مع فلاسفتها وعلمائها ، ان تظهر مؤلفا من شأنه ، على صعيد التحرر البرجوازي أي التحرر السياسي ، ان يقارن بـ **ضمانات التناسق والحرية** لفائتلنغ ؟ اذا قارنا تفاهة الادب السياسي الالمانى بهذه البداية الادبية اللامعة والخارقة للعمال الالمان ، اذا قارنا هذا الحذاء ، حذاء البروليتاريا الالمانية الطفلي الضخم بحذاء البرجوازية الالمانية الصغير والمهترىء ، لما امكننا الا التنبؤ بكتفي بطل رياضة لسندريلا الالمانية (١) . » .

والأرجح ان هذا التقدير الاطرائي لمؤلفه دفع فائتلنغ الى ان يبعث بتاريخ ١٨ - ١٠ - ١٨٤٤ برسالة الى ماركس دعاه فيها الى تراسل ودي معه . فقد كتب له من لندن : « اعتقد انني تعرفت عليك في بعض مقالات الى الامام ، بمقارنتي الروح التي تحركها مع ما قيل لي عنك . قراتها بسرور . لا احتاج لان أسهب حول هذا الموضوع . نحن اصدقاء وبوصفنا كذلك اعتقد اننا نستطيع ان نتبادل اخبارنا من حين الى آخر (٢) . »

والأرجح ان ماركس لم يرد على هذه الرسالة ، والتراسل الذي تمناه فائتلنغ لم يحصل . والسبب ان ماركس ، مع تقديره العالي جدا لفائتلنغ كمكافح ثوري ، كان ينفصل عنه انفصالا عميقا في مفهومته للتطور التاريخي وللشيوعية . وهذا كان حائلا دون اي تقارب وثيق بينهما ، لاسيما وان فائتلنغ كان بتطور معاكس لتطور ماركس يصب في شيوعية طوباوية وصوفية .

بعد مصادرة كتابه **انجيل الخاطئين المساكين** في حزيران ١٨٤٣ (٣) ، كان قد اعتقل وحكم في ايلول بالسجن عشرة أشهر . واذا طرد في ٢١ ايار ١٨٤٤ من سويسرة ، فقد سلم الى شرطة دولة بادن التي سلمته الى السلطات البروسية . ووضعته الحكومة البروسية بادىء بدء في الإقامة المراقبة ، ثم ، رغبة في التخلص منه ، سمحت له بالسفر الى هامبورغ حيث وصل في ١٨ آب ١٨٤٤ . واستفاد فائتلنغ من وجوده في هامبورغ لبحث نشر قصائده المكتوبة في السجن مع الناشر كامبه ، وعند هذا الاخير صادف هاينه الذي ترك لنا عنه لوحتين مثيرتين (٤) . هذه القصائد التي

(١) انظر ميغا ، ٣ ، ص ١٨ .

(٢) رسالة منقولة في بارنيكول : فائتلنغ السجن وعدالته ، كيل ، ١٩٢٩ ، ص ٢٦٥ وبمدها .

انظر ف. فائتلنغ : ضمانات التناسق والحرية ، برلين ، ١٩٥٥ ، صص ٢٢ - ٢٨ .

(٣) انقذت المخطوطة ونشرت في ١٨٤٥ تحت عنوان انجيل الخاطيء القيم .

(٤) انظر ه. هاينه : المؤلفات الكاملة ، اصدار ا. البتر ، لايبزيغ ، ١٨٩٠ ، ٤ ، صص ٥٢٢ - ٥٢٥ ، ورسالة هاينه الى ماركس في ٢١ - ٩ - ١٨٤٤ .

صدرت في العام نفسه تحت عنوان **قصائد السجن** عديمة القيمة الادبية (١) . وهي تشهد بانحدار فايتلنغ الفكري ، الذي كان يشتد بلا انقطاع منذ **ضمانات التناسق والحرية** . بعد ان كان في **انجيل الخاطئين الفقراء** قد جعل من الشيوعية تحقيق المسيحية البدائية الاولى ، كان في هذه القصائد يتخلى عن كل منظور ثوري .

كلما ازداد شعوره بالعجز ازداد عنده الاتجاه المسيحاني (الخلاصي، المسيحي) الذي كان يحمله على اعتبار نفسه مخلص البشرية . هذا الاتجاه الى المسيحية ، الذي نجده في مؤلف آخر كتبه ايضا في فترة سجنه : **عدالة . لوحات من الواقع وتأملات سجين (٢)** ، كان يأتي بصورة رئيسية من كونه لم يجد في سويسرة بروتستانتية ثورية تحولته عن الطوباوية . وكان الاتجاه المذكور يتعزز بعبادة اتباعه وبالصعوبات المتزايدة التي كان يصطدم بها وبنضاله ضد الحركة المناهضة للدين لجماعة « المانيا الفتاة » الذي كان يشدد ميله الى الصوفية (٣) .

كان في هذه الوضعية الروحية حين ذهب في أواخر آب ١٨٤٤ الى لندن، حيث نظم الشيوعيون عند وصوله عيداً على شرفه (٤) .

ومكث فايتلنغ ، مع بعض الانقطاعات ، سبعة عشر شهراً في لندن . كان يجد فيها وسطاً آخر مختلفاً تماماً عن سويسرة ، وسطاً لا حرفياً بل بروتستانتياً . ولقد خاب أمله واحمض طبعه حين رأى انه ليس له على الاعضاء اللندنيين في « رابطة العادلين » الذين كانوا يتماهم مع البروتستانتية الانكليزية قد تخطوا مرحلة الشيوعية الطوباوية نفس التأثير الذي له على الحرفيين السويسريين (٥) .

بدلاً من ان يستفيد مثل أنجلز من حياته في لندن ليعيد النظر في مفاهيمه ،

---

(١) عن **قصائد السجن** انظر المسيحية والاشتراكية . مصادر وعروض ، نشر بارنيكول ، ١٨٤٠ ، « فايتلنغ السجن وعدالته » ، تحليل نقدي للمسيح الاشتراكي وعمله ، كيل ، ١٩٢٩ ، **قصائد السجن** ص ١٤٩ - ١٨٤ .

(٢) انظر المسيحية والاشتراكية ، بارنيكول ، ٢٥ ، « عدالة . لوحات ... » ، طبعة اولى ، كيل ، ١٩٢٩ .

(٣) ليس فقط كان يعتبر الدين ، في شكل المسيحية الاولى التي باسمها كان ينقد المجتمع البرجوازي ، الشيوعية الحقيقية ، ولكنه كان يرى فيه أعلى مصدر عزاء وتشجيع للبشر . « انه ، على حد قوله ، مرساة النجاة في العواصف التي تخطف حياة البشر اليائسة ، وهم لن يستطيعوا الاستغناء عنه ، حتى حين سيكونون قد بلغوا أعلى درجات السعادة الارضية » . انظر انجيل الخاطئ الفقير ، برن ، ١٨٤٥ ، ص ٢٥ .

(٤) انظر ف. مهرنغ F. Mehring : تاريخ الاشتراكية الديمقراطية الالمانية ، شتوتغارت ، ١٩١٩ ، ١٥ ، ص ٢٣٢ .

(٥) انظر ا. بارنيكول : « فايتلنغ السجن وعدالته » ، مرجع مذكور ، ص ٢٨ وبعدها .

ظل محصورا في افكاره التي لم يكن يتحمل ان تنقد (١) .  
ولئن كان لا يؤثر تأثيرا عميقا على شيوعي لندن ، فقد كان تأثيره بالمقابل غالبا  
في سويسرة ، حتى بعد طرده ، على الحركة الشيوعية .

هذه الحركة كانت تواصل نموها وهي تكافح عصابة « ألمانيا الفتاة »  
الديمقراطية . كان قادة هذه العصابة ، وبشكل خاص فلهمر مار wilhelm Marr  
(٢) ، يجعلون من جوهر المسيحية لفورباخ انجيلهم ويبشرون في كتاباتهم وفي مجلتهم  
اوراق الازمنة الحاضرة من أجل الحياة الاجتماعية بنزعة انسيّة ملحدة ذات طابع  
فوضوي (٣) . كانوا ، وهم يعادون الشيوعية لاسباب شبيهة باسباب الهيفليين  
الشبان الفرديين ، يفكرون ان المظالم الاجتماعية هي بصورة رئيسية نتاج الاحكام  
المسبقة الباطلة ويقضون على هذا الاساس العمل الاصلاحى الى قضية تربية (٤) .

بنضالهم ضد الانسية الملحدة لجماعة « ألمانيا الفتاة » كان الشيوعيون  
السويسريون مساقين الى أن يشددوا أكثر الطابع الديني والطوباوي لمذهب فايتلنغ.  
العضوان الرئيسيان في المجموعة الشيوعية كانا سيباستيان سيلر (٥) و أوغست بيكر  
Auguste Becker الذي استلم قيادة المجموعة بعد طرد فايتلنغ (٦) . لم يكن  
ا. بيكر مثل فايتلنغ عقلا مستقلا ومفكرا أصيلا . بعد التزامه بالحركة الجمهورية  
تحت تأثير القسيس فايدنغ ، كان قد كسب الى الشيوعية على يد فايتلنغ . كان ذا

- (١) عن هذه الحقبة في حياة فايتلنغ انظر له كالر : ف. فايتلنغ ، زودريخ ، ١٨٨٧ ، صص ٤١ -  
٥٤ ، و مدخل ب. كاوهولد الى « ضمانات التناسق والحرية » لفايتلنغ ، برلين ، ١٩٥٥ .  
(٢) فلهمر مار ولد في ١٨١٧ في هامبورغ . مؤلفاته : دين المستقبل مشروح للقراء الشعبيين ،  
لوزان ، ١٨٤٤ ، ألمانيا الفتاة في سويسرة ، لايبتيغ ، ١٨٤٦ .  
(٣) انظر فريدريك فورباخ : دين المستقبل - ذكريات من حياتي الدينية ، الكونتوار الادبي ،  
زودريخ ، ١٨٤٣ .

(٤) انظر تشابه حجج ف. مار و ب. باور ضد الشيوعية . انظر ف. مار : ألمانيا الفتاة في  
سويسرة ، لايبتيغ ، ١٨٤٦ ، صص ١١٨ - ١١٩ . « الشيوعية تعبير عن نقص قدرة . الثقة في النفس  
تنقص الشيوعيين . اذ يقاسون من الاضطهاد الاجتماعي فانهم لا يبحثون عن سلاح للتحرر بل عن اسباب  
للغناء . أجل انهم يدركون التفاوت الفظيع الحاكم على الارض ولكنهم يرونه من خلال النظرات الشاحبة  
للوعي الطبقي البروليتاري . أجل انهم يصفون في كتاباتهم وضع الاشياء الحاضر ولكنهم لا يعقلونه . أجل  
يعترفون للبشر بحق اجراء اصلاحات ولكنهم لا يرون ان البشر انفسهم هم سبب وضع الاشياء هذا .  
المساواة تجعلهم ينسون الحرية ... في الواقع الخارجي يكمن بالنسبة لهم سبب كل الشرور .  
الشيوعية لاهوت اجتماعي ، لها كتبها المقدسة ، انبياؤها ، مسيحوها ، سماؤها » . عن هذه الحركة  
انظر ا. كالر : فايتلنغ ، صص ٥٠ - ٥٢ .

- (٥) S. Seiler كتب آنذاك كراسين شيوعيين عنوان احدهما : « الملكية في خطر ! او ماذا يمكن  
لالمانيا وسويسرة ان تخشياه من الشيوعية ومن الايمان العقلاني ؟ » .  
(٦) من ا. بيكر A. Becker انظر الجزء الثاني من هذا المؤلف .

صفات تنظيمية وتحريضية عظيمة وكان يظهر نشاطا كبيرا كداعية . في الكراسيات التي كتبها آنذاك ، الفلسفة الشهبية الراهنة وخصوصا ماذا يريد الشيوعيون ؟ ، كان يشدد الجانب العاطفي في مذهب فايتلنغ ، ويخفف مداه الثوري أكثر . وفي رسالة كتبها الى فايتلنغ ذهب الى حد المناداة بتصالح الطبقات وتحالف الفقراء والاغنياء (١) .

في احاديثه الى العمال وفي كراساته ، لم يكن يستطيع أن يدعو بهذه الصراحة الى هذا التآخي بين المستغلين والمستغلين . كراساته كانت تقدم نفس الخليط الفريد من شيوعية وانسانية عاطفية مصبوغة بالدينية الذي كان طابع كتاب فايتلنغ الاخير : انجيل خاطيء فقير .

في كراسه ماذا يريد الشيوعيون ؟ (٢) ، الذي كان - وهذا ما يصنع اهميته التاريخية - مثل « أسئلة وأجوبة » موزس هس نوعا من صورة سابقة ، بالحقيقة متواضعة تماما ، عن البيان الشيوعي ، كان ا. بىكر يعرض ان هدف الشيوعية هو إلغاء الملكية الخاصة ، الإلغاء الذي يسوغه بكونها ظالمة وشريرة (٣) . طابعها الظالم يتجلى ، على حد قوله ، بسيطرة المال التي تولدها والتي صارت

(١) انظر كالر ، مرجع مذكور ، صص ٤٦ - ٥٨ . رسالة بىكر الى فايتلنغ ، ايار ١٨٤٣ : « ليس للشعب اي حق في الحقد على مضطهديه كما ليس لهؤلاء أي حق في ازدراء عبيدهم . هؤلاء واولئك يجب ان يلعنوا ويدمروا تنظيمنا اجتماعيا يحكم عليهم بان يعيشوا حياة بهذا الزيف وهذه اللانسانية . جميعهم في آن معا مذنبون وابرياء حسب وجهة النظر التي نقف فيها . لو لم يكن الفقراء بهذه الدرجة من الكسل والبهيمية ، لما وجد الاغنياء . ربما كان هذا ضروريا لتنوير الشعب . انت ، نعم انت ، عليك ان تكتب الان كتابا بعنوان « تبرير الفنى » يجب ان يبدأ هكذا : نحن ذاهبون الى امام انهيار هائل وفظييع سيزلزل العالم ، الخ . ان صرخات ألم الذين سيولدون العالم الجديد ستدوي فوق كل الارض ومن قطب الى آخر ستعلا البشر رعبا . معابد المال ستنتهار ، الاوثان الذهبية ستغرق في اعماق البحر ، الخ . عسى ان يوفر دم كهنة المجل الذهبي ، لانهم ابرياء ولا يعلمون ماذا كانوا يفعلون . بعل فتنهم وقتل في قلوبهم اله الحب . ليس من الحسن ان نريق دما بشريا اذ منه تخرج ثعابين . الفرنسيون ارتكبوا خطا كبيرا بقطعهم رأس ملكهم . هكذا قدسوا هذا الحمار الذي ما يزال في ايامنا يعبد . علينا ان نستولي على العالم من الداخل ، ان نملأ كل اوروبا بافكار الصانع - الخياط الفقير ( فايتلنغ ) وعندئذ اذا حمل احد السيف فليهلك بالسيف . الافكار حرة لا تطالها هجمات السلاح ، ومن يذهب الى الحرب ضدها بالدفاع ينته نهاية سيئة ... ستكون الفلسفة وقلبك ، اذا كان الهدف الاخير لمذهبك ثورة عمال بائسة نريد ان تجدد جلدنا البشرية جمعاء . هي ذي لعبتنا الكبيرة » .

(٢) ا. بىكر : ماذا يريد الشيوعيون ؟ ( خلاصة خطاب القى في ٤ - ٨ - ١٨٤٤ امام مجلس اعضاء اتحادات عمالية شتى في غرفة النادي الشيوعي بمدينة لوزان من قبل ا. بىكر ) ، لوزان ١٨٤٤ . انظر ميخا ١ ، ح ٢ ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ . فر. انجلز ، صحيفة عالم اخلاقي جديد ، ١٠ - ٥ - ١٨٤٥ : « ا. بىكر ، واحد من خيرة الشيوعيين السويسريين ، اصدر محاضرة القاها في لوزان تحت عنوان « ماذا يريد الشيوعيون ؟ » هي من الفصل وانبه ما اعرف » .

(٣) انظر ا. بىكر : ماذا يريد الشيوعيون ؟ ، ص ١ .

لعنة على المستغلين كما على المستغلين (١) .  
 الحق القديم ، حق الاقوى ، حل محله حق الاغنى (٢) ، الامر الذي ادى الى  
 احتكار الثروات من قبل من لا ينتج والى استغلال الشغيلة (٣) ، الاستغلال الذي  
 يفاقمه تطور المضاربة المتزايد دوما (٤) .

السبب الآخر لحذف الملكية الخاصة هو طابعها المؤذي الشرير . فهي ، بوضعها  
 البشر بعضهم في معارضة بعض وبفصلها اياهم عن الجماعة وب عزلها اياهم ، تجعل  
 منهم افرادا انانيين وتنزع عنهم كل طابع انساني (٥) . ان حذف الملكية الخاصة حذف  
 جذريا يستطيع وحده ان يتيح للبشر ان يعيشوا حياة موافقة لطبيعتهم الحققة (٦) .  
 كل الوسائل الاخرى المستخدمة أو المتصورة لتحرير البشر المضطهدين : تدمير  
 الآلات ، اعادة نظام هيئات الحرف ، انشاء مشاغل قومية ، ليست سوى مسكنات  
 واهمة . خرافية ايضا شتى الوسائل المقترحة لمكافحة الفقر : رسوم حماية ،

(١) انظر المرجع السابق ، ص ٣ . « المال ، لاحظوا ذلك جيدا ، هو العمل المسروق ، المكسب  
 والمحول الى نقود ، انه شغلكم عينه مركوما ! تعلمون الان بماذا يدفعون لكم اجرا . يا للخداع الفظيع ،  
 بعملكم نفسه ، بجلدة ايديكم الخشنة ! يستخلصون منكم كل نخاعكم ويدفعون لكم اجرهم بعرقكم ذاته .  
 يجادونكم بقصبان ويدفعون لكم اجرهم بالكرباج ! كتعويض عن الثروات التي انتجتموها والمسروقة منكم ،  
 عن الآلام التي تقاسون ، عن ضهور اطرافكم ، عن هدفكم الخائب ، عن سعادتكم الضائعة ، عن حياتكم  
 الفاشلة ، يرمون لكم عظامكم ذاتها وهم يصيحون لكم : لا تهروا ايها الكلاب فنحن نعطيك طعامكم .  
 المال شغلكم انتم ، انتم تعطونه قيمته ، لولا ثرواتكم وعملكم العبدى الذي يمكن شراؤه والذي يشتري  
 بعملكم الركوم ، لا كان للمال قيمة » .

انظر ص ٤ : « الشيء الاكثر مدعاة للرأى في منظومة المال انه لا يفيد حتى اولئك الذين يبدو انه  
 مكرس لفائدتهم . الاغنياء ايضا تقسون ، دم الشعب تحول بالنسبة لهم الى سم » .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٥ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٩ : « حرروا الصناعة ، اي شيديوا قانونا للفوضى ، حق الاقوى ، سيطرة  
 المال . البعض هاجموا البعض الآخر بأسلحتهم الذهبية وجردوهم وجعلوهم عبيدهم » .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٢ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٢٥ : « الانسان لا شيء بدون المجتمع ، انه كائن اجتماعي بالاساس ، اذا  
 ما اخرج من المجتمع نزل الى مرتبة حيوان . الكلام الذي يخرج من فمه هو اختراع ، منتج ، خاصة  
 للمجتمع الانساني ، العلم والفن ، الصناعة والدين نتائج حياة البشر كجماعة ، منتجات المجتمع » .

(٦) المرجع نفسه ، ص ١٣ ، ص ٢١ : « الحدث الكبير القادم سيحصل تحت صيحات : الحرية ،  
 المساواة ، الحب ، التي هي حقيقة واحدة ، وصيحة : الفاء الملكية الخاصة » . ص ٢٦ - ٢٧ : « ان  
 الملكية الخاصة لم تنكر يوما طبيعتها السيئة . اقرؤوا عند فايتلنج سجل خطاياها : حروب ، مجاعة ،  
 جشع ، عبودية ، تزلف ، جهل ، بغاء ، زنا ، تجارة رقيق ، بفضى ، لصووية ، قتل ، سرقة ،  
 وساخة ، سجن ، دولا ، مشنقة ، ديدان - هل هناك رذيلة ، جريمة ، عار ، شر ، فظاعة ، ذفاعة ،  
 لا نستطيع ان نزوها في معظم الحالات للملكية ؟ »

تخفيض زمن الشغل ، بنك الفقراء (١) .

ان الفاء الملكية الخاصة التي يمكن حذفها بنفس سهولة خلقها (٢) و اقامة الشيوعية سيسمحان للبشر بأن يعيشوا حياة افضل . كلّ سيستطيع أن يعمل حسب اذواقه وقدراته بحيث ان العمل سينتظم بشكل منسجم وحس (٣) . ليس فقط الشغل سيحول ، بل البشر سيحولون بحكم زوال الانانية وقيام حب الغير مكانها (٤) .

كان عرض بيكر Becker مخطوطا بشتى الاعتبارات عن الدين والتاريخ التي كانت تطبع كل اليوتوبيات الاشتراكية آنذاك . في نهاية كراسة ، كان بيكر يفتح النار على « المانيا الفتاة » ناقدا الحادها وقومويتها ومعارضها اياها بمذهب اخاء كلي كوني مؤسس على المسيحية الحقّة (٥) .

كانت عاطفية ودينية مؤلفات فايتلنغ الاخيرة ومؤلفات بيكر تتعززان اكثر ايضا في كتابات « النبي » آلبرشت Albrecht (٦) .

كان هذا الاخير قد التجأ الى سويسرة بعد ان صدر عليه حكم بالسجن ست سنوات ابان الملاحقات ضد « الديماغوجيين » ، وفي سويسرة كسبه فايتلنغ الى الشيوعية (٧) ، فبات آلبرشت يعطي عن مذهب فايتلنغ كاريكاتورا حقيقيا (٨) .

(١) المرجع نفسه ، ص ص ١٣ - ١٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٢ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ص ٢٩ - ٣٠ : « نريد ان نعيش ، ان نمتنع ، وان نفهم كل شيء . يجب ان يحرر الانسان من هم تعبته معدته البائس ، من الهوى القدر والندى الذي هو التعطش الاناني الى الكسب المادي . الشيوعية لا تعنى بالمادة الا لكي تسيطر عليها وتخضعها للروح ، اجل تمنحها دورا هاما وضروريا ولكنه ثانوي بالنسبة الى دور الروح . المجتمع الحاضر تهيمن عليه المادة ، المجتمع القادم سيهيمن عليها . الاكل ، الشرب ، اللبس ، السكن ، ستصير اشياء ميسورة لدرجة ان الناس سيبالون بها كما يبالون اليوم بشرب الماء ليس اكثر » . انظر ص ٣٣ ، مبادئ المجتمع الشيوعي .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٢٨ - ٣٩ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٤٠ - ٥٤ .

(٦) انظر فر. انجلز : مساهمة في تاريخ رابطة الشيوعيين ، المؤلفات المختارة لماركس وانجلز ، برلين ، ١٩٥٨ ، ٢ ، ص ٣٢٢ . « ان تقليص الشيوعية على يد فايتلنغ الى المسيحية الاولى ... جعل ان الحركة الشيوعية في سويسرة سقطت في ايدي مجانين مثل البرشت ، ثم دجالين مثل كولمان kuhlmann »

(٧) انظر كالي ، مرجع مذكور ، ص ص ٢٨ - ٣٩ . بيكر حذر فايتلنغ من آلبرشت . كتب له : « تستطيع ان تستخدمه كمتجول ، ولكن لا ترتبط معه بشكل اوثق . لم تقرا كتاباته القريبة ، والا لكان لديك رأي آخر عنه . انه يجعل كل الاشياء مشتقة من اسباط اسرائيل الانتي عشر ، وان اعادة سناء سليمان تبدو هي الحلم الذي يسكن ايام شيخوخته . اعلم انه يريد ايضا شتى انواع التحولات الاجتماعية المستوحاة هي ايضا من التوراة ، مثل تعدد الزوجات الذي يقدم ابراهيم وسليمان مثاله » .

(٨) انظر مؤلفاته : احياء مملكة صهيون ، نداء الى العالم في حداد ، العودة القريبة الى مديح الحرية ، الهدف في وميض الورد ، نداء الى ابطال زمننا .

الى النبي البرشت، الذي ظل في نصف - جنونه رجلا شريفا ومقتنعا، انضم اعتبارا من ١٨٤٤ مشعوذ حقيقي ، جورج كولمان kuhlmann ، الذي كان ادبه الطنان موجها بالواقع ضد الشيوعية (١) .

استطاع ان يسحر بيكر الذي اثنى عليه ثناء متحمسا في ملحق بكراسه ماذا يريد الشيوعيون (٢) ؟  
وسيصفي ماركس وانجلز بشكل صارم حساب هذا المشعوذ في الايديولوجيا الالمانية (٣) .

### جريدة « الى الامام »

لما كان ماركس وانجلز يربطان اكثر فاكثر فكرهما وعملهما بنشاط البروليتاريا الثورية ، فقد كان لا بد لهما من ان يلفظا الديمقراطية البرجوازية والاشتراكية الاصلاحية والشيوعية اليوتوبية ، مع سير انكشاف تعارض هذه المذاهب مع مفاهيمهما ومع تطور النضال البروليتاري .

ان اولى تصفياتهما الكبرى للحسابات كانت مجادلة ماركس ضد روجه Ruje بمناسبة مقال كتبه هذا الاخير عن اضراب عمال النسيج وعسن طبيعة ودور الثورة ونشر في جريدة الى الامام .

كانت الـ Vorwaerts ( الى الامام ) ، وهي جريدة نصف - اسبوعية المانية تصدر في باريس واصبحت جريدة معارضة ، تلعب دورا هاما بين المفترين الالمان . كان قد أسسها في اوائل ١٨٤٤ رجل اعمال مقدم ، اسمه هنري بورنشتاين Boernstein ، كان قد فتح مكتب ترجمة ، فيه كان يجري ترتيب القطع الفرنسية الناجحة حسب ذوق الجمهور الالمانى . وكان قد ضم اليه في ايلول ١٨٤٣ « مكتبا

(١) مولود في مقاطعة هولشتاين ، درس في هايدلبرغ ، القى في ١٨٤٣ محاضرات عن « الحاجات الروحية والمادية لزمنا » . في ١٨٤٤ سافر الى سويسرة حيث نشر في ١٨٤٥ كتابه العالم الجديد او مملكة الروح على الارض . فيه كان يبشر باصلاح اجتماعي غامض يجب ان يحصل بدون ان يصيب امتيازات الطبقات الحاكمة . اصبح فيما بعد عميلا لمتريش Metternich وارسل الى مكتب المعلومات المركزي التابع له في ماينتس تقارير عن الحركة العمالية . عن كولمان انظر كالر ، مرجع مذکور ، ص ص ٦٥ - ٦٦ .

(٢) انظر ٢. بيكر : ماذا يريد الشيوعيون ؟ ، ص ٥٤ .

(٣) انظر ميغا ، ، ح ٥ ، ص ص ٥١٩ - ٥٢٨ .

مركزيا للانداب والاعلان والعلاقات التجارية بين فرنسا والمانيا» كان يعد بين زبائنه في المانيا امراء ودبلوماسيين وأعضاء من طبقة النبلاء . كان قد أنشأ أيضا منظمة لمساعدة ونجدة الالمان المعوزين في باريس (١) .

ولفرض مساندة وتطوير مشروعاته أسس بمساعدة الموسيقار ميربير Meyerbeer جريدة « الى الامام » وتحت هذا العنوان « اخبار باريس حول الفنون والعلوم والمسرح والموسيقى والحياة الاجتماعية (٢) » . كانت في البداية جريدة انباء ذات اتجاه سياسي معتدل جدا (٣) . في اصدار العدد الاول تقرأ : « ستكون جريدة المانية ، ولكن ليس بمعنى جرمانية متطرفة ، معادية لكل ما هو اجنبي . ستعطي نفسها كمهمة ان تكرم كل ما هو خير وجميل ، في المانيا وفي الخارج على حد سواء ، وان تندد بكل ما هو مفرط وسيء . بالحقيقة نحو النور ، بالنور نحو الحرية ، هذا هو شعارنا . ان « الى الامام » ليست جريدة مدمرة ، بل لها كهدف تقدم لا ينقطع ، هادئ وبطيء (٤) » .

رئيس التحرير ، آدالبرت فون بورنشتدت ، وهو ضابط برومي نسيب الاشراف ، مطرود من الجيش لسوء سلوكه ، كان قد جاء الى باريس للعمل في الصحافة . ولما اثقلته الديون وضع نفسه في عمالة الحكومتين البروسية والنموسوية مع مهمة التجسس على اللاجئين السياسيين (٥) . تحت قيادته سلكت الجريدة بادئ بدء خطا سياسيا رجعيا كان يظهر في الاطراء العبدى للامراء الالمان وفي الحملات على كتاب « المانيا الفتاة » الاحرار وعلى الميول الراديكالية للحوليات الفرنسية - الالمانية (٦) . هذا الموقف جعل احد اصدقاء ه. هاينه ، وهو ألكسندر فايل ، يكتب ، في آذار ١٨٤٤ ، في تغراف هامبورغ ، ان الى الامام تبين انه حتى بدون الرقابة تستطيع جريدة ان تكون غبية وحقيرة . كذلك راي روجه الذي كتب ان

(١) انظر هـ. بورنشتاين : خمس وسبعون سنة في العالم القديم والجديد ( بالالمانية ) ، لايتسغ ، ١٨٨١ . انظر ايضا ف. مهنغ : مؤلفات بعد الوفاة ( ماركس وانجلز ) ، ٢٤ ، ص ٢٠ .  
(٢) بالالمانية .

(٣) انظر هـ. بورنشتاين ، المرجع المذكور ، ص ٢٢٨ : « الى الامام ، التي كانت في البداية جريدة معارضة دستورية الميل نصيرة تقدم معتدل ، مكرسة لتسليية القراء اكثر منها لمساندة اتجاه سياسي ، كانت ... في الاشهر الستة الاولى محررة بالكامل بقلمي وقلم بورنشتدت وقلم ماريتسيك . » .

(٤) انظر الى الامام ، العدد رقم ١ ، ١٨٤٤/١/٢ .

(٥) عن آ. فون بورنشتدت : انظر رسالة هاينه الى لوالد ، ١٨٢٨/٤/٢٤ . انظر مقال فالتر فوم برجه ( وهذا اسم مستعار لبورنشتاين ) في الفصول ، هامبورغ ، ١٨٤٤ ، ص ١١٩٥ وبمدها .

(٦) انظر الى الامام ، رقم ١٠ ، ١٨٤٤/٣/٩ . قصيدة بورنشتاين « الحوليات الفرنسية - الالمانية » . انظر ايضا الى الامام ، رقم ٢٨ ، ٦ نيسان . « نشيد على شرف السيد هنري هاينه » ردا على « اناشيد على شرف الملك لودفيغ بافاريا » الصادرة في الحوليات الفرنسية - الالمانية .

الى الامام اسوا ايضا من الصحف الصادرة في ألمانيا (١) .  
كي لا تنفر المفترين الالمان الذين يؤلفون جمهور قرائها الرئيسي والالمان  
التقدميين الذين كانوا يحصلون على الجريدة التي منعت في ألمانيا منذ البداية بطريق  
التهريب ، كانت الى الامام مضطرة الى ان توجه ايضا بعض الانتقادات الى الحكومتين  
البروسية والنمسية (٢) .

واذ لم يكن باستطاعة بورنشتدت ان يوافق على هذه الانتقادات فقد ترك  
الجريدة حوالي منتصف ايار ١٨٤٤ وسافر الى لندن .

بورنشتاين ، وقد غدا الآن في صف الاتجاه الانساني وميالا لان يعطي الى الامام  
طابعا أكثر جذرية (٣) ، دعا برنيز C. Bernays ليحل محله في القيادة (٤) .  
بعد ممارسته المهنة القضائية وكتابته كراسا مطبوعا بروح الولاء عنوانه « ألمانيا  
ودساتير فرانكونيا » ، كان برنيز قد دخل المعارضة حين نشر في الصحيفة الرائية

(١) انظر ٢. روجه : المراسلات ، ح ١ ، ص ٣٣٤ . رسالة روجه الى فلايشر ، ١٨٤٤/٥/٢٠ :  
« هؤلاء الاشخاص المحرومون من المعرفة ومن الثقافة يكتبون في ظل حرية الصحافة بنفس الغباء الذي  
يكتب به زملاؤهم في ألمانيا في ظل الرقابة » .

(٢) انظر الى الامام رقم ١ ، ١٨٤٤/١/٢ « الى ماذا تحتاج ألمانيا قبل اي شيء ؟ » ، « بدون راي  
عام ، تكون امة من الامم بلا وزن ولا كرامة ولا اعتبار . فقط حرية الصحافة تسمح بصياغة الراي والتعبير  
عنه ، ومن جهة اخرى ان علانية القضاء تجر وراءها علانية الادارة والحكومة والدولة » .

انظر ايضا العدد ٦ ، ١٨٤٤/١/٢٠ ، « لا ثورة في ألمانيا » ، « لدينا كثير من الاشياء الهامة والمباشرة  
يجب ان نستولي عليها : حماية صناعتنا ، حرية الصحافة ، علانية القضاء ، ضمان الحقوق المدنية ،  
التي عليها يجب ان نبذل كل جهودنا ، بدلا من ذلك يفضلون الان الاهتمام بكل ترهات الاشتراكية ، هذه  
الاشتراكية التي يعترف اشد انصارها حماسا بانها عمليا مستحيلة التحقيق ... الحكومات تبتهج لذلك  
بطبيعة الحال ، اذ بما ان الالمان يمتطون من جديد خيلهم التاملي ويحملون بدلا من ان يفعلوا ليس هناك  
ما يخشى عليه منهم » .

(٣) انظر بورنشتاين : خمس وسبعون ... ، ص ٣٥٠ : « لم البت ان اعتنقت مبادئ الانسية .  
كان يدعى آنذاك انسية ما يدعى الان اشتراكية مع هذا الفارق الا وهو ان الانسية كانت تحصر نفسها في  
الكتابات والكلام والبحث العلمي بينما الاشتراكية تمارس فعلها على الحياة وتسيطر حتى على السياسة .  
كان برنامج الانسية : ان البشر لا يجوز ان يفصلوا بحواجز مصنعة او طبيعية : لغات ، اباطيل دينية  
او فروع اخرى ، ولا ان يعارض بعضهم بعض بفروق القوميات ، الدول . يجب ان يلقى الفصل وان  
نحل محله وحدة كل البشر المؤسسة على مبادئ الحرية والمساواة والاخاء الابدية . ان مهمة هذه الوحدة  
يجب ان تكون هي حذف كل الفروق المتولدة خلال العصور من تطور اوربوا التاريخي بين المالكين وغير  
المالكين ، بين الاغنياء والفقراء ، بين المؤمنين وانصار الفكر - الحس ، في سبيل اقامة الانسجام بين  
البشر ، في سبيل تحقيق السياسة الكبرى للبشرية الموحدة وتأسيس مملكة السلام الابدية . واذا كنت  
شابا وذا ذهن حاد ، فقد تحمست بسرعة لهذا البرنامج المستقبلي ووضعت جريدتي الى الامام في تصرف  
الانسنيين الذين كانوا بلا جريدة » .

(٤) عن برنيز انظر ف. مهرنغ ، مرجع مذكور آنفا ، ح ٢ ، ص ٢٢ - ٢٣ .

نقدا لمجلس بافاريا . واستقال ليقود مع ك. غرون صحيفة النساء في مانهايم ، فأعطى هذه الجريدة لهجة راديكالية لدرجة انه اضطر الى مفادرة دوقية بادن افلاتا من الملاحقات .

من ستراسبورغ حيث كان قد اقام موقتا كان يسلي نفسه بارساله اخبارا غريبة مضحكة وغير معقولة الى صحف حكومية كانت « تشرح » نفسها بنشرها (١) . برنيز لم يكن فقط صحافيا خفيف الروح ، بل كان ايضا ثوريا مقتنعا ومتعطشا الى العمل . وقد كتب يقول : « بالنسبة لي ، الاقوال لا يمكن ان تكون بديلا عن الحراب والمدافع . لست أدبيا ولا أريد أن أكون . » .

واذ رحل الى باريس حيث كان يأمل ان يجد حقل افضل للعمل ، فقد ساهم اولا في **الحوليات الفرنسية - الالمانية (٢)** ، ثم في **الى الامام** حيث نشر بتاريخ ٨ و ١٥ ايار مقاله **رسائل فرنسي عن الالمانية** الذي كان نقدا لاذعا للامراء الالمان (٣) .

وفي نفس الوقت مع برنيز ، بدأ ليف من الكتاب التقدميين ، ولا سيما العاملون سابقا في **الحوليات الفرنسية - الالمانية** ، بدؤوا يعملون في **الى الامام (٤)** .

هاينه نشر فيها بتاريخ ١١ ايار « امبراطور الصين » ، ١٦ ايار « تهدئة » ، ١٦ حزيران « الاسكندر الجديد » حيث سخر من فريدريك غليوم الرابع ، وفي ١٠ آب

(١) انظر ف. مهنغ ، ص ٢٢ - ٢٣ . « راهن على ان ينشر في ثمانية ايام في صحف وطنية خمسين خبرا جلي الفاء . لهذا الغرض استحصل على خاتم ذي تاج شريفي يعلو الحروف الاولى C.V.R. وعلى ورق مكاتب ملهب ، وكان يرفق حسب المناسبات امضاءه بلقب بارون او كونت او مستشار حكومة . كان يقول ان الاخبار التي يرسلها قد اخذها من اعلى الشخصيات وكسب رهانه بشكل لامع . هكذا صدر ذات يوم في الصحف الاكثر ولاء نبا آمال اميرات بلغت عمرا محترما ونيف ، وفي يوم آخر قرا الناس في صحيفة رسمية في مانهايم « مدينتنا كان لها حظ لم تأمله فقد رات في شوارعها موكب خيول سعادته الملكية يسبق سعادته الى المناورات » . اخيرا وصف لودفيغشافن Ludwigshafen التي لم يكن فيها آنذاك سوى بيت واحد ، وصفها بانها مرعا نهري مزدهر ، له في تصرفه مستودعات كبيرة في كوزل ولاندرشتول وبليسكاستل ، وهي قرى ضائعة على جبال تقع على مسافة ٨٠ كيلومتر من نهر الراين . بعد ان كسب رهانه ، نشر برنيز كراسا بعنوان : « حكايات لشرشرة كل صمالك الصحافة والرقابة الالمان كشف فيه خدعته » .

(٢) انظر **الحوليات « البروتوكول الاخير لمؤتمر الوزراء في فينا »** .

(٣) انظر مهنغ ، مرجع مذکور ، ج٢ ، ص ٢٣ .

(٤) انظر بورنشتاين : ٧٥ سنة ... ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ : « ما لبثت الى الامام ان ضمت جماعة من المعردين لا نظير لهم في اية جريدة اخرى . ( بورنشتاين يذكر بينهم : برنيز ، بورنشتت ، روجه ، ماركس ، هاينه ، هرفغ ، باكونين ، ج. فيث ، ج. فيبر ، ف. انجلز ، افريك ، برجرز ) . ولما كانت الى الامام الجريدة الالمانية الوحيدة الراديكالية وغير الخاضعة للرقابة في اوروبا ، فقد نالت جذبا جديدا ورات عدد مشتركها يزداد » .

قصيدة « الطبل » التي كانت نوعا ما نشيده الحربي (١) .

هذا النقد السياسي كان يرافقه نقد اجتماعي . هذا النقد الاجتماعي كان يحفره تمرد ٥٠٠ عامل نسيج في سيليزيا الناجم عن البؤس الذي لا يوصف المتولد من مزاحمة الآلة التي أسقطت الأجور الى بضعة قروش في اليوم (٢) . ان روحهم الثورية كانت تنكشف في نشيدهم الكفاحي (٣) .

هذه الثورة وقمعها الوحشي كانا قد حركا الراي العام في المانيا ولفتا الانتباه الى تفاقم الفقر وعواقبه .

تحت ضغط الراي العام ، اصدر فريدريك غليوم الرابع مرسوما دعيا فيه السلطات الى تسهيل انشاء جمعيات خيرية لمساعدة الطبقات الكادحة . وكان يبدي حزنه ، في أسلوب طنان ، لحالة التخلي التي يترك فيها الاولاد الفقراء ، ويدعو الى اتحاد جميع الناس الكريمين لمعالجة البؤس .

وسرعان ما تجلى رياء مواعظه . فحين اقترحت « الجمعية المركزية من اجل رفع رفاه الطبقة العاملة » التي تشكلت في برلين ، حين اقترحت في اكتوبر ١٨٤٤ علاجات لحذف البؤس ، امر بحلها تحت حجة انها ذات طابع واهداف ثورية ، مع انها كانت مؤلفة في غالبيتها من برجوازيين اغنياء لم يكونوا يفكرون ابدا بالحق اذى بالنظام القائم .

ان ثورة عمال نسيج سيليزيا ومسألة الفقر كانتا موضع مقالات عديدة في **السي الامام** ، وبشكل خاص « اغنية عمال النسيج » ل هـ . هاينه الذي جلد فيها لا انسانية النظام الرأسمالي (٤) .

---

(١) انظر الى الامام ، ١٠ آب ١٨٤٤ . « اقرع الطبل بلا خوف وعائق عاملة الكانتين . هذا هو العلم الحق ، معنى الكتب العميق . ايقظ بطبلك الناس من رقادهم ، اقرع الطبل بقوة فتية سائرا ابدا في الصف الامامي . هذا هو العلم الحق ، الفلسفة الحقة ، هذا هو المعنى العميق للكتب . لقد فهمته جيذا لان ذهني نبيه ولانني قارع معلم » .

(٢) عن ثورة عاملي نسيج سيليزيا ، انظر زمران : ازدهار وانحطاط صناعة الكتان في سيليزيا ، لايتسيغ ١٨٩٢ . انظر ايضا فيغان ، المجلة الفصلية ، لايتسيغ ١٨٤٥ ، ج١ ، ص ٢٨٦ . ونوفرك : المسألة السيليزية .

(٣) انظر كتاب العامة الالمني ، ١٨٤٥ ، ص ١٩٩ ، اغنية عمال نسيج بيترسفالو ولاجنيلو .

(٤) مقالات الى الامام عن تمرد عمال النسيج : ٦ تموز ، عمال نسيج جبال العماقة ، ١ تموز ، عمال النسيج ( هاينه ) ، ٢٠ تموز ، رقيق اسود ورقيق حر ، ٢٤ تموز ، الحركات العمالية في بوهيميا ، ٢١ آب ، الفقر في المانيا . برلين وماجدبورغ .

## مجادلة ماركس ضد روجه

ايضا بمناسبة ثورة عمال النسيج نشر روجه في **الى الامام** مقالا طويلا اثار رد ماركس .

كانت **الى الامام** قد نشرت في ١٩ حزيران ١٨٤٤ كتابا مفتوحا موجه من روجه الى **البريد السريع** في نيويورك ، حيث ردا على نقد من هذه الجريدة بصدد **الحوليات الفرنسية - الالمانية** قدم دفاعا عن الانسية ، المدعوة الى تحرير البشر بتنظيم الشغل (١) .

وقد تذرع بورنشتاين بهذا الرد ورجا روجه ان يعرض بشكل اصرح مبادئ الانسية وان يشرح اسباب خلافه مع ماركس في موضوع حقوق الانسان التي كان يشني عليها في حين ان ماركس كان ينتقدها (٢) .

في جوابه (٣) ، قال روجه ، متجاهلا الخلافات التي كانت تفصله عن ماركس ، انه يرى مثل ماركس ان المطلوب الآن هو تحقيق مبدأ الثورة الحقيقي ، مبدأ الانسية (٤) . كان يزعم انه ليس هناك سوى فرق في الشكل بين تصوره للانسية وتصور ماركس ، حيث ان ماركس علق باسهاب على تطبيقها ، بينما هو اكتفى بعرض مبادئها : « كيف يمكن - اجاب على بورنشتاين - أن تترك بواقع ان احدنا يكتفي بوضع مبدأ الانسية ، بملاحظة وتسجيل وجودها ، بينما الآخر يذهب ابعد فيبين اسلوب تطبيقها . لذا اتبع التقدم دون ان تهتم بأراء بيار وبول الخاصة وتفحص ما اذا كانت الثورة القديمة مع حقوق الانسان او بالعكس نقدها الاشتراكي على حق ويقود الى تحرر البشر . اخيرا تريد ان تعلم بماذا يجب ان نستبدل التنظيم الاجتماعي الحاضر الذي تؤلف حقوق الانسان أحد عناصره الاساسية . اقرأ نقد ماركس لهذه الحقوق . انه يضع محلها شيئا معرّفا تماما . فهو يقول : « فقط حين يكون الفرد الواقعي قد استرجع في ذاته المواطن المجرد وصار ، بوصفه فردا ، في

(١) الى الامام ، رقم ٤٩ ، ١٨٤٤/٦/١٩ . ٢. روجه الى هيئة تحرير البريد السريع في نيويورك . « بتنظيم الشغل سيكون التجمع نفسه منظما لا باسم الملكية الخاصة بل باسم الانسانية » .

(٢) المرجع نفسه ، ١٨٤٤/٧/٢٢ ، هـ . بورنشتاين : رسالة مفتوحة الى السيد ٢. روجه . « انك تحطم كل شيء ولكن بماذا تريد استبداله ؟ الست تؤسس في الحوليات ملهك على حقوق الانسان ، ولكن في هذه الحوليات نفسها الا يلهب السيد ماركس ابعد بكثير مما تلهب ؟ فكيف تريد ان لا يضع شخص ثالث في هذا الخلاف الذهبي ؟ » .

(٣) الى الامام ، ١٨٤٤/٧/٣ . « رسالة مفتوحة الى السيد بورنشتاين » .

(٤) المرجع نفسه ، « فرنسا اعلنت وانتزعت حقوق الانسان . اصاعت هذا المكسب واسترجعته وهي تكافح الان من اجل تحقيق مبادئ الانسية التي اطلقتها الثورة في العالم » .

حياته التجريبية ، في عمله الشخصي ، في علاقاته الفردية ، كائنا جماعيا ، فقط حين يكون الانسان قد تعرف في قواه الخاصة على قوى اجتماعية ونظمها كقوى اجتماعية، حين سيكشف عن الانفصال عن هذه القوى في شكل سلطة سياسية ، فقط حينئذ يكون التحرر الانساني قد تحقق . « . اليس هذا واضحا ؟ هذا التنظيم للعمل هل هو كلمة فارغة من المعنى ! واذا ما حدث ان استخدمها احدهم دون تفكير كاف فهل نلوم الذين استخدموها يعلم ودراية ؟

هذا الجواب من روجه على بورنشتاين كان تزويرا حقيقيا لفكر ماركس . النقد العميق الذي سلطه ماركس على المجتمع البرجوازي في « المسألة اليهودية » حيث بين ، بتحليل حقوق الانسان والمواطن ، كيف ان معارضته للدولة السياسية تولد فك الانسان بين البرجوازي والمواطن وكيف ان هذا التعارض لا يمكن ان يُلغى الا بحذف الملكية الخاصة واستبدال المجتمع البرجوازي والدولة السياسية بمجتمع ذي طابع جماعي يتفق مع طبيعة الانسان الحققة ، هذا النقد كان روجه يحوله الى كلاميات انسية تؤول الى الدفاع عن تنظيم للعمل في اطار النظام الرأسمالي يقدم بوصفه دواء عميم النفع ، وهذا نفي لاطروحة ماركس ليس اقل .

في هذا الجواب ، حيث كان يطمس الفروق العميقة التي تفصله عن ماركس ، وهذا في اللحظة التي كان فيها يقذفه بوابل من الشتائم في رسائله ، كان روجه يسمى الى اعطاء الانطباع بأن بينهما وفاقا شبه تام في الآراء ، وهذا من جهته بمثابة اكدوبة متعمدة .

كانت انسيته تتجلى بكل جمالها في مقال نشره في الشهر نفسه في **السي الامام** تحت عنوان « ملك بروسيا والاصلاح الاجتماعي » (١) .

في هذا المقال وقف ضد تأكيد لجريدة **الاصلاح** ، جريدة لوي بلان Louis Blanc التي زعمت ان المرسوم المتعلق بالفقر قد املاه على الملك الخوف وانه نذير اصلاحات اجتماعية عميقة (٢) .

بعكس **الاصلاح** ، اكد روجه ان سبب هذا المرسوم ليس ابدا الخوف الذي يفترض في تمرد عمال النسيج انه اثاره عند الملك وان هذا الاخير لا ينوي ابدا تدشين عهد اصلاحات اجتماعية بواسطة المرسوم . ففي بلد بتأخر بروسيا ، لا تلعب فيه السياسة اي دور ، ان ثورة عمال النسيج لا تتخطى ، على حد قوله ، اطار حادث

(١) انظر الى الامام ، ٢٤ و ٢٧ تموز ١٨٤٤ ، ملك بروسيا والاصلاح الاجتماعي .

(٢) انظر **الاصلاح** ، ١٩ تموز ١٨٤٤ .

محلي ، والمرسوم ليس له أبدا المدى الذي تعزوه اليه جريدة الإصلاح (١) .  
بإصداره تدابير إدارية ودعوته إلى البر والاحسان ، لا يخضع فريدريك غليوم  
الرابع أبدا لشعور الخوف بل يبين أنه يعتبر الفقر وعواقبه كارثة طبيعية ، يجب  
معالجتها باللجوء إلى الوسائل العادية .

وانتهى روجه إلى أنه يحكم وضع ألمانيا السياسي المتأخر ليس للثورة أي حظ  
من النجاح فيها ، وأن التربية والتنظيم السياسي وحدهما يستطيعان أن يحذفا  
أسباب البؤس العميقة : انانية الأفراد وعزلتهم عن المجتمع (٢) .

في نفس الوقت مع هذا المقال ، نشر روجه في ٢٤ تموز في **السي الامام** هجاء  
للعائلة المالكة البروسية ، حيث قلد هاينه بشكل تافه وعقد مزحات ثقيلة وسهلة عن  
الملك والملكة (٣) .

كان روجه قد وقّع مقالیه بتوقيع « بروسي » ، الأمر الذي كان من شأنه بما  
أنه ساكسوني أن يجعل القراء يتصورون أن الكاتب هو ماركس . ولقد استثير  
ماركس بمحاولة روجه طمس اختلافاتها وبواقع أن اسم « بروسي » يعينه ككاتب  
لمقالات روجه ، فنشر في **السي الامام** جوابا صدر تحت عنوان « ملاحظات هامشية تتعلق  
بمقال : ملك بروسيا والإصلاح الاجتماعي . بقلم بروسي » (٤) .

(١) إلى الامام ، ١٨٤٤/٧/٢ . « لا الملك ولا المجتمع الألماني عندهما شعور بضرورة إصلاح اجتماعي ،  
وهو شعور لم تولده لا ثورة سيليزيا ولا ثورة بوهيميا . من المستحيل في دولة غير سياسية كالألمانيا أن  
يكون ممكنا اعتبار البؤس الجزئي لدوائر عمالية مسألة عامة وبالأحرى حدا من شأنه أن يعرض كل  
الحضارة للخطر . هذا الحدث له بالنسبة للألمان نفس الطابع الذي لفيضان أو لجامعة محلية . ولهذا  
السبب أيضا يعزوه الملك لعب في الإدارة أو لنقص في البر والاحسان » .

(٢) إلى الامام ، نفس المكان . « الألمان الفقراء ليسوا أكثر فطنة من الفقراء الألمان ( من الألمان  
المساكين ) ، أنهم لا يرون أبعد من بيتهم ، من مصنعهم ، من محلّتهم . الروح السياسية لم تدخل بمد  
المسألة الاجتماعية . كل الثورات التي ستفجر في هذه الحالة الوخيمة من عزلة البشر والتي ستستلهم  
أفكارا اجتماعية ستهلك في الدم وفي الجنون . وإذا بالعكس ولد البؤس يقظة الروح السياسية وإذا انارت  
هذه أصل الشرور الاجتماعية ، عندئذ ، في ألمانيا أيضا ، هذه الأحداث ستعتبر قرائن انقلاب كبير . أن  
ثورة اجتماعية بلا نفس سياسية ، أي غير منظمة من وجهة نظر عامة ، مستحيلة .

انظر ٢ . روجه ، مراسلات ، ٢ ، ص ٣٥٩ . رسالة روجه إلى فلاشر ١٨٤٤/٦/٩ : « أن  
ثورات من نوع ثورة سيليزيا لا تؤدي إلا إلى تعزيز النظام البوليسي القديم وهي تؤخر إلى ما لا نهاية  
قيام حركة تحرر عامة . لم اشاط في يوم من الأيام آمال الشيوعية الألمانية . أن شيوعية غير سياسية  
— ولا يمكن أن يكون هنا سوى شيوعية كهذه — هي منتج ميت في المهد . العرفيون الألمان الذين لا يريدون  
حذف الملكية إلا طالما هم لا يملكون ، يستطيعون مقاومة النظام القديم أقل أيضا مما استطاعت ذلك حركة  
البورشنشافت ( الطلاب الأحرار ) . إذا كانت الشيوعية تريد النجاح فعليها الاقتران بحركة سياسية » .

(٣) إلى الامام ، ٢٤ تموز ١٨٤٤ .

(٤) إلى الامام ، رقم ٦٣ و ٦٤ ، ٧ و ١٠ آب ١٨٤٤ . في بداية المقال أعلن ماركس في هامش : « ثمة  
أسباب خاصة تسوقني إلى الإعلان أن هذا المقال هو أول مقال أرسلته إلى **السي الامام** » .

في القسم الاول من هذا المقال ، دحض ماركس رأي روجه حول المرسوم الملكي . على حد قوله ، ان هذا المرسوم والاجراءات التي يقررها للنضال ضد الفقر لا تعلق لا بوضع المانيا المتأخر ولا بقلّة الاهمية التي علقها حكومة بروسيا على ثورة عمال النسيج بل بطابع الفقر بالذات . الفقر *paupérisme* ليس ظاهرة خاصة ببروسيا ، بل ظاهرة عامة ، تخص جميع البلدان الحديثة ، ترتبط بطبيعة اقتصادها بالذات . كي نفهم سبب التدابير التي اصدرها الملك ضد الفقر يجب ان نعتبرها لا من وجهة نظر فلسفية او سياسية كما اعتبرها روجه بل من وجهة نظر اجتماعية .

في انكلترا ، وهي بلد أكثر تطورا بكثير من بروسيا ، سياسيا ، فيه مسألة الفقر ذات طابع اخطر كما تبين ذلك ثورات العمال الدائمة ، نجد نفس التجاهل الاساسي لهذه المسألة الذي نجده في المانيا . الاحرار يعززون الفقر لنظام الحماية الجمركية بينما المحافظون يرون السبب في الليبرالية . ان احدا من هذين الحزبين لا يبحث عن السبب في نظام الملكية الخاصة ، ان احدا منهما لا يفكر بالتالي باصلاح المجتمع لمعالجة هذا الداء ، بالعكس ان كلا من الطرفين يعتقد انه يكفي لهذا الغرض تفسير السياسة التي يسير عليها الطرف المقابل (١) .

هذا العجز ذاته عن شرح اسباب الفقر وايجاد الوسيلة الكفيلة بحذفه يتجلى عند الاقتصاديين البرجوازيين الانكليز الذين لهم عن هذا الموضوع آراء أشد سخفا ايضا من آراء الاحزاب السياسية . هكذا يكفي ماك كولوش Mac Culloch بالقول ان هذه المسألة تحل بسهولة من وجهة نظر نظرية ، تعطي حلا سهلا لجميع المسائل العملية . وعند اقتصاديين آخرين ، مثل الدكتور كاي KAY ، تصور عن الفقر أكثر حماقة ايضا ، فهم يعزونه الى نقص التربية لدى الجماهير .

» ان احد افضل واشهر الاقتصاديين الانكليز ، وهو ماك كولوش Mac Culloch نصير الكلي ريكاردو ، الذي يعرف جيدا وضع انكلترا الراهن والذي لا بد اذن انه

(١) انظر ميغا ، ١ ، ٢ ، ص ٨ - ٩ . - « سيقبأون معنا ان انكلترا بلد صناعي وايضا انها بلد الفقر ، ان هذه الكلمة نفسها انكليزية الاصل *paupérisme* . هكذا ان ملاحظة ما يجري في انكلترا هو اضمن وسيلة لادراك العلاقات بين بلد سياسي والفقر . في انكلترا ، البؤس له طابع ليس جزئيا بل عام ، ليس محصورا في المناطق الصناعية بل هو يشمل المناطق الزراعية . التحركات التي يولدها ليست بنت البارحة بل هي تتكرر منذ نيف وقرن . كيف ، والشروط هذه ، تنظر البرجوازية الانكليزية وكذلك الحكومة ، والصحافة المرتبطتان بها ، الى الفقر ؟ بقدر ما تعزو البرجوازية الانكليزية الفقر الى سبب سياسي ، يلقي الحر مسؤوليته على المحافظ والمحافظ على الحر . حسب الحر ، السبب الاساسي للفقر هو احتكار الملكية العقارية الكبيرة ونظام الرسوم ضد استيراد الحبوب . حسب المحافظ ، بالعكس تقع كل مسؤولية هذا الشر على الليبرالية ، على الزاخرة ، على التوسع المبالغ لنظام الصناعة . ان ايا من هذين الحزبين لا يعزو البؤس للسياسة بوجه عام ، بل فقط للسياسة التي يقودها الحزب المخاصم ، ان ايا منهما لا يفكر قيد انملة في اصلاح المجتمع » .

يملك رؤية اجمالية جيدة عن المجتمع البرجوازي ، يتجرا ، في محاضرة عامة ووسط التصفيق ، ويطبّق على الاقتصاد السياسي ما قاله بيكن عن الفلسفة : « ان الانسان الذي ، بحكمة حقيقية لا تمل ، يعلق حكمه ويتقدم بالتدريج متخطيا بالتالي على العقبات التي تعترض ، وكأنها جبال ، طريق العلم ، ينتهي الى بلوغ ذروة هذا الاخير حيث يجري تذوق الهدوء والهواء العليل ، حيث الطبيعة تقدم نفسها للناظرين في كل جمالها ، ومن حيث يصل المرء بلا عناء بواسطة درب مريح الى كسل تفاصيل الحياة العملية » . يا له من هواء عليل هواء الاقبية الانكليزية النتن ، يا لها من روائع طبيعية اسمال الرجال الفقراء ولحوم النساء اللواتي اكلهن التعب والبؤس ، الاطفال الممددون على الزبل ، الطروح ثمار شغل الفبارك الآلي المرهق والخابل ، يا لها من تفاصيل ساحرة في الحياة العملية البقاء والاعتقال والمسنقة !

حتى ذلك القسم من البرجوازية الذي يدرك الخطر المترتب على الفقر يتصور هذا الخطر ووسائل تداركه بشكل ساذج واحمق . هكذا الدكتور كاي Dr. kay في كراسه تدابير حديثة لصالح تطوير التربية في انكلترا ، يعزو سبب الفقر لنقص تربية . احزروا لماذا ؟ لان الشغل ، نتيجة نقص التربية ، لا يعرف قوانين التجارة ، وهذا سبب الفقر والثورات على الفقر . هذا يؤلف عائقا امام ازدهار المصانع الانكليزية والتجارة الانكليزية ويهدد استقرار المؤسسات السياسية والاجتماعية . هذا يبين كم ان البرجوازية الانكليزية وصحافتها عاجزان عن فهم الفقر ، هذه المصيبة القومية في انكلترا (١) . » .

للنضال ضد الفقر ، كانت الحكومة الانكليزية قد لجأت أولا بأول الى تدابير ادارية واحسانية لم تكن مختلفة جوهريا عن تلك التي يقترحها ملك بروسيا (٢) . حين نما الفقر لدرجة صار معها خطرا قوميا ، تخلت الحكومة الانكليزية عن هذه التدابير وجعلتها مسؤولة عن توسع هذا الداء ، وحاولت اقتلاعه بوسائل قمعية ، محولة بيوت الشغل المنشأة لمساعدة العاطلين عن العمل الى سجون . « وجد ( البرلمان الانكليزي ) ان السبب الرئيسي لتفاقم حالة الفقر هو قانون الفقراء وان الاحسان الذي كان قد استخدمه للنضال ضد هذه الحالة يعززها . اعتبر ان الفقر ، منظورا اليه من وجهة نظر عامة ، هو كما كان يعلم مالتوس نتيجة قانون طبيعي ازلي . بما ان عدد السكان ، على حد قول مالتوس ، يميل دوما الى تخطي وسائل البقاء ، لذا فمن الجنون اللجوء الى الاحسان الذي ليس من شأنه سوى تسهيل ازدياد البؤس . لا تستطيع الدولة سوى ترك هؤلاء البائسين لمصيرهم وعليها في اقصى تعديل ان تخفف وفاتهم . الى هذه النظرية الانسانية بهذه الدرجة ، اضاف

(١) انظر ميفا ، ١ ، ٣ ، ص ص ٩ - ١٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ص ١٠ - ١١ .

البرلمان الانكليزي هذا التصور ، الا وهو ان العامل هو بعينه مسؤول عن الفقر وانه يجب اذن معاملة الفقر لا ككارثة من كوارث الطبيعة بل كجريمة يعاقب عليها .  
هذا ما اثار ضبط وتنظيم بيوت الشغل ، حيث نظامها مصنوع بقصد تخويف البائسين ومنعهم من الالتجاء اليها هربا من الجوع . في بيوت الشغل هذه ، الاحسان مقرون بشكل ذكي مع روح الانتقام للبرجوازية ازاء هؤلاء البائسين الذين يستنجدون باحسانها .

هكذا فقد حاولت انكلترة بادىء بدء ان تلغي الفقر بتدابير احسان وادارة . ثم اعتبرت ان التطور الدائم للفقر ليس نتيجة الصناعة الحديثة بل هو نتيجة الرسم لصالح الفقراء ورات في البؤس المعمم نتيجة خاصة للتشريع الانكليزي . ما كانت قد نسبته الى نقص برّ نسبته الى فرط بر . اخيرا اعتبر الفقراء مسؤولين عن البؤس وعوقبوا على هذا الاساس (١) .

هذا العجز نفسه عن معالجة الفقر بتدابير تشريعية ثم هذا الاتجاه نفسه الى اقتلعه بوحشية ظهرا في فرنسا ، حيث الفقراء معتبرون ايضا مجرمين ويعاملون كمجرمين .

المؤتمر la Convention ، الذي كان ذروة الدولة البرجوازية التقدمية ، حاول فعلا ان يحذف الفقر بطريق التشريع (٢) ، ولكنه فشل في هذه المحاولة . بعده ، نابوليون ، الذي كان قد انشأ في ١٨٠٨ بيوتا للفقراء من اجل الغاء الفقر ، حولها كما حصل في انكلترة الى معتقلات (٣) .

ان علة هذا الفشل المزدوج في انكلترة كما في فرنسا هي ان الدولة البرجوازية بوصفها كذلك عاجزة عن الغاء الفقر . بما انها المدافعة عن المجتمع البرجوازي فهي لا تستطيع ان تتخذ اجراءات تدمره عمليا ، فحذف حالة الفقر هو حذف البروليتاريا ، اي الغاء القاعدة عينها التي عليها يرتكز المجتمع البرجوازي .  
المسكنات والادوية التي يقترحها روجه والاصلاحيون لمكافحة الفقر ، مثلا تربية

(١) انظر ميغا ، ١ ، ح ٣ ، ص ١١ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٣ - « كان للمؤتمر في لحظة من اللحظات شجاعة الامر بحذف الفقر ، ليس مباشرة ، كما يطلب « البروسي » من ملكه ، بل فقط بعد تكليف لجنة الانتقاذ العام باعداد الخطط والمشاريع الضرورية ... ماذا كانت نتائج قرار المؤتمر ؟ كانت ببساطة انه اصبح هناك مرسوم اضافي وان بعض عمال النسيج الجياع جاؤوا بعد عام يحاصرون المؤتمر . علما بان المؤتمر كان يمثل اقصى حد من القدرة والقوة والذكاء السياسي للدولة البرجوازية » .

(٣) انظر ميغا ، ٣ ، ص ١٢ . « نابوليون اراد ان يحذف التسول دفعة واحدة . امر ادارته بوضع مخططات لاقتلاعها في كل فرنسا . خلال شهور كان كل شيء جاهزا . في ٥ تموز ١٨٠٨ صدر قانون يحذف التسول . باية وسائل ! بواسطة مستودعات تحولت بسرعة فائقة الى معتقلات ، حيث ان الفقراء لم يلبثوا الا بطريق محكمة الجنتج » .

الاولاد الفقراء من قبل الدولة ، هي بالتالي خيالية ووهمية . فاذا ما أخذت الدولة على عاتقها تربية الاولاد الفقراء ، سيكون عليها ان تؤمن في الوقت نفسه معيشتهم ، وهذا يتعادل عمليا مع حذف البروليتاريا وبالتالي حذف المجتمع البرجوازي (١) .

هذا يفسر كون جميع الدول ، حين اهتمت بحذف الفقر ، قد اكتفت باللجوء الى تدابير ادارة او احسان . فهي بما انها لا تستطيع بوصفها دولا برجوازية ان تنسب الفقر الى طابع الدولة او الى طابع المجتمع ، فقد كانت مساقاة بالضرورة الى ان ترى علتها اما في رذائل خاصة بالافراد ، الكسل عند الفقراء وقسوة القلب عند الاغنياء ، واما في اضطرابات مؤقتة حصلت في تنظيم الدولة او المجتمع .

« الدولة لن ترى ابدا في الدولة او في التنظيم الاجتماعي ، كما يطلب البروسي من ملكه ، سبب المصائب الاجتماعية . حيث توجد احزاب سياسية ، كل حزب يرى سبب كل شر في واقع انه الحزب الخصم هو الموجود في الحكم . حتى السياسيون الراديكاليون والثوريون يبحثون عن السبب لا في طابع الدولة ذاته بل في شكل خاص لهذه الاخرة يريدون استبداله بشكل آخر . ليست الدولة والتنظيم الاجتماعي ، من وجهة النظر السياسية ، شيئين مختلفين .

الدولة هي التنظيم السياسي للمجتمع . بقدر ما تعترف الدولة بوجود عيوب اجتماعية ، فانها تعزو سببها اما لقوانين طبيعية ليس في قدرة البشر ان يفروها ، اما لحياة الافراد الخاصة التي هي مستقلة عن الدولة ، اما لنقائص الادارة التابعة المرووسة . هكذا في انكلترا يرون سبب البؤس في قانون طبيعي ينص على ان هناك دوما فائضا من السكان بالمقارنة مع وسائل العيش ، ويفسرون ايضا الفقر بسوء ارادة الفقراء . ملك بروسيا يفسره بنقص الروح المسيحية لدى الاغنياء ، بينما كان المؤتمر يعلله بعقلية الملاكين المضادة للثورة . لذا فان انكلترة تعاقب الفقراء وملك بروسيا يستصرخ ضمائرا الاغنياء والمؤتمر كان يقطع رأس الملاكين . اخيرا كل الدول تبحث عن سبب الفقر في نقائص مقصودة او غير مقصودة للادارة وتسعى الى معالجتها باصلاحات للادارة ، الوكيله المنفذة للدولة (٢) » .

هذا اللجوء الى تدابير ادارية لالغاء الفقر مكتوب له الفشل . من اجل حذف الفقر ، يكون على الدولة ، التي لا ينفصل وجودها عن شكل العبودية الحديث ، البروليتاريا ، التي هي نتاج المجتمع البرجوازي المؤسس على الملكية الخاصة ، ان

- (١) المرجع نفسه ، ص ١٣ - « ان سؤال « البروسي » ، لماذا لا يامر ملك بروسيا فودا بتربية الاولاد الفقراء ، من نفس النوع . هل يعلم البروسي ماذا سيكون على الملك ان يامر به بذلك الامر ؟ لا اكثر ولا اقل من الغاء البروليتاريا . لتربية اطفال ، يجب تفديتهم وتحريرهم من الشغل - كسب العيش . ان تربية واعالة اطفال الفقراء ستكون في الوقت نفسه مع الغاء الفقر الغاء البروليتاريا . » .
- (٢) انظر ميغا ، ١ ، ٣ ، ص ١٤ .

تحذف نفسها . فالغاء الفقر اي البروليتاريا يقتضي الغناء المجتمع البرجوازي ، في حين انها عضو الدفاع عن مصالحه الطبقية وهو علة وجودها (١) .

هذا يكشف بطلان اطروحة روجه التي تعلق حذف الفقر على تطور العقل السياسي اي تطور الدولة . « كلما كانت الدولة قوية ، - على حد اعتراض ماركس - ، اي كلما كان بلد ما متطورا سياسيا ، كان اقل استعدادا لان يرى في مبدأ الدولة ، اي في تنظيم المجتمع الذي هي تعبيره الواعي والرسمي ، علة ومصدر العيوب الاجتماعية . العقل السياسي يتسم بكونه يحاكم في حدود واطار السياسة . كلما كان اكثر نموا وفاعلية كان اقل قدرة على القبض على طبيعة العيوب الاجتماعية . الثورة الفرنسية تؤلف الحقبة الكلاسيكية للعقل السياسي . والحال ، ان ابطال هذه الثورة ، بعيدا عن ان يروا في مبدأ الدولة مصدر هذه العيوب ، كانوا بالعكس يعتبرونها السبب المقرر للنقائص السياسية . هكذا لم يكن روبسبير يرى في فرط الفقر والغنى سوى عقبة امام اقامة الديمقراطية الحقبة . لهذا السبب كان يريد ان يقيم نظاما من البساطة والتكشف السبارطيين . ان مبدأ العقل السياسي هو الارادة . كلما كان العقل السياسي محدودا وبذلك عينه كاملا في نوعه ، كلما ازداد ايمانه بجبروت الارادة ، قل ادراكه لحدودها الطبيعية والروحية وقلت بذلك بالذات قدرته على اكتشاف مصدر العيوب الاجتماعية . هذا يكفي لتبيان كل غرور أمل « البروسي » الذي يفكر ان العقل السياسي مدعو الى اكتشاف مصدر البؤس في المانيا (٢) » .

في القسم الثاني من مقاله ، ماركس ينتقد افكار روجه عن ثورة عمال النسيج وعن الثورة الاجتماعية ، الافكار المرتكزة على تصويره الخاطئ لطابع حركة العمال الالمانية .

بما ان روجه كان يحكم على الكفاح في سبيل التحرر من وجهة نظر البرجوازية ، فقد كان يفكر انه يجب ان يتخذ هدفا جوهريا له الاستيلاء على الدولة وتحويلها ، ولم يكن يرى في انتفاضات عمال النسيج السيليزيين سوى حركة تمرد محلية تسببت عن البؤس ولا مدى سياسي لها . ماركس بالعكس يعتقد ان هذه الانتفاضة ، بعيدا عن ان يكون لها طابع حدث محلي بلا مدى عام ، هي حركة لها اعلى اهمية ، لانها اول عمل ثوري كبير البروليتاريا الالمانية . لتقديرها بقيمتها الصحيحة ، كان يجب - على حد قوله - مقارنتها بالحركات العمالية في انكلترا وفرنسا ، فهي تتميز عن هذه الحركات بطابعها الواعي والنظري . فعمال النسيج السيليزيون لم يكتفوا بتحطيم الآلات ، بل دمروا ايضا دفاتر المحاسبة وسندات الملكية ، متعرضين بذلك الى قاعدة

(١) انظر المرجع نفسه ، ص ص ١٤ - ١٥ .

(٢) انظر ميغا ، ١ ، ٢٣٤ ، ص ص ١٥ - ١٦ .

الراسمالية ذاتها (١) .

من جهة أخرى لم تقدأ حركة اجتماعية بمثل هذه الشجاعة وبمثل هذا النضج الذهني وهذا الجلد ، فضلا عن ان الحركة المعنية حصلت في بلد سكانه معتادون على طاعة منفعة وحكومته استطاعت ان تحذف حريسة الصحافة بدون ان تصطدم بأية مقاومة من جانب البرجوازية (٢) .

كان ماركس يدافع بحرارة عن البروليتاريا الالمانية ضد المزاحات السهلة لروجه الذي كان ينكر عليها القدرة على التعلم وبالتالي على التحرر . ان البروليتاريا الالمانية — على حد جواب ماركس — قادرة ليس فقط على الارتقاء الى وعي واضح لمصالحها الطبقية الامر الذي يجعلها أهلة تماما للتحرر ، بل ايضا الى مستوى فكري رفيع ، الامر الذي يؤهلها لان تصبح منظر البروليتاريا الاوروبية . وبعد ان ذكر كمثال فايتلنغ وخصه بشيء حار واضعا اياه فوق برودون ومقدرا اياه اعلى بكثير من كل منظري البرجوازية (٣) ، كان يضيف : « يجب الاعتراف بان البروليتاريا الالمانية هي منظر البروليتاريا الاوروبية ، كما ان البروليتاريا الانكليزية هي مرشدها على الصعيد الاقتصادي والبروليتاريا الفرنسية على الصعيد السياسي . يجب الاعتراف بان المانيا ، بحكم عجزها ذاته عن القيام بثورة سياسية ، مؤهلة لتحقيق ثورة اجتماعية . كما ان ضعف البرجوازية الالمانية هو سبب عجز المانيا السياسية ، كذلك فان الاستعدادات الطبيعية لبروليتارياتها تشهد بمؤهلات المانيا على الصعيد الاجتماعي .

(١) انظر المرجع نفسه ، ص ١٧ - ١٨ . « انه (روجه) سيجد ان أية انتفاضة للعمال الفرنسيين والانكايز لم ترد طابعا نظريا وواعيا لطابع انتفاضة عمال نسيج سيليزيا . فليتذكر اولا « اغنية عمال النسيج » هذا الشعار الكفاحي الجريء الذي لم يات حتى ولا على ذكر البيت والاسرة والوطن المحلي وحيث مباشرة تصرخ البروليتاريا بشكل حاد ، وحشي ، عنيف ، معارضتها للمجتمع المؤسس على الملكية الخاصة . ان انتفاضة سيليزيا تبدأ بالفصط في النقطة التي عندها تنتهي الحركات العمالية الفرنسية والانكليزية اي عند اخذ البروليتاريا وعيها الطبقي . من هنا الطابع المتفوق لاهل الذي قام به عمال النسيج هؤلاء . ليس فقط يدمرون الآلات هذه المزاحات للعامل بل ايضا دفاتر المحاسبة وسندات الملكية ، بينما كانت كل الحركات الاخرى تتجه بادية بدء ضد الصناعي ، العدو الرئوي ، اتجهت هذه الحركة في الوقت نفسه ضد رجل المصروف ، العدو غير الرئوي . » .

(٢) انظر ميغا ، ١ ، ص ٢٠٦ . « في بلد يكفي فيه مرسوم ملكي لنزع الالام الرفقة بغطب ليبرالية وباكواب الشهبانيا ولم يحتاجوا فيه الى جندي واحد لغلق مطابخ البرجوازية التي كانت تطالب بحرية الصحافة وبال دستور ، في بلد عنوانه الطاعة المنفعة ، في بلد كهذا لا يكون استخدام القوة المسلحة ضد عمال نسيج ضعفاء حدثا كبيرا ، مخيفا . وعمال النسيج الضعفاء انتصروا في الصدام الاول ، لم يسقطوا الا بعد وصول تعزيزات . هل ان ثورة جماعة من العمال هي في ذاتها اقل خطرا لانه لم يكن ثمة حاجة الى جيش بالكامل لسحقها . وليقارن « البروسي » الحكييم انتفاضة عمال نسيج سيليزيا بتحركات العمال الانكليز والفرنسيين وسيظهر له عمال نسيج سيليزيا عمالا اقوياء فعلا » .

(٣) انظر المرجع نفسه ، ص ١٨ .

ان اللاتوافق بين تطور المانيا الفلسفي وتطورها السياسي ليس شيئاً شاذاً . انه نشاز ضروري . في الاشتراكية فقط يستطيع شعب فلسفي ان يجد الفاعلية العملية التي تناسبه ... » (١) .

هذا ، على حد قول ماركس ، ما كان على روجه ان يراه ، فيما لو انه ، بدلا من ان يجري باكتفاء مدع تمارين ادبية والعباب الفاظ عن ثورة عمال سيليزيا ، حلل هذه الاخيرة بروح من الجد والتعاطف (٢) .

كخاتمة ، بين ماركس استحالة اعطاء حل للمسألة الاجتماعية بتطوير الروح السياسية كما دعا روجه . كما يظهر - على حد قول ماركس - من مثال الثورة الفرنسية التي هي عين النموذج الثورة السياسية ، تولد الروح السياسية مع ازدياد الرفاه . بعيدا عن المساعدة في اكتشاف اسباب البؤس وفي حذفه ، تسهم الروح السياسية في استفحاله بتفشي الوعي الطبقي للبروليتاريا التي تحولها عن النضال في سبيل مصالحها الخاصة كما تبين ذلك التحركات الاولى للبروليتاريا الفرنسية . « من الخطأ القول ان البؤس ينبج الروح السياسية ، بالعكس هذه تتولد من الرفاه ... سبق ان بينا لك « بروسي » كم قليلا الروح السياسية قادرة على كشف اسباب البؤس ... »

كلما كانت الروح السياسية لشعب من الشعوب متطورة ومعقدة كانت البروليتاريا - على الاقل في بداية حركتها - اكثر تبذيرا لقواها في تمردات غير معقولة وغير مفيدة تفرق في الدم . بما ان فكرها يرتدي شكلا سياسيا ، فهي ترى في الادارة سبب كل الشرور وتعتبر انه لا يمكن معالجة هذه الشرور الا بقلب شكل معين للدولة . نرى ذلك في الانتفاضات الاولى للبروليتاريا الفرنسية . كان عمال ليون يعتقدون انهم لا يلاحقون سوى اهداف سياسية ، انهم ليسوا سوى جنود للجمهورية ، في حين انهم كانوا بالواقع جنود الاشتراكية . هكذا كانت روحهم السياسية تحجب عنهم اسباب البؤس الاجتماعي ، تزييف تصورهم للاهداف الواجب بلوغها وتفشي غريزتهم الاجتماعية (٣) . »

(١) انظر ميغا ، ١ ، ج ٣ ، ص ١٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٩ . « ان حكمة الامان الفقراء هي هكذا في تناسب عكسي مع حكمة الفقراء الامان ( وهذا رد على روجه الذي قال ان الامان الفقراء يعادلون الفقراء الامان في قلة الفطنة ) . ولكن اناسا بالنسبة اليهم كل موضوع هو مناسبة القيام بتمارين في الاسلوب الادبي لا يصلون بهذا النشاط الشكلي المحض الا الى محتوى زائف ، بينما من جهة اخرى زيف المحتوى يعطي الشكل طابعا خسيسا . وهكذا فان محاولة البروسي القيام بمناقشات لامة بمناسبة ثورة عمال سيليزيا قادته الى مناقضة الحقيقة . امام هذه الانتفاضة ، لم تكن مهمة مثقف صديق للحقيقة ان ينصب نفسه استاذا بل ان يدرس طابع هذه الانتفاضة الخاص . صحيح ان هذا كان يتطلب تفهما علميا وشيئا من الحب الاخوي ، بينما للقيام بالعملية الاخرى تكفي جمل جاهزة مع كثير من الفرو . »

(٣) انظر ميغا ، ١ ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

على روجه الذي كان يتنبأ بفشل الانتفاضات الناتجة عن عزلة الانسان عن الجماعة ، قاصدا بالجماعة الجماعة السياسية ، الدولة ، والذي كان يؤكد ان التحرر لا يمكن الحصول عليه الا بتطوير الروح السياسية التي تدمج الفرد في الدولة ، كان جواب ماركس انه اذا كان صحيحا ان جميع الثورات لها كسبب عزلة الانسان عن الجماعة فانه يجب ان نميز الثورة السياسية النابعة من عزلة الانسان عن الجماعة السياسية ، عن الدولة ، والثورة الحقيقية ، الثورة الاجتماعية النابعة من انفصال الانسان عن الجماعة الاجتماعية ، عن الجماعة الانسانية . الثورة البرجوازية الفرنسية اثارها ، على حد قوله ، انفصال البرجوازية الفرنسية عن الدولة وكان لها كمهمة وكهدف حذف هذا الانفصال . هذه الثورة اثارت ، بانتصار المجتمع البرجوازي ، انفصالا اخطر بكثير واثقل عاقبة من الانفصال السياسي .

فالجماعة التي عنها الانسان مفصول في المجتمع البرجوازي هي كينونته الجماعية اي حياته الحقيقية المادية والروحية على حد سواء . ان حذف انفصال الانسان عن الجماعة الانسانية الذي يحصل في هذا المجتمع يتطلب تحولا جذريا لهذا الاخير ، وهذا لا يتحقق الا بثورة اجتماعية نتائجها اهم واعمق بما لا يقاس من نتائج ثورة سياسية . هذا يفسر واقع ان انتفاضة عمالية ، حتى اذا كانت ذات طابع محلي وجزئي ، لها آثار اعظم ومدى اكبر من انتفاضة سياسية (١) .

هذا يفسر الفرق الاساسي بين ثورة سياسية وثورة اجتماعية ، فالاولى هي احتجاج طبقة خاصة ضد عزلها عن الدولة واستبعادها من السلطة ، والثانية هي احتجاج الانسان ضد استبعاده من الجماعة الانسانية (٢) .

#### (١) المرجع نفسه ، ص ٢١

« ولكن الجماعة التي عنها العامل معزول جماعة اخرى غير الجماعة السياسية واعظم بكثير . الجماعة التي عنها يعزله شغله ذاته هي حياته ذاتها ، حياته الفيزيائية والفكرية ، الاخلاق الانسانية ، الفاعلية الانسانية ، اللغات الانسانية ، بكلمة كل الكينونة الانسانية . الكينونة الانسانية هي كينونة الانسان الجماعية الحقيقية . كما ان الانفصال الوخيم عن هذه الكينونة اكبر بما لا يقاس واسوأ واشد خطرا واكثر مغالفة للمنطق بما لا يقاس من الانفصال عن الجماعة السياسية ، كذلك فحذف هذا الانفصال او حتى محض رد جزئي ، او انتفاضة ضده ، انقل عاقبة بما لا يقاس من حذف الانفصال السياسي ، كما ان الانسان اكبر بما لا يقاس من المواطن ، كذلك فالحياة الانسانية اهم بما لا يقاس من الحياة السياسية . ان الانتفاضة العمالية حتى الجزئية يحركها روح كلي كوني ، بينما الانتفاضة السياسية حتى اذا كانت عامة تخفي تحت الشكل الاصخم روحا ضيقا . »

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٢ . « ان ثورة اجتماعية ، حتى اذا لم تحصل الا في مقاطعة صناعية ، تقف في وجهة نظر كونية ، لانها تؤلف احتجاجا من الانسان ضد حياة منزوعة الانسانية ، لانها تقوم باسم الفرد الحقيقي ، لان الكينونة الجماعية التي يثور الفرد ضد الانفصال عنها هي الجماعة الانسانية الحقيقية ، الكينونة الانسانية . بالعكس ان نفس ثورة سياسية قوامها رغبة طبقة محرومة من النفوذ السياسي في ان تحذف انفصالها عن الدولة وعن السلطة . هذه الثورة التي تقف في وجهة نظر الدولة



ان ثورة سياسية ، ثورة جزئية ، تكتفي باستبدال سيطرة طبقة بسيطرة طبقة اخرى هي عكس ثورة حقيقية لها طابع سياسي واجتماعي معا ، طابع سياسي بمعنى انها تحذف الدولة كدولة سياسية ، وطابع اجتماعي بحكم كونها تدمر التنظيم الاجتماعي القديم لتضع محله نظاما جديدا (١) .

في هذه المجادلة التي كان فيها ماركس يحزر من تحليل انتفاضة عمال النسيج الملامح العامة للثورة الاجتماعية البروليتارية ، كان لا شك يبالغ في تقدير الطابع الواعي والمدى المباشر لهذه الانتفاضة ، الا ان ذلك لا يقلل من كونه على حق ضد روجه ، حين يرى فيها ، آخذا اياها في منظور تاريخي ، اول مشهد كبير في النضال الثوري للبروليتاريا الالمانية .

هذا المنظور الثوري كان يسمح له ايضا بأن يقدر قدره الحقيقي الانفجار المفاجيء لحب الانسان الذي كان يظهر في البرجوازية الالمانية لحظة بداية تهديدها من قبل ثورة العمال . وكان يتوقع منذ ذلك الحين ، بعكس ج. يونغ ، الذي كان يزعم ان البرجوازية باتت الان مهتمة كثيرا بمصير العمال البائس وتسعى بصدد لمعالجة الحال (٢) ، أنها ستغير جذريا موقفها حين ستشعر بأنها مهددة في مصالحها الطبقية من قبل البروليتاريا وأنها في هذه الحال لن تتأخر عن الالتحاق ضدها بالحكومة الرجعية متخيلة عن أي حب للانسان .

على أساس اقتناعه بضرورة ثورة تحقق بالاشتراكية التحرر الانساني (٣)، كان

»»»→

أي وجهة نظر جملة *totalité* مجردة ليست مدينة بوجودها الا الى انفصالها عن الحياة الواقعية لا يمكن ان تفكر بدون هذا التعارض بين فكرة الانسان العامة ووجوده الفردي . ان ثورة تستلهم الروح السياسية تؤمن هكذا ، طبقا للطبيعة المحدودة والمتناقضة لهذه الروح ، سيطرة طبقة في المجتمع ، بمفردة هذا الآخر .

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٢ .

(٢) انظر معهد الماركسية - اللينينية ، موسكو . رسالة من ج. يونغ الى ل. ماركس ، كولن

٢٦ - ٦ - ١٨٤٤ :

» ان اضطرابات سيليزيا فاجأتك ولا شك بقدر ما فاجأتنا . انها شهادة ساطعة على صواب تحليلك لوضع المانيا الحاضر والمقبل في « مدخل نقد فلسفة الحق » الصادر في الحوليات . في كل مكان يتظاهر العطف على العمال ، على الشوار ... في صحيفة كولن يجري الان الحديث عن الشيوعية اكثر مما جرى سابقا في الصحيفة الراينية . بل هي تفتح حملة تبرعات لعائلات عمال النسيج السيليزيين الذين سقطوا ابان تلك الاحداث المؤلمة ، لعائلات المتمردين من النوع الاكثر خطرا . لقد بات الحديث اليومي الوحيد حديث الفقر والاشتراكية ، كل يأخذ منه ما يعجبه ، وآخرها يصدق البرجوازي الصغير الالمانى ما يقدم له يوميا بدون تخوفه . بل سيصبح نصيرا للاشتراكية اذا ما قدمت له ضرورتها يوميا لعدة سنوات .

(٣) ميفا ١ ، ٣٠ ، صص ٢٢ - ٢٣ . « الثورة ، مفهومة كاطاحة بالسلطة القائمة وكتدمير للتنظيم الاجتماعي ، هي فعل سياسي . الاشتراكية لا يمكن ان تتحقق بدون ثورة . انها بحاجة الى هذا الفعل السياسي بالقدر الذي هي فيه بحاجة الى التدمير . »

ماركس يرفض في الوقت نفسه مع محبة الانسان البرجوازية خطط التجديد الاجتماعي التي يقترحها الاصلاحيون مبينا طابعها الخيالي .  
لم يرد روجه على نقد ماركس اللاذع الا ببعض ملاحظات تافهة كانت مساهمته الاخيرة في جريدة **الى الامام** ، التي كان يشجب اكثر فاكثر اتجاهها الثوري (١) .  
ماركس ، من جهته ، لم يرسل بعد ذلك الحين الى الجريدة سوى مقال صغير بمناسبة محاولة تشيخ Tschech ضد فريدريك غليوم الرابع (٢) .

★ ★ ★

لقد كان العنصر المقرر في تطور التصورات الفلسفية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية لـ ماركس في باريس ، هو المعرفة التي كان يكوّنها عن البروليتاريا الثورية الباريسية ومشاركته في نضال هذه البروليتاريا الطبقي التي كانت تعطي توجيها جديدا لفكره ولعمله .

فمن وجهة نظر هذا النضال الطبقي يكبّ على دراسة الثورة الفرنسية والمادية الفرنسية والانكليزية والاقتصاد السياسي دراسة متعمقة .

ان تحليل الثورة الفرنسية ، وبشكل خاص المؤتمر ، يسمح له بأن يوضح آراءه عن دور صراعات الطبقات في تطور المجتمع وبشكل اعم في تطور التاريخ . فهو يبين له ان ثورة اجتماعية ما انما تتولد من الصراعات الطبقيّة التي يحددها بدورها التطور الاقتصادي ، ان الدولة ، المدافعة عن مصالح الطبقة الحاكمة ، تستخدم سلطتها لتضطهد الطبقات الأخرى ، وانه خلال هذه الثورة كان يشتد باستمرار الصراع بين المالكين وغير المالكين الذي يؤلف السمة المميزة للتاريخ الحديث . هذه الثورة كانت تعلمه ايضا ان طبقة حاكمة ما لا تتخلى أبداً بارادتها عن السلطة وعن امتيازاتها وان ثورة اجتماعية ما تتطلب اقصى الكفاحات . ويوسع ماركس هذا التصور للتطور التاريخي المؤسس على فكرة الدور المقرر لصراعات الطبقات بدراسته كبار المؤرخين الفرنسيين الذين كانوا قد شددوا على هذا الدور في صعود البرجوازية .

ان دراسة الاقتصاد السياسي تقوده الى تعميق هذا التصور للتاريخ ، مبينة له ان العنصر الاساسي فيه هو تطور الانتاج الذي هو في قاعدة كل تحول اجتماعي .

(١) الى الامام ، رقم ٦٣ و ٦٤ . وبالقابل اطاق عنان غضبه ضد ماركس في رسائله . انظر رسالة الى والدته ، باريس ٢٣ - ١٠ - ١٨٤٤ ( المراسلات ، ١٤ ، ص ٢٧١ ) : « لا تحزني بخصوص مناظراتي ... هؤلاء الصعاليك لن ينتصروا علي ... شخصي فوق هجمات السادة باور ، ماركس ، وشركاهم . شخصيا لا اقبل المذهب الذي يرى ان ما هو شائع ودنيء وفظ وقدر هو الحقيقة والحريّة واني اتنبأ لهؤلاء الاوفاد الذين يهينون الحريّة على النحو المذكور بكارثة قريبة سيحبسونها على انفسهم بطبعهم الحقير وجنونهم . »

(٢) ميفا ١ ، ح ٣ ، ص ٢٤ - ٢٧ ، الى الامام ، رقم ٦٦ ، ١٧ آب ١٨٤٤ . « ملاحظات على اخر تعاريف البلافة لفريدريك غليوم الرابع . »

واذ يعمم هذا التصور بتحليله المادية الانكليزية والفرنسية للقرنين السابع والثامن عشر فانه يصل الى فكرة ان اساس وجوهر الحياة الانسانية، المعتمدة في كل تجلياتها وفي تطورها ، هما الانتاج الاقتصادي .

هذه الدراسات ، مع مساعدتها له على التحرر من اخر بقايا المثالية ، تقوده الى انضاج مبادئ مادية جديدة ، ذات طابع جدلي وتاريخي ، عليها يؤسس تصورا جديدا للشيوعية ، مكثفا مع ضرورات كفاح البروليتاريا الثوري .

هذا يقرر قطيعته النهائية ليس فقط مع « المعتقين » الذين كانوا ، مع توجههم نحو فردوية فوضوية يجعلون من انفسهم مساعدي الرجعية بهجماتهم ضد الليبرالية والشيوعية ، بل ايضا مع الليبراليين من نوع روجه الذين كانوا ، وهم المدافعون عن المجتمع البرجوازي ، يتخذون فور احتكاكهم المباشر مع البروليتاريا موقفا عدائيا منها ويوجهون هجماتهم الرئيسية ضد الشيوعية .

علاقاته الودية مع هـ. هاينه تفسر بواقع ان هذا الاخير كان يشهد في كتاباته بميل نحو الشيوعية التي كان يسهل دعوتها بتبيانها حتمية ظفرها .

مع انفصاله عن « المعتقين » وعن روجه ، يبتعد ماركس عن الاشتراكية الاصلاحية وعن الشيوعية الطوباوية التي يرى بوضوح متزايد تعارضهما مع ضرورات النضال البروليتاري . الا انه لا يقطع الان صراحة معهما ، اذ ما دام قيد انضاج مذهبه فهو لا يملك بعد حججا حاسمة ضدهما . وبالفعل انه لا يظهر عداء لا ازاء باكونين ، الذي لا يكشف بعد ترفيته الثورية ، ولا ازاء برودون ، الذي يعترف له ماركس بمأثرة كونه اساس مذهبه على نقد للملكية الخاصة ، فقد يرى من جهة اخرى من الان نواقص وحدوده . انه لا يزال يقدر فويرباخ تقديرا عاليا على كونه اساس ماديته ليس فقط على العلاقات بين الانسان والطبيعة ، بل ايضا على العلاقات بين البشر ، وعلى كونه وضع في مركز تصورات ضرورية الفاء الانخلاع الانساني ، لتحرير البشر ، مع ادراكه من الان ضعف فويرباخ التابع من كونه لا يضع مسألة الانخلاع على الصعيد السياسي والاجتماعي . يعترف لهس بمأثرة تبيان ان العمل action المعتبر فاعلية عيانية ، عملية ، يؤلف جوهر الحياة الانسانية وان الانخلاع يجب ان يفهم كانخلاع اجتماعي متولد من نظام الملكية الخاصة . اخيرا ، فايثلنغ يبقى في نظره محرّضا ومنظرا ثوريا كبيرا .

بيد أنه كان ، مع سير وضعه المبادئ العامة للمادية الجدلية والتاريخية وسير تأسيسه الشيوعية العلمية على هذه المبادئ ، سيدخل في صراع مكشوف معهم كما كان الامر مع « المعتقين » ومع روجه .

ان أولى مجادلاته الكبيرة ، التي كانت بالنسبة له مناسبة احكام تصوراته ،

كانت موجهة ضد روجه الذي كان بصدد ثورة عمال النسيج قد انكر على البروليتاريا الالمانية حق أن تقوم بثورتها الخاصة .

بعكس روجه الذي كان يعلن ان البروليتاريا عاجزة بسبب افتقارها الى الحس السياسي عن القيام بثورة حقيقية ، كان ماركس ، مستندا الى التمييز الذي اقامه قبل قليل بين التحرر السياسي ، ذي الطابع الجزئي ، والتحرر الانساني ، التحرر الشامل ، ذي الطابع الاجتماعي ، يؤكد ان هذا التحرر لا يمكن أن يتحقق الا بثورة بروليتارية .

انطلاقا من ذلك كان حكمه على ثورة عمال النسيج على طرفي نقيض مع حكم روجه ، فقد كان يرى فيها أول حركة ثورية كبيرة للبروليتاريا الالمانية .

اذ كان ما يزال يعمل بمفهومى التحرر السياسي والتحرر الانساني اللذين كان قد استخرجهما من « نقده لفلسفة الحق عند هيجل » ، فقد كان يصل ، مع توضيحه هذه المفاهيم بتحليل للفقر *paupérisme* ، الى تصور أصح للدولة البرجوازية وللمجتمع البرجوازي . فقد كان يبين ان الفقر الذي صار وبالا اجتماعيا تقاسي منه جميع البلدان هو نتيجة ضرورية للرأسمالية لا تستطيع الدولة البرجوازية مداواتها . اذ ان حذف الفقر معناه بالنسبة لهذه الدولة تدمير أساسها ، المجتمع البرجوازي ، وبذلك تسبب دمارها هي . هذا كان يقود ماركس الى أن يرى الان في الدولة لا الدائرة التي تتجسد فيها وهما المصلحة العامة بالتعارض مع المجتمع البرجوازي كما كان يرى من قبل ، بل أداة سيطرة الطبقة القائدة التي أتت الى السلطة بثورة سياسية . كذلك لم يعد يرى في المجتمع البرجوازي دائرة المصالح الخاصة التي حددها نظام الملكية الخاصة بل الميدان الذي فيه يحصل نزاع انسانية البشر بانخلاع طبيعتهم الحققة .

بعد أن عمّق بدراسته للثورة الفرنسية والمؤرخين الفرنسيين تصوره لسدور الصراعات الطبقة في التطور التاريخي ودفع أكثر الى الامام في مناظرته مع روجه تحليل شروط وطابع الثورة الاجتماعية ، كانت الدراسة المتزايدة العمق للاقتصاد السياسي ستبين له الان الدور المقرر المحدد للانتاج في التطور الاجتماعي .

هذه الدراسة ، بتعميقها مفاهيمه عن علاقات الانسان مع وسطه الطبيعي والاجتماعي ، كانت تسوقه الى توضيح تصوره المادي الجديد عن العالم ، الذي سيكون عرضه موضوع المؤلف الرئيسي الذي كتبه آنذاك في باريس ، وهو **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** .

# الفصل الثاني

## مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة

ان مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة المحررة من آذار الى آب ١٨٤٤ هي المؤلف الرئيسي لماركس خلال فترة اقامته في باريس . ففي هذا المؤلف ، يبلور من مفهوم « البراكسيس » Praxis الذي ينضجه بنقد متواز للاقتصاد السياسي وفلسفة هيغل ، المبادئ الاساسية للمادية الجدلية والتاريخية (١) .

هذه المخطوطات تحوي عناصر مؤلف اوسع بكثير ، كان سيتضمن تحليلا نقديا للاقتصاد السياسي المعتبر في علاقاته مع المجتمع والسياسة والاخلاق والحقوق (٢) .

ان حجم هذا المشروع ، مضافا الى ضرورة فتحه مع انجلز مجادلة ضد الهيفيلين الشبان ، كانت موضوع العائلة المقدسة أولا ثم الايديولوجيا الالمانية ، لم يسمح له بتحقيق هذا العمل .

ولقد ظلت مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة مجهولة لمدة طويلة جدا .

---

(١) ميغا ، ١ ، ح ٣ ، صص ٢٩ - ١٧٢ . (توجد طبعة عربية : دمشق ، وزارة الثقافة ، ترجمة الياس مرقص . وهي مطابقة لطبعة ( Editions Sociales ) .

(٢) المرجع المذكور ، ص ٣٣ ، مقدمة المخطوطات : « اعلنت في الحوليات الفرنسية الالمانية عن نقد للعلوم القانونية والسياسية في شكل تحليل نقدي لفلسفة الحقوق عند هيغل . اثناء صياغة هذا المؤلف ظهر لي ان نقد الفلسفة التاملية مجموعا مع نقد المواد الاخرى يسيء الى عرض هذه الاخيرة ويجعل فهمها اصعب . ومن جهة اخرى ، فان غزارة وتنوع المواضيع ما كانت تتيح معالجتها في مؤلف واحد الا بشكل مقتضب الامر الذي من شأنه ان يعطي انطباع منظمة عسفية . لذا فانهي ساعرض على التوالي في كراسات خاصة نقد الحقوق ، الاخلاق ، السياسة ، الخ ، ثم ساحاول تبيان وحدة هذه الانتقادات المختلفة محلا في الوقت نفسه الطريقة التي بها عالجت الفلسفة التاملية هذه المواضيع . هذا يفسر كوني في هذا المؤلف لم اعالج علاقات الاقتصاد السياسي مع الدولة ، الاخلاق ، الحقوق ، الحياة الاجتماعية ، الا بالقدر الذي فيه هذا الاقتصاد السياسي يمس بطبيعته ذاتها هذه المواضيع . »

ثم نشرت في شكل قطع أولا (١)، ثم بشكل غير كامل (٢)، وأخيرا في ١٩٣٢ في تمامها، في المجلد الثالث من مؤلفات ماركس - انجلز الكاملة تحت عنوان **مخطوطات اقتصاد سياسي وفلسفة (٣)** .

هذه المخطوطات تشغل مع **الايديولوجيا الالمانية** موقعا اوليا في كتابات شباب ماركس . فقد ثبت في هذا المؤلف ، بواسطة عرض للتطور العام للانسان المعتبر في علاقاته مع الطبيعة ومع المجتمع ، الملامح العامة لتصور جديد عن العالم مؤسس على المادية الجدلية والتاريخية . لذا فان هذه المخطوطات هي افضل ما يتيح فهم اتساع ومدى المذهب الماركسي في بداية انضاجه .

ان سبب وباعث تحرير المخطوطات كانا الحاجة التي كان يشعر بها ماركس آنذاك الى تعميق تصوره للشيوعية ، التي سبق أن عرض مبادئها العامة في مقاله في **الحوليات الفرنسية - الالمانية** : « مدخل الى نقد فلسفة الحق لهيغل » .

بعد ما عرض في « المسألة اليهودية » ان التحرر الانساني يتطلب الغاء الملكية الخاصة الغاء كاملا ، كان قد خلص ، في هذا المقال ، الى ضرورة اقامة النظام الشيوعي لانفاها ، ولكنه كان يضع هذه الضرورة بطريقة لا تزال نوعا ما دوغمائية ، اذ لم يكن بعد يستطيع أن يبين كيف تنجم الثورة الشيوعية عن تطور النظام الرأسمالي .

---

(١) صدرت قطع منها في ترجمة روسية في ارشيف ماركس - انجلز تحت عنوان اعمال تهديدية « العائلة المقدسة » ، ثم في شباط وحزيران ١٩٢٩ في باريس في المجلة الماركسية تحت عنوان ملاحظات على الشيوعية والملكية الخاصة و ملاحظات على الحاجات والانتاج وتقسيم الشغل .

(٢) انظر كارل ماركس : المادية التاريخية . مؤلفات الشباب . نشر لاندسهرت وماير ، لايبزيغ ، ١٩٢٢ ، ١٥ .

وقد ورد في المقدمة : « بين المؤلفات التي لم تنشر بعد ، هذا المخطوط هو المؤلف الذي كان نشره معارضا باكث ما يمكن من صعوبات القراءة . فهو يتألف من ٩٩ ورقة مكتوبة غالبا على الوجهين ومن ٢٣ ورقة بيفضاء مربوطة بشكل غير جيد . » . انظر ايضا ماير J. P. Mayre مؤلف لم ينشر لماركس ، المجلة الحمراء ، مجلة اشتراكية شهرية ، ١٩٣١ ، المزمرة الاولى .

(٣) انظر ميغا ، ٣٥ ، صص ٢٨ - ١٧٢ . المؤلف يتألف من اربع مخطوطات . الاولى تحوي فسي قسمها الاول مختارات من مؤلفات اقتصاد سياسي ، وتعالج في قسمها الثاني : الاجر ، الربح ، الربح العقاري ، والعمل المنخلع . الثانية ، ولم يبق منها سوى النهاية . تتصل بالملكية الخاصة ، في الثالثة عولجت المواضيع الاتية : الملكية الخاصة والشغل ، الملكية الخاصة والشيوعية ، الحاجات ، الانتاج وتقسيم الشغل ، المال ، نقد دياكتيك وفلسفة هيغل . الرابعة تضم فقط مقتطفات من هيغل .

## تأثيرات ودراسات

تحت تأثير مقالة فر. انجلز « خطوط أولى لنقد الاقتصاد السياسي » التي كانت تعرض كيف ان تطور النظام الرأسمالي يقود بالضرورة الى الشيوعية ، كان ماركس يصل الى هذا اليقين وهو ان الدراسة المتعمقة للاقتصاد هي وحدها تتيح فهم طبيعة وتطور النظام الرأسمالي وضرورة احلال الشيوعية محله .

بخلاف فر. انجلز الذي كان يحصر اعتباراته في الميدان الاقتصادي والاجتماعي ، كان ماركس يخرج من تحليله للاقتصاد السياسي ، الذي كان يتيح له نقد الفلسفة المثالية من الاساس ، تصورا ماديا للعالم اعم وأعمق ، كان بمثابة قاعدة لمذهبه الشيوعي .

كانت دراساته في الاقتصاد السياسي ، التي بدأها حسب انجلز في خريف ١٨٤٣ (١) واسعة جدا (٢) . فهي تتضمن ، كما يظهر من خلاصات القراءات ، مؤلفات الاقتصاديين الرئيسيين ، من بواغيبير Boisguillebert وكيه نسي Quesnay حتى جان باتيست سيه J. B. Say وجيمس ميل James Mill (٣) .

- (١) انظر فر. انجلز . مقدمة ٢م من راس المال ، برلين ، ١٩٥٣ ، ص ٨ .
- (٢) انظر ميكا ، ١ ، ٢٤ ، ص ٢٣ . « لست بحاجة الى ان أؤكد للقارئ المتألف مع الاقتصاد السياسي ان النتائج التي وصلت اليها مردها تحليل نقدي موضوعي ودقيق للاقتصاد السياسي » .
- (٣) انظر المرجع نفسه ، صص ٤٣٥ - ٥٨٣ . خلاصات من دفاتر الملاحظات . باريس ، اوائل ١٨٤٤ الى اوائل ١٨٤٥ . المقتطفات تنتسب الى المؤلفين والمؤلفات الآتية :  
ج. ب. سيه J.B.Say : كتاب الاقتصاد السياسي - كامل الاقتصاد السياسي .  
ف. سكاربك F. Skarbek : نظرية الثروات الاجتماعية .  
د. ريكاردو D. Ricardo : مبادئ الاقتصاد السياسي والضريبة .  
ج. د. مالك كولوش J.R.Mac Culloch : رسالة عن اصل الاقتصاد السياسي وتقدمه وموضوعاته الخاصة وأهميته .

١. ل. س. دستوت دو تراسي A.L.C. Destutt de Tracy : عناصر ايدولوجيا IV V بحث الارادة وآثارها .

- ج. لودرديل J. Lauderdale : بحوث عن طبيعة واصل الثروة العامة .
- فر. ليست LIST : منظومة الاقتصاد السياسي القومية . ١٥ ، التجارة الدولية ، السياسة التجارية والوحدة الجبركية .
- ه. ف. اوسياندر H.F. Oslander : خيبة الجمهور حول فوائد التجارة والصناعة والزراعة او شرح فلسفة الدكتور ليست List الصناعية - العلاقات التجارية بين الشعوب .
- بواغيبير P. le P. de Boisguillebert : تفصيل فرنسا ، سبب انخفاض خيراتها وسهولة العلاج .

- مناقشة عن طبيعة الثروات والمال والائتات - بحث في طبيعة وزراعة وتجارة وفائدة الحبوب .  
ج. لو J. Lowv : اعتبارات عن النقود والتجارة .

ولئن كان الامر أولا بأول بالنسبة لماركس أن يتمثل عناصر علم كان الى ذلك الحين غريبا عنه وسيصبح في غضون وقت قليل عارفا علامة به ، فان هذا التمثل سيسير عنده جنبا الى جنب مع نقد للاقتصاديين البرجوازيين ، الذين كان مسن البداية يقف ضدهم كما فعل انجلز .

في هذا النقد كان يسعى بشكل رئيسي الى تبيان كيف ان النظام الرأسمالي المؤسس على الملكية الخاصة هو نظام لا انساني ، سيزول بحكم تناقضاته الداخلية . هذا النقد ، كان يجريه من وجهة نظر التحرر الانساني الذي كان لا يزال يعتبره تحت صورة حذف الانخلاع ، المفهوم الان في شكله الخاص بالبروليتاريا ، في شكل الشغل المنخلع الذي كان يظهر له بوصفه الطابع المميز والعيب العميق للنظام الرأسمالي . من هنا الموضوعتان الاساسيتان في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** : وصف الانسان المنخلع في المجتمع البرجوازي وحذف الانخلاع في المجتمع الشيوعي ، الموضوعتان اللتان كان ماركس يقرنهما بشكل وثيق مبينا ان تشكل الانخلاع وحذفه سواء بسواء ينجمان عن تطور نظام الملكية الخاصة .

في نقده للنظام الرأسمالي ، استخدم ماركس عدا عن مؤلفات الاشتراكيين الفرنسيين والانكليز ومؤلفات فايتلنغ ، مقالة انجلز « محاولة في نقد الاقتصاد السياسي » ، مقالات هس Hess في ال ٢١ ورقة من **سويسرة** وأبضا على الارجح مقالة هس عن « جوهر المال » (١) . كذلك استخدم المؤلف الذي لم يلفت انتباه أحد حتى ذلك الحين ، مؤلف ف. شولتز : w. Schulz **حركة الانتاج** ، الذي يبدو أن ماركس استخلص منه العناصر الاولى لتصوره ، تصور المادية التاريخية (٢) .

في مؤلفه **محاولة في نقد الاقتصاد السياسي** ، كان انجلز قد الح على الطابع اللاعقلي واللاانساني للنظام الرأسمالي (٣) . كان يبين ان المزاحمة الخاصة بهذا النظام قد أنجبت احتكارا أسوأ من احتكار المراكنتيلية ، عممت الحرب بين البشر ،

→ ١. بوريه E. Buret عن بؤس الطبقات الكادحة في انكلترة وفرنسا .

هذه القائمة ليست كاملة . معهد الماركسية - اللينينية في موسكو ذكر انه لم ينشر كل المقتطفات . ومن جهة أخرى يمكن ان تكون بعض دفاتر الملاحظات قد فقدت .

(١) انظر ميفا ، ١ ، ٣٠ ، ص ٢٢ - ٢٤ . « غني عن البيان انني ، عدا عن مؤلفات الاشتراكيين الفرنسيين والانكليز ، استخدمت مؤلفات الاشتراكيين الالمان . الاعمال العلمية الهامة والاصيلة لهؤلاء الالمان تنحصر بالحقيقة - عدا مؤلفات فايتلنغ - في مقالات هس في ال ٢١ ورقة وفي مقالة انجلز محاولة نقد للاقتصاد السياسي في الحوليات الفرنسية - الالمانية ، حيث انا نفسي سطرت بشكل عام جدا (٢) عن هذا المقال ، انظر الجزء الثاني من هذا المؤلف .

(٢) انظر فلهم شولتز w. Schulz : **حركة الانتاج** . دراسة تاريخية واحصائية من شأنها ان تخدم كاساس لعلم جديد عن الدولة والمجتمع ، زوريخ وفلنترود ، الكونتوار الادبي ، ١٨٤٢ .

(٣) عن هذا المقال ، انظر الجزء الثاني من هذا المؤلف .

شدت التعارض بين الاغنياء والفقراء ، وأن تفاقم الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية يقود الى الثورة الشيوعية .

بينما كان هذا المقال ، الذي سوف يصفه ماركس بأنه مخطط أولي عبقرى (١) ، يقود ماركس الى اعتبار النظام الرأسمالي في علاقاته مع التطور العام للتاريخ والى تصور حذفه كنتيجة لتطوره الجدلي ، كانت مقالات هس تعطيه آراء جديدة عن طبيعة الفاعلية الانسانية والانخلاع .

في مقالاته في ال ٢١ ورقة من سويسرة (٢) ، بشكل خاص في « فلسفة العمل » ، كان هس قد بين ان الفاعلية الانسانية تحدد فكر البشر كما تحدد حياتهم . بعكس المثاليين الذين يقلصونها الى الفاعلية الروحية ، يجب ، اذا أردنا فهم طبيعتها ودورها ، أن نعتبرها في شكلها العياني . فقط بفاعليته العينية والحررة التي بها يخلق نفسه يستطيع الانسان ان يعي ذاته وان يؤكد ذاته كإنسان . في المجتمع البرجوازي ، ان الفاعلية الحررة الموافقة وحدها للطبيعة الانسانية مستحيلة ، الامر الذي يترتب عليه نزع انسانية البشر . من هنا ضرورة حذف المجتمع البرجوازي المؤسس على الملكية الخاصة التي تنجب الانانية وعطش الربح وضرورة استبداله بمجتمع ذي طابع شيوعي وفوضوي ( anarchiste = لا رئاسة فيه ، لا امر ) في آن ، يكون فيه البشر متساوين وأحراراً .

في مقال آخر عن « جوهر المال » كتب لمجلة الحوليات الفرنسية - الالمانية (٣) ، كان هس يعرض طبيعة وآثار الانخلاع في المجتمع البرجوازي . كان يبين ان الانخلاع الديني ليس الا الانعكاس الايديولوجي للانخلاع الفعلي الحاصل في هذا المجتمع ، حيث العامل المطرود من الملكية الخاصة ، البروليتاري ، يخلع جوهرى حياته ، شغله ، في السلع التي ينتجها ولكنها ليست ملكا له بل هي بتحولها الى مال ، الى رأسمال ، تسيطر عليه وتستعبده . في هذا المجتمع ، المال هو الاله الحق ، الذي فيه يعبد البشر كينونتهم المخلوعة . هذا الانخلاع يؤلف السمة المميزة للمجتمع البرجوازي ، حيث البشر ، بحكم المزاحمة والانانية المتولدتين من الملكية الخاصة ، معزولون ومعارضون فيما بينهم . كي يستطيعوا ان يعيشوا حياة متفقة مع طبيعتهم الحققة ، يجب ان نحل محل المجتمع البرجوازي مجتمعا فيه سينظم البشر فاعليتهم بشكل عقلي ومتسق وحر وفيه ستكون المحبة لا الانانية هي العنصر الناظم لعلاقاتهم .

(١) انظر لـ ماركس : مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي ، باريس ، الطبوعات الاجتماعية ، ١٩٥٧ . المقدمة ، ص ٥ .

(٢) كان هس قد نشر في ١٨٤٣ في هذه المجلة ثلاث مقالات : الاشتراكية والشيوعية - الحرية واحدة وكاملة - فلسفة العمل . عن هذه المقالات ، انظر الجزء الثاني من هذا المؤلف .

(٣) من هذا المقال ، انظر الجزء الثاني من هذا المؤلف .

بعكس انجلز الذي كان ، بادخاله تطور الشيوعية في تطور التاريخ ، يصل الى تصور مادي ، كان هس يظل مثاليا في حله للمسألة الاجتماعية .

واذ كان ماركس يستعير جزئيا تصورات هس عن طبيعة الفاعلية الانسانية والانخلاع ، فقد كان يعطيها طابعا ماديا بارتكازه في آن على انجلز وعلى كتاب ف. شولتس حركة الانتاج الذي كان يعلل التطور التاريخي بتطور الانتاج ويعرض كيف ان حقب التاريخ المختلفة يقررها ويحددها تطور الحاجات ، التي يولد اشباعها تحولا دائما في التنظيم الاقتصادي والاجتماعي (١) .

في البداية ، الحاجات بسيطة ، والانتاج ، ثمرة الشغل اليدوي والمشروط بطبيعة البلاد ، ضعيف . لا يوجد لا انقسام للمجتمع الى طبقات ولا سلطات عامة (٢) . في المرحلة التالية من التطور التاريخي ، التي تتميز بالزراعة ، لا يكفي الانسان بجني المنتجات التي تقدمها الطبيعة ، بل يشرع في تطوير هذه لتلبية حاجاته .

ان زيادة هذه الحاجات تحدد تقسيما اول للشغل ، خلاله تنفصل الصناعة والتجارة تدريجيا عن الزراعة ، الامر الذي ينجم عنه تقسيم للسكان موافق (٣) .

مع ازدياد انقسام الشغل الحرفي ندخل في طور المانيفاكتورة . ان تطور الانتاج يسمح بتراكم تدريجي للرسميل يقرر تشكل طبقات متعارضة وانفصالا متزايدا الشدة بين الانتاج المادي والانتاج الفكري (٤) . بالتوازي مع الصناعة ، يرى نمو وتطور التجارة والنقل وايضا الزراعة . ان اسلوب التطور المختلف يعطى الامر المختلفة طابعها الخاص (٥) .

ان تحويل وتخفيض الفاعلية الصناعية الى عمليات ابتدائية بتشديد تقسيم الشغل يقود الى استخدام آلات تحسن على الدوام ويولد نظام المصنع . fabrique . في هذا النظام الذي يطبع المرحلة الاحداث من التطور التاريخي ، ان تراكم الرسميل المتزايد يسهل قيام علاقات متزايدة الوثوق بين فروع الانتاج الرئيسية .

(١) ماركس يذكر ف. شولتس W. Schulz مرارا في المخطوطات ، انظر ميفا ، ١ ، ح ٣ ، صص ٤٧ - ٤٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ . انظر ك. ماركس : رأس المال ، ١ ، ص ٢٨٨ للملاحظة ٨٨ . عن ف. شولتس ، انظر ميفا ، ١ ، ٣ ، ص ٦٢٥ . فلهلم شولتس ( وسيعرف فيما بعد باسم شولتس - بودمر ) ١٧٩٧ - ١٨٦٠ ، صحافي ديمقراطي ، في ١٨٤٨ عضو في برلمان فرانكفورت . كان قبل حركة الانتاج قد نشر في ١٨٤٠ في المجلة الفصلية الالمانية مقالا : التحولات في تنظيم الشغل وتأثيرها على العلاقات الاجتماعية . تنظيم الشغل بوصفه عامل انتاج . عن تأثير شولتس على ماركس ، انظر ف. مونكه W. Moenke : ملاحظات على تشكل المادية التاريخية .

(٢) انظر ف. شولتس : حركة الانتاج ، مرجع مذکور ، صص ١١ - ١٢ ، ٣٧ .

(٣) المرجع نفسه ، صص ١٣ ، ٣٧ .

(٤) المرجع نفسه ، صص ١٤ - ١٥ ، ٢٨ .

(٥) المرجع نفسه ، صص ١٧ - ١٩ .

يحصل الصناعيون الكبار على املاك عقارية كي لا يضطروا الى شراء المواد الاولية اللازمة لهم . ويكون في الوقت نفسه على التجارة ، ليس فقط كي يبيعوا منتوجاتهم الخاصة بل ايضا كي يشتروا ويبيعوا منتوجات أخرى . ان تشكيل شركات مساهمة يسهل هذا الاستخدام المتآني للرساميل في مشروعات متنوعة ، مما يخفف التعارض بين الصناعة والتجارة والزراعة ويحدث بينها اشتراكا في المصالح (١) .

ان تراكم الرساميل يشدد من جهة أخرى ، مع التضاد بين البؤس والغنى ، التعارض بين غير المالكين والمالكين ، الذي هو السمة المميزة للمجتمع البرجوازي (٢) . في وصفه لحالة العمال في النظام الرأسمالي ، يسجل شولتس ان هذا النظام يرغم العمال على ان يكسبوا اجرهم البائس بعمل يستهلك قواهم ويهلكهم معنويا وثقافيا ، وانهم في ظل حكم المزارحة يجب ان يعتبروا انفسهم سعداء لكونهم يجدون عملا كهذا حتى لا يموتوا جوعا، وان بؤس العمال، في التزايد العام للانتاج والحاجات، يمكن ان ينمو بصورة نسبية الى جانب انخفاضه بصورة مطلقة (٣) .

بما ان التعارض المتزايد بين البروليتاريا والطبقات المالكة يهدد بتوليد ثورة اجتماعية (٤) ، فان واجب الدولة تخفيف هذا التعارض وتهيئة الانتقال الى تنظيم اجتماعي افضل بواسطة تدابير ملائمة ، وخاصة بواسطة تنظيم الشغل وتحويل نظام الملكية .

اذا ما عارضت الطبقات المالكة هذه الاجراءات ، عندئذ بالثورة ستحل المسألة الاجتماعية (٥) .

في عرض هذه الاخيرة ينقد شولتس في آن موقف الاقصاديين والهيغليين - الشباب والاشتراكيين والشيوعيين .

يلوم الاقصاديين على كونهم لا يهتمون الا بعالم الاشياء ، لا يرون ان الانتاج له مصدره في طبيعة الانسان ولا يجعلون من هذه الاخيرة موضوع ابحاثهم الجوهري (٦) . يعتبر ان ضعف الهيغليين - الشباب يأتي من كونهم اذ يبقون محصورين في ميدان المجردات فانهم لا يتوصلون الى رؤية الطريق الذي يقود الى الحياة (٧) .

اخيرا يأخذ على الاشتراكيين والشيوعيين كونهم لا يهتمون الا بالوجه المادي للانتاج والاستهلاك ولا يحسبون حسابا للانتاج الثقافي ولا للدور السياسي

(١) المرجع نفسه ، ص ص ٢٧ - ٢٨ ، ٤٠ وبعدها .

(٢) المرجع نفسه ، ص ص ٣٥ ، ٤٠ ، ٥٨ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ص ٦٠ ، ٦٦ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ص ٣ - ٤ ، ٧٣ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ص ٤ ، ٩ ، ٥٦ ، ٧٤ .

(٦) المرجع نفسه ، ص ص ٥٧ .

(٧) المرجع نفسه ، ص ص ٧ .

والاجتماعي العائد للأفراد (١) .

بتحليله التطور الاقتصادي والاجتماعي ، كان شولتس يصل الى تصور مادي للتاريخ . كان يبين ان التطور التاريخي مشروط بتطور الحاجات والانتاج وان تطور الانتاج يحدد تحول الدولة والمجتمع (٢) كما يحدد تطور التشريع (٣) ، وكان يلح أخيرا على ان تطور النظام الحديث ، نظام الانتاج الكبير ، يستتبع كنتيجة لازمة تكوين تنظيم اجتماعي جديد (٤) .

في نقده للمنظومة الرأسمالية ، كان ماركس يأخذ عن انجلز تصوره للطابع المتناقض لهذه المنظومة ، الطابع الذي سيؤدي الى حذفها ، مقالات هس كانت تأتي لتعزز تصوره للشغل كعنصر جوهري في الحياة الانسانية وتصوره للطابع الاقتصادي والاجتماعي للانخلاع . وأخيرا كان يأخذ من شولتس فكرة ان تطور الانتاج وانقسام الشغل يحدد تعاقب اشكال المجتمع والدولة وكذلك صراعات الطبقات (٥) .

غير انه من الخطأ تماما ان نعتقد ان ماركس اقام نظريته بضرب من عملية تجميع لأفكار استعارها من هذه المؤلفات . العنصر الاساسي في نظريته كان تصوره الجديد للانسان الذي سيوضحه بنقده ل هيفل ، ل فويرباخ ، وللاقتصاديين . بفضل هذا النقد سيجدد أفكار انجلز وهس وشولتس ليصهرها في كل عضوي واحد .

(١) المرجع نفسه ، ص ص ٤ ، ٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ص ١٢ - ٢٠ ، ٣٧ ، ٤٠ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٥١ . « يجب الاعتراف ... بان التشريع ، منظورا اليه في ملامحه العامة ، قد أرغم دوما على التكيف مع التحولات الحاصلة في المجتمع وبان الحياة الاجتماعية حددت القوانين اكثر بكثير مما حددتها القوانين » .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٧٤ . « في المستقبل ، القوى الطبيعية غير الواعية الخطوات في الآلات ستصبح عبيدنا . هكذا فقط تستطيع فكرة الحرية والمساواة العامة ، التي هي من جهة أخرى معارضة لاي تصور قوامه التسوية ، ان تتحقق في وعي وفي حياة البشر . على كل حال ستتحقق حتما ، اذ ان شروط تحققها تتولد من القوانين الثابتة لحركة الانتاج » .

(٥) كان ماركس يجد افكار شولتس مؤيدة بما ورد عند سان سيمون وآدام سميث . ف آ . سميث كان في كتابه ، ابحاث عن طبيعة واسباب ثروة الامم ، قد بين بشكل اكثر تعميقا مما هو عند شولتس ، ولكن في منظور تاريخي اقل اتساعا ، العلاقات بين التطور الاقتصادي والتطور الاجتماعي ( اسباب انخراط الزراعة وتأسيس المدن بعد سقوط الامبراطورية الرومانية - آثار تطور التجارة في المدن على تحسن الزراعة . انظر ميغا ، ١ ، ٣ ، ص ص ٤٧٧ - ٤٨٣ ) .

حين سال فرانتس مهنرغ فر . انجلز ما اذا لم يكن ماركس قد اخذ قسما من افكاره آنذاك من مؤلفات مدرسة القانون التاريخية ، لا سيما من مؤلف لافرنه- بيغلين Laverigne - Peguilhen ؛ قوانين الدوران والانتاج ( برلين ، ١٨٤٦ ) الذي ربما قراه سابقا ، أجابه انجلز في رسالة بتاريخ ١٨٩٢/٩/٢٨ : « كان ماركس قد قرأ اثناء وجوده في بون وبرلين كتب آدم مولر ، فون هالر ، الخ ، لم يكن يتحدث الا ببعض الازدراء عن هذا التقليد المسطح والمدمي للمؤلفات الرومانطيين الفرنسيين جوزيف دو ميستر Joseph de Maistre والكاردينال بولان Boland . اذا ما حدث ان صادف مقطعا

بتكليف لافكار هيجل الاساسية مع تصويره الثوري ، كان يعتبر ان الانسان ليؤكد نفسه كإنسان ، يجب ان يمارس فاعلية واعية ، حرة ، وكلية . بهذه الفاعلية التي هي تخريج exteriorisation قواه وتملك منتوجات هذه القوى ، يخلق الانسان نفسه محولا للطبيعة التي يغيرها نتاج عمل الانسان ، تفقد طابعها الموضوعي المحض . كي يستطيع الانسان ان يجلي ويحقق كينونته هكذا ، يجب ان لا يخلع قواه الخالقة في منتوج عمله ، بل بالعكس ان يجد نفسه كاملا في هذا الاخير .

هيجل ، المفكر المحافظ ، كان ، وهو يضع هذه المبادئ ، قد أخفى نفيها في النظام الرأسمالي الذي ينجب انخلاع قوى الانسان الخلاقة في منتوج شغله ، معتبرا ان الانسان في هذا النظام يجد نفسه تماما في منتوج فاعليته . كان يبرر هذا الزعم بروحنة spiritualisation الانسان والطبيعة ، التي كانت بحذفها كل انخلاع تسمح له بان لا يعتبر الفاعلية الانسانية الا في صورة التخريج الايجابية ، دون حساب صورة الانخلاع السلبية ، وكذلك مع اعتبار الانسان فقط بصفته مالكا ، وكمالك لا يمكن ان ينخلع في منتوج شغله .

ان تصور ان الانسان لكي يؤكد نفسه كإنسان يجب ان لا يخلع كينونته ، كان ايضا في قاعدة فلسفة فويرباخ ، التي كانت آنذاك مع فلسفة هيجل اساس فكر ماركس . بعكس هيجل ، كان فويرباخ ، الذي كانت فلسفته تعكس الاتجاهات التقدمية للبرجوازية ، يعتبر الانخلاع الشر الاساسي للمجتمع ، السمة المميزة لنزع انسانية الانسان ، وحذفه الشرط الضروري لاعادة اُنسنة هذا الاخير . واذ كان فويرباخ يتصور الانخلاع ، لا كما كان يتصوره ماركس ، من وجهة نظر المصالح الطبقة البروليتاريا ، تحت صورة الشغل المنخلع ، بل على صعيد بشرية غير متميزة اجتماعيا ، فقد كان يحول جوهريا هذا الانخلاع الى الانخلاع الديني ، الذي ينجم الفاؤه عن محض مقاضاة فكرية ، عن نقد الدين .

حافظا من فويرباخ تصور ان الانخلاع هو طابع المجتمع المنزوع الانسانية وان حذفه هو الشرط الضروري لانسنة الانسان من جديد ، كان ماركس برفضه الحل المثالي الذي كان يعطيه عن مسألة الانخلاع ، يتجاوز مع تجاوزه هيجل ، معتبرا ان

→

كمقطع لافرنى بيغين ، لما استطاع هذا المقطع ان يؤثر عليه اي تأثير ، مع افتراض فهمه لما كان هؤلاء يقصدون . كان ماركس آنذاك هيجليا ، بالنسبة اليه مثل هذه المقاطع هرطقة محض . كان يجهل كل شيء عن الاقتصاد السياسي وما كان يستطيع ان يتصور ماذا يمكن ان تعني عبارة « من نوع » قوى اقتصادية » . حتى اذا عرف المقطع المشار اليه ، لدخل اليه من اذن وخرج من الاخرى دون ان يتسرك اثرا في ذاكرته . من جهة اخرى فاني لا اعتقد انه في مؤلفات مدرسة الحق التاريخية التي قرأها بين ١٨٢٧ و ١٨٤١ استطاع ان يجد مقطعا كهذا » . ( انظر ف. مهنرغ : المادية التاريخية ، برلين ، ١٩٥٢ ، ص ٤٨ - ٥٠ ) .

تحول المجتمع يشترط حذف الشغل المنخلع وان هذا الحذف لا يمكن ان يكون سوى نتيجة عمل البروليتاريا الثوري .

### نقد الاقتصاد السياسي

بالارتكاز على تصورات هيغل وفويرباخ الجوهريّة التي كان يحولها جذريا ، كيفا اياها مع المصالح الطبقيّة للبروليتاريا ، كان ماركس يشرع في نقد الاقتصاد السياسي البرجوازي والنظام الرأسمالي .

في هذا النظام المؤسس على الملكية الخاصة ، التي تعطي الشغل طابع شغل منخلع ، تجعل الفاعلية الحرة والواعية والكلية التي بها الانسان يخلق نفسه حقا مستحيلة . فمنتجات الشغل تتحول فيه الى سلع ، الى موضوعات ( objets ) أشياء ) يخلق فيها البشر قواهم الخالقة ، حيث بدلا من ان يكونوا ملوكا على عالم الاشياء التي ينتجون يصبحون عبيده .

بما ان الشغل ، بتحوله الى شغل منخلع ، يفقد في النظام الرأسمالي ، مع طابعه كفاعلية حرة ، وظيفته الاجتماعية التي هي خلق روابط انسانية بين البشر ، فان العلاقات بين هؤلاء ، بفقدانها طابعها كعلاقات انسانية ، تشيء ، أي تحول الى علاقات بين موضوعات ، الى تبادل لمنتجات الشغل المنخلع ، الى تبادل سلع .

على هذا التشيؤ للعلاقات الاجتماعية الذي يحدد انخلاقا عاما لجميع البشر يؤسس ماركس نقده للنظام الرأسمالي ، النقد الذي يفتحه بتحليل لتطور الاقتصاد السياسي (١) .

في هذا التحليل الذي يقوم به جزئيا على غرار شولتس (٢) ، يلح ماركس على

(١) هذا النقد ليس موضوع مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة فقط بل هو ايضا موضوع ملاحظات ماركس على خلاصاته من مؤلفات الاقتصاديين الكبار ( انظر ميغا ١ ، ح ٣ ص ٤٢٧ - ٥٨٢ ) . هذه الملاحظات تتصل بالملكية الخاصة وعواقبها وبالقولوات الاقتصادية التي تحددها . عن هذه الملاحظات انظر د. ي. روزنبرغ : تطور المذاهب الاقتصادية لماركس - انجاز في اربعينات القرن التاسع عشر ، برلين ١٩٥٨ ، انظر الفصل ٣ ، ص ٨٣ - ١٢٩ : « ملاحظات نقدية لماركس على مختاراته من مؤلفات اقتصاديين » .

(٢) انظر ف. شولتس ، مرجع مذكور ، ص ١١٥ . « المنظومة الماركسية ظهرت الاولى ، نحو منتصف القرن السادس عشر ، في مجال الاقتصاد السياسي . الشيء الجوهري في هذه المنظومة هو انها كانت تعلق اهمية خاصة على بعض فروع الانتاج ، التي تجني الدولة منها ارباحا خاصة في علاقاتها مع الدول الاخرى . ذلك كان نظاما احتكاريّا وانزاليا . ان مذهب الفيزيوقراطيين الذي يظهر في القرن الثامن عشر يؤلف الى جانب كونه رد فعل ضد هذا النظام توسيعا للتصورات الاقتصادية ، بمعنى ان الانتاج الزراعي ، معتبرا الانتاج الاساسي وقاعدة كل الثروات ، يصير اس الاقتصاد السياسي . في نهاية القرن الثامن عشر ، ان تقدما جديدا سمه منظومة آدام سميث الصناعية التي تعتبر ان الشغل بالذات يؤلف العنصر الاساسي لكل فروع الانتاج » .

ان المذاهب الاقتصادية الحديثة هي الانعكاس الايدولوجي لتطور الاقتصاد المطبوع بنهوض الصناعة . هذه ، منفصلة اكثر فاكثر عن الزراعة ، تصبح المصدر الرئيسي للانتاج وتحدد تحولا عميقا للملكية . هذا التحول للانتاج ، الذي يصير صناعيا بعد ان كان زراعيا ، يقود الاقتصاديين الى ان يتصوروا بشكل متزايد الوضوح ان الشغل معتبرا في ذاته يؤلف مصدر الثروة الوحيد .

بينما كان انصار المذهب النقدي يرون في المعادن الثمينة شكل الثروة الحقيقي وكان المراكنتليون بعدهم يدعون الى تراكم الثروات باقامة ميزان تجارة جيد (١) ، فان الفيزيوقراطيين ، اذ يرتدون على هذا الدفاع عن التجارة والصناعة ، يعتبرون الزراعة ، التي هي وحدها في نظرهم تعطي منتوجا صافيا ، مصدر كل ثروة . الارض بالحقيقة ما تزال متصورة من قبلهم شكلا خاصا للراسمال ، له طابعه الذاتي ، وليس رأسمالا معتبرا في ذاته . ولكن ، مع الارض ، يكتسب موضوع الثروة ، مادتها ، الطابع الاكثر عمومية في مجال الطبيعة ، ومن جهة اخرى ، بما ان الارض لا تصير ثروة الا بشغل الانسان ، بالزراعة ، لذا فان الثروة تتخذ طابعا ذاتيا ، ما دام الشغل يؤلف عنصرها المقرر .

بيد ان الفيزيوقراطيين لا يعتبرون بعد الشغل في شكله العام والمجرد . مربوطا بالارض التي تؤلف مادته ، الشغل ليس بعد عندهم سوى أسلوب خاص في تخريج قوى الانسان الخلاقة ومنتوجه معتبر شكلا خاصا للثروة انجبتة الطبيعة اكثر مما انجبه هو . من جهة اخرى ، بما ان الارض معتبرة كعنصر طبيعي مستقل عن الانسان وليس كراسمال ، فهي لا تفهم في علاقات تبعيتها للشغل ، المعتبر بالعكس تابعا لها . على صعيد الاقتصاد السياسي ، تشكل الفيزيوقراطية في آن نفسي الاقطاعية ، حيث هي تنكر على الارض طابع عنصر ثروة محض موضوعي وتعتبر الشغل، في صورة الزراعة ، العنصر المكون للثروة وايضا تسويقها ، ما دامت ترى في الزراعة مصدر الثروة الوحيد (٢)

الفيزيوقراطيون حولوا الصنمية ( التيمية *fétichisme* ) التي لا تعتبر الثروة الا تحت شكلها الخارجي ، الموضوعي ، وقلصوها الى عنصر بسيط جدا ، الارض ، وبينوا ، وان بطريقة ما تزال غير كافية وجريئة ، ان مصدر الثروة الجوهري هو عنصرها الذاتي : الشغل .

(١) انظر لـ . ماركس : راس المال ، ٣ ، ص ٨٣٤ . « النظام النقدي اعتبر ، بحق ، الانتاج من اجل السوق العالمية وتحويل المنتوجات الى سلع اي الى مال ، الشرط الاولي والضروري لتطور الانتاج الرأسمالي . النظام المراكنتلي ، الذي يؤلف انماؤه ، يعتبر جوهريا لا تحويل قيمة السلع الى مال بل انتاج فضل - القيمة ، هذا ، من جهة اخرى ، في دائرة الدوران ( التداول ) تحت شكل ميزان تجاري جيد » .

(٢) ميغا ١ ، ٣ ، ص ص ١٠٩ - ١١٠ .

لقد تجاوزهم الاقتصاديون الحديثون ، واولهم آدم سميث Adam Smith الذي اعترف بأن مبدا كل ثروة ليس شكلا خاصا للشغل مربوطا بعنصر طبيعي محدد بل هو الشغل بذاته معتبر في شكله المجرد (١) .

بعده وجه ريكاردو Ricardo ، مشددا على ان الزراعة لا تتميز من هذه الزاوية عن الصناعة ، طلقة الرحمة الى نظرية الفيزيوقراطيين الذين كانوا يرون في الربح العقاري مصدرا خاصا للثروة مستقلا عن الشغل المعتبر في ذاته . فريكاردو ، معيدا كل الثروات الى منتج الشغل وحسب ، يرى ان الصناعة والراسمال الصناعي يؤلفان الاشكال الناجزة للشغل والملكية الخاصة (٢) .

بنقله جوهر الملكية الخاصة والثروة الى الشغل ، اي بوضعها في الانسان نفسه ، اكمل آدم سميث تدمير اوهام الصنمية التي كانت ترى في الملكية الخاصة والثروة حقائق واقعية خارج الانسان . لهذا السبب استطاع انجلز أن يصف آدم سميث بحق بأنه لوثر اقتصادي . فكما ان لوثر أحل محل التدين الخارجي الايمان ، التدين الداخلي ، جاعلا منه جوهر الانسان ، كذلك آدم سميث أحل محل الثروة المعتبرة في شكلها الموضوعي المستقل عن الانسان الثروة المعتبرة في شكلها الذاتي معيدا اياها الى الشغل (٣) .

بعد هذا العرض العام للاقتصاد السياسي الذي خلاله يشرع في تحليل تطور التاريخ بتطور الانتاج ، مبرزا بشكل خاص كيف ان استبدال النظام الاقطاعي قد حدده تغير أسلوب الانتاج (٤) ، يقوم ماركس بنقد الاقتصاد السياسي من وجهة نظر الاستلاب المتولد من تشييء العلاقات الاجتماعية في النظام الرأسمالي . اذ يفضح ماركس الطابع الطبقي للاقتصاد السياسي (٥) ، فانه يأخذ عليه

(١) المرجع نفسه ، ص ١٠٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٠٨ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٠٧ .

(٤) اذ يشدد ماركس على التفيرات التي تحصل في الملكية العقارية بعد ظهور الراسمال الصناعي ، فهو يلاحظ ان الملكية العقارية تفقد ، بنتيجة تطور الصناعة ، طابعها النوعي ، متحولة اكثر فاكثر الى راسمال ، وان الشغل ، الذي كان في النظام الاقطاعي مربوطا بالزراعة ولم يكن له بعد طابع مجرد ، يصير لا مباليا اكثر فاكثر ازاء موضوعه ويتخذ شكلا مجردا مستقلا عن هذا الموضوع . واذا يعتبر اخيرا الآثار الاجتماعية لهذا التحول الاقتصادي الذي يولد صراعا طبقيًا بين الملاكين العقاريين والصناعيين كما بين البرجوازية والبروليتاريا ، فهو يبين ان المبادئ العظمى التي باسمها يتقاتل الملاكون العقاريون ورجال الصناعة لا تخدم الا في حجب الاختلافات العميقة في المصالح التي تضع الملكية العقارية في معارضة الملكية المتقولة والتي هي الدوافع الحقيقية لصراعهما ( المرجع نفسه ، ص ٩٩ - ١٠٣ ) .

(٥) انظر المقطع الآتي ، الذي اخذه ماركس من كامبل الاقتصاد السياسي العملي ل ج . ب . سه

J.B.Say ( بروكسل ، ١٨٣٦ ) . « الاقتصاد السياسي ليس شيئا اخر سوى اقتصاد المجتمع » .

( انظر ميغا ١ ، ٣ ، ص ٤٥٥ ) .

ذهابه ، في تحليله للانتاج ، من واقع الملكية الخاصة دون محاولة تبريره (١) ، واخفاء  
لا انسانية النظام الرأسمالي ، باعتباره الانتاج خارج الشغل الذي يخلقه (٢)  
وبتقديمه اياه كجمع علاقات موضوعية (٣) .

هذا يسمح له بأن ينظر الى تبعية الانسان لعالم الاشياء التي ينشئ ، الخاصة  
بالنظام الرأسمالي ، على انها ظاهرة طبيعية وبالتالي ضرورية ، وبأن يبرر تشييء  
العلاقات الاجتماعية المتولد من هذا النظام .

ان تقرير منظومة الملكية الخاصة حيث الشغل منتج الثروات هو كل شيء  
بينما الشغل لا شيء يبين كل دناءة الاقتصاد السياسي (٤) .

تحت راية الدفاع عن استقلال الانسان ازاء عالم الاشياء بتأكيد ان الشغل هو  
العنصر الوحيد خالق الثروات ، ان الاقتصاد السياسي هو بالحقيقة نفي الانسان  
وهو يعبر لا عن قوانين فاعلية الانسان الحقيقية التي تجعل العالم خلقه بل عن قوانين  
منظومة تنزع انسانيته . فكما ان لوثر عزز الدين بتدخله ( بجعله في الداخل ) ،  
كذلك الاقتصاد السياسي عزز الملكية الخاصة باعتباره الشغل في شكله المنخلع مصدر  
الثروة الوحيد (٥) .

واذ رمى قناع الانسانية التي كان يزين وجهه في البداية ، فقد انكشف الاقتصاد  
السياسي في كل كلبيته ، مبررا بصراحة متزايدة العواقب للانسانية لنظام الملكية  
الخاصة (٦) .

ويرافق كلبيته عجز عن تحليل النظام الرأسمالي ، تحليلا صحيحا يشتق  
ملاحظه العامة من أساسه ، الملكية الخاصة . اذ لا يفهم أسباب تشكل وتطور هذا  
النظام ، فهو ينكشف عن عجز عن تحليل الانفصال الذي حصل بين الشغل والرأسمال  
والارض (٧) .

واذ يعتبر ، من جهة أخرى ، المزاحمة وحرية الانتاج وتقسيم الملكية العقارية  
وقائع عرضية لا نتائج ضرورية لتطور نظام الاحتكار وانتاج هيئات الحرف والملكية

(١) انظر المرجع نفسه ، ص ٤٤٩ . « الملكية الخاصة هي واقعة يهمل الاقتصاد السياسي تبريرها ،  
ولكنه يتخذها أساسا له . لا وجود لثروات بدون ملكية خاصة ، وبما ان الاقتصاد السياسي هو علم  
الانراء فهو يركز هكذا على الملكية الخاصة ، اي على واقعة ، لا يبين ضرورتها » .

(٢) انظر المرجع نفسه ، ص ٨٤ - ٨٥ . « الاقتصاد السياسي يجب الانخلاع في الشغل بعدم  
اعتباره العلاقة المباشرة بين الشغل ( الشغل ) والانتاج . »

(٣) المرجع نفسه ، ص ٩٣ . « حين نتحدث عن الملكية الخاصة نعتقد اننا امام شيء مستقل عن  
الانسان ، حين نتحدث بالعكس عن الشغل فنحن مباشرة امام الانسان نفسه . »

(٤) المرجع نفسه ، ص ٥٥٨ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٦) المرجع نفسه ، ص ١٠٩ - ٨١ .

الاقطاعية ، فهو يقيم النظرية التي تستجيب لاحد هذه النظم ضد النظرية التي تستجيب للنظام الآخر ، يقيم نظرية المزاخمة في مقابل نظرية الاحتكار ، ونظرية حرية الانتاج في مقابل نظرية انتاج هيئات الحرف ، ونظرية تقسيم الملكية العقارية في مقابل نظرية الملكية الكبيرة ، دون ان يرى الروابط التي توحيدها (١) .

اخيرا ، بما انه يقبل كظاهرة طبيعية وضرورية سير تشييء العلاقات الاجتماعية الذي يحول منتوجات الشغل الى موضوعات ظاهرة مستقلة عن الانسان ، لذا فان الاقتصاديين البرجوازيين لم يستطيعوا كشف طابع التميمة *fétiche* للسلع المعتبرة خارج الانسان الذي ينتجها . أجل رفض الاقتصاديون الحديثون المماثلة التي اقامها النقديون بين الثروة والمال - المعدن ، ولكن بما انهم يعيدون الثروة الى القيمة التبادلية التي لا تتعبر عمليا الا في شكل المال ، فان هذا الاخير يؤلف ايضا عندهم جوهر الثروة . الفرق الوحيد الذي يفصلهم عن النقديين هو ان هؤلاء يماثلون الثروة مع المال المعدن بينما هم يماثلونها مع المال المعترف في شكل القيمة التبادلية المجرد ، مكتفين هكذا بالاستعاضة عن وسواس النقديين اللفظ بشكل وسواس انعم (٢) .

ماركس ، اذ يعتبر بخلاف الاقتصاديين الوقائع الاقتصادية قبل اي شيء وقائع اجتماعية ، فانه يؤسس نقده للاقتصاد السياسي وللمنظومة الرأسمالية على نقد الشغل المنخلع ويبين كيف ان هذا الاخير يحدد بتشبيء العلاقات الاجتماعية انفصال الانسان عن منتوج شغله وعن كيانه الخاص الذاتي وعن الاشتراك الانساني او الجماعة الانسانية .

الاقتصاد السياسي - على حد قول ماركس - يعتبر نظام الملكية الخاصة واقعا لا يمس واسلوب الانتاج المؤسس على هذا النظام اسلوبا ضروريا يستجيب معا لطبيعة الاشياء والطبيعة البشرية . الانتاج ، في نظر الاقتصاد السياسي ، ليس موضوعه او هدفه خلق قيم انتفاع بل خلق قيم تبادل . بما انه يرى في تبادل هذه القيم ، في تبادل السلع ، الاساس الطبيعي للعلاقات الاجتماعية ، فانه يذهب في اعتباره من هذا الشكل للانساني ، المنخلع ، للعلاقات الاجتماعية المحولة الى علاقات تجارية (٣) .

(١) المرجع نفسه ، ص ٨٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ص ٥٢٢ - ٥٢٣ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ص ٥٢٦ ، ٥٢٧ . « في هيئة التبادل والتجارة يفهم الاقتصاد السياسي الجماعة الانسانية ، الفاعلية الاجتماعية ، التي بها يؤكد البشر انفسهم كبشر ويتكاملون » ، « يقول دستوت الانسانية ، الفاعلية الاجتماعية ، التي بها يؤكد البشر انفسهم كبشر ويتكاملون » ، « يقول دستوت دو تراسي : المجتمع مكون من سلسلة تبادلات » ، « يقول آدم سميث : المجتمع مجتمع تاجر ، شركة *société* تجارية ، كل عضو فيه تاجر » . نجد هكذا كيف ان الاقتصاد السياسي يعتبر شكل العلاقات الاجتماعية المنخلع شكلها الجوهري ، الاصلي ، الذي يوافق الدعوة الانسانية . انظر المرجع نفسه ص ٥٢٧ . انظر روزنبرغ ص ١٢٠ .

ماركس يشدد على لا انسانية العلاقات الاجتماعية المشيئة هكذا ، مستعينا بمقارنة يعقدها بين أسلوب الفاعلية المتفق مع طبيعة الانسان الحقة وفاعلية الانسان في المجتمع الرأسمالي (١) .

في المجتمع الانساني الحق ، البشر يتأكدون بمنتجات عملهم ويفني بعضهم بعضا بهذه الاعمال . في هذا المجتمع ، الشغل ومنتوجه هما تثبيت وتحقيق شخصية المنتج وتبادل البشر لمنتجات شغلهم يؤلف أساس العلاقات الاجتماعية الحقة ، أساس الاشتراك الانساني الحق .  
في النظام الرأسمالي ، تفقد منتجات الشغل وتبادلها طابعها الانساني بحكم تشيؤ العلاقات الاجتماعية .

هذا التشيؤ هو نتيجة الانتقال من الاقتصاد الطبيعي ، حيث يبقى الموضوع المنتج مرتبطا بالمنتج ، الى الاقتصاد السلعي حيث ، بنتيجة فيض انتاج القيم الانتفاعية التي تتحول الى قيم تبادلية ، يحصل تغير جذري في طبيعة الانتاج والملكية . في الاقتصاد الطبيعي الذي يوافق وضع البشيرة الهمجي او البربري ، حيث الانتاج يقتصر على انتاج موضوعات مكرسة لتلبية حاجات المنتج الشخصية ، ليس هناك لا فائض انتاج ولا تبادل (٢) .

هذا الاخير يولد في اطار الاقتصاد الطبيعي من واقع ان منتجا من المنتجين يضطر للجوء الى منتج منتج آخر لتلبية حاجة ما . الانتاج المحدد من قبل التبادل يصبح هدفه لا التلبية المباشرة لحاجات المنتج بل الحياة ، بطريق الانتاج الفائض ، على منتجات قابلة لان تخدم كوسائل تبادل . في التبادل ، كل منتج يترك للآخر قسما من انتاجه ، من ملكيته ، وهذا التنازل المتبادل عن منتوجاتهما ، عن خيراتهما ، هو ما يؤلف أساس العلاقات الاجتماعية بين المالكين (٣) .

هذا الاسلوب الجديد للانتاج والتبادل لم يعد انسانيا حقا ، اذ انه ينزع ، في أن انسانية الشغل ومنتوج الشغل والتبادل .

فالشغل لم يعد الفاعلية الخالقة التي بها يحقق الانسان كينونته ، بغيره وسيلة حصول على ثروات ، يتحول الى فاعلية للانسان المنزوع الانسانية ، الى شغل « منخلع » ، فيه تختفي العلاقة المباشرة التي تربط المنتج بشغله (٤) .

كذلك بالنسبة لمنتوج الشغل الذي لم يعد له هو أيضا ، في هذا الشكل الانتاجي الجديد ، طابع انساني حقا ، فبتحوله الى قيمة تبادلية ، الى منتج بديل ، لم يعد ذا قيمة الا كوسيلة للحصول على موضوعات معادلة ، بدلا من ان يكون عملا تتأكد فيه

(١) ميغا ، ١ ، ٢ ، ص ص ٥٤٢ - ٥٤٧ . (٢) ص ٥٤٣ . (٣) ص ص ٥٢٧ - ٥٣٨ .

(٤) ص ٥٣٩ .

كيونة الفرد والجماعة (١) .

وبحكم ذلك يفقد التبادل ايضا طابعه الانساني ، اذ انه لم يعد جاريا على قيم انتفاع تحمل رسم الذي انتجها بل على منتجات تبقى غريبة عن المنتج وعن الشاري سواء بسواء .

أجل ما يزال التبادل يجري بواسطة موضوعات مكرسة لتلبية حاجات ، ولكن هذه الحاجات لم تعد حاجات انسانية حقيقية ، لانها تنتسب الى موضوعات ليس لها قيمة الا كمنتجات تبديلية (٣) .

هكذا فالانتاج المكرس للتبادل يكف عن كونه تحقق شخصية المنتج ، اذ ان منتج شغله ، بدلا من ان يكون تعيين طبيعته الخاصة عينيا ، يصير محض وسيلة للحصول على ما أنتجه رجل آخر (٣) .

ان اقامة علاقات تجارية بين البشر ، اي اقامة تبادلات موضوعات ليست تعبير كيوننتهم ، تجلب مع تدمير العلاقات الحقبة بين البشر ومنتوج شغلهم تدمير العلاقات الاجتماعية الحقيقية . بما ان المنتجات المكرسة للتبادل تصبح لا مبالية ازاء المنتج ، ما دام هدفها تلبية لا حاجاته بل حاجات الغير وبما ان المنتجات التي يكرسها المنتجون الآخرون للتبادل هي ايضا لا مبالية بالنسبة لهم اذ ليست هي ايضا تحقيق كيوننتهم ، لذا ينجم عن ذلك ان البشر لا يعود لهم فيما بينهم علاقات انسانية حقبة بواسطة اعمالهم (٤) .

ان هذا النزاع للشخصية ، الذي يصيب المنتجين الذين صاروا لا مبالين بعضهم ازاء بعض ومنتجات الشغل التي تحولت الى قيم تبادل ، السى معادلات لمنتجات أخرى ، يجعل ان العنصر الجوهرى في فعل الانتاج هو تبادل المنتجات البديلة .

(١) ص ٥٣٨ - خلاصة . بحكم التبادل ، تتخذ الملكية الخاصة طابع ملكية متخلفة . فهي تكف عن كونها ، من حيث هي منتج الشغل ، تعبير الشخصية الخاصة ، الميزة ، لحائزها ، ما دام هذا الآخر قد تنازل عنه : مفصولة عن حائزها الذي كانت منتوجة ، لا يبقى لها اهمية الا بالنسبة للحاصل عليها ، ولكن بما انها ليست منتج هذا الآخر فان اهميتها ليست مرتبطة بشخصه . اذ تفقد هكذا قيمتها الخاصة ، من حيث هي منتج تبديل ، لا يبقى لها قيمة بذاتها ، بل فقط بالنسبة الى شيء آخر ، كمعادل لهذا الشيء .

(٢) ص ٥٣٢ .

(٣) ص ٥٤٤ .

(٤) ص ٥٤٤ . « انا انتجت لي وليس لك ، كذلك انت انتجت لك وليس لي . ان منتج عملي له في ذاته من العلاقة معك ما لمنتوج عمك من العلاقة معي . من هذا الواقع ليس انتاجنا انتاج الانسان من اجل الانسان معتبرا كإنسان ، اي ليس انتاجا اجتماعيا . هكذا ليس لاحد منا ، كإنسان ، علاقة مباشرة مع منتج الآخر . كبشر نحن لا نلعب اي دور بالنسبة لانتاجنا المتبادل . التبادل الذي نجريه لمنتجاتنا لا يمكن ، بحكم ذلك ، ان يكون له هذا الطابع الواسطي الذي من شأنه ان يبين ان منتوجي مكرس لك حقا ، لانه التمييز العياني لكيوننتك الخاصة ، تلبية حاجتك . » . انظر ص ٥٤٥ .

هذا التشيؤ للعلاقات الاجتماعية يسبب انخلاعا عاما للبشر ، بتحويله فاعليتهم الى انتاج موضوعات هي عنهم غريبة - هذا ما يفسر الطابع الصنمي لهذه الموضوعات التي تبدو كأنها تستمد قيمتها من ذاتها - ويجعله من العلاقات بين البشر علاقات تجارية مؤسسة على تبادل هذه الموضوعات . بصره غريبا عن شغله وعن منتج شغله وعن البشر الآخرين ، يصير الانسان بالفعل غريبا عن نفسه وعن طبيعته الحققة ويعيش في دائرة انخلاع يوسعها على الدوام بعمله وبالتحويلات التي يحملها الى العالم (١) .

في هذه المنظومة ، ليست انسانيتهم هي الرابطة بين البشر بل المصلحة الخاصة (٢) . لذا فان هدف الانتاج هو الربح ، الذي يدفع الانسان الى تجريد الغير من منتج شغله والى استعباده . من هنا العلاقات العدائية بين البشر الذين ، مع كونهم لا يستطيعون الاستغناء عن بعضهم بعضا ، يجدون انفسهم ، برغبتهم في زيادة خيراتهم على حساب الغير بكل الوسائل ، في تنازع دائم (٣) .

من جراء تحول منتوجات الشغل الى قيم تبادلية ، الى سلع ، وتحول العلاقات الاجتماعية الى علاقات بين موضوعات مستقلة عن الانسان وغريبة عنه ، يخضع الانسان نفسه ، في منظومة الملكية الخاصة ، للسلطة المتعاطمة التي تمارسها عليه منتوجات الشغل ، بحيث انه ، بدلا من ان يحكم على العالم الذي يخلق ، يسيطر عليه من قبله (٤) .

في هذا النقد الاول للنظام الرأسمالي ، ينطلق ماركس من تصور للانسان

(١) ماركس يعتبر في هذا الصدد ان الشغل المنخلع التولد من نظام الملكية الخاصة يعزى من جهته هذا النظام باعادة انتاج الملكية الخاصة التي تصير هكذا في آن سبب ونتيجة الشغل المنخلع . انظر المرجع نفسه ص ٩١ - ٩٢ . « لقد قبلنا ... ان العمل المنخلع هو نتيجة حركة الملكية الخاصة . غير انه يبدو ، بتحليل الملكية الخاصة ، انه لئن كانت هذه تظهر كاساس ، كسبب العمل المنخلع ، فانها بالواقع نتيجته . امرها كامر الالهة التي بالاصل ليست سبب بل نتيجة الخلل الذهني للبشر . فيما بعد تتحول هذه العلاقة الى تبادل فعل . » . هذا التصور ، المصاد لمذهب ماركس لاحقا ، يفسر بواقع انه كان عندئذ يعتبر كل الظواهر الاقتصادية والاجتماعية في النظام الرأسمالي عواقب سيورة الانخلاع . « .

(٢) انظر ميغا ، ١ ، ٣ ، ص ص ٥٤٤ ، ٥٤٥ - ٥٤٦ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ص ٥٤٤ - ٥٤٥ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٥٣٦ . « القول بان الانسان ينخلع هو القول بان المجتمع الذي فيه يعيش يشكّل كاريكاتور كينونته النوعية - العامة gènerique والحياة المتفككة معها ، ان فاعليته تصير بالنسبة له مصدر الالم ، ان منتج فاعليته يتحول بالنسبة له الى قوة غريبة ، ان ثروته تصير فقرا ، ان الروابط العميقة التي توحدته مع البشر الآخرين تتحلل ، ان انفصاله عن البشر الآخرين يطبع وجوده ، ان حياته قوامها التضحية بوجوده ، ان تحقق كينونته هو نفى حياته ، ان انتاجه هو اعدائه ، ان السلطة التي يجب ان يمارسها على الاشياء تتحول الى سيطرة للاشياء عليه . وانه بدلا من ان يكون سيد العالم الذي يخلق يصير عبده » .

لا يزال نصف - اثني ( اخلاقي ) . الانسان ، على حد قوله ، لا يستطيع ان يؤكد نفسه كإنسان الا بانتاج قيم انتفاع هي التعيين العياني لكيثونته . ان تبادل هذه القيم ، الذي به البشر يكمل ويفني بعضهم بعضا ، يؤلف أساس العلاقات الاجتماعية الحقيقية .

هذه العلاقات فقدت انسانيته واتخذت طابع انخلاع بانتاج قيم تبادلية ، الانتاج المتولد من رغبة البشر في ان يشبعوا ، بتبادل فائض انتاجهم من القيم الانتفاعية ، حاجات لا يستطيعون اشباعها بانتاجهم الخاص . ان خلق قيم تبادل يحول جذريا طابع وهدف الانتاج ، فبه يصير الشغل شغلا مكسبا ، وتحول منتوجاته الى معادلات لمنتوجات اخرى ، فيها لم يعد الانسان يحقق كينونته ، واخيرا فالتبادل الذي لم يعد جاريا على قيم انتفاعية بل على قيم تبادلية يحول العلاقات بين البشر الى علاقات تجارية .

هذا التشيؤ للعلاقات الاجتماعية يقرر انخلاعا عاما للانسان المفصول عن شغله وعن منتوج شغله وبذلك ذاته عن الاشتراك الانساني . ان اسلوب الحياة المنخلعة هذا هو ما يسعى الى تبريره الاقتصاد السياسي ، باعلانه ان الملكية الخاصة هي الاساس الطبيعي والضروري للمجتمع ، وتصوره البشر تحت شكل مالكين لهم فيما بينهم علاقات مالكين ، وتأكيد ذلك ان شكل الانتاج الحقيقي هو انتاج القيم التبادلية ، انتاج السلع ، وان هدفه هو ان يقيم بين البشر علاقات تجارية بواسطة تبادل السلع .

ان الاقتصاد السياسي ، اذ يبرر المنظومة الرأسمالية ومعها المجتمع اللانساني الذي تنتج ، فانه مساق بالضرورة الى ان يبرر ايضا المقولات الاقتصادية : تبادل ، تجارة ، قيمة ، سعر ، مال ، التي تستجيب لهذه المنظومة .

بخلاف الاقتصاديين البرجوازيين ، ماركس يعتبر هذه المقولات سيرورة التشيؤ النابعة من نظام الملكية الخاصة وينقدها من وجهة النظر هذه (١) .

المجتمع التجاري محكوم بالمزاحمة التي هي قانون النظام الرأسمالي . ان الاقتصاديين ، اذ يضعون في المبدأ ان الطلب ينضبط على الانتاج وان كل رأسمال يجد هكذا بالضرورة استخدامه ، فانهم يعجزون عن تفسير المزاحمة التي يعزونها الى الى اسباب عرضية (٢) ونتائجها : فائض الانتاج والازمات (٣) سواء بسواء .

(١) ميفا ، ١ ، ج٢ ، ص ٩٣ . « لقد رأينا كيف ان تحليل مفهوم الشغل المنخلع يخرج مفهوم الملكية الخاصة ، يمكن ان نخرج من هذين المفهومين كل المقولات الاقتصادية : تجارة ، مزاحمة ، رأسمال ، مال ، التي نجد في كل منها تعبيرا خاصا لهذين المفهومين . »  
نرى كيف ان نقد المقولات الاقتصادية من قبل ماركس يختلف عن نقد انجلز الذي كان يؤسس نقده جوهريا على التناقضات النابعة من المزاحمة .

(٢) المرجع نفس ، ص ٨١ (٣) المرجع نفسه ، ص ص ٥٧٦ - ٥٧٩ .

ان تطور الانتاج والمزاحمة يجر تطور تقسيم الشغل . كما ان التبادل التجاري هو تزييف لاسلوب التبادل الحقيقي بين البشر ، كذلك فان تقسيم الشغل هو تزييف لفاعليتهم الحقيقية ، اذ ، بحصره الانسان في دائرة نشاط محدودة ضيقة لا يستطيع الافلات منها ، يجعل منه « أوتوماتا » ، انسانا - آلة ، غولا فيزيائيا وثقافيا (١) .

مع تطور الانتاج بانقسام الشغل يزداد خلق القيم التبادلية التي هي وحدها لها حساب في المجتمع التاجر حيث انتاج القيم الانتفاعية خاضع وتابع لاستخدامها كقيمة تبادلية . ان القيمة التبادلية يعبر عنها بقدرتها الشرائية التي يتحدد مبلغها بالمقارنة بين الموضوع الذي يحتاجه المرء والموضوع الذي يعرضه بالمقابل . هذه المقارنة ، حسب نظرية ريكاردو ، يجعلها ممكنة واقع انه يوجد بين الموضوعات المختلفة عنصر مشترك ، هو كمية الشغل ، المتصور تحت شكله العام ، الجرد ، الذي هو ضروري لانتاجها ، ان كمية الشغل المختلفة الداخلة في هذه الموضوعات تحدد اختلاف قيمتها التبادلية .

بدلا من ان يبسط ويطور ، كما سيفعل فيما بعد ، نظرية القيمة لريكاردو ، ماركس يرميها لانه كان يفكر مع انجلز ان القيمة في المنظومة الرأسمالية تحددها المزاحمة ويعبر عنها السعر الجاري (٢) ، لان ريكاردو لم يكن يحسب حساب الربح والريع المكتوبين في السعر (٣) ، وخصوصا لانه كان يأخذ على ريكاردو انه يبرر بهذه النظرية النظام الرأسمالي (٤) .

ان القيمة التبادلية التي تجد تعبيرها في السعر تتعبر عمليا بالمال . بما ان الموضوع يفقد كل تحديد كيفي ( qualitative ، نوعي ) يتحوله الى مال ، فان هذا

(١) المرجع نفسه ، ص ص ١٣٩ ، ٥٤٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ص ٤٩٣ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٥٦ - ٥٥٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ص ٤٩٤ . « ريكاردو يؤكد ان الشغل يشمل كل عناصر السعر ، نظرا الى ان الرأسمال هو شغل . سه ... Say بين ان ريكاردو قد نسي ان الربح والريع لا يدخلان مجانا في تركيب السعر . برودون يستخلص بحق انه حيث توجد الملكية الخاصة فان موضوعا من الموضوعات يكلف اكثر من قيمته وان هذا الفصل يؤلف الجزية التي تدفع الى المالك » .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٥٠٢ . لئن كان تصور العمل المتخلق يفقد ماركس الى رفض نظرية القيمة لريكاردو ، النظرية التي سوف يسمح له انماؤها بان يعطي ، بنظريته عن القيمة وفضل القيمة ، التفسير الحقيقي لتشكل الملكية الخاصة للعلاقات بين الرأسمال والشغل ، الا انه كان يسمح له بان يفضح تناقضات الاقتصاد السياسي والانسانية النظام الرأسمالي . يجب ان نلاحظ من جهة أخرى انه لئن كان ماركس يفكر بادىء بدء ان تأثير المزاحمة تأثير مقرر في تثبيت القيمة التبادلية ، فقد كان يلجئ مثلا ، في نقده لـ ج. ميل J. Mill ، على ان القيمة التبادلية ايضا مقرر بكمية العمل الداخل في السلع ، وهو التصور الذي سيهيمن في رؤى الفلسفة . انظر د. ج. روزنبرغ ، مرجع مذكور ، ص ٩٥ وبعدها .

الآخر يصلح تماما لدور وسيط المبادلات (١) .

بما ان كل علاقة انسانية مع الموضوعات المبادلة تختفي في هذا التوسيط للمبادلات بالمال ، فان تشيؤ العلاقات الاجتماعية ومعه الانخلاع في شكل خضوع الانسان لسلطة الاشياء يجدان فيه تعبيرهما الكامل (٢) .

وسيط التبادلات ، المال يجد شكله الاكثر ملائمة في العملة الورقية (٣) ويخدم كقاعدة للتسليف .

في التسليف ، الذي يعيد اقامة علاقات شخصية في سرورة المبادلات ، يرتدي المال شكله الاكثر قبحا ، اذ تحت قناع الثقة يخفي التسليف عدم الثقة الاكثر اطلاقا عند الانسان ازاء الناس الآخرين (٤) . على التسليف يرتكز النظام المصرفي الذي يجسد قوة الدولة البرجوازية (٥) .

بعد هذا التحليل للنتاج الرأسمالي وللمقولات الاقتصادية المحددة من قبله ،

(١) المرجع نفسه (ميفا ...) ، ص ٥٤٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٥٢١ : « ميل Mill يلخص جيدا جوهر المسألة بوصفه المال بانه وسيط المبادلات . ان جوهر المال لا يمكن بدائيا في واقع ان فيه الملكية منخلعة ، بل في واقع ان الفعل الواسطي للبشر ، فاعليتهم الاجتماعية ، التي بفضلها متتوجاتهم يكمل بعضها بعضا ، تتحول به الى فاعلية منخلعة ، الى خاصة ل موضوع مادي ، مستقل عن الانسان . اذ ينقل الانسان فاعليته الواسطية ويضعها في المال ، فانه يحول علاقاته مع الموضوعات وفعله فيها الى علاقات والى فعل كائن هو في آن فوقه وغريب عنه . بلجونه الى هذا الوسيط الغريب ، بدلا من ان يلعب هو دور الوسيط هذا ، يجعل الانسان من ارادته ، من فاعليته ، من علاقاته مع البشر الآخرين ، قوة مستقلة عنه وعن الآخرين . هكذا تصل عبوديته الى اوجها . من البدهي ان هذا الوسيط يصبح منذئذ بالنسبة له الاله الواقعي ، اذ يحوز بوصفه الوسيط ، السلطة الواقعية على هذا الذي يتوسط . هكذا تصبح عبادته غاية في ذاتها . مفصولة عن هذا الوسيط ، الموضوعات تفقد كل قيمة اذ هي ليست ذات قيمة ( ليست صالحة ) الا بقدر ما تمثله ، بينما في الاصل كان يبدو هو لا قيمة له الا بالقدر الذي فيه يمثلها . بهذا الانقلاب المحتوم للعلاقة الاصلية بين الموضوع والمال ، هذا الاخير يصبح جوهر الملكية الخاصة النخلع ، الوساطة المنخلعة بين منتوجات الفاعلية الانسانية وتعبير هذه الفاعلية النخلع . كل الكيفيات ( الصفات ) التي في الانتاج هي واقع وصنع الفاعلية الانسانية تنقل بذلك عينه على هذا الوسيط ، الانسان كائنسان ، مفصولا عن هذا الوسيط ، يفقر هكذا وبالقدر الذي فيه هذا الاخير يفنى . » . انظر المرجع نفسه ، ص ٥٤٠ : « في المال الذي يشهد على اللامبالاة الاكمل ازاء طبيعة الموضوع النوعية وازاء الملكية الخاصة كما ازاء شخصية المالك سواء بسواء ، تتجلى السيطرة المطلقة للشيء المخلوع على الانسان . ما كان في البداية سيطرة للانسان على الانسان يفدو سيطرة عامة للاشياء على الشخص الانساني ، سيطرة المنتوج على المنتج . ان انخلع الملكية الخاصة التضمنة في الموضوع المحول الى معادل في القيمة التبادلية ، يجد تعينه العيني ، تحققه الواقعي ، في المال » .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٥٢٣ .

(٤) ص ص ٥٢٣ - ٥٢٥ .

(٥) ص ٥٢٥ .

يتابع ماركس دراسته النقدية للنظام الرأسمالي بتحليل مصادر الدخل الثلاثة :  
الاجر ، ربح الرأسمال ، الربح العقاري (١)

بخلاف الاقتصاد السياسي الذي يعتبر الانفصال بين الشغل والراسمال والملكية  
العقارية الذي يترجم عن نفسه في التعارض بين الاجر والربح والربح ، واقعا طبيعيا  
و ضروريا ، يلج ماركس على ان هذا الانفصال الناجم عن نظام الملكية الخاصة له  
كنتيجة لازمة طرد المأجور من الملكية الخاصة وحرمانه من شطر كبير من منتج شغله  
يتوزعه الرأسمالي والمالك العقاري .

في تحليله للاجر ، يصف ماركس حالة العمال في الاربعينات ، في وقت كان فيه  
العمال ، الذين لم يكن يحميهم لا نقابات قوية ولا تشريع اجتماعي ، يعيشون في أسوأ  
الشروط نتيجة تمديد يوم العمل وتخفيض الاجور ، الناجمين عن مزاحمة الآلة وعن  
الازمات (٢) .

ماركس يلاحظ بادية بدء ان التعارض بين الاجر والربح والربح الذي ليس  
سوى تعبير التناحر بين الرأسمال والشغل التابع من نظام الملكية الخاصة (٣) ينكشف  
عن كونه غير ملائم للعامل الذي هو ضحيته .

هذا يتجلى جوهريا بنقص الاجر الذي لا يكاد يكفي لتأمين وجود بائس .  
اذ بعكس المبدأ الموضوع من قبل الاقتصاديين ، الذي يرى ان الشغل هو  
العنصر الوحيد خالق الثروات ، لا ينال العامل سوى قسط صغير من قيمة انتاجه ،

(١) ص ص ٣٩ - ٨٠ .

(٢) اذ لا يعرف ماركس بالتجربة حالة العمال ، وذلك بعكس انجلز ، فانه يصفها بمساعدة مؤلفات  
مختصين : تقرير فيلرمه الى اكااديمية العلوم المعنوية ، باريس ١٨٤٠ - ١ . بوريه ، بؤس الطبقات  
الكادحة في انكلترا وفي فرنسا ، باريس ١٨٤٠ . مذكور في ميغا ص ص ٥٠ - ٥١ . - ل. بيكور ، نظرية  
جديدة في الاقتصاد الاجتماعي والسياسي ، باريس ١٨٤٢ . المرجع نفسه ص ٤٩ . - ش. لندن ، حل  
مسألة السكان والمعيشة ، باريس ١٨٤٢ . المرجع نفسه ص ٤٩ - ٥٠ . - ف. شولتس ، مرجع مذكور  
سابقا ، انظر المرجع نفسه ص ص ٤٦ - ٤٩ .

(٣) انظر ميغا ١ ، ٢ ، ص ٩٨ وبعبدا : « الملكية الخاصة تحوي علاقتها مع الرأسمال والشغل  
والعلاقة التي توحدهما . تحوي من جهة انتاج الفاعلية الانسانية في شكل شغل الذي هو تعبير الفاعلية  
المنخلية ، التي صارت غريبة عن الانسان وعن الطبيعة ، تعبير الوجود المجرد للانسان ، القلص الى حالة  
آلة ، نفي صفته ككائن اجتماعي ، ومن جهة اخرى انتاج موضوع الفاعلية الانسانية في شكل رأسمال ،  
حيث تختفي كل تمييزات الموضوع الطبيعية والاجتماعية . بما ان الملكية الخاصة تفقد فيه كل صفاتها  
الطبيعية والاجتماعية ... فان الرأسمال ... يمكن ان يظهر لامبالاة مطلقة ازاء محتواه الواقعي .  
مدفوعا الى الحد الأقصى ، هذا التعارض ( بين الرأسمال والشغل - ا. ل. ) يسم في آن ذروة وادج  
وانحدار كل منظومة الملكية الخاصة » .

وهو قسط عليه فضلا عن ذلك ان ينتزعه من مستخدمه (١) .

من هذا النزاع يخرج الرأسمالي بوجه عام منتصرا ، فهو بما انه عدا عن الربح الذي يجنيه من رأسماله يتصرف بدخول مختلفة : اجارات ، ريسوع ، وبما انه يستفيد من المساعدة التي يتبادلها الرأسماليون في نضالهم ضد الطبقة العاملة ، فانه يستطيع ان يعيش بدون العامل مدة اطول مما يستطيع العامل بدونه ، فالعامل اذ لا يستطيع ان يعيش الا بأجره مرغّم بوجه عام ، تحت طائلة فقدان عمله ، على قبول الشروط التي يفرضها مستخدمه (٢) .

اذ هو مضطر الى بيع شغل ومحول بذلك هو نفسه الى حالة سلعة ، العامل يخضع لنفس شروط الوجود التي تخضع لها السلع .  
انه تابع مثلها للعرض والطلب وعليه ان يعتبر نفسه سعيدا اذ يجد طلب عمل ، فبدونه يكون محكوما بالبؤس والبطالة (٣) .

اذ يحول الى سلعة فانه يصير سلعة أرخص بقدر ما تحسّن الآلات وتمديد يوم الشغل يزيدان الانتاج ، اي انه يرخص نفسه بالقدر الذي فيه ينتج (٤) .

هذا يفسر ان المعدل الطبيعي المعياري لاجره لا يزيد على الحد الأدنى الذي هو ضروري بشكل مطلق كي يتمكن من العيش فقط مع اولاده (٥) .

شرطه اليائس يعززه ايضا واقع انه هو الأكثر تأثرا بتقلبات السوق ، اذ ان ارتفاع الاجور يبقى دائما ادنى من ارتفاع الاسعار ، بينما انخفاض الاسعار يرافقه تخفيض مواز للاجور (٦) .

حالته تميل الى الاستفحال مع انحدار الانتاج الذي يجبر الى جانب تفاقم المزاحمة بين العمال تخفيض الاجور والبطالة (٧) . تتحسن بعض الشيء مع ازدياد الانتاج ، من جراء كون طلب الشغل يتخطى العرض آنذاك . ولكن هذا التحسن عابر

(١) انظر المرجع نفسه ، ص ٩٢ : « ان الاقتصاد السياسي ، وهو يؤكد ان الشغل يشكل نفس الانتاج ، لا يمنح الشغل شيئا ويمنع الملكية الخاصة كل شيء » . انظر المرجع نفسه ، ص ٤٣ - ٤٤ ، ٤٦٥ - ٤٦٧ ، ٥٠٢ - ٥٠٤ ، ٥٢١ - ٥٢٢ .

(٢) ميفا ، ١ ، ح ٣ ، ص ص ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٥ .

(٣) ص ٩٧ .

(٤) ص ٨٢ .

(٥) ص ٤٣ - ٤٤ ، ٣٩ . الاتجاه الى تخفيض الاجور الى معدل ادنى وصفه ريكاردو بانه قانون الاجر الضروري وسيصفه لاسال Lassalle بانه قانون الاجور الحديدي ، كان ماركس يعتبره آنذاك نتيجة لازمة لواقع ان عرض الشغل في النظام الرأسمالي يتخطى حاجة الطلب . فيما بعد عدل ماركس هذا التصور ووقف ضد لاسال .

(٦) ص ٤٠ .

(٧) ص ٤١ .

فقط ، فازدياد الراسمال الذي هو دائما اكبر واسرع من ازدياد الاجور والتطور المتسارع للالات يفاقمان عبودية العامل ، بينما فائض الانتاج الذي يأتي بسرعة والكساد الناجم عنه بسببان من جديد انخفاض الاجور والبطالة والبؤس (١) .

هذه الحالة البائسة للعامل لا ينشغل بها الاقتصاد السياسي ابدا . اذ لا يرى في العامل سوى عنصر في الانتاج فهو ينفض يده منه كإنسان ، الامر الذي يتيح له ان يضع في المبدأ ان العامل يجب ان لا يجر اية تكاليف اخرى غير التكاليف اللازمة بشكل مطلق لسير المشاريع الحسن (٢) .

اما العامل بلا عمل ، العاقل عن العمل ، فالاقتصاد السياسي يتجاهله تماما ويترك للبوليس والقضاء والدين أمر العناية به (٣) .

كخلاصة خاتمة ، يبرز ماركس التناقض المطلق الموجود بين حالة العامل النظرية كما يجب ان تنجم عن المبادئ ذاتها التي يضعها الاقتصاد السياسي وحالته الواقعية في النظام الراسمالي : « انه ( الاقتصادي . - ا. ك. ) يقول لنا ان منتوج الشغل بأكمله يعود الى العامل مبدئيا ، ولكنه يقول لنا ايضا ان العامل لا ينال بالواقع سوى جزء صغير جدا من هذا المنتوج ، ما يسمح له فقط بأن يعيش ، لا كإنسان ، بل كعامل ، وان يديم لا النوع الانساني بل طبقة البروليتاريين العبد » .

انه يقول لنا ان الشغل يسمح بشراء كل شيء وان الراسمال ليس سوى شغل مركوم ، ولكنه يقول لنا ايضا ان العامل ، بعيدا عن ان يكون قادرا على شراء كل شيء ، يتوجب عليه ان يبيع نفسه وان يخلع طبيعته الانسانية .

بينما الربيع العقاري يدر بوجه عام على مالك الارض الذي ليس سوى بطلال ثلث المحصول والربح الذي يجنيه الراسمالي المجتهد يرتفع الى ضعف فائدة المال ، فان كسب العامل في افضل حال صغير لدرجة ان اثنين من أصل أربعة من اولاده محكومان بالموت جوعا .

اجل يقول الاقتصادي ان الشغل هو عنصر الثروة الفاعل وانه هو وحده الذي يمكن الانسان من زيادة قيمة منتوجات الطبيعة ، ولكنه يؤكد في الوقت نفسه ان المالك العقاري والرأسمالي هما كائنات الهيان ، ممتازان وبطلان ، متفوقان في كل شيء على العامل الذي عليه يملكان قوانينهما .

(١) ص ص ٤١ - ٤٣ ، ٤٩٤ ، ٥١١ .

(٢) ص ٤٥ . « من نافل القول ان الاقتصاد السياسي لا يعتبر البروليتاري ، اي العامل الذي لا يتصرف لا براسمال ولا يبيع بل يعيش فقط من عمله ، الا كعامل . يستطيع على هذا الاساس ان يضع مبدئيا انه ، شأنه شأن حصان ، يجب ان لا ينال الا ما يلزم كسبي يستطيع العمل » . ص ٤٧ . « ولكن الاقتصاد السياسي لا يعرف العامل الا كحيوان يصلح للشغل ، الا كدواب حاجاتها يجب ان تكون محصورة في الحد الأدنى » . ص ص ٩٧ - ٩٨ .

(٣) ص ص ٤٥ ، ٩٧ .

بينما تقسيم الشغل يزيد كمية ونوعية الانتاج ويفني المجتمع ، فانه يفقر العامل وينزله الى مرتبة آلة .

بينما الشغل يزيد رفاه المجتمع بتراكم الرساميل ، فانه يخضع اكثر فأكثر العامل للرأسمال ويستنزفه باخضاعه لوتيرة فائض الانتاج الجهنمية .

بينما ، حسب الاقتصادي ، مصلحة العامل لا يمكن الا ان تتطابق مع مصلحة المجتمع ، فان المجتمع هو بالواقع حتما ودائما معاد له (١) . »

الأجر يعارضه ربح الرأسمال والريع العقاري للذان ليسا مكافأة على شغل يقوم به الرأسمالي أو المالك العقاري بل هما اتاوة يأخذانها من منتج شغل الغير .

بخلاف ما يفكره الاقتصاديون ، ليس الرأسمال شغلا حقيقيا مركوما ، بل هو شغل منخلع مركوم في شكل سلع (٢) . ان محض تكديس هذه الاخيرة في شكل

ستوك لا يُولف بذاته رأسمالا ، انه لا يصير كذلك الا حين يجني مالك المخزون ربحا منه (٣) .

ان المعدل الوسطي للربح يقاس ، عموما ، بفائدة المال التي تزداد وتنخفض مع الربح (٤) . ان معدله الأدنى يجب أن يكون دوما أعلى من مقدار الخسائر المحتملة التي يتعرض لها كل توظيف لرساميل . وهو يبلغ معدله الأقصى حين يمتص كامل الربح العقاري وحين يدفع تخفيض الاجور الى آخر حد (٥) .

ما يزيد ، بالوجه الأعم ، معدل الربح ، هو نمو مساهمة الشغل في صنع السلع . كلما كانت سلعة ما مشغولة أكثر ، زادت في السعر حصة الأجر والربح بالمقارنة مع الحصة العائدة الى الربح العقاري . ان زيادة حصة الشغل في صنع السلع تنكشف من جهة أخرى عن كونها مربحة للرأسمالي أكثر بكثير منها للعامل (٦) .

ان التوظيف الاكثر ملائمة للرأسمالي هو الذي يأتي بالربح الاكبر ، مع المجازفة بأقل الاخطار ، هذا التوظيف ليس بالضرورة هو الاكثر ملائمة للمجتمع ، بل كثيرا جدا ما يكون مضادا لمصلحته (٧) .

هذا التعارض بين مصلحة الرأسمالي ومصلحة المجتمع يتجلى بشكل خاص في اتجاه الرأسمالية الى تحقيق أقصى ربح بالاحتكار .

(١) ص ٤٣ - ٤٤ .

(٢) ص ٥٥٧ . عن الرأسمال والربح ، انظر صص ٤٦٤ ، ٤٦٧ - ٤٦٩ ، ٤٧٢ - ٤٧٧ ، ٤٩٤ - ٤٩٨ ، ٥٠٩ - ٥١١ ، ٥١٤ - ٥١٩ ، ٥٢٥ .

(٣) ص ٥٢ .

(٤) ص ٥٣ - ٥٤ .

(٥) ص ٥٤ .

(٦) ص ٥٥ .

(٧) صص ٥٥ ، ٥٦ .

الدفاع الوحيد الممكن ضد الاحتكار هو المزاخمة ، وشرطها الاولى تراكم متعدد للرساميل . بنموها وانبساطها تقود المزاخمة من جديد الى الاحتكار بتمركز الرساميل الذي تسببه (١) . فازدياد المزاخمة يجر تقليصا للارباح مسببا بشكل خاص لصغار الرساميليين الذين يهلكون بالتدريج على يد كبارهم الذين ليس فقط يستطيعون الاكتفاء بربح أقل بل لهم أيضا على صغار الراسماليين امتياز كونهم قادرين على الشراء والبيع بسعر افضل وعلى توظيف حصة من الراسمال أصغر نسبيا (٢) . الربح العقاري هو ، أقل أيضا من الربح ، ثمرة عمل من يتقاضاه (٣) . انه مكون من الكسب الذي يجنيه المالك من الارض ، بصورة مستقلة عن التحسينات التي يجلبها اليها وهو يتغير بحسب خصوبة الارض وموقعها (٤) .

مقداره ناتج عن الصراع بين المالك والمزارع من أجل توزع المحصول (٥) . وهو يزداد مع نمو السكان وحاجاتهم الذي يقرر ارتفاع سعر المواد الغذائية والمواد الاولى، ومع استخدام المواد الاولى التي لم تكن مستخدمة الا قليلا حتى ذلك الحين . هكذا الربح الذي تعطيه مناجم الفحم قد نما بشكل هائل من جراء بناء السكك الحديدية والسفن البخارية (٦) .

من كون نمو الحاجات يزيد الربح العقاري ، استنتج الاقتصاديون البرجوازيون ان المالك العقاري ذو مصلحة في رفاه المجتمع . بالواقع ، ان ازدياد الربح العقاري مرتبط بكل ازدياد للثروة في النظام الراسمالي بنمو للبؤس ، كما يبين ذلك الارتفاع الدائم لسعر الايجارات واستثمار المزارعين والعمال الزراعيين من قبل الملاك العقاريين (٧) .

بهذا الخصوص ، بكوا ، دونما حق ، نهاية النظام الاقطاعي الذي كان يوجد فيه بين الملاك العقاريين والمزارعين والعمال الزراعيين روابط هي ظاهرا اكثر وثوقا وأكثر انسانية من هذه التي تنجم عن علاقات المال . بالحقيقة ، كان ضروريا ان يختفي هذا المظهر الخادع ، مظهر الانسانية الكاذب ، وأن تتخذ الارض ، المستوعبة في التطور العام لأسلوب الانتاج الجديد ، شكل رأسمال ، وأن تصبح العلاقات بين المالك العقاري والمزارع والعامل معادة الى العلاقات بين المستثمر والمستثمرين ، كي تظهر

(١) صص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) صص ٥٨ - ٦١ .

(٣) من الربح العقاري . انظر صص ٦٧ - ٨٠ ، ٤٦٩ - ٤٧٢ ، ٤٩٨ - ٥٠٢ ، ٥١٢ - ٥١٣ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ - ٥٢١ ، ٥٢٥ - ٥٢٦ ، ٥٥٢ - ٥٥٦ ، ٥٥٩ - ٥٦٠ .

(٤) ص ٦٨ .

(٥) ص ٦٩ .

(٦) صص ٧٠ - ٧٢ .

(٧) صص ٧٢ - ٧٣ .

الملكية العقارية في نهارها الحقيقي (١) .

الملكية العقارية ، مثل الصناعة ، خاضعة لقانون المزاومة . فالمالك الصغير موجود ازاء الكبير في نفس علاقات الحرفي ازاء رجل الصناعة . كما ان الحرفي يسحق من قبل الصناعي ، كذلك المالك الصغير يصفى من قبل الكبير الذي له عليه امتياز القدرة على استخدام آلات واستثمار مزارعين (٢) . هكذا ان تقسيم الملكية العقارية له نفس العواقب المترتبة على المزاومة في ميدان الصناعة . بينما في الاصل له كنتيجة تدمير الاحتكار الاقطاعي للارض ، فانه ينتهي ، من جراء المزاومة التي تقوم بين الملاك وخراب اضعفهم ، الى اعادة الاحتكار بمرکز جديد للملكية الخاصة (٣) .

ماركس يختم تحليله لتطور الملكية العقارية بادانة لتجزؤ الاراضي الذي يجعل مستحيلا استثمارها العقلي وللاحتكار الذي يوطد منظومة الملكية الخاصة . يدعو الى استبدالهما بنظام ملكية جماعية ، مؤسس على اجتماع المنتجين ، الذي يكون من شأنه ، مع اقامته المساواة بين هؤلاء ، الحفاظ على كل مزايا الملكية الكبيرة (٤) .

اذ يتابع تحليله لتطور الملكية العقارية ، يبين ماركس كيف حدد هذا التطور تحولا جذريا لهذه الملكية .

في شكل الملكية الاقطاعية ، الملكية العقارية مختلفة اختلافا عميقا عن الرأسمال ، الذي يتكون بالتعارض معها في حضان المجتمع الاقطاعي . هذا الفرق يترجم عن نفسه ليس فقط بالتعارض بين الزراعة والصناعة بل ايضا بطابع الشغل . في الميدان الصناعي ، ان الشغل ، الصائر بشكل تام لا مباليا ازاء موضوعه ، يتحول الى شغل مجرد ، بينما الشغل في اطار الملكية العقارية الاقطاعية لا يتخذ هذا الطابع (٥) .

ان الهمية المتزايدة دوما التي تتخذها التجارة والصناعة لها كنتيجة جر الملكية العقارية بالتدريج في دائرتها وبذلك تخفيف الفرق بين الملكية العقارية والرأسمال تدريجيا . هذا يتحقق في البداية بواسطة المزارع الذي يزرع الارض بقصد جني ربح منها (٦) .

هذا التحول للملكية العقارية يتسارع مع صيرها سلعة ، موضوع شراء وبيع ، وبذلك عينه رأسمالا يدر فائدة في شكل ربح عقاري (٧) .

(١) صص ٧٦ - ٧٧ .

(٢) صص ٧٣ - ٧٤ .

(٣) صص ٧٧ - ٧٨ .

(٤) ص ٧٨ .

(٥) صص ١٠٢ ، ٩٩ - ١٠٠ .

(٦) ص ١٠٠ .

(٧) صص ٩٩ ، ٧٩ ، ١٣٧ . انظر د.ا. دوزنبرغ ، مرجع مذکور ، صص ١٧٣ - ١٧٦ .

على الرغم من هذا التحول التدريجي للأرض إلى رأسمال ، يبقى الملاك العقاريون والرأسماليون بادئ بدء متعادين بعمق على أساس مصالحهم المتعارضة . فبينما يطمح المالك العقاري إلى بيع منتوجات الأرض بأعلى سعر ممكن ، الرأسمالي له ، بالعكس ، مصلحة في تخفيض سعر المواد الغذائية والمواد الأولية ، تخفيض يترجم بتخفيض تكاليف الإنتاج . كل منهما يسعى من جهة أخرى إلى حجب أسباب تعارضهما الواقعية ، زاعماً الدفاع لا عن مصالحه الخاصة بل عن المصالح العامة للبشرية (١) .

التطور الاقتصادي له في الأخير كنتيجة محتومة انتصار الرأسمالي على الملكية العقارية والصناعة على الزراعة والملكية المنقولة على الملكية غير المنقولة (٢) . فبينما القدرة الاقتصادية والاجتماعية للمالك العقاري لا تكف عن الانخفاض ، فإن قدرة الرأسمالي بالعكس تميل دوماً إلى الازدياد . مستفيداً من خراب صفار الملاك العقاريين ، يستولي الرأسمالي على قسم من الأرض ، مما يتيح له الحصول على مواد أولية يحتاجها وزيادة رأسماله بذلك ، من جهة أخرى ، أن خراب صفار الملاك والمزارعين ، الذي يجعلهم يفرون من الأرياف ليسكنوا في المدن ، يقدم للصناعة بداً عاملة رخيصة وهكذا يسهل توسعها (٣) .

حين تكون الصناعة ، كما هو الحال في انكلترا ، قد أصبحت قوية جداً ، فإنها تهلك الزراعة بتخفيض الرسوم الجمركية التي تضع السلع الزراعية في تنافس مع سلع الخارج (٤) .

نتيجة التحول التدريجي للإنتاج الزراعي إلى إنتاج سلع وسيطرة الرأسمال على الأرض ، يتضاءل أكثر فأكثر الفرق بين الرأسمالي والمالك العقاري ، بحيث أن السكان ينقسمون في الأخير إلى طبقتين كبيرتين : طبقة الرأسماليين وطبقة البروليتاريين (٥) .

أن برلثة الطبقات الوسطى : حرفيين ، مزارعين ، ملاك صفار ، صناعيين صفار ، واستفحال الصراع الطبقي بين الرأسماليين والبروليتاريين ، يقودان بالضرورة إلى الثورة الاجتماعية التي ستلغي نظام الملكية الخاصة (٦) .

بعد أن بينّا هكذا كيف أن المواجهة ، التي يعتبرها الاقتصاد السياسي القانون

---

(١) ميغا ... ، ص ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) ص ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٣) ص ص ٧٥ ، ٧٩ .

(٤) ص ٧٩ .

(٥) ص ٧٥ .

(٦) ص ص ٧٩ - ٨٠ .

الاساسي المقدس للنظام الرأسمالي، تقود بتمركز الراسمائل والاراضي الى الاحتكار . كيف ان الملكية العقارية تسقط تدريجيا تحت سيطرة الراسمائل الصناعي ، وكيف ان التعارض المتنامي بين الراسمائل والشغل يقود الى الثورة الاجتماعية (١) ، يلخص ماركس مجمل نقده للاقتصاد السياسي على الشكل الآتي : « لقد ذهبنا من مقدمات الاقتصاد السياسي ، تكلمنا لغته وقبلنا قوانينه . قبلنا الملكية الخاصة ، الانفصال بين الشغل والرأسمال والارض ، بين الاجر والربح والريع ، قبلنا ايضا تقسيم الشغل ، المزاحمة ، التبادل ، الخ . مرتكزين على مبادئ الاقتصاد السياسي ومستخدمين حدوده ذاتها ، بينا أن العامل منزل الى مرتبة سلعة ، أدنى سلعة ، أن يؤسه يتناسب عكسا مع قوة وعظمة انتاجه ، أن النتيجة الضرورية للمزاحمة هي تركيز الراسمائل في عدد قليل من الايدي ، الامر الذي يستتبع اعادة الاحتكار تحت شكله الابشع ، وأخيرا ان زوال الفرق بين الراسمائل والمالك العقاري ، بين العامل الزراعي وعامل المصنع ، يولد بالضرورة انقسام المجتمع الى طبقتين ، طبقة المالكين وطبقة البروليتاريين (٢) . »

### نقد المنظومة الرأسمالية والمجتمع البرجوازي

بعد هذا النقد للاقتصاد السياسي الذي يأخذ عليه جوهريا كونه يطرد العنصر الانساني من اعتباراته ويقبل كضرورة طبيعية نظام الملكية الخاصة الذي يؤدي ، باخضاع الانسان الى عالم الاشياء التي يخلقها ، الى تشيؤ العلاقات الاجتماعية ، يشرع ماركس في تحليل نقدي للمنظومة الرأسمالية من وجهة نظر الشغل المنخلع عارضا كل عواقبه (٣) .

اذ يجعل كل اشكال الانخلاع التي تثقل كاهل البشر في النظام الرأسمالي مشتقة من واقع ان الفاعلية الانسانية في هذا النظام تتخذ شكل عمل منخلع ، فهو يبين ان هذا النظام يفصل الانسان ، خصوصا العامل ، عن منتوج فاعليته ، انه بذلك يزيف العمل ، الذي يفقد طابعه كفاعلية حرة وكلية ، انه يشوه مع علاقات الانسان بالطبيعة ، كينونة الانسان ذاتها ، وانه يدمر بتشبيء العلاقات الاجتماعية وبالتعارض الذي يقوم بين كل البشر ، الاشتراك الانساني أو الجماعة الانسانية .

مرغما على بيع عمله ، ان العامل ، الذي ينال كأجر له اقل بكثير مما ينتج ،

(١) ص ١٠٢ .

(٢) ص ٨١ .

(٣) صص ٨١ - ٩٤ ، العمل المنخلع .

يفقر ويبخس نفسه بقدر ما يزداد انتاجه حجما وقيمة (١) .  
كما ان الانسان ، في الدين ، يتجرد من كل ما يخلعه في الله ، كذلك فالعامل  
ينزع قيمته ويدل نفسه بقدر ما ينمو ويزداد جمالا عالم الاشياء التي يخلقها (٢) .  
بما ان منتوج شغله يتثبت في موضوع هو معا غريب عنه ومعاد له (٣) ، فان  
فاعليته ، بدلا من أن تكون تحقق وتعيثن قواه الخالقة ، تصير ضياعا دائما لهذه  
القوى (٤) .

ان هبوط قيمة العامل المقلص الى حالة سلعة والمخضع مثلها لقانون العرض  
والطلب (٥) يزداد مع تطور نظام الآلة ، الذي يشدد المزاخمة باستخدام النساء  
والاطفال بأجور بائسة ، مما يؤدي الى تمديد يوم الشغل بصورة تدريجية وتخفيض  
الاجور بصورة دائمة .

ان العامل الذي ، بخلاف الحرفي ، لا يملك أداة عمل ولا يستطيع الا بصعوبة  
أن يفسر عمله من جراء التخصص التابع من تقسيم الشغل ، مضطر لان يرضخ  
مشروط مستخدمه . بارغامه العامل على انتاج متزايد لقاء أجر متناقص ، ان

(١) انظر ميغا ، ١ ، ح ٢ ، ص ٨٢ ، ٨٢ ، ٨٤ . « العامل يفقر نفسه بالقدر الذي فيه يخلق  
ثروات ، بالقدر الذي فيه تزداد كمية وقيمة انتاجه . انه يصير هو نفسه سلعة أرخص بقدر ما ينتج  
سلعا أكثر . ان عالم الاشياء يصير ذا قيمة بالقدر الذي فيه عالم الانسان يصير بلا قيمة ... كلما بلل  
العامل نفسه في شغله ، صار العالم الغريب الذي يخلقه والذي ينتصب امامه قويا ، وأفقر هو  
نفسه ... الامر هنا كما في الدين ، حيث يتجرد الانسان من كل ما يضعه في الله . بما ان العامل يخلع  
حياته في الموضوعات التي يخلقها وبما ان هذه الحياة تصبح ملكا لهذه الموضوعات ، فانه يفقد من ماهيته  
بقدر ما تزداد فاعليته ... هذا الانخلاع للعامل في الموضوع الذي يخلقه يجد تعبيره على الصعيد  
الاقتصادي في واقع انه كلما انتج أكثر قلت قدرته على الاستهلاك ، انه يبخس وينحط بقدر ما يخلق  
ثروات ، انه يفقد انسانيته بقدر ما يحمل الموضوع الذي ينتجه طابع حضارة أرهف ، ان عجزه يزيد  
بقدر ما تزداد قدرة العمل ، وأخيرا انه يفقد الروح ويصير عبد الطبيعة بقدر ما يصير الشغل ذا روح . »  
(٢) ص ٨٥ . « بينما الشغل ينتج عجائب ، يبني قصورا للأغنياء ، فانه لا يولد سوى البؤس ولا  
يبني سوى اكواخ قدرة للعمال ، بينما يخاق الجهال ، انه يدل العامل ماديا ومعنويا ، ويسقطه في  
البربرية بانزاله الى مرتبة آلة ، بينما يبسط ويطور مجال الروح ، يجعل العته والبله نصيب العامل . »  
(٣) ص ٨٢ - ٨٤ . « ان انخلاع العامل في منتوج شغله يعني ليس فقط أن شغله ، بتعيينه في  
موضوع ، يتخذ شكلا خارجيا ازاده ، بل ايضا انه بوجوده خارجة وبصورة مستقلة عنه انما يصير  
غربا عنه ويعارضه في شكل قوة مستقلة ، بحيث ان الحياة التي يعطيها للموضوع تنتصب امامه قوة  
فريبة وعدائية ... »

(٤) ص ٨٢ . « في النظام الرأسمالي ، يتحول تحقق الشغل الى انيخاس للعامل ، تموضعه الى  
ضياع للموضوع المنتج ، تملكه الى انسلاب ، الى نزع حيازة بالنسبة للعامل . ان تموضع الشغل يصير  
خسارة مادة بالنسبة للعامل لدرجة انه يجوعه ... » .

(٥) ص ٨٢ - ٨٣ . « ان الشغل لا ينتج سلعا فقط ، بانتاجه السلع ، ينتج نفسه وينتج  
العامل في شكل سلعة . » . انظر ص ٩٧ .

الراسمال ، الذي ليس موجودا الا بالعامل الذي يشتغل له ، يتجه - مفارقا - الى دماره (١) .

بما ان الانتاج من اجل الربح وليس من أجل الانسان هو قانون الراسمال، فان العامل ، الذي لا يستطيع أن يحصل لقاء عمل هو عمل دابة سوى الضروري لكي يعيش ، لا يستطيع أن يوفق حياته مع انتاجه الذي ينسبط ضد كينونته ، بعيدا عن أن يتفتح وهو ينتج بحرية وفي انسجام تام مع نفسه ومع البشر الآخرين ، ليس له في الحياة من أفق سوى العبودية والخلل . والراسمال ، اذ لا يهتم الا بالربح ، فانه لا يعنى بالعامل بلا عمل الا كما يعنى بسلعة لا يحتاج اليها وهو يترك العاطل عن العمل لعناية الشرطة والاحسان العام والخاص (٢) .

ان العامل الذي كفى عن العمل يصبح ، بالنسبة للمجتمع المضطر الى تأمين اعالته ، عبثا ، وبذلك ذاته موضوعا ليس فقط غير مفيد بل ضارا . لذا صرح ريكاردو وج. ميل ان العاطلين عن العمل هم خطر اجتماعي (٣) ، لذا أيضا أعلن مالتوس ضرورة استئصال كل فائض سكاني (٤) .

هذا العداء من الراسمالية ازاء الطبقة العاملة مردّه طبيعة الانخلاع ذاتها ، فهو يتحوّل من لامبال الى معاد بالضرورة . ان منتوج شغل العامل المنخلع ، يتحوّل الى سلعة أي الى راسمال يصير قوة غريبة تسيطر عليه وتستعبده . هذا النظام ، بالحاصل ، ينزع انسانية ويحط قيمة ليس فقط العامل، بل

---

(١) ص ٩٧ . « الانسان الذي ليس اكثر من عامل ليس له من صفات انسانية الا بالقدر الذي فيه هذه الصفات تؤمن ربحا للراسمال الذي هو غريب عنه . بما ان العامل والراسمال غريب احدهما عن الآخر ، بما انهما فيما بينهما في علاقة لا مبالية ، خارجية ، عرضية ، فان طابع علاقتهما هذا يجب ان يتجلى فعليا في صلاتهما . ما ان يقرر الراسمال ... ان لا يكون موجودا بالنسبة للعامل حتى يفقد هذا الاخير كل وجود فعلي ، لا يبقى له شغل ، وبالتالي أجر ، وبما انه موجود لا كإنسان بل كعامل ، لا يبقى له سوى ان يموت جوعا وان يختفي ... ان حاجات العامل محصورة ، في نظر الاقتصاد السياسي ، في ما لا غنى له عنه لكي يعيش مدة عمله ولكي يديم عرقه . ان أجر العامل ليس له من معنى بالنسبة للاقتصاد السياسي سوى تكاليف صيانة أداة انتاج ... مثلا تكاليف زيت تشحيم دواليب آلة . الاجر جزء من التكاليف المتعلقة بالراسمال ولا يجوز ان يتخطاها . » انظر ص ص ٥٠٤ ، ٩٨ ، ٥١٤ - ٥١٥ .

(٢) ص ٩٧ . « الاقتصاد السياسي يجعل المجرم ، المختلس ، الشحاذ ، العاطل عن العمل ، العامل الجائع والبائس ، هؤلاء افراد يهمون القاضي ، الطبيب ، صانع التوابيت ، ولكنهم خارج دائرة الاقتصاد السياسي » . انظر ص ٤٥ .

(٣) ريكاردو يدين كل تشريع يرمي الى مساعدة الفقراء ، بحجة انه يدمر عندهم مع شهوة الكسب كل انتاجية .

(٤) ص ٥٥٢ .

ايضا الراسمالي الذي بخضوعه كذلك لآثار نظام الملكية الخاصة ، يسقط هو أيضا في قبضة العالم المنخل (١) .

ان انخلاع منتوج الشغل يستتبع عند العامل آثارا ليس فقط موضوعية بل أيضا ذاتية ، تجد ترجمتها في مشاعر من الحرمان والاستغلال والاضطهاد هي ، بتحوّلها الى غضب وحقد ، مصدر نزاعات اجتماعية (٢) .

في منظومة الملكية الخاصة ، يتجلى انخلاع العامل ليس فقط في واقع انه مفصول عن نتاج شغله ، بل كذلك في فعل الانتاج ذاته ، في الشغل ، الذي يصبح هو أيضا غريبا ومعاديا . انه ، في الحاصل ، لانه يخلع قوته الخالقة في شغله ، لذلك يجد نفسه مخلوعا في نتاج هذا الأخير (٣) .

فالشغل الخالق ، الذي به يحقق الإنسان كينونته محوّل العالم ، يجعل مستحيلا في النظام الراسمالي بحكم عجز هذا النظام عن أن يؤمن لكل فرد الشغل الذي يناسبه . هذا النظام يخلق عند البشر حاجة تأكيد شخصيتهم بفاعلية كلية وحرّة ، ويحلّ محلها الشغل المنخل الذي، ببقائه غريبا عن الإنسان، يشكل لا تأكيد بل نفي كينونته (٤) .

هذا الاستلاب يزيد خطورته تطور تقسيم الشغل الذي يرغم العامل على شغل رتيب يبلده ويحوّله الى أوتومات . هذا يفرق بعمق عامل المصنع المربوط بالآلة يصبح ملحقا بها (٥) عن الحرفي الذي بما انه قادر على القيام بأعمال مختلفة فهو يمارس

---

(١) ص ١٣٦ . مع دفعه الراسمالي كرجل نفمي وطالب لذات ، ماركس يرى فيه قبل كل شيء رجلا مجتهداكدودا ، ساوكة محدد من قبل سيرورة الانتاج الراسمالي . انظر ص ١٢٧ . « أجل ان الراسمالي رجل يسعى الى المتعة ... ولكن هذا التمتع بالنسبة له شيء ثانوي ، وسيلة ترويض ، خاضعة للانتاج . فاللذة عنده محسوبة ، اقتصادية ، انها جزء من النفقات العائدة للراسمال ، ولا يجوز ان تكلفه أكثر مما تعيد عليه بتسهيلها تجديد انتاج الراسمال . »

(٢) ص ٨٦ .

(٣) ص ٨٥ .

(٤) ص ٨٥ - ٨٦ . « ما هو قوام انخلاع الشغل ؟ انه أولا واقع ان الشغل يبقى خارجيا عن العامل ، انه ليس ملكا لكينونته ، وانه بالتالي يؤلف لا تأكيد بل نفي هذه الكينونة ، ان العامل يشعر بانه ليس سعيدا بل بائس ، انه لا يبدل بحرية لا طاقته المادية ولا طاقته الفكرية ، انه يدمر جسده وروحه . لذا فهو لا يشعر نفسه عند نفسه ( في بيته ) الا حين لا يشتغل . الشغل ، بالنسبة للعامل، كدح لا طوعي بل قسري ، ليس تلبية حاجة شخصية بل وسيلة لتلبية حاجات غريبة عنه ، هذا الطابع الغريب الذي هو طابع الشغل بالنسبة اليه يظهر في واقع انه يهرب منه كما يهرب من الطاعون بمجرد ان لا يكون مضطرا اليه . » . انظر ص ٨٩ ، ٥٣٩ .

(٥) ص ٥٤٠ .

فاعليته المبدعة بحرية أكبر (١) .

بما ان العامل مجبر على بيع عمله الذي يصير بالنسبة له عملا مفروضا ،  
بواسطته بدلا من ان يبسط قواه الخلاقة يذبل فيزيائيا وفكريا ، فهو يكره عمله  
ويستفطعه ويهرب منه وكأنه الطاعون بمجرد ان يستطيع الافلات منه .

ينتج عن ذلك انه لا يشعر نفسه حرا الا حين لا يشتغل ، الا في ممارسة وظائفه  
الحيوانية من اكل وشرب وانجاب ، وانه بالعكس في الشغل الذي به من المفروض ان  
يتأكد بصفته انسانا يشعر نفسه منزلا الى مرتبة حيوان ، بحيث عنده ما هو حيواني  
يصبح انساني وما هو انساني يصبح حيوانيا (٢) .

نرى هكذا يتكامل عند العامل مظهرها واثر الشغل المنخلع ، حيث يكون منتج  
الشغل تعين انخلاعه ، بينما يصير الشغل هو الفعل الذي به يتحقق هذا الانخلع .  
ان الشغل المنخلع يحدد ليس فقط علاقات العامل وبشكل أعم علاقات الانسان  
مع الشغل ومنتوجه ، بل أيضا علاقاته مع الطبيعة ، مع كينونته ذاتها ، ومع البشر  
الآخرين .

ان نزع انسانية كل العلاقات الاجتماعية في ظل نظام الملكية الخاصة مردّه ان  
الانسان في هذا النظام لا يستطيع ان يتصرف ككائن حقا انساني . فهو لا يستطيع  
ان يخلق نفسه بنفسه ويؤكد نفسه كإنسان بفاعليته الكونية والحرية ، المتحدة مع  
فاعلية البشر الآخرين ، فاعلا في الطبيعة بغية إعادة انتاجها بكيفية انسانية ومتعرفا  
على ذاته فيها (٣) .

والطبيعة ، بدلا من أن تكون أداة سير الأنسنة هذا الذي يتيح للبشر بلوغ كلية  
كينونتهم باشتراكهم في الشغل ، تصبح ، في نظام الملكية الخاصة والشغل المنخلع ،  
بالنسبة للإنسان عامة ولكن خصوصا بالنسبة للعامل ، عالما غريبا يزداد غرابة كلما  
اتخذت بتحويله لها بشغله طابعا لا انساني ومنعت نفسها عنه كحقل فاعلية حرة  
وكوسيلة بقاء معا في آن (٤) .

هذا النظام يجعل أيضا الإنسان غريبا عن نفسه ، عن كينونته الحقيقية ،

(١) من الخطأ ان نخلص من هذا المدح للعمل الحربي الى الدفاع عن العمل الحربي بوجه عام وادانة  
الصناعة الحديثة من جانب ماركس . فهو يرى في تطور الصناعة السمة المميزة للتطور التاريخي ،  
ولكنه ، اذ يدين أسلوب الشغل المفروض على العمال في النظام الرأسمالي ، فإنه يريد الاستعاضة عنه  
بالشغل الحر الذي يستجيب للطبيعة الانسانية والذي يقترب منه الشغل الحربي .

(٢) ميغا ، ... ، ص ٨٦ .

(٣) ص ٨٨ - ٨٩ .

(٤) ص ٨٤ ، ٨٩ .

مخضعا فاعليته لتلبية حاجاته الابتدائية . واذا يفقد الانسان من جراء ذلك صفاته النوعية - العامة génériques التي تتيح له ان يمارس فاعلية كلية ، فانه يصير ، بعكس دعوته الحقيقية ، فردا معزولا وأنانيا (١) .

ان نظام الملكية الخاصة ، اذ يضع الانسان في خلاف مع طبيعته الخاصة واذا يحرمه من انسانيته ، انما يضعه في تعارض وفي تنازع مع البشر الآخرين . والفرد ، اذ يفصل عن البشر الآخرين الذين يصيرون غريبين عنه ومعادين له ، ينعزل عن الجماعة الانسانية . من جراء ذلك ، بدلا من أن يجد البشر رضاهم وسعادتهم في الشغل المحقق بشكل حر وبصورة مشتركة ، فانهم ينقسمون الى فئات متناحرة (٢) .

هذا الانقسام للبشر الى فئات متناحرة يجد شكله الناجز، في النظام الرأسمالي، في صراع الطبقات الذي يضع البروليتاريا في معارضة البرجوازية (٣) .

ان اعضاء طبقة واحدة ليسوا ، من جهة أخرى ، متحدنين بروابط تضامن الا بالقدر الذي فيه تعارض مصالحهم مصالح الطبقة الاخرى ، اذ ما أن ينقطع هذا التناحر حتى تنكسر هذه الوحدة بالتزاحم القائم بينهم .

محروما من كل فاعلية حرة وبذلك عينه من انسانيته ، العامل مستغل من قبل الرأسمالي الذي ، وان كان لا يشتغل ، يتصرف بمنتوج الشغل حارما العامل منه (٤) . الرأسمالي ، الذي لا يعيش ويزدهر الا بقدر ما يستثمر العامل ، يعيش، بحكم بقائه غريبا عن الشغل ، حياة مختلفة تماما عن حياة العامل ، وهو معاد له بقدر ما هذا الاخير معاد له .

(١) صص ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) صص ٨٩ - ٩٠ . « ان احدى العواقب المباشرة لواقع ان العامل مفصول عن شغله وبذلك عينه عن فاعليته الجوهرية وعن كينونته النوعية - العامة هي انه يصير غريبا عن البشر الآخرين ، مع انفصاله عن كينونته يجد نفسه مفصولا عن الغير ... القول بان الانسان مستلب ازاء نفسه معناه إنه مستلب في الوقت نفسه ازاء الغير وازاء الجوهر الانساني ... ان علاقات الانسان مع نفسه لا تتخذ طابعا موضوعيا وواقعا الا بعلاقاته مع البشر الآخرين . لئن كان يتصرف ازاء منتوج شغله ، ازاء شغله الموضوع ، كما ازاء موضوع غريب ، معاد ، جبار ، ومستقل عنه ، فهذا يأتي من أن رجلا اخر غريبا، معاديا ، جبارا ، ومستقلا عنه ، هو سيد هذا الموضوع . لئن كان يتصرف ازاء نشاطه الخاص كما ازاء نشاط عبودي ، فلانه يجد نفسه في هذا النشاط في خدمة وتحت سيطرة وفسر ونير رجل آخر . » (٣) ص ١١١ .

(٤) ص ٩١ . « بالشغل المنخلع ، يغاق الانسان ، مع خلقه علاقاته مع شغله وانتاجه في شكل بشر هم غريبون عنه ومعادون له ، علاقات هؤلاء البشر مع شغله وانتاجه وكذلك علاقاته هو مع هؤلاء البشر . في الوقت الذي يجعل فيه من انتاجه الفراغ ذاته من الانسانية ومن الماهية ، ينبج حكم غير المنتج على شغله وانتاجه ، في الوقت الذي فيه يخلع فاعليته هو ، يعطي لغير القدر على تملك فاعلية ليست فاعليته » .

هذا التعارض بين الرأسمالي والعامل يستفحل بتطور تقسيم الشغل الذي يحفظ للبرجوازية الفاعلية الفكرية ويفرض على الطبقة العاملة بأن لا تقوم إلا بأعمال محض مادية فيخلق بين الاثنين حاجزا وهوة لا يمكن تخطيها .

نرى هكذا كيف أن منظومة الملكية الخاصة بوضعها البشر في تعارض متبادل تدمر الاشتراك الانساني وتحول دون تعاون منسجم بين البشر .  
في هذا النظام الذي يكبت ويخنق عند جميع البشر الحاجة الجوهرية الى أن يكون الانسان انسانا بالتنام والى أن يتأكد كإنسان بفاعليته ، تفقد الحاجات طابعها الانساني .

فموضوع الانتاج ليس بالواقع الاغتناء المتبادل للبشر بتلبية حاجاتهم الحقيقية بل الريح الذي يمكن أن يوفره (١) . ينتج عن ذلك تدهور مرتبة جميع الحاجات تحت حاجة المال التي تغدو الحاجة الاساسية ، المقررة والمحددة لكل الحاجات الاخرى . هذا يتترجم في تراكم عملاق ، متسارع ، للرأسمال المالي ، هو قانون النظام الرأسمالي (٢) .

ان اخضاع البشر لهذا التعطش الى الريح والمال يدفع الرأسمالي ، الباحث عن مستهلكين ، الى ان يشير عند هؤلاء حاجات مصطنعة يصيرون عبيدها وضحاياها (٣) . عند البروليتاريين ، الذين هم بالنسبة له مصدر ربح كمنتجين أكثر منهم كمستهلكين ، يسمى الرأسمالي بالعكس الى تقليص الحاجات الى الحد الاقصى ، لان هذا التقليل يسمح بتخفيض مناسب لاجورهم . هكذا ، ان عطش الريح يحدد ، بصدد الحاجات ، خطة مختلفة لدى الرأسمالي حسبما يتعلق الامر بالبرجوازيين أو بالبروليتاريين . في حين انه يعول على زيادة وتنعيم الحاجات عند البرجوازيين ، نراه يعول على تخفيض الحاجات الى الحد الأدنى كما وكيف عند العامل ، الامر الذي يؤول نزاع عام لانسانية الحاجات في كل طبقات المجتمع (٤) .

(١) صص ١٢٨ - ١٢٩ . (٢) ص ١٢٧ . (٣) ص ١٢٧ .

(٤) صص ١٢٨ - ١٢٩ . هكذا يندد ماركس بنزع انسانية العمال عن طريق هذا التقليل لحاجاتهم . « حتى الحاجة الى الهواء الطلق تكف عن كونها حاجة طبيعية عند العامل الذي يعود الى السكن في الاوكار التي باتت الآن تسممها الانفاس النتنة للمدينة ، وهي اوكار هو من جهة أخرى لا يشغلها الا بصورة عابرة ويمكن ان يطرد منها في اية لحظة اذا لم يدفع الاجار . السكن الوضاء الذي مجده برومبيوس ، في اسبيلس ، بوصفه احدى الهبات الكبرى التي بها حول التوحش الى انسان ، يكف عن كونه حاجة انسانية . الهواء ، النور ، النظافة الحيوانية الأكثر ابتدائية ، تكف هي أيضا عن ان تكون حاجة للانسان . الوسخ ، هذا الانحلال وهذا التفتن للانسان ، فنتاس ( بالمعنى الحرفي للكلمة ) الحضارة ، يصبح عنصر حياته ... حواسه تفقد كل صفة انسانية بل وحيوانية . نرى عودة اساليب وادوات الشغل الأكثر فظافة ، مثل الطاحون التي كان العبيد الرومان يحركونها باقدامهم ... ليس فقط لم يعد للانسان حاجات انسانية بل لم يعد له حاجات حيوانية . هكذا فان حاجة الاكل عند الايرلندي هبطت الى حاجة اكل بطاطا من اسوأ نوع » .

كل ما يتخطى عند العامل الحاجة الاكثر بدائية يظهر له جديرا بالادانة وهو يذهب مع مالتوس الى شجب الانجاب بوصفه ترفا عنده (١) .

هذا الافتراق في الموقف لدى الراسماليين ازاء الحاجات يعطل الاحكام المتناقضة التي يصدرها الاقتصاديون بصددھا . فبينما بعضهم مثل لودرديل ومالتوس يوصي بالبذخ ويشجب الوفر ، بعضهم الآخر مثل ريكاردو يشجب البذخ ويدعو الى الوفر . بالواقع - يقول ماركس - لا يمكن ان نوصي بالبذخ دون ان نسهل في الوقت نفسه التوفير الذي هو وحده يتيح تراكم الراسمالي اللازمة لتطور الصناعة ، كما ان تطور التوفير لا يمكن ان يحصل بدون تسهيل البذخ الذي بدوره يبقى قسم من الانتاج دون تصريف (٢) .

الاتجاه الغالب في النظام الراسمالي هو في الواقع الاتجاه الذي يدفع الى التوفير . في هذا النظام ، ان الانسان ، محركا برغبة الحصول على راسمال وجني ربح مثمر منه ، يوفر على كل شيء ويصنع مالا من كل شيء ، حتى من الحب والفضيلة (٣) . كتعويض عن التضحيات التي يفرضها على نفسه ، يعيش صاحب الوفر في امل القدرة على الحصول على كل شيء بفضل المال الذي كدسه ، وهذا بالواقع خديعة ، لان القيم الانسانية الحققة لا يمكن الحصول عليها بالمال .

في تقريرهم للتوفير ، يذهب الاقتصاديون الى دعوة العمال الى وضع وفر في صناديق التوفير مقدمين ذلك على انه مثل أعلى، بغية حثهم على تقليص حاجاتهم اكثر ايضا ، وهذا في نظام يملك فيه العامل ما يكفي وحسب كي لا يموت من الجوع (٤) . هذا الدفاع عن التوفير يستجيب للطابع العميق للنظام الراسمالي الذي لا يعترف الا باله واحد : المال .

بالقابلية البيعية العامة التي يولدها وبالسطة الممنوحة له ، يشكل المال ، في هذا النظام ، رمز الانخلاع الانساني بسيطرة الاشياء على الانسان .

اذ يحلل طابع ودور المال ، يبين ماركس ان المال في منظومة الملكية الخاصة هو وسيط التبادلات وبذلك عينه وسيط العلاقات بين البشر (٥) . ان دور الوسيط هذا آيل اليه لان السلعة ، اذ تفقد فيه كل تحديد كفي ، كل تعيين لصفة ، تصير محض عملة تبادل (٦) .

(١) ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٢) ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٣) ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٤) ص ١٣٠ .

(٥) ص ١٤٥ .

(٦) ص ٥٤٠ .

اذ يحكم ويسود على الاشياء والبشر واذ يصلح بلا فرق لاي استعمال ، المال  
يزيف العلاقات الاجتماعية جاعلا كل شيء قابلا للبيع والشراء ومقيما بذلك عينه بين  
البشر علاقات تقف عقبة امام روابطهم الحقيقية (١) .

بوصفه وسيطا كليا للتبادلات ، يظهر المال للوهلة الاولى رابطة عامة بين  
البشر (٢) ، بالواقع يقسمهم ويضع بعضهم في معارضة بعضهم بشهوة الثروات التي  
يولدها والتي تدمر كل علاقة انسانية حقيقية . ان العلاقات الحقبة بين البشر ، التي  
يجب ان تكون تبادل قيم انسانية ، الحب مبادلا بالحب ، الثقة بالثقة ، منتوجات  
الروح والفن بمنتوجات الروح والفن ، تزيف وتقلب بسيطرة المال التي تجعل ان  
منتوجات الفاعلية الانسانية لا تقدر الا كقيم تبادل (٣) .

بفضل السلطة التي يمارسها على الاشياء ، يسهل المال اشباع الحاجات الزائفة  
ويحول بالمقابل دون اشباع الحاجات الحقبة . هكذا يسمح للفني بان يحصل ، على  
الاقل ظاهرا ، على قيم انسانية حقيقية ، كالموهبة والحب ، لا يشتري بالواقع سوى  
ظلالها الشبحية ، بينما لا يستطيع الفقير ان يقيم صفاته (٤) .

بما ان له القدرة على تملك الاشياء وعلى نقل هذه القدرة الى من يحوزه ، يظهر  
المال سلطة الهية وهو فعلا الاله الواقعي للمجتمع البرجوازي ، الاله الذي فيه يخلع  
الانسان جوهره والذي يهيمن عليه (٥) .

ان النظام الرأسمالي ينبغي ، مع الانخلاعات الاجتماعية ، انخلاعات ايدولوجية :  
دين ، فلسفة مثالية ، اخلاق ، حقوق ، نتيجتها تعزيز هذا النظام ، يجعلها مقبولة  
ومسموحة الانخلاعات الاجتماعية وبتقديمها للمستغلين تعويضات وهمية غرضها  
تدارك ثورتهم .

بين هذه الانخلاعات ، اهمها الانخلاق الديني المتولد من الانخلاق الاجتماعي .

(١) في وصفه لانار المال ، يورد ماركس مقاطع من فاوست ل غوته ومن تيمون ل شكسبير ( انظر  
المرجع نفسه ، ص ١٤٦ ) ، حيث المال في شكل الذهب يظهر قوة شريفة وملعونة . هذا المظهر الميتافيزي  
للمال يختفي عند ماركس الذي يكتفي بتحليل دوره الاقتصادي والاجتماعي .  
(٢) المرجع نفسه ، ص ١٤٧ .

(٣) ص ١٤٩ . « اذا وضعنا الانسان كائنات وعلاقاته مع العالم كعلاقات انسانية ، عندئذ لا يمكنه ان  
يبادل الحب الا بالحب والثقة بالثقة . اذا كنت تريد ان تتمتع بالحب يجب ان تكون فنانا ، اذا كنت تريد  
ان تمارس نفوذا على البشر يجب ان تكون قادرا على حفرهم . كل من علاقاتك مع البشر الاخرين ومع  
الطبيعة يجب ان تكون تجليا محددا لحياتك الفردية يستجيب لموضوع ارادتك . اذا كنت تحب دون ان  
تكون محبا ، اذا كان حبك لا يوقظ الحب ، اذا كنت باظهار حياتك بوصفك محبا لا تجعل من نفسك كائنا  
محبوبا فان حبك يبقى عاجزا ويكون لك شقاء » . انظر ص ٥٣١ .

(٤) ص ١٤٧ ، ١٤٩ .

(٥) ص ١٤٧ - ١٤٨ .

ثمة بين الاستلاب الاجتماعي والاستلاب الديني تضامن عميق ، عبودية البشر المادية للمال يستجيب لها على الصعيد النظري خضوعهم الديني . فالدين ، بتقديمه العبودية والبؤس المتولدين من النظام الرأسمالي على أنهما نتيجة للارادة الالهية وبعرضه كتعويض عنهما وعد سعادة في عالم ما - بعد ، يوطد العبودية الاجتماعية بالخضوع غير المشروع لله وهكذا يسهم في إبقاء هذا النظام (١) .

الفلسفة المثالية تنتهي الى نتيجة مماثلة باعادتها فاعلية البشر الواقعية الى فاعلية روحية وبتحويلهم هكذا عن العمل الثوري .

الاخلاق البرجوازية والحقوق البرجوازية تلعب دورا مشابها لدور الدين ، الاخلاق بتلقينها المستغلين احترام الملكية الخاصة ، والحقوق بتلقينهم احترام الدولة البرجوازية التي تقوم بدور الدفاع عنها (٢) .

الانخلاعات الايديولوجية التي تكمل وتقوي الانخلاعات الاجتماعية تغذيها بعناية الطبقات المالكة التي تستخدمها كأداة سيطرة واضطهاد .

### الشيوعية

من نقد المنظومة الرأسمالية ، التي تجعل من الشغل سرورة انخلاع دائمة ، يخلص ماركس الى ضرورة الفائها والاستعاضة عنها بمنظومة شيوعية بوصفها شرطا ضروريا لاعادة تأنيس الانسان .

ان خلق هذه المنظومة ، التي تشترط تحويلا جذريا للنظام الاقتصادي والاجتماعي ، ليس مسألة نظرية محضة بسيطة ، بل هو قبل كل شيء مسألة عمل ، مسألة ممارسة . فهو لن يحصل لا بصورة اوتوماتيكية ولا بطريق النقد وحدها ، بل سيكون نتاج العمل الثوري للبروليتاريا (٣) .

فقط بالفاء الملكية الخاصة الفاء جذريا سيكون ممكنا قيام الجماعة الانسانية الحقة التي فيها سيحقق الانسان كينونته بفاعليته الكلية والحررة .

بدلا من ان يضع على طريقة الطوباويين اعادة تأنيس الانسان كمسلمة اخلاقية ، ماركس يعتبرها النتيجة الضرورية لتطور النظام الرأسمالي الذي يدمر نفسه بحكم

(١) ص ٩١ ، ١١٥ .

(٢) عن الاخلاق البرجوازية ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٣) ص ١٣٤ . « لحذف فكرة الملكية الخاصة بالفكر يعني مفهوم الشيوعية تاما . بالمقابل ، ان حذف الملكية الخاصة الفعلي يشترط عملا شيوعيا واقفيا . هذا العمل سيكون من واقع وصنع التاريخ . ان التطور الجدلي للملكية الخاصة ، التي نعلم انها تميل الى الفاء نفسها بنفسها ، سيكون سرورة طويلة وشاقة . ولكن يجب ان نعتبر بمثابة تقدم فعلي واقع اننا اخذنا من الان كامل وعي مسيرة التاريخ الضرورية وهدف تطوره » .

تناقضاته ، نتيجة سيورة جدلية تعقب وتعارض سير نزع الانسية المتولد من نظام الملكية الخاصة (١) . ان المنظومة الرأسمالية، حيث التعارض بين الفقر والثروة يتخذ شكل تعارض بين الشغل والرأسمال ، تخلق بنفسها شروط الفائها ، بتوليدها صراع الطبقات بين البرجوازية والبروليتاريا . هذه الاخيرة مضطرة الى تدمير نظام الملكية الخاصة كي تتحرر وتحرر معها كل المجتمع (٢) .

بهذا التصور الذي يرى ان حركة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي تولد نزع انسانية الانسان تقود الى اعادة تأنيسه ، يصل ماركس الى مفهوم التطور الجدلي للتاريخ وبذلك ذاته الى الاشتراكية العلمية ، التي تسمح له بأن يعرف ، مع شروط الفاء انظام الرأسمالي ، دور البروليتاريا الثوري ، وبأن يرشدها في عملها التحريري .

وهذا يقوده الى رفض الشيوعية الطوباوية التي تضع رؤية مثالية للانسان في معارضة نزع انسانيته في النظام الرأسمالي ، بدون ان تبين كيف ان هذا النظام يخلق بنفسه شروط التحرر الانساني . كذلك يرفض الاشتراكية الاصلاحية التي يفصح جهودها الوهمية للتوفيق بين الطبقات المتناحرة . يؤيد ضد هذه الاشتراكية الاصلاحية ضرورة الفاء الملكية الخاصة الفاء جذريا ، فالاحتفاظ بالملكية الصغيرة الذي تنادي به الاشتراكية الاصلاحية يتضمن الحفاظ على الانحلال (٣) .

يبين لا جدوى هذه الاشتراكية بمثال برودون ، مع انه ما يزال يضعه على نفس المستوى مع سان سيمون وفوريه ، ويعترف له بمأثرة انه فتح ، بتحليله الملكية الخاصة ، طريق نقد جذري لهذه الاخيرة . بما ان برودون لم يدرك العلاقات بين الملكية الخاصة والشغل المنخلع ، لذا لم يستطع ان يدفع في العمق نقده للاقتصاد السياسي وانساق هكذا الى اقتراح اصلاحات غير كافية وغير مؤثرة (٤) .

(١) ص ١١٤ . « من السهل ان نرى كيف ان الحركة الثورية تجد قاعدتها الواقعية والنظرية على حد سواء في تطور الملكية الخاصة ، في تطور الاقتصاد » . ص ١١١ .

(٢) ص ١١١ . « طالما لا يتخذ شكل تعارض بين الرأسمال والشغل، ان التعارض بين الملكية والحرمان منها لا يرتدي بعد طابع تناقض ، تعبير التعارض الفاعل الناجم عن علاقتهما » . انظر ص ٩٢ - ٩٣ . « ينجم ، بالاضافة الى ذلك ، عن العلاقة بين الشغل المنخلع والملكية الخاصة ، ان تحرر المجتمع من الملكية الخاصة والعبودية يتخذ شكل تحرر الطبقة العاملة السياسي . في نهاية الحساب هذا ليس تحرر الطبقة العاملة فقط . فتحريها يقتضي ويتضمن تحرر كل البشر ، لان كل اشكال العبودية الانسانية تنجم عن العلاقات التي تقوم بين العامل وانتاجه وهي ليست سوى تلونات وعواقب لهذه العلاقات » . (٣) ص ١١١ .

(٤) ص ٩٢ . « الاقتصاد السياسي ينطلق من الشغل بوصفه العنصر المكون للنتاج ، ولكنه مع ذلك لا يعطي الشغل شيئا ويعطي الملكية الخاصة كل شيء . واذا شدد برودون على هذا التناقض فقد اعلن نفسه مع الشغل ضد الملكية الخاصة . اما نحن فنعتبر ان هذا التناقض الظاهر يفصح في الواقع عن

ماركس يرفض ايضا الشيوعية البدائية والعامية التي تضع لنفسها كهدف لا تدمير بل تعميم الملكية الخاصة بتوزيعها توزيعا متساويا (١) .  
 أجل تريد هذه الشيوعية حذف نظام الملكية الخاصة بتوزيعها بين الجميع ، ولكن هذا التعميم للملكية الخاصة الذي يجعل من الشغل كما هو الحال في النظام الرأسمالي وسيلة حصول اناني على الثروات وليس تعبير الفاعلية الخالقة التي بها يؤكد الانسان انسانيته ، بعيدا عن الفاء الانخلاع لا تفعل سوى تعميمه (٢) .  
 هذا التوزيع العام للملكية الخاصة في الشيوعية المبذلة ، الذي يستجيب لشهوة انانية للخيرات المادية ، هو نتيجة الروح الحاسدة والمسوية التي تطبع هذه الشيوعية (٣) .

هذا التعطش الى خيرات مادية يجد شكله الاكثر خزيا في اشتراكية النساء التي تحول الزواج الى دعارة عامة (٤) . اذ يعتبر ، مع فوريه ، تحرير المرأة مقياس التحرر الانساني ، يستخدم ماركس اقسى الالفاظ للتنديد بهذا الاذلال للمرأة (٥) .  
 هذا الاتجاه المساوي والمساوي للشيوعية المبذلة يستتبع عودة الى الحياة البدائية والمتقشفة وبالتالي انحدارا للحضارة . فالشيوعية التي تعتبر الحصول على خيرات مادية هدف الحياة الجوهري تخنق بالفعل انبساط الشخصية الانسانية بحذفها تجريديا الموهبة والحاجة الى الثقافة (٦) .

ويميز ماركس شكلا آخر للشيوعية ، يرمي الى اقامة النظام الشيوعي بتحويل للدولة او بالفائها دون ان يرى ان اقامة هذا النظام له كشرط ضروري لا اصلاح سياسي بل حذف الملكية الخاصة (٧) .

الاشتراكية الاصلاحية والشيوعية المبذلة يعارضهما ماركس بالشيوعية الحققة

»»»→

التناقض الملازم للشغل المنخلع وان الاقتصاد السياسي لم يفعل سوى التصريح بقوانين الشغل المنخلع .  
 انظر ص ٤٦ . « تلك هي الاخطاء التي يرتكبها المصلحون بالفرق الذين يريدون تحسين نصيب الطبقة العاملة بزيادة الاجور او الذين يعتبرون مثل برودون ان تساوي الاجور هو هدف الثورة الاجتماعية » .  
 انظر ص ١٣٨ .

(١) في رسالة الى روجه بتاريخ ايلول ١٨٤٣ ( ميغا ، ج١ ، ص ٥٧٧ ) سبق لماركس ان اخذ على هذه الشيوعية بقاها مطبوعة بروح الملكية الخاصة .

(٢) انظر ص ١١١ - ١١٢ ، ١١٣ . « ان اول حذف واقعي للملكية الخاصة في شكل الشيوعية الفظة ليس هكذا سوى تظاهر لسفالة الملكية الخاصة التي تزعم تجسيد الجوهر الانساني » .

(٣) ص ١١٢ .

(٤) ص ١١٢ .

(٥) ص ١١٣ .

(٦) ص ١١٢ .

(٧) ص ١١٣ - ١١٤ .

التي ستؤدي الى اعادة أنسنة الانسان بتفتح طبيعته الكلية .  
يتصور الشيوعية الحققة على انها نهاية ما - قبل - تاريخ الانسان ، ما - قبل -  
التاريخ الذي ، مع خلعه الانسان ، خلق شروط حذف انخلاءه (١) .

ان الشيوعية الحققة ، التي يشير ماركس الى ملامحها العامة بدون ان يدخل  
مثل الطوباويين في تفصيل تنظيمها ، ستستعيز عن المنظومة الرأسمالية بمنظومة  
ملكية جماعية ، تجعل من انبساط طبيعة الانسان الكلية موضوع فاعليته . ومن جراء  
ذلك ، ليست الشيوعية الحققة منظومة انتاج جديدة فقط ، انما تمثل قبل اي شيء  
تنظيما اجتماعيا جديدا فيه ستلقى كل الاستلابات .

في الشيوعية الحققة ، يستهدف الانتاج لا محض التحول التقني للعالم بل تلبية  
كلية الحاجات الانسانية ، حيث الحاجة الجوهرية للانسان الذي صار اجتماعيا تماما  
هي حاجة كل انسان للبشر الآخرين ، من اجل اغتناء متبادل (٢) .

ان الشيوعية الحققة لا تعني ، كالشيوعية الفظة ، رجوعا الى الحياة البدائية  
والزهديّة وتخلياً عن كل ما تم اكتسابه خلال التاريخ على الصعيد المادي والثقافي .  
ليس فقط ستحتفظ بكل التقنيات وبكل الخيرات المبدعة حتى ذلك الحين ، بل  
ستبسط وتطور الى ما لا نهاية العالم المؤنس بواسطة تنظيم عقلي للانتاج الموضوع  
في خدمة الانسان (٣) .

هذا التنظيم العقلاني للانتاج سيحذف مع المزاحمة الكساد والازمات ، سوق  
الشغل ، حيث يبيع العامل نفسه كسلعة ، والفرق بين صفة المنتج المصنوع وصفة  
الانسان الذي يصنعه . انه سيعطي ، بالفاء انخلاء الشغل ومنتوجه ، كل منتج  
معادل القيم المادية والثقافية الذي يمثله انتاجه ، وهكذا سيؤمن لكل انسان نمط  
حياة انسانية .

---

(١) ص ١١٤ .

(٢) ص ١٢٣ . « نرى كيف ، في مكان الثروة والفقر مفهومين من وجهة نظر الاقتصاد السياسي ،  
يظهر الانسان الثري كليا وثروة الحاجة الانسانية . الانسان الفنى هو في الوقت نفسه هذا الذي له حاجة  
عميقة الى جملة تجليات الحياة الانسانية ، الذي يعانى هذا الاسلوب في تحقق كينونته كحاجة داخلية ،  
كضرورة . ليس فقط الفنى بل ايضا الفقر تحت شكل هذه الضرورة يتخذان في الاشتراكية مدلولاً  
انسانيا وبالتالي اجتماعيا . هذا الفقر يشكل الرابطة التي توحد مع البشر الآخرين ، بجعله يعانى  
كحاجة ثروته الحقيقية التي هي بالنسبة له البشر الآخرون . هذه السيطرة في ذاتي لكينونتي الموضوعية  
التي هي الجماعة الانسانية . وهذا التظاهر لهذه الكينونة يجدان تعبيرهما في شكل الانفعال - الهوى الذي  
هو هنا اسلوب فاعلية كينونتي » .

(٣) ص ١٦٧ . « لكن اللاهية ( الالحاد ) ، الشيوعية ، لا تؤلفان نفي ، ضياع العالم المخلوق من  
قبل البشر ، لا تؤلفان نفي وضياع موضوعة قواهم الماهوية ، برجع الى البساطة البدائية المضادة للطبيعة  
الانسانية . بالعكس انهما للانسان التحقيق الواقعي الحق لكينونته الواقعية » .

الاستهلاك ايضا سينظم بشكل عقلائي . فالتملك لن يحصل في معنى احتكار خيرات مادية بقتة اقتناء اناني ، بل سيكون هدفه الاغناء العام للانسان . في توزيع الخيرات التي ستستخدم على النحو الافضل لصالح الجماعة ، لن يكون الامر كما في الشيوعية المبتذلة توزيعا متساويا لاشباع رغبات انانية ، بل سيكون مشاركة لجميع البشر في القيم المادية والروحية .

بهذا التنظيم العقلي للانتاج والاستهلاك ، سيستطيع البشر ان يتطوروا بشكل حر ومليء ومنسجم . فسيكون هناك تماثل بين الفرد والمجتمع الذي ، بكفه عن كونه تنظيما فوق الافراد وبالتالي حدا يحد انبساطهم وتطورهم ، سيكون دائرة تفتح شخصيتهم المليء . بما ان الملكية الجماعية ستزيل ، مع التمييز بين مالك ومالي ، التعارض بين الافراد ، فان الانسان المحرر من رغبة الاستغلال والتمتع الاناني سيصير هو نتاج شغله الذي حرر هو ايضا ، وسيعيش في انسجام مع الطبيعة ومع نفسه ومع البشر الآخرين .

ماركس يصف على النحو الآتي اسلوب حياة البشر في النظام الشيوعي : « لنفترض اننا أنتجنا بوصفنا بشرا حقيقيين . كل منا سيكون في انتاجه قد اكد بشكل مزدوج شخصيته وشخصية الغير . ١ ) بما انني حققت عيانيا في انتاجي شخصيتي ، فقد تمتعت بفاعليتي كتعبير عن شخصيتي ، وبألملي الموضوع الذي خلقه عملي ذقت لذة رؤية شخصيتي محققة عيانيا وماديا فيه . ٢ ) من جهة اخرى بما انك تتمتع بمنتوج شغلي باستخدامك اياه ، لدي وعي كوني اشبعت بعلمي حاجة انسانية ، كوني بتحقيق كينونتي عيانيا اشبعت حاجة انسان آخر مقدما له موضوعا يستجيب لها . ٣ ) لدي ايضا لذة كوني بهذا الموضوع قمت بدور الوسيط بينك وبين الجماعة الانسانية ، كوني اكملت ، وسعت كينونتك انت ، كوني أعتبر جزءا لا يتجزأ منك ، وكوني هكذا أشعر نفسي مثبتا في فكري وفي عملي . ٤ ) لدي أخيرا ، بتحقيقي عيانيا فرديتي وفرديتك معا ، سعادة كوني حققت بفاعليتي كيانتي الحق ، كينونتي النوعية العامة . كل من انتاجاتنا مرآة فيها تنعكس كياناتنا ، وفي سيرورة الاناج هذه ثمة تبادل سلوك .

لننظر الآن الى مختلف عناصر هذه السيرورة . ان شغلي الحر ، تعبيري حياتي ، يتيح لي التمتع بهذه الحياة ، في حين أنه هو في نظام الملكية الخاصة يشكل استلابها ، فبما انني في هذا النظام لا اشتغل الا لتأمين بقائي حصرا ، لذا فان شغلي لا يتطابق هنا مع حياتي . اما حين يكون الشغل تأكيد وتظاهر حياتي الفردية فانه يكون تعبيري شخصيتي ، خاصتي الحقيقية ، ملكي الحق ، في شكل الفعل - العمل . بالعكس ، في نظام الملكية الخاصة ، ان فرديتي منخلعة لدرجة ان فاعليتي كريمة بالنسبة لسي ، انها بالنسبة لي عذاب ، اذ ليس لها سوى مظهر فاعلية حقيقية وهي بدلا من ان

تنجم عن حاجة داخلية مفروضة علي . في الموضوع يتجلى الطابع العميق للفاعلية الانسانية التي لا يمكن ان تظهر فيه على غير ما هي عليه . لذا فان الموضوع ليس في نظام الملكية الخاصة سوى التعبير العياني المحسوس الجلي لانخلاع كينونتي ، لعجزي . (١) » .

بما ان البشر يكفون في الشيوعية الحققة عن ملاحقة غايات انانية ، فان رغبة الملكية الشخصية تختفي ومعها التعارض بين الافراد . سيقوم اتحاد بين الفرد والمجتمع ، الامر الذي سيجلب مع الفاء انقسام المجتمع الى طبقات متناحرة حذف الصراعات الطبقيّة والدولة السياسية بوصفها أداة سيطرة واضطهاد .

في الوقت نفسه ستحول العلاقات العائلية ، لا كما في الشيوعية المتبدلة بجماعية النساء ، بل لان الزواج سيفقدو اتحاد كائنين حرين سيجدان فيه اغناء متبادلا (٢) . اذ لا يعود الانسان يخلق قواه في الموضوعات التي يخلقها ، فانه سيجد نفسه في منتج شغله . بتعيين كينونته في الانتاج ، الطبيعة التي تكف عن كونها بالنسبة له عالما خارجيا وغريبا تأنسن ، والانسان الذي يصير اجتماعيا تماما باغتائه عن طريق شغله بأعمال البشر الآخرين واغتنائهم بأعماله في أن يتصالح مع نفسه ومع الجماعة . بما أن إعادة تأنسن الانسان تتطلب حذف جميع الانخلاعات ، لذا ليس الانخلاعات المادية فقط بل ايضا الانخلاعات الايدولوجية ولا سيما الدين ستلغى في المجتمع الشيوعي . ان حذف العبودية المادية التي يخضع نظام الملكية الخاصة الانسان لها ، سرافقه حذف العبودية الروحية التي يخضعه الدين لها ، الاول سيكون عمل الشيوعية ، الثاني عمل الاتحاد الذي بنفيه الاله يعطي الانسان وعي طبيعته الحققة (٣) .

---

(١) ص ٥٤٦ - ٥٤٧ .

(٢) ص ١١٣ . « في علاقاته مع المرأة ، الصائرة فريسة وموضوع الشبق الجماعي ، يتجلى انحدار الانسان - الرجل انحدارا لا حد له ... ان العلاقة بين الرجل والمرأة تبين الى اي درجة تأنسن الانسان ، لانها العلاقة الانسانية الاكثر طبيعية ... هذه العلاقة تبين الى اي حد ... صار القريب حاجة للانسان وبالتالي الى اي حد صار الانسان في وجوده الفردي كائنا اجتماعيا » .

(٣) ص ١١٥ . « ان الحذف الايجابي للملكية الخاصة بنتيجة تملك الانسان لكينونته ، لحياته ، يتضمن ايضا الحذف الواقعي لكل الانخلاعات ، وبذلك ذاته تحرر الانسان من الدين ، من العائلة البرجوازية ، ومن الدولة ، ببلوغه وجودا انسانيا ، اي اجتماعيا . الاستلاب الديني يحصل في ميدان الوعي ، بينما استلابه المادي ، الاقتصادي ، هو استلاب حياته الواقعية ، ان حذف الاستلاب الانساني يفترض هكذا حذف هذين الشكلين للاستلاب » . انظر ايضا ص ١٦٧ - ١٦٨ . ان الفناء الديني لا يمكن ان يكون بالنسبة لماركس نتيجة مقاضاة فكرية محضة ، اذ انه يشترط الفناء اساسه الواقعي ، نظام الملكية الخاصة . لذا فهو ينتقد الاتحاد النظري المحض الذي لا يرمي الى تحويل العالم تحويلا فعليا . انظر ايضا ص ١١٥ . « ان فيلاتنروبية ( حب البشر ) الاتحاد ليست بادىء بسوء سوى فيلاتنروبية فلسفية ، مجردة ، اما فيلاتنروبية الشيوعية فهي بالمعكس ترمي بصورة مباشرة الى عمل فعلى على العالم » .

مع الاستلاب الديني سيلقى الاستلاب الاخلاقي والاستلاب الحقوقي ، فالاخلاق والحقوق البرجوازية ستحل محلها اخلاق جديدة وحقوق جديدة تستجيب لطبيعة الانسان الحققة .

في المجتمع الشيوعي ، حيث سيصير الانسان اجتماعيا تماما ، لن يكون هناك تعارض بين الجوهر والوجود ، بين الذات والموضوع . يتموضعه في الطبيعة التي ستصير بذلك عينه انسانية ، سيجد الانسان في موضوعه كينونته الحقيقية ، هويته الاجتماعية ، بحيث انه سيحقق وحدة عضوية بين الذات والموضوع وان جوهر الانسان سيتطابق مع وجوده .

في الشيوعية التي تجعل هكذا من الطبيعة واقعا انسانيا ومن الانسان مقياس العالم ، يرى ماركس التحقق الواقعي للمسيء للمذهب الانساني : « ان الشيوعية ، بوصفها التملك الواقعي من قبل الانسان ومن اجل الانسان لكيثوته بالالفاء الفعلي للملكية الخاصة والانخلاع الانساني ، هي عودة الانسان التامة الى نفسه بوصفه كائنا اجتماعيا ، عودة تتحقق بالتملك الواعي لكل الثروات التي خلقها عبر التاريخ . هذه الشيوعية ، التي هي في آن معا « طبعة » الانسان المليئة بتعين كينونته في الطبيعة و « تانس » الطبيعة الكامل ، تعطي الحل الواقعي للنزاع الذي يضع الانسان في معارضة الطبيعة ومعارضة البشر الآخرين وللتناقض الذي يضع الطابع الموضوعي لتعيين الكائن الانساني في معارضة الطابع الذاتي لفاعليته ، والحرية في معارضة الضرورة ، والفرد في معارضة النوع الانساني . انها حل لغز التاريخ وهي تعي انها حله (1) . »

### « البراكسيس » وانضاج التصور المادي للعالم

بتحليله النظام الرأسمالي والشيوعية ، كان ماركس يصل الى تصور جديد للتاريخ المنظور اليه في شكل تطور جدلي للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية . هذا التحليل ، الذي كان يقوده الى فهم الاممية المقررة لتطور الانتاج في تحول المجتمعات وبالتالي في سير التاريخ ، كان يحدد تغيرا جذريا في تصوره للعالم . هذا التغير كان متمحورا على الدور الرئيسي الذي بات الآن يسنده الى الشغل ، الى الفاعلية العملية ، الى « البراكسيس » في الحياة البشرية . الدراسة المتعمقة للشغل المنخلع ولدوره في النظام الرأسمالي ، التي كانت تبين له بوضوح متزايد اهمية الشغل الحاسمة في التطور الاقتصادي والاجتماعي ، كانت تسوقه الى ان يستعيض ، كتصور مركزي ، عن فكرة الانخلاع بفكرة « البراكسيس » .

ان فكرة الانخلاع ، التي كانت تسمح له بفضح الطابع الانساني للنظام الرأسمالي وتحليل تناقضاته ، كانت تظهر أقل قدرة من مفهوم « البراكسيس » على ان تخدم كأساس لانضاج تصور جديد للعالم ، ايدولوجيا البروليتاريا الثورية . ليس فقط كان تصور الانخلاع ، بجعله يرفض نظرية القيمة لريكاردو ، يمنعه من ان يصل ، كما سيصل فيما بعد ، بانماء هذه النظرية ، الى مفهوم القيمة الحقيقي والى مفهوم فضل - القيمة ، اللذين يتيحان فهما افضل بكثير لتشكل الملكية الخاصة وتناقضات النظام الرأسمالي واستغلال العامل في هذا النظام ، بل كان يقود ، بالتعارض الذي يقيمه بين الانسان « المنخلع » جامع كل الطبقات الاجتماعية في النظام الرأسمالي والانسان « الحقيقي » ، الى تصور عام للانسان ما يزال قريبا الى حد لا بأس به من الفكرة الفويرباخية ، تصور يخفف ويحجب التعارضات والصراعات الطبقيّة .

من فكرة « البراكسيس » اي من فكرة ان تطور الانتاج يحدد تطور المجتمع وبالتالي سير التاريخ ، كان ماركس يخرج ويبلور تصورا ماديا ، جدليا وتاريخيا للعالم ، كان يوضحه ويعمقه بتخط مزدوج لهيغل وفويرباخ .

### نقد فويرباخ وهيغل

بعد انطلاقه في نقده الاقتصاد السياسي والمنظومة الرأسمالية من التصور الهيغلي للانسان ، ينقد ماركس هيغل معتمدا على فكرة « البراكسيس » التي كان يخرجها من تحليله هذه المنظومة .

في نقده لفلسفة الحق الهيغلية ، الحاصل سنة ١٨٤٣ ، كان قد فضح فعلا طابعها المثالي ، ولكنه لم يكن قد قام ، كما يقوم في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** ، بنقد عام وأساسي للمثالية الهيغلية (١) .

يبدأ قبل هذا النقد بنقد الهيغليين الشبان الذين - على حد قوله - لم

(١) انظر لـ ماركس : راس المال ، باريس ، المنشورات الاجتماعية ١٩٤٦ . ملحق الطبعة الالمانية الثانية ، ص ٢٩ . « ان طريقيتي الجدلية ليس فقط تختلف بشكل اساسي عن الطريقة الهيغلية ، بل هي معارضة لها على طرفي تقيض . بالنسبة لهيغل ، ان حركة الفكر الذي يجعل منه ذاتا مستقلة تحت اسم الفكرة هي العنصر الخالق للواقع ، الذي ليس سوى تجليها الخارجي . بالنسبة لي ، بالعكس ، العنصر الروحي ليس الا انعكاس العنصر المادي المنقول والموضوع في الدماغ الانساني . لقد فضحت الجانب المصوف الخادع في الجدل الهيغلي ، قبل ما يقرب من ثلاثين سنة ، حين كان لا يزال موضوعة رائجة ... هذا الجانب المصوف في الجدل الهيغلي لا يمنع ان هيغل كان اول من عرض القوانين العامة للتطور الجدلي . عنده الجدل يرتكز على الراس ، يكفي قلبه ووضعه على قدميه لكي تكتشف وراء المظهر المصوف العناصر العقلية » .

ينجحوا ، باستثناء فويرباخ ، في التحرر او الخروج من فلسفة هيغل ، لانهم لم يقوموا بنقد جدله (١) . فقد اكتفوا بعزل بعض عناصر هذه الفلسفة ليجعلوا منها قاعدة مذاهبهم .

هكذا جعل د. ف. شتراوس D.F.Strauss من « الماهية » اي من الطبيعة منظورا اليها بشكل مجرد مبدأ فلسفته ، بينما كان ب. باور B.Bauer يؤسس فلسفته على « وعي الذات » اي على الانسان مقلصا الى حالة تجريد (٢) .

واذ كان ب. باور عاجزا عن تجاوز المثالية الهيجلية ، فقد دفعها حتى الكاريكاتور ، مقيما محل الفكرة الهيجلية التي كانت توحد في ذاتها الذات والموضوع الوعي الكلي الذي يعارض على الدوام العالم ، « الماهية » ، التي ليست سوى تعبيرة الناقص والذي يلغى فيها مع سير خلقه اياها . وب. باور يحول بالواقع هذا التعارض بين الوعي الكوني والعالم الى التعارض بين النقد الخالص ، تجسيد الوعي الكوني والشعب أو « الجمهور » ، ويعيد الى هذا التعارض كل تطور التاريخ (٣) .

بين الهيجليين - الشباب ، فويرباخ هو الوحيد الذي تجاوز الفلسفة الهيجلية ومعها كل فلسفة مثالية ، متخذا اراءها موقف نقد (٤) .

بما ان ماركس يرتكز ، في نقده لهيغل كما في انضاجه لتصوره الجديد عن العالم ، الى حد لا بأس به ، على المبادئ الاساسية لفلسفة فويرباخ ، الذي ما يزال ماركس يشني عليه أعظم ثناء ، لذا من الضروري ان تقدم عرضا قصيرا عن الملامح العامة لهذه الفلسفة ، كي نرى الى اي حد يستلهمها ماركس والى اي حد حذرت من الآن

---

(١) ميفا ، ١ ، ج ٢ ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٣) ص ١٥١ . « حتى بعد ان كان فويرباخ ، في « اطروحات » الاخبار ، ثم بشكل صريح اكثر في فلسفة الاستقلال ، قد حقق مبدئيا قلب الجدل القديم والفلسفة القديمة ، كان هذا النقد ( ب. باور ) عاجز عن تحقيق الانقلاب المذكور الحاصل بدونه ، ملنا نفسه نقدا خالصا ، مطلقا ، بلغ وعي ذاته المليء ، كان يحول ، في غروره الروحي ، كل تطور التاريخ الى العلاقة التي كان يقيمها بين العالم - المدعو من قبله « جهورا » - وذاته ويرجع كل التعارضات الى التعارض بين حكمته هو وحماقة العالم . ملنا بلا توقف سموه في مقابل غياب « الجمهور » ، كان يبشر باقتراب يوم الدينونة ، حيث سيواجه البشرية المنحطة وسيوزع لكل أحد شهادة فقر حاله الروحي ، ثم ينزل عن البشر وعن العالم ، مكتفيا بان يرسل بين حين وآخر من فهم الساخر قهقهة آلهة جبل الاولمب المزدنية . بل ان هذا النقد ، الذي يجسد بمواقفه المضحكة المثالية الهيجلية - الشابة المحتفزة ، لم يفكر بان من الضروري بالنسبة اليه ان يجابه الجدل الهيجلي الذي هو اصله وان يجابه جدل فويرباخ » .

(٤) ص ص ٣٤ ، ١٥١ - ١٥٢ .

يتجاوزها (١) .

بوصفه مفكرا تقدميا برجوازيا ، كان فويرباخ قد انمى النقد المناهض للدين لدى فلاسفة القرن الثامن عشر ووسع هذا النقد الى الفلسفة المثالية . هذه الفلسفة ، على حد قوله ، ترتكز ، مثل الدين ، على قلب لمواقع الموضوع والمحمول ( المسند اليه والمسند ، الذات الحاملة والمحمول ، المبتدأ والخبر ) ، القلب الذي يجعل من الفكرة Idée كائنا الهيا ومن الانسان مخلوقه ، وهي اذن تولد مثل الدين انخلاع الانسان .

بعكس الفلسفة المثالية ، كان فويرباخ يعتبر ان الروح ليست العنصر الخالق بل هي نتاج الانسان وان الانسان العيني ، المفهوم في علاقاته مع الطبيعة ومع البشر الآخرين يشكل مبدأ كل فلسفة حقة . بقلبه هكذا العلاقة المثالية بين الكينونة والوعي ، بجعله الكائن هو الموضوع والوعي هو المحمول ، كان يعارض الفلسفة المثالية بتصور مادي للعالم .

اذ بقي مرتبطا بالنظام الرأسمالي ، بمنظومة الملكية الخاصة ، لم يكن قادرا على تجاوز تخوم وأفق الفكر البرجوازي ولم يكن بالتالي يصل الى الاستعاضة عن المثالية بمادية منسجمة ، تستجيب لمطالبات الفكر الثوري . من هنا تخوم وعيوب ماديته ، وهي التخوم والعيوب المرتبطة جوهريا بكونه يتصور العلاقات الانسانية ، لا كملاقات اجتماعية تحددها صراعات الطبقات ، بل كملاقات عامة للانسان مع الطبيعة ومع البشر الآخرين ، المعبرين تحت هيئة غير متميزة اجتماعيا .

أجل كان يلج على الطابع العياني للانسان والطبيعة والعلاقات الانسانية ، ولكن ، بما انه لم يكن يعتبر الحياة الانسانية من وجهة نظر « البراكسيس » ، الفاعلية الثورية ، التي تحول الانسان والطبيعة معا ، فقد كان مساقا الى ان يرى في الانسان كائنا حسيا ومتأملا وفي الطبيعة موضوع لا عمل بل تأمل .

ان موقفه البرجوازي ، المناهض للثورة ، يعلل في الوقت نفسه مع تصوره للانسان والطبيعة ، طابع ماديته التي بما أنها ليست جدلية ولا تاريخية فهي تبقى مثالية في كل ما يتصل بالمسائل الاجتماعية .

(١) لا يمكن الحديث بطريقة عامة عن العلاقات بين ماركس وفويرباخ ، لان موقف ماركس من فويرباخ قد تغير كثيرا اثناء تطور فكره . في البداية ، يقدر ماركس في فويرباخ بشكل خاص تفنيده للدين على اساس المادية (ميفا ، ج١ - ١ ، صص ١٧٤ - ١٧٥) . ثم ، بعد حذف الصحيفة الرأبئية ، حين طرحت على ماركس مسألة العلاقات بين الدولة والمجتمع وحاول ان يحلها بنقد فلسفة الحق الهيغلية ، انطلق في هذا النقد من نقد فويرباخ للفلسفة المثالية ولتصورها عن الانخلاع ، اخذا على فويرباخ كونه لم يطبق نظريته على دراسة المسائل السياسية والاجتماعية ( ميفا ، ج١ - ١ - ٢ ، ص ٣٠٨ . رسالة ماركس الى روجه ١٣ آذار ١٨٤٣ ) . واذ صار شيوعيا ، فقد تجاوز نهائيا فويرباخ بانفصاحه المادية الجدلية والتاريخية ، التي يقدم عنها عرضا اول في مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة .

التملك النظري والعملي للعالم من قبل الانسان يبدو له منتسبا الى وجهتي نظر مختلفتين . فهو يعتبر الموقف النظري للانسان ازاء موضوعه الموقن الذي يتفق مع طبيعته الحققة ويدبر بذلك عينه الموقف العملي ، الذي يحدده هم تلبية حاجات مادية الذي لا يسمح باتخاذ موقف غير مصلحي ازاء الموضوعات . وبرفضه هكذا « البراكسيس » التي فيها الانسان ، اذ يفعل بطريقة نفعية ، لا يستطيع ان يملك الموضوعات تملكا حقيقيا ولا ينفذ الى جوهرها ، وبانكاره دور « البراكسيس » في تطور التاريخ ، ينساق فويرباخ الى نقل المسائل الاجتماعية على صعيد مثالي والى اعطائها حلا طوباويا خياليا في شكل « انسية » تفكس الاتجاهات الاخلاقية الواعظة للقرن الثامن عشر .

هذا الحل الطوباوي للمسائل الاجتماعية يتجلى بشكل خاص في تصوره لمسألة الدين والانخلاع المتولد عنه ، وهي المسألة الاولى في نظره . منطلقا من التصور المثالي لحياة انسانية موافقة لطبيعة الانسان « الحققة » ، يفكر فويرباخ ان تحقق هذه الحياة يجعل مستحيلا في المجتمع الحاضر بحكم انخلاع الجوهر الانساني . بما انه لا يرى لا اسباب الانخلاع الحقيقية ولا طبيعته الحقيقية ، فانه يعيده الى الانخلاع الديني ، وبما انه يعتبر هذا الاخير خارج العلاقات الاجتماعية فانه يفكر بأنه يمكن ان يلغى بالطريق الروحي ، بتربية البشر .

طاردا « البراكسيس » ، العمل الثوري ، فويرباخ ينتهي الى مفهمة للعالم ليست جدلية ولا تاريخية ولا تقدم بالتالي اي بذرة انبساط وتقدم ، فالتقدم محصور في مسلمة ان الانسان يجب ان يحقق جوهره الانساني . اجل الانسان والطبيعة هما عنده عنصران مختلفان ، ولكن بما انه ليس ثمة بينهما علاقة جدلية ، فان صلاتهما لا تفتح سبيلا لتقدم حقيقي ، ونرى عنده ضياع كل العناصر الخصبة في الفلسفة والجدل الهيفيليين .

هذا كان من شأنه ان يقود ماركس الى الابتعاد عن فويرباخ اكثر فاكثرا في انضاجه الجديد عن العالم .

اذ كان ماركس مترجما عن تطلعات البروليتاريا الثورية ، فلم يكن ما يهيمه هو فقط تحويل الوعي الانساني ، بل كان قبل اي شيء الغاء المجتمع الراسمالي ، سبب نزع انسانية البشر وبشكل خاص البروليتاريين . وهكذا ، واضعا في المستوى الاول العمل الثوري ، يرفض التصور الفويرباخي للانسان المعتبر كائنا متاملا ، غير مفترق اجتماعيا ، يرى فيه كائنا اجتماعيا ، ينتمي الى طبقة معينة وحياته يحددها مجموع العلاقات الاقتصادية والاجتماعية . ولذا فهو لا يكب على دراسة الجوهر العام للانسان بقدر ما يكب على دراسة قوانين التطور الاجتماعي ، الذي بات يرى انه محدد من قبل تطور الانتاج .

ان انسية فويرباخ الاخلاقية تستبدل عنده على هذا الاساس بتصور جديد لحركة التاريخ خلالها يحقق الانسان كينونته. هذا يعطي لمسألة الانخلاع معنى جديدا ومدى جديدا . فالانخلاع يظهر عند ماركس ظاهرة اجتماعية جوهرية ، يشترط الغائها تحويلا عميقا للمجتمع . ومن جهة أخرى فان ماركس لا يعتبر ، بعكس فويرباخ ، تخريج الجوهر الانساني فقط في شكل الانخلاع ، بل هو يرى فيه بصورة رئيسية تعيّن قوى الانسان الخلاقة ، تحققها العيني ، وبذلك يحمله طابعا ايجابيا ، فالتعين المذكور لا يتخذ شكل انخلاع الا في ظروف تاريخية محددة .

ومع ان ماركس بات يتميز بهذا الشكل العميق عن فويرباخ ، فانه بعد لا يخضع فلسفته للنقد العميق الذي يسلطه على فلسفة هيغل . وهذا مرده الى انه ، في هذه المرحلة من تطور فكره ، كان ما يزال يعتمد جزئيا على العناصر الاساسية في فلسفة فويرباخ الذي كان ما يزال يقدره اعلى تقدير (١) ، والى انه كان ينضج فقط مبادئ فلسفة جديدة ستتيح له بعد قليل تجاوز المذهب الفويرباخي نهائيا . فقط بعد مضي عدة شهور على اقامة المبادئ الاساسية للمادية الجدلية والتاريخية ، أدرك بشكل واضح الفرق العميق الذي يفصل تصوريهما وعرض هذا الفرق بطريقة لاذعة في أطروحته الاحدى عشرة عن فويرباخ .

**في مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة ، يشدد ماركس على ان العيب الرئيسي لفويرباخ يأتي من كونه رفض جدل هيغل دون ان يرى ان هيغل كان اول من بين ، ولو بشكل ما يزال نظاريا ومجردا ، ان الانبساط الجدلي هو الشكل الذي ترتديه أية حركة للواقع (٢) .**

بالمقابل يعترف له بمأثرة كونه اتخذ موقفا نقديا من الفلسفة الهيجلية وتجاوز الفلسفة المثالية ، مبينا ان أساس هذه الفلسفة ليس الانسان العياني بل تجريده ،

(١) انظر رسالة الى ل. فويرباخ بتاريخ ١١/٨/١٨٤٤ ، منشورة في قضايا السلم والاشتراكية ، برلين ١٩٥٨ ، المزمة ٢ ، ص ٩ : « يسعدني ان اجد مناسبة التعبير عن كل التقدير وايضا - اسمح لي بهذه الكلمة - كل الحب اللذين اكنهما لك . ان كتابيك فلسفة المستقبل وجوهر الايمان يزان ، رغم حجمهما الصغير ، اكثر من مجموع الادب الالاني الراهن . لقد اعطيت في هذين الكتابين - لا ادري ما اذا كان ذلك عن قصد - قاعدة فلسفية للاشتراكية ، والشيوعيون اولوهم فورا في هذا الاتجاه . بوضعك مبدئيا وحدة الانسان مع الناس الاخرين ، المؤسسة على تمايزهم واختلافهم ، بانزالك من السماء على الارض مفهوم النوع espèce الانساني المعرى من كل تجريد ، افلم تفسح عن جوهر مفهوم المجتمع بعينه ؟ » . انظر ميغا ١ ، ج ٣ ، ص ٣٤ . « من فويرباخ يبدأ النقد الايجابي للانسان والطبيعة . بدون ضجيج ولكن بشكل يزداد بقدر ذلك امانا وعمقا وشمولا ودواما ، تمارس كتابات فويرباخ فعليا . انها الكتابات الوحيدة ، منذ فينومينولوجيا ومنطق هيغل ، التي لها محتوى نظري ثوري حقيقي » . انظر المرجع نفسه ، ص ١٥١ . « فويرباخ هو الوحيد الذي اتخذ موقفا نقديا جدليا ازاء جدل هيغل والذي قام باكتشافات حقيقية في هذا المضمار ، انه هو الذي تجاوز حقا الفلسفة القديمة » .

(٢) ميغا ، ١ ، ج ٣ ، ص ١٥٢ .

الروح ، الذي يلعب نفس الدور الذي يلعبه الله في الدين والذي هو كاله تنجاس  
الانخلاع الانساني (١) . ويعترف له أيضا بمأثرة كونه عارض فكرة هيغل الخاطئة عن  
ايجابي ليس سوى نتيجة نفي النفي الوهمية ، بتصور ايجابي يرتكز على اليقين  
الحسي وله بالتالي أساسه في نفسه (٢) .

بقوله الفلسفة المثالية ، فتح فويرباخ الطريق للمادية الحققة وللعلم الحقيقي ،  
جاعلا من الانسان ، مفهوما في علاقاته مع الطبيعة ومع البشر الآخرين ، أساس  
الفلسفة (٣) .

مستلهما النقد الفويرباخي للفلسفة المثالية ومركزا على تصور البراكسيس  
الذي كان يستنبطه من تحليله للتطور الاقتصادي والاجتماعي ، يشرع ماركس في نقد  
اساسي لفلسفة وجدل هيغل يسمح له بتوضيح تصوره الجديد للعالم . بما انه  
يبسط هذا التصور بمعارضة فلسفة هيغل ، يبدو من الضروري ان نعرض باختصار  
الملامح العامة لهذه الفلسفة (٤) .

كان هيغل قد حل على صعيد مثالي المسألة الجوهرية التي كانت مطروحة في  
نهاية القرن الثامن عشر ، مسألة الانتقال من تصور ثنائي للعالم يضع الروح فسي  
معارضة المادة والانسان في معارضة الطبيعة الى تصور عضوي ، ينظره الى التاريخ  
على أنه سيرورة خلق الانسان لذاته . في انضاج هذا التصور الجديد للعالم ، كان

(١) المرجع نفسه ، ص ١٥٢ .

(٢) ص ١٥٢ .

(٣) ص ١٥٢ .

(٤) لا يمكن ، كما بالنسبة لفويرباخ ، اعتبار العلاقات بين ماركس وهيغل بطريقة عامة ، لان موقف  
ماركس ازاء هيغل قد تغير كثيرا في سير تطور فكره . قبل مشاركته في الحركة الهيجلية - الشاب ، يثمن  
في الفلسفة الهيجلية طابعها الواقعي الذي يضعها في مقابل الفلسفة الرومانطيقية . حين صار هيغليا -  
شابا ، اخذ عن هيغل بصورة رئيسية تصوره للدولة التي تصبى بوصفها تجسيد روح العالم مسرة  
المجتمع وسير التاريخ ، ولذا فان المؤلف الرئيسي لهيغل كان آنذاك في نظره فلسفة الحقوق . امام  
الاستفحال المستمر للسياسة الرجعية للدولة البروسية ، يفقد ماركس ايمانه في طابع الدولة العقلي وفي  
دورها المنظم الضابط للتطور الاجتماعي . متوجها نحو نزعة ديمقراطية اجتماعية ، يوضح تصورات  
الجديدة بنقد لفلسفة الحقوق عند هيغل . يبين بتطبيق لمذهب فويرباخ ان هيغل ، قابلا للعلاقات بين  
الوضوح والمحمول ، يجعل من الدولة العنصر الضابط للمجتمع بينما هي في الواقع مخلوقة من قبله .  
نرى ذلك بمثال المجتمع البرجوازي ، الذي لا يستطيع فيه الانسان ان يحقق كينونته والذي ينجب في  
معارضة نفسه الدولة السياسية ، التي فيها يعيش الانسان بطريقة وهمية حياة جماعية موافقة لجوهره .  
اذ صار شيوعيا واذا يأخذ وعي ان التطور الاقتصادي يحدد التطور السياسي والاجتماعي ، فانه يستلهم  
لا «فلسفة الحق» لهيغل بل فينوميولوجيا الروح ، وينقد ، بمساعدة التصور الهيجلي عن خلق الانسان  
لذاته ، الاقتصاد السياسي والنظومة الرأسمالية ، وفي الوقت نفسه يلوم هيغل على كونه مثلن وصوف  
سيرورة الخلق الذاتي هذه .

هيفل يأخذ عن الاقتصاديين الانكليز ، وخصوصا عن آدام سميث ، فكرة أن الشغل يلعب ، بوصفه عنصرا خالقا للثروات ، دورا مقررًا في تشكل وتطور المجتمعات . موسعا هذا التصور ، كان يخرج منه فكرة أن الفاعلية الانسانية تؤلف العنصر الثوري الذي يقرر ، بتحويل الانسان والطبيعة ، سير التاريخ .

معيدا هذا التاريخ الى سيرورة خلق ذاتي للانسان بتحويل الطبيعة ، يبين أن الطبيعة ، بصورها تدريجيا نتاج عمل الانسان ، تكف عن كونها بالنسبة له شيئا ما ، خارجيا وغريبا ، وانه بذلك تتحقق تدريجيا وحدة عميقة للانسان والطبيعة ، للذات والموضوع .

من جراء وضع المانيا المتأخر وتطور العلوم الطبيعية والاجتماعية غير الكافي ، كان هيفل مساقا الى اعطاء هذا التصور طابعا مثاليا ، بروحنة الانسان والطبيعة . تحت تأثير دراساته التاريخية والاقتصادية ، كان يسعى مع ذلك الى ربط سيرورة خلق ذات الانسان المحول روحانيا على النحو المذكور بتطوره الواقعي كما انبسط في التاريخ . هذه المحاولة في ربط التطور الروحي بالتطور التاريخي العياني تفسر الدور الاساسي الذي تلعبه في فلسفته المفاهيم العيانية التي يفترض أنها تحوي فعليا جوهرية الواقع .

ان تقليص مجموع الواقع ، الشامل حياة الانسان وحياة الطبيعة ، الى المفاهيم العيانية ، الذي هو السمة المميزة لفلسفة هيفل ، قرره واقع ان هيفل لم يكن يستطيع لتعليل تطور الواقع العياني بتقليصه الى مفاهيم مجردة ، ولكن هذا التطور يصبح قابلا للتعليل ما دام هذا الواقع يعاد الى مفاهيم عيانية .

هذا التحويل للواقع الى مفاهيم عيانية يفسر الطابع المنطقي والتاريخي في آن لفلسفة هيفل . ولكن بما أنه لا يمكن ان يوجد بالنسبة للفلسفة المثالية واقع حقيقي خارج الروح ، فان العالم ليس له عند هيفل وجود واقعي في ذاته ، انه ليس سوى تخرج الروح التي تأخذ تدريجيا وعي أن العالم نتاج عملها فتجد فيه من جديد جوهرها .

ان سيرورة خلق الانسان لذاته تغدو هكذا ، في فلسفة هيفل ، سيرورة انبساط الروح . بما ان العالم محول الى الوعي والطبيعة الى موضوع الوعي ، فان العلاقات بين الانسان والطبيعة معادة الى العلاقات التي تقوم بين الوعي وموضوعه . ان سيرورة انخلاق الانسان ، المعادة الى انبساط وتطور العلاقات بين الوعي وموضوعه ، تؤلف الموضوعة المركزية في مؤلف هيفل الاساسي ، **فينومينولوجيا الروح** ، حيث يصف التحولات التي تحصل في الروح في سير انبساطها .

في البداية ، ان الروح تحت شكل الوعي الحسي لا تتميز عن الواقع العياني المباشر . بخروجها وتحررها من هذا الواقع وبمعارضتها له ، تتخذ شكل وعي

الذات . وتتجاوز أخيرا هذه المرحلة من تطورها بإدراكها أن الواقع الموضوعي ليس له وجود حقيقي خارجها وأنها هي جوهره . عندئذ تتحول إلى روح مطلقة ، تنظر إلى التحديدات الموضوعية على أنها مظاهر وأشكال ولحظات ذاتها وتدرك هكذا أنها هي وموضوعها واحد ، فتصير بالتالي ذاتا - موضوعا ( sujet - objet ) .

هذا التحليل لانبساط الروح بالتمثل التدريجي للواقع الذي ليس سوى التعبير المثلن لاستيلاء الإنسان على الطبيعة في سير التاريخ ، يعقبه ، في المنطق ، وصف انبساط المفاهيم الجدلي حتى الفكرة المطلقة التي تغدو ، بوصفها ذاتا - موضوعا ، خالقة الواقع . بعد تخرجها في الطبيعة التي تشكل فيها ، الفكرة المطلقة تأخذ تدريجيا وعي ذاتها في سير انبساطها في التاريخ ، ونهاية التاريخ هي فلسفة الروح التي تسم رجوع الفكرة المطلقة إلى ذاتها ، بعد اغنائها بوعي كل ما كانت تحويه بشكل كامن .

إن انبساط الروح بتعرفها على نفسها في موضوعها ، الذي إليه يعيد هيغل سيرورة خلق الإنسان لذاته ، يشترط أن لا تكون الروح منخلعة ، مغرّبة ، أن لا تصير الروح غريبة عن نفسها في الموضوع . هذا يتحقق في فلسفة هيغل حيث بما أن الموضوع مروحون ومحوّل إلى مفهوم فإن الروح بالضرورة تجد نفسها فيه ثانية .

إذا طبق شروط تطور الروح على تطور الإنسان في المجتمع ، يفكر هيغل أنه كما أن الروح يجب أن لا تنخلع في موضوعها كذلك فالإنسان يجب أن لا ينخلع في منتج شغله . وهو يرى أن هذه هي الحال في المجتمع البرجوازي ، حيث الإنسان ، الذي لا يعتبره هيغل إلا بصفته مالكا ، لا يمكن أن يكون مخلوعا في منتج فاعليته الذي هو بحكم التعريف ملك له . على حد قوله ، أن الإنسان بوصفه شخصية محرك برغبة تملك موضوعات فاعليته . هذا التملك ، إذ يستبعد كل تملك من قبل الغير ، له بالضرورة طابع ملكية خاصة ، من هنا تبرير هيغل للمجتمع البرجوازي المؤسس عليها .

أجل كانت دراسة الاقتصاد السياسي قد جعلته يلمح الآثار اللانسانية للنظام الرأسمالي ، ولقد كان يدرك أن تطور الصناعة يحمل معه في آن تزايد ثروة الطبقات المالكة وتفاقم يؤس الطبقة العاملة . إلا أنه لم يكن يخلص من هذه الملاحظة إلى أدانة للنظام الرأسمالي ، بالعكس كان يرى فيه أسلوبا عقليا للتطور الاقتصادي والاجتماعي .

تاركا خارج اعتباراته الإزمات والصراعات الطبقيّة ، كان يفكر أن آثار المزاخمة بين المالكين يجب أن تداوى بتدخل الدولة ، التي لها ، بوصفها ممثلة المصلحة العامة ، مهمة ضبط التطور العقلي للمجتمع .

مصوّفا صراع الطبقات ، كان يقلص التعارض بين البرجوازية والبروليتاريا الى الموقف المختلف الذي يتخذه السيد والخادم ازاء الشغل ومنتوجه . بما ان الخادم يوضع كينونته بالشغل بتحويله المادة ، كان هيغل يعتبر أسلوب حياته متفوقا على أسلوب حياة السيد الذي هو ، اذ يكفي بالتمتع بمنتوج الشغل دون أن يشارك في الانتاج ، أدنى ، على الصعيد الانساني ، من الخادم ، رغم ان هذا الاخير خاضع مرؤوس من قبله (١) .

هذا التصويف للمسألة الاجتماعية المحوّلة الى سيرورة سيكولوجية ، هي سيرورة وعي الانسان لكينونته بالشغل ، الذي يجعل من الخادم - وهذه مفارقة غريبة - الحائز الحقيقي على الموضوع المنتج ، لم يكن يمنع هيغل من ان يرى انه ، بنتيجة التعارض بين الاغنياء والفقراء ، تنشأ طبقة ثورية تهدد المجتمع . بيد أن هيغل ، بعيدا عن التفكير بحل للمسألة الاجتماعية عن طريق حذف البؤس ، لم يكن يفكر الا بالطريقة التي يمكن بواسطتها حماية المجتمع والدولة ضد صعود هذه الطبقة الثورية ، التي كان يصفها بـ « الدهماء » بسبب روحها الثائرة .

رغم طابعها المثالي والمصوّف ، كانت فلسفة هيغل تقدم لماركس عناصر هامة في سبيل انضاج مذهبه ، وبشكل خاص تصور انبساط جدلي للواقع ولخلق الانسان ذاته بشغله . الا انه لم يكن يستطيع استخدام هذه العناصر الا بعد نزع تصويفها بنقد متعمق لهذه الفلسفة . هذا النقد يصيب جوهرها :

(أ) تقليص الانسان والطبيعة وعلاقتهما الى الوعي وموضوع الوعي والعلاقات التي تقوم بين الوعي وموضوعه .

(ب) تصويف الفاعلية الانسانية المروحنة على الشكل المذكور ، التصويف الذي يسمح لهيغل باعادة التاريخ الى انبساط للفكر .

(ج) تصويف الجدل المحوّل الى جدل مثالي ، الى تسلسل مفاهيم .

في هذا النقد الذي يتصل جوهريا بـ **فينومينولوجيا الروح** (٢)، يعترف ماركس ببادئ ذي بدء لهيغل بماترة كبيرة هي كونه يبيّن ان الانسان يخلق نفسه بتعيّش كينونته عيانا وبحذف الطابع الغريب ، المنخلع ، الذي يتخذه هذا التعيّن بادية

---

(١) انظر هيغل : **فينومينولوجيا الروح** ، شتوتغارت ١٩٢٧ ، صص ١٤٨ - ١٥٨ .

(٢) انظر ميخا ، ١ ، ص ١٥٣ . « يجب البدء بـ فينومينولوجيا الروح التي هي مكان تفتح الفلسفة الهيجلية والتي تعطي تفسير سرها . » . انظر المرجع نفسه ، ص ١٥٣ . ملخص فينومينولوجيا الروح على يد ماركس .

بدء ، وكونه هكذا قدم ، تحت هيئة مصوّفة ، عناصر نقد حقيقي للمجتمع (١) .  
بتصوره الشغل جوهر الانسان ، وضع هيفل نفسه على صعيد الاقتصاديين  
الحديثين ، ولكن له مثلهم عيب كونه لم يعتبر سوى وجهه الايجابي وأهمل وجهه  
السلبي ، وجهه كشغل منخل ، حاذفا اياه بروحنة الفاعلية الانسانية التي فيها لا  
يمكن أن يكون الانسان مستلبا مغرّبا مخلوعا (٢) .

من جراء روحنة الانسان والطبيعة والفاعلية الانسانية ، يتحول انبساط  
الانسان الى انبساط للروح ويتحول التاريخ الى انبساط مفاهيم (٣) .

هذا التحويل للتاريخ الى تطور الفكر يطبع الفلسفة الهيفلية . يكون منطقا ،  
منطقا يعرض ، بعد تبيان شكل الروح التأملية المضاربة ، النظرانية ، كيف ان هذه  
الروح تتحقق بتخرجها في الطبيعة وفي التاريخ الانساني ، ينتهي الى العلم المطلق ،  
حيث الروح التي وعت ذاتها تماما تعيش وجودا متفقا مع جوهرها (٤) .

(١) انظر ميغا ... ، ص ١٥٦ . « ان ما يصنع عظمة فينومينولوجيا هيفل ونتيجتها الاخيرة ، جدل  
النفسية ( السلبية ) المعتبرة عنصرا محركا وخالقا ، هو ان هيفل يتصور خلق الانسان لذاته كسيرورة ،  
تموضعه بتعين كينونته في شكل انخلاع وحذف الطابع المنخل لهذا التعين ، وأنه يقبض هكذا على جوهر  
الشغل ويتصور الانسان العياني والحق لانه واقعي كنتيجة شغله ذاته . ان السلوك الواقعي ، الفاعل ،  
للانسان ، بوصفه كائنا نوعيا - عاما ، ان تجلي جوهره كجوهري انساني ، ليس ممكنا الا بتعين كل  
قواه - وهذا التعين بدوره ليس ممكنا الا بتعاون كل البشر ، الا كنتيجة التاريخ - وكذلك بكون  
الانسان لا يتصرف ازاء قواه الذاتية كما ازاء موضوعات خارجية ، الامر الذي لا يمكن ان يحصل بادية  
بدء الا في شكل انخلاع .

ان الفينومينولوجيا تؤلف تحليلا نقديا ، بالحقيقة محجوبا وغامضا ومصوفا ( للانسان - ا.ل.ه. ) .  
بقدر ما تحلل انخلاع الانسان - حتى وان كان هذا الاخر لا يظهر فيها الا تحت شكل الروح - فهي تحوي  
ضمنا كل عناصر نقد حقيقي ، عناصر هي فيها مهياة ومنسجة بطريقة كثيرا ما تتجاوز من الان وبدرجة  
كبيرة وجهة نظر هيفل . هكذا فان شتى الفصول عن « الوعي الشقي » ، عن « الوعي الشريف » ، عن  
الصراع بين « الوعي الكريم والوعي الخسيس » ، تحتوي ، تحت شكل مصوف ، على عناصر نقد للدين،  
للدولة ، للمجتمع المدني ، الخ » .

(٢) ص ١٥٧ . « هيفل يضع نفسه في وجهة نظر الاقتصاديين الحديثين . انه يتصور الشغل على  
انه الوسيلة التي بها يحقق الانسان جوهره ، ولكنه لا يعتبر وجهه السلبي . »  
(٣) ص ١٦٧ .

(٤) صص ١٥٢ - ١٥٤ . « ان موسوعة هيفل ، التي تبدأ مع المنطق ، مع الفكر النظرائي المحض،  
والتي تنتهي مع العلم المطلق ، مع الروح الفلسفية المطلقة التي وعت نفسها بشكل مليء ، أي مع الروح  
الخارقة والمجردة ، ليست شيئا اخر سوى وصف ، تحقيق الروح الفلسفية ، كما ان الروح الفلسفية  
ليست شيئا اخر سوى روح العالم مفهومة بطريقة مجردة في شكلها المنخل . المنطق ، مال الروح هذا،  
لا يمثل سوى القيمة النظرانية للانسان وللطبيعة المقلصين الى الفكر ، سوى كينونتهما التي صارت غير  
مبالية بكل التحديدات وبالتالي غير واقعية ، تحت شكل الفكر المجرد - الحاذف للطبيعة والانسان  
الحقيقيين . ان خارجية هذا الفكر المجرد هي الطبيعة مفهومة بدورها تجريديا . اذ هي خارجية ازاء

في المنطق ، الذي يصفه ماركس بأنه مال الروح ، أي عنصر فيه كل واقع ينحل ويفقد كما في المال كينونته الخاصة ودلالته الخاصة بتحوله الى تجريد ، ان العنصر الايجابي الوحيد هو الفكر مجردا - خاذفا كل عنصر واقعي (١) .

بما ان العالم العيني محوّل الى عالم فكر ، فان تخرج قوى الانسان الحية، تعين كينونته ، أي مجموع فاعلية الانسان العملية ، يحصل تحت شكل وفي اطار الفكر . ومن جراء ذلك فان تاريخ العالم يتقلص ويتحول عنده الى تاريخ الفكر (٢) ، الامر الذي يفسر ان هيجل ، في فينومينولوجيا الروح ، لا يصف خلق ذات الانسان الواقعي بل خلق ذات الروح الذي ينتهي الى الفكرة المطلقة التي تصير بوصفها ذاتا - موضوعا خالقة العالم .

في عالم الفكر ، حيث تمارس فاعلية الانسان في شكل فاعلية روحية ، الانسان، بوصفه ذاتا مفكرة ، معاد الى وعي الذات ، الطبيعة الى موضوع الوعي ، والعلاقات بين الانسان والطبيعة الى العلاقات التي تقوم بين وعي الذات وموضوعه (٣) .

من هذا التقلص لتطور الانسان والطبيعة الى تطور الفكر ينتج عند هيجل ان خلق الانسان لذاته يكمن لا في التعيين الفعلي لكينونته بالشغل بل في واقع ان وعي الذات يتحقق بمعارضة كينونته المجردة باتخاذها ، ولكن في الظاهر فقط ، شكل واقع حسي .

»»»→

الفكر المجرد فهي تؤلف فيه تحت شكل الفكر المجرد المنخل . هذا الفكر ، برجموه الى اصله ، يجد شكله الاخير في الروح ، التي تحضر باديء بدء تحت شكلها الخاص ، الانتروبولوجي ، الفينومينولوجي، السيكولوجي ، الاخلاقي ، الاستيطيقي ، الديني ، الى ان تنال ، بوصفها روحا مجردة مطلقة ، في العلم المطلق ، اسلوب الوجود المتفق مع كينونتها .

(١) ص ١٥٤ . « حين هيجل يتصور مثلا الثروة وسلطة الدولة ، كتميزين عن جوهر الانسان المنخل ، فانه لا يفعل ذلك الا تحت شكلهما المفهومي . ليسا عنده سوى مفهومين ، انخلاءين للفكر المحض ، للفكر الفلسفي المجرد . »

(٢) ص ١٥٤ . « كل تاريخ الانخلاع وحذف الانخلاع ليس شيئا اخر سوى تاريخ الفكر المجرد ، المطلق ، تاريخ الفكر المنطقي ، النظرائي . »

(٣) صص ١٥٤ - ١٥٥ . « الانخلاع ، الذي اليه يعاد تخرج الجوهر الانساني وحذف هذا التخرج، قوامه التعارض بين في - الذات و لذات ، بين الوعي ووعي الذات ، بين الموضوع والذات ، أي التعارض بين الفكر المجرد والواقع المحسوس ، منظورا اليه هو نفسه ( الواقع المحسوس ) في ميدان الفكر . كل التعارضات الاخرى وكل حركات هذه التعارضات ليست الا ظاهر وغلاف وشكل هذه التعارضات الجوهرية التي تعطي التعارضات الاخرى معناها الحقيقي . ليس واقع ان الانسان يحقق كينونته بكيفية لانسانية ، بشكل معاكس لجوهره ، هو الذي يؤلف بالنسبة لهيجل الانخلاع وباعث الفائه ، بل واقع ان الجوهر الانساني ، المقلص الى الفكر المجرد ، يتخرج متمائزا عن الفكر المجرد ومعارضاً اياه . »

هذا التحول لتعين الكينونة الانسانية الفعلي الى تخرج للفكر له كنتيجة ان كل انخلاعات الكائن الانساني ليست الا انخلاعات وعي الذات الحاصلة في الفكر (١) وان التملك الواقعي للعالم من قبل الانسان يتحول الى تملك هذا الاخير تحت شكل مفهومي من قبل الروح (٢) .

هذا يفسر طابع الواقع الموضوعي ، الحسي ، عند هيجل . بما ان الانسان محوّل الى وعي الذات ، وتخريج كينونته الى تخريج الوعي ، وبما أن منتوجات الفاعلية الانسانية تتخذ هكذا شكل مفاهيم ، فان الواقع الحسي يتحول الى واقع روحي والوعي الحسي الذي بواسطته يدخل الانسان في علاقات مع الواقع الموضوعي يتخذ شكل وعي حسي مجرد .

بما ان الموضوعات الواقعية وتملكها محوّل الى تعبيرات ولحظات للفكر ، فان النتيجة الاخيرة لتطور الروح هي وحدة الهوية التي تقوم بين الذات والموضوع ، بين الفكر والكينونة ، الهوية الواحدة التي تجد تعبيرها في الفكرة المطلقة وفي أسلوب وجودها وفعاليتها ، العلم المطلق .

ان الغاء الواقع الموضوعي في العلم المطلق يجر معه حذف كل علاقة للروح مع العالم العيني وبذلك ذاته الانتقال عنده من سلوك فاعل الى سلوك متأمل . ان العلم المطلق ، حيث الفكر الذي لم يعد مندارا نحو العالم الخارجي يتحرك داخل نفسه ،

(١) ص ١٥٥ - ١٥٦ . « ان تملك القوى الانسانية العينية عيانا في موضوعات صارت غريبة عن الانسان هو تملك لا يتحقق الا في الوعي ، في الفكر الخالص ، اي في التجريد ، تحت شكل مفاهيم وحركات مفاهيم ... »

ان مطالبة الانسان بالعالم العيني ، المؤسسة على الاعتراف بالواقع الموضوعي لهذا العالم ، على الاعتراف مثلا بحقيقة ان الوعي الحسي ليس وعيا حسيا انسانيا ، ان الدين والثروة ليسا سوى اشكال منخلعة لتعين قوى الانسان الواقعية ... تظهر عند هيجل تحت شكل مروحن . العالم الحسي ، الدين ، سلطة الدولة ، محولة الى كائنات روحية ، اذ ، بالنسبة له ، الروح وحدها هي كينونة الانسان الحقيقية ، والشكل الحق للروح هو الروح الفكر ، الروح المنطقي ، النظرائي . ان الطابع الانساني للطبيعة ، للطبيعة التي انجبها الانسان في سير التاريخ ، ولمنتوجات الفاعلية الانسانية ، ينجم عن كونها منتوجات الروح المجرد ، لحظات هذا الاخير ، مفاهيم . «

(٢) ص ١٥٨ . « الجوهر الانساني ، الانسان ، يجعلهما هيجل ماثلين لوعي الذات . وهكذا ليست كل انخلاعات الانسان سوى انخلاعات لوعي الذات . هذا الانخلاع ليس انعكاس الانخلاع الواقعي للكائن الانساني في المعرفة ، في الفكر . الانخلاع الحقيقي ( عند هيجل - ا.ك. ) ... ليس الا ظاهرة الجوهر الانساني مفهوما على انه وعي ذات . العلم الذي يقبض عليه ويصفه تحت هذا الشكل يدعى اذا فينومولوجيا ( ظاهراتولوجيا ) . كل اعادة تملك الانسان لكينونته المنخلعة تحضر هكذا في شكل تملك من قبل وعي الذات ، حيث ان الانسان الذي يأخذ فعليا حيازة كينونته ليس سوى وعي الذات الذي يتركب الواقع . «

هو نقطة الذروة في الفلسفة الهيغلية (١) .

في هذه السيرة ، سرورة خلق الروح لذاته ، المادة ، مادية العالم ، تؤلف بالنسبة له عنصرا غير مطابق ، متخالف ومتنافر معه . فاسترجاعه لكيثونته المخرجة لا يمكن أن يحصل الا اذا كان هذا التخرج لا يتحقق في موضوع عياني ، اذ في هذه الحال يتحول تخرجه الى تفرب واستلاب وانخلاع . ان الطابع الموضوعي ، العياني ، لتخرج الروح ، ملغى بواقع ان الروح يتخرج لا في شكل موضوع واقعي بل في شكل شيء مجرد ، في شكل شيئية ليس فيها اي محتوى عياني واي طابع واقعي (٢) .

رغم ان الشيئية ، بوصفها موضوعا ، تظهر شيئا ما مختلفا عن الذات ، عن وعي الذات ، فانها لا تملك بذاتها اي واقعية ، حيث انها ليست الا الهيئة الاخرى لوعي الذات الذي يعارض نفسه ( يضع نفسه مقابل نفسه ) في شكل موضوع . وبالتالي فان التعارض بين الذات والموضوع ، بين وعي الذات والشيئية ، الذي يبقى داخل الفكر ، ليس الا ظاهريا . بدلا من أن تكون هي تأكيد واقعية الموضوع الخاصة ، الشيئية لا تخدم الا لتأكيد واقعية وعي الذات الذي اذ يخلقها يمنحها ، للحظة ، دور كائن ظاهرا موضوعي ومستقل عنه (٣) .

بوصفها تخريجا لوعي الذات ، الشيئية لها بالنسبة اليه قيمة ليس فقط

(١) ص ١٥٦ . « كما ان الموضوع هو كائن روحي ، فالذات هي دوما وعي ذات ، الموضوع لا يظهر الا في شكل وهي مجرد اي في شكل موضوع مجرد لوعي الذات ، والانسان في شكل وعي الذات . ان مختلف تظاهرات الانخلاع ليست ، بحكم ذلك ، سوى الاشكال المختلفة التي يرتديها وعي الذات وموضوعه . بما ان الوعي الحسي - الشكل الذي فيه يتصور الموضوع - ليس الا لحظة في تمايز وعي الذات ، فان نتيجة تطور وانبساط العلاقات بين وعي الذات وموضوعه ، الوعي المجرد ، هو تماثلهما الذي يتحقق في العلم المطلق ، في الفكر المجرد الذي لم يعد متجها نحو العالم الخارجي بل هو يتحرك في نفسه ، هذا الناتج الاخير هو جدل الفكر الخالص . »

(٢) ص ١٥٧ . « الامر الجوهري هو ان موضوع الوعي لا يختلف عن وعي الذات ، انه ليس سوى تخرج هذا الاخير ... ما يهم ، بالتالي ، هو الفاء الطابع العياني لموضوع وعي الذات . بما ان الموضوعية هي عنصر لا يمكن ان يتفق مع جوهر الانسان المعاد الى وعي الذات ، فان اعادة تملك الجوهر الانساني ، اعادة تملك وعي الذات ، الذي تخرج في شكل الانخلاع ، لها كشرط ليس فقط الفاء الانخلاع بل ايضا الفاء الموضوعية ، وهذا يستجيب لطابع الانسان المتصور ككائن روحي خال من كل عنصر عياني . »

(٣) ص ١٥٩ - ١٦٠ . « ان وعي الذات اذ يتخرج يضع الشيئية ... من الجلي ان وعي الذات اذ يتخرج لا يستطيع ان يخلق موضوعا واقعا ، بل فقط الشيئية اي شيئا ما مجردا ، تجريدا . وليس اقل بدها ان الشيئية لا تستطيع ان تمثل شيئا ما جوهريا ومستقلا بالنسبة لوعي الذات ، وانها بما انها مخلوقة من قبله فانها ليست تأكيد ذاتها بل هي فقط تظاهر الفعل الذي به يتثبت وعي الذات مؤقتا في متوجه معينا اياه ، ولكن للحظة فقط ، دور كائن مستقل وواقعي . »

سلبية بل أيضا ايجابية ، لأنها تحمل اليه الدليل على أن الموضوعية ليس لها محتوى واقعي وان الموضوع الناتج عن تخريجه ليس مختلفا عنه وانه هو جوهر الواقع (١) .

بما أن انبساط وعي الذات هو هكذا سيرورة محض روحية ، من جراء حذف الطابع العياني للموضوع وتقليص خلق الانسان لذاته الى خلق الروح لذاته ، فان اسلوب فاعليته قوامه العلم savoir ، حيث يتخرج بمعارضة نفسه .

ان كيفية تأكيد ذاته في ضده هذه تعلل الطابع والدور الفريدين لنفي النفي في فلسفة هيغل .

هيغل رأى فعلا أن نفي النفي ، مبدأ الجدل ، يؤلف أسلوب تأكد وخلق كل كائن ينسبط ويتطور بالنفي المتتابع لكل تحديداته ، ولكن عنده تحصل حركة نفي النفي في ميدان الفكر وهي ليست الا الشكل النظري والمجرد للصيرورة المقتصة الى انبساط الروح (٢) .

عدا عن ذلك ، ان هذه الحركة مزيفة ، مصوّفة ، بكون نفي النفي لا يؤلف تأكيد الكائن الحقيقي بنفي هيئته الوهمية ، المتخلعة ، بل بالعكس يؤول الى تثبيت الكائن المنخلع بنفي الكائن الحقيقي .

هذا يحصل بأسلوب حذفي خاص ، فيه ما ينفي ، ما يلغى ، هو في الوقت نفسه مبقى بارتفاعه الى مستوى وجودي أعلى يتيح له بلوغ أسلوب كينونته الحق . هكذا الدين ، الذي ينفي بوصفه انخلاعا للوعي الانساني الذي تعبيره الحقيقي هو الفلسفة ، يقام ثانية برفعه على الصعيد الفلسفي حيث يتخذ شكل فلسفة الدين (٣) .

بما أن ما ينفي بالنفي هو بالواقع مبقى بنفي النفي ، لذا لا يوجد عند هيغل حركة جدلية حقة وبذلك عينه تقدم حقيقي . هذا يفسر ايجابيته الكاذبة التي

---

(١) ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) صص ١٥٢ - ١٥٣ . « بتصوره نفي النفي في هيئته ايجابية على انه الشكل الحقيقي للواقع ، وفي هيئته السلبية على انه الفعل الذي به يتأكد وينسبط كل كائن ، لم يجد هيغل سوى التعبير المجرد ، المنطقي ، النظرائي ، لتطور التاريخ ، الذي ليس عنده بمعد التاريخ الواقعي للانسان الذي يؤلف ذاته ( فاعله ) ، بل هو فقط تاريخ الكيفية التي بها الانسان يخلق نفسه . »

(٣) ص ١٦٤ . « ان كون الجوهر الحقيقي للواقع عند هيغل لا يظهر الا في شكله الفلسفي يفسر انه كما ان الوجود الحقيقي للدين هو فلسفة الدين ، كذلك فان الوجود الحقيقي للحقوق هو فلسفة الحقوق والوجود الحقيقي للطبيعة هو فلسفة الطبيعة والوجود الحقيقي للانسان هو فلسفة الروح » . ايضا ص ١٦٥ .

تخدمه ، بوصفه مفكرا محافظا ، في تسويق النظام القائم ومؤسساته (١) .  
في هذه الحركة الجدلية ، حيث سيرورة خلق الانسان لذاته معادة الى انبساط  
الروح المجردة ، ان تخرج قوى الانسان العيانية في شكل الانخلاع مقلص الى شكل  
النفي المجرد ، ان حذف الانخلاع ، المعتبر تحت هذا الشكل ، شكل النفي المحض ،  
المفرغ من كل محتوى واقعي ، هو نفسه حذف محض شكلي ، قوامه نفي النفسي .  
وفاعلية الانسان العينية المنقولة على صعيد الفكر تتحول هكذا الى حركة مجردة ،  
الى نفيية ( سلبية ) محضة ، متصورة كفاعلية مطلقة (٢) .

ان محتوى هذه الفاعلية محض الشكلية قوامه المقولات المنطقية ، التي فيها كل  
واقع محذوف تجريديا ، والتي بما انها مفروزة هكذا عن الواقع فهي لا مبالية ازاءه .  
هذه المقولات ، التي يعتبرها هيفل اللحظات الجوهرية لحركة الروح ، ليست  
بالواقع سوى تعبير الانخلاع الكامل للانسان المقلص الى الفكر المجرد (٣) .  
الروح ، اذ تجد نفسها ثانية بتمامها في الموضوعية المحولة الى لحظات للفكر ،  
تؤلف كل الواقع ، وحركتها ، التطور الجدلي ، تنبسط بحكم ذلك فقط في التجريد ،  
وليست هكذا سوى الشكل المجرد لتطور التاريخ (٤) .

ان ذات ( حامل sujer ) الحركة الجدلية هي الفكرة المطلقة التي ، اذ تحوي  
في نفسها كل الواقع ، تصير ذاتا - موضوعيا مقحما في سيرورة تطور ازلية . هذا  
التطور ليس ، مع ذلك ، الا ظاهريا ، اذ انه ، بما ان الفكرة تكتفي بأن تسترجع في  
ذاتها ما تخرجه ، حركة دائرية ، رجوع على الذات (٥) .

اذ صارت لا مبالية ازاء كل تحديد ( تعيين ) واذا تتصور نفسها كتجريد ، الفكرة  
المطلقة ، واعية عدمها ، مساقاة الى اتخاذ محتوى محدد . وهي تفعل ذلك ، باحلالها  
محل جوهرها الكلي محتوى خاصا ، هكذا تبلغ واقعا يؤلف ضدها ، تبلغ الطبيعة

(١) ص ١٦٤ . « هنا مصدر ايجابية هيفل الكاذبة ، نقدته التي ليست الا ظاهرية . هذه  
الاجابية ( الوضعية ) الكاذبة ، التي بين فويرباخ انها قائمة في كون هيفل بعد ان وضع ثم نفى الدين  
واللاهوت ، يعيدهما ، يبدو لنا من الواجب فهمها وتصورها في هيئتها العامة . عند هيفل ، العقل  
ليس منخلما في الالعقل معتبرا كالعقل . هكذا ، في منظومته ، الانسان ، الذي يعترف بانه يعيش في  
ميدان القانون والسياسة وجودا منخلما ، لا ينفك مع ذلك يعيش حياته الحققة في اطار هذا الوجود  
المنخلع . هذا التاكيد ، هذا التثيت للانسان في تناقض مع نفسه ، في مجال العلم كما في مجال الحياة  
الواقعية على حد سواء ، يؤلف بالنسبة لهيفل العلم الحق والحياة الحققة . لا يمكن ، بالتالي ، ان  
نتحدث عن توفيق من هيفل مع الدين والدولة ، اذ ان هذه الاكثوبة ناجمة عن منظومته » .

(٢) ص ١٦٨ .

(٣) ص ١٦٨ .

(٤) صص ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٥) صص ١٦٧ ، ١٦٨ .

التي كانت الفكرة تحويها في شكل تجريد ، والتي تظهر الآن بوصفها هيئتها العينية ، الحسية . هذا يحدد عند هيجل الانتقال من المنطق الى فلسفة الطبيعة ، اي الانتقال من التجريد الى التأمل Contemplation (١) .

بدلا من ان يكون لها طابع مجرد فقط ، كما في المنطق ، تمثل الطبيعة ، فسي فلسفة الطبيعة ، بوصفها شكل الفكرة الحسي . الكائنات التي كان الفيلسوف النظرائي يحسب انها انجبت بالتجريد المحض ، تظهر له الآن في شكل تحديدات ( تعيينات ) للطبيعة . وهكذا باظهارها له مجردات المنطق في شكل حسي ، تكون الطبيعة بالنسبة له تثبيتا لهذا المنطق .

بما ان الطبيعة ليست ، بالنسبة للفلسفة النظرانية ، ذات معنى الا من حيث هي تظاهر الروح ، فان الطابع الموضوعي الذي هو خاصتها والذي هو نفي الروح ، يشكل بالنسبة لها عيبا لا دواء له . لما كان الروح جوهر العالم ، فان الطبيعة ، معتبرة في ذاتها ، خارج الروح ، هي بلا واقعية حقيقية وهي ملفاة كطبيعة (٢) .

ان ميدان الروح الحق ، تجليه الحقيقي ، هو التاريخ الانساني . مع تجاوز الطبيعة وبلوغ الروح الى وعي ذاتها ، بجريان التاريخ ، يبدأ عهد العلم المطلق ، جدل الفكر الخالص (٣) .

### المادية الجدلية والتاريخية

هذا التصور المثالي للعالم ، ماركس يعارضه بتصور مادي ينضجه من وجهة نظر المصالح الطبقة للبروليتاريا ، التي تتطلب ، ليس ببساطة تحويلا للعالم على الصعيد الروحي بتفهم معقوليته وقوانينه ، بل التغيير الجذري للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية .

بروحنة الانسان والطبيعة ، هيجل صوف ، مع تصويفه طابعهما الواقعي ، وحدهما العضوية ، وبالتالي لم يتغلب فعليا على الثنائية التي تضع الذات فسي معارضة الموضوع والفكر في معارضة الكينونة والنظرية في معارضة الممارسة . اذ صوف الحركة الجدلية ، المعادة الى حركة المفاهيم ، هيجل لم ينجح ايضا في اعطاء تفسير واقعي للتاريخ ، المحول الى تاريخ الروح ، الى ميثولوجيا أفكار . مثل هيجل ، ماركس يتصور تطور الانسان ، المعبر في علاقاته مع الطبيعة ،

(١) ص ١٦٩ .

(٢) ص ١٧٠ - ١٧٢ .

(٣) ص ١٧٢ . في رسالة الى فر. انجلس بتاريخ ١٨٥٨/١/١٤ ( انظر ميغا ، ٣ ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ ) ،

ماركس اخبره عن نيته القيام بتحليل لمنطق هيجل ، بقصد تبيان طابعه العقلي ، المحجوب تحت هيئة مصوفة ، ولكنه لم يحقق هذا المشروع في يوم من الايام .

على انه سيرورة انخلاق ذات طابع جدلي وتاريخي ، ولكنه ، بعكس هيجل ، يرى فيها سيرورة عيانية ، مادية ، تنجبها الفاعلية العملية ، ينجبها شغل الانسان .  
ان اساس هذا التصور هو الفكرة الفويرباخية القائلة ان الطبيعة والانسان هما واقع موضوعي ، ولكن ماركس ، بخلاف فويرباخ ، يعتبرهما في العلاقات الجدلية التي تقوم بينهما بالفاعلية الانسانية .

من هذا التصور للانسان وللطبيعة وللفاعلية العملية المفهومة كأداة خلق ذاتي للانسان ، ماركس يخرج تصوره المادي والجدلي والتاريخي للعالم .

رافضا أنسنة الانسان الهيجلية بالطريق النظرائي ، بالفكر ، والجدل الروحاني الذي يترك الانخلاعات التي تزعم الفاءها باقية في الواقع ولا يؤول السى اي تحويل واقعي للعالم ، ماركس يحل محلها أنسنة الانسان الواقعية بواسطة الفاعلية العملية ، بواسطة الشغل ، وجدلا ماديا يبين كيف يحقق الانسان فعليا كينونته مع تحويله الطبيعة .

على حد قوله ، اذا اعتبرنا الانسان والطبيعة في واقعهما العياني واذا وضعنا كذات للفاعلية الانسانية لا هذا التجريد للانسان الذي هو وعي الذات بل الانسان الواقعي ، العياني ، ذا قوى مادية ، وكموضوع لفاعليته الطبيعية المحسوسة ، عندئذ لا نتعامل مع ذات مجردة نتاجها هو بالضرورة مجردات ، بل مع ذات واقعية ، مع ذاتية القوى العينية للانسان ، الذي نتاجه موضوعات عيانية ، خارجة ، هي عناصر حياته الجوهرية .

الانسان يفعل بصورة عيانية ، لانه ، بطبيعته ، كائن عياني ، والطابع العياني لفاعليته يثبت طبيعته ليس غير . (١) . بالطابع العياني لفاعليته يتأكد الانسان كائن . فبقدر ما هو كائن عياني ، حسي ، بقدر ما له خارجه موضوعات عيانية هي في آن عناصر محددة لفاعليته ومنتوجات لهذه الفاعلية ، وبقدر ما هو للبشر الآخرين موضوع حسي ، بقدر ذلك هو كائن واقعي . هذا هو ، على اي حال ، الشرط العام لوجود كل كائنات الطبيعة . هكذا فالشمس بالنسبة للنبات موضوع لا غنى عنه ، لانها مصدر حياته ، كما ان النبات بالنسبة للشمس موضوع لا غنى

(١) ص ١٥٩ . « ان وعي الذات وهو يتخرج يضع « الشيئية » ... بما ان الذات ليست الانسان الواقعي ... بل تجريد الانسان ، وعي ذات ، فان الشيئية بوصفها تخريجا لوعي الذات لا يمكن الا ان تكون متماثلة مع هذا الاخير . من الطبيعي تماما ان يضع كائن حي ، طبيعي ، ذو قوى عيانية وبذلك ذاته مادية ... من الطبيعي ان يضع بتخريج كينونته عالما من موضوعات واقعية ، يحضر له في شكل الخارجية ، اي في شكل عالم موضوعي ، غريب عنه ويهيمن عليه . ليس ثمة هنا شيء مدحش او خفي ، العكس يكون كذلك » .

عنه أيضا كتجل لقدرتها الخالقة (١) .

ان يكون ذاتا عيانية ، ان يكون له موضوعات خارجه وان يكون في الوقت نفسه موضوعا لغيره ، تلك هي شروط تحقق الانسان بتموضع كينونته (٢) .  
في عرضه سيرورة خلق الانسان لذاته ، ينطلق ماركس من تحليل لاسلوب فاعليته مقارنا بـاسلوب فاعلية الحيوان .

الانسان مثل الحيوان كائن طبيعي يعيش باديء بدء وجودا محدودا ومؤملا لان موضوعات حاجاته ورغباته تمثل له كموضوعات مستقلة وغريبة (٣) .  
هذه المحدودية وهذا العذاب يلعبان ، مع ذلك ، دورا جوهريا في تطور حياة الانسان ، لانهما بالنسبة اليه حوافز تحثه على تطوير الطاقات والقوى التي تمكنه من تحويل الطبيعة بنية تكيفها مع حاجاته (٤) .

فبخلاف الحيوان ، ليس الانسان كائنا طبيعيا فقط ، انه كائن طبيعي انساني ، قادر على استخدام كل ملكاته ، في سبيل تحقيق غاياته بواسطة فاعلية واعية وحررة .  
من هنا تنجم الدلالة المختلفة التي تتخذها الطبيعة بالنسبة للحيوان وبالنسبة للانسان والفرق الاساسي في موقفهما وسلوكهما ازاءها .

محروما من العقل ، الحيوان لا يعي ما يفرقه عن بيئته ولا التعديلات التي يجلبها اليها . متطابقا في الهوية مع فاعليته الفريزية ، المكيفة سلفا مع اسلوب وجوده الخاص ، انه بهذه الفاعلية مستوعب بكيفية مباشرة في الطبيعة التي لا يستطيع تحويلها . حتى حين يستطيع بناء مسكن ، وهكذا العصفور والنملة والنحلة

(١) ص ١٦٠ . « حين الانسان الواقعي ، العياني ، الثابت بقوة على الارض والطبوع بكل قوى الطبيعة ، حين يخرج قواه الواقعية ، العيانية ، في شكل موضوعات تظهر له غريبة ، فان الذات القائمة بهذا العمل ليست فعل الخلق المعتبر بكيفية مجردة ، بل هي ذاتية القوى العيانية التي لعملها بالضرورة طابع عياني . ان كائنا عيانيا انما يفعل بطريقة عيانية ، ما كان ليفعل هكذا لو لم يكن بالجواهر كائنا عيانيا . انه لا يخلق ، لا ينتج موضوعات الا لانه هو نفسه محدد من قبل موضوعات ، لانه جزء لا يتجزأ من الطبيعة . اذ يخلق موضوعات ، لا ينتقل من اسلوب فاعلية « خالصة » الى اسلوب عياني في الخلق ، ان المنتج العياني لفاعليته لا يفعل سوى تثبيت طابع هذه الاخرة التي هي فاعلية كائن طبيعي وعياني » .

(٢) ص ١٦٠ - ١٦١ . ص ٨٧ . « الطبيعة ، بقدر ما لا تتطابق مع الجسد الانساني ، هي جسد الانسان غير العضوي . القول بان الانسان يعيش من الطبيعة معناه ان الطبيعة هي جسده الذي معه يجب ان يبقى الانسان على صلات دائمة كي لا يموت . القول بان حياة الانسان الفيزيائية والروحية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالطبيعة معناه ان الطبيعة ، في الانسان ، مرتبطة مع نفسها ، فالانسان جزء من الطبيعة . » . بما ان كائنا بلا طابع موضوعي هو كائن غير واقعي ، فان الموضوعية بالنسبة لماركس ليست كما بالنسبة لهيغل عنصرا بالاساس مشوبا بالعيب لانه غير مناسب للروح بل هي بالعكس العنصر الاساسي لتطور الانسان منظورا اليه في علاقاته مع الطبيعة .

(٣) ص ١٦٠ .

(٤) ص ١٦١ .

والقندس ، يبقى خاضعا لنمط فاعلية واحد . انه لا ينتج سوى عدد محدود من الموضوعات ، حسب حاجات النوع الذي اليه ينتمي ، وهو يفعل ذلك بكيفية واحدة رتيبة تحت سلطان الضرورة وفي منظور استخدامها المباشر (١) .

مختلف تماما سلوك الانسان الذي ، اذ يخضع فاعليته لعقله وارادته ، يخلق ، بتحويله الطبيعة ، عالما هو عالمه . كالحوان ، الانسان يعيش من منتوجات الطبيعة ، ولكنه ، بعكس الحيوان الذي يجد بصورة مباشرة في الطبيعة كل ما يحتاجه لكي يعيش ، يحولها لجعلها ملائمة لحاجاته . منتجا هكذا حياته ذاتها بفاعليته الواعية التي تسمح له بتحقيق كينونته ، الانسان يعدل في الوقت نفسه بشكل متزايد العمق العلاقات التي تربطه بالطبيعة . بينما الطبيعة تبقى للحيوان شيئا ما خارجيا وغريبا وتحافظ بالنسبة له على شكلها الاول ، فهي بالنسبة للانسان تفقد تدريجيا هذا الطابع وهذا الشكل ولا توجد بالنسبة له اكثر فاكثرا الا بقدر ما تحول و « تؤنس » يشغله (٢) .

ليس هذا التحويل للطبيعة ممكنا الا بفضل المعرفة الكلية التي يكتسبها الانسان عنها وتطور التقنية المؤسس على هذه المعرفة والذي يتيح للانسان ان يفعل فيها بصورة مجدية .

بما ان الانسان بعكس الحيوان له ملكة التعرف على طبيعة الاشياء فانه يستطيع ان يوسع تنقيباته وفاعليته الى ما وراء ما هو ضروري له مباشرة ، لتلبية حاجاته الابتدائية . واذ هو قادر ، بفضل معرفته العامة للعالم ، على توجيه فاعليته بطريقة عقلية ، فانه ينتج بصورة لا رتيبة كالحوان بل متنوعة الى ما لا نهاية مطبقا على كل موضوع المعيار الذي يناسبه (٣) .

في حين ان الحيوان لا ينتج الا عددا محدودا من الموضوعات ، تحت تأثير الضرورة المباشرة ، تحت ارغام الحاجات الفيزيائية ، فان الانسان ، اذ يوسع على كل الطبيعة مجال فاعليته ، يميل الى الانتاج وراء ما هو ضروري له مباشرة . وهو بالحقيقة لا ينتج فعلا وانتاجه لا يتخذ الطابع الكلي الذي يتفق مع طبيعته الانسانية

(١) ص ٨٨ .

(٢) ماركس يفتري في آن عن هيغل وروسو والرومانطيين في تصوره للطبيعة . الطبيعة مفهومة بشكل مجرد على طريقة هيغل هي بالنسبة له العدم . من جهة اخرى ، بعكس روسو والرومانطيين ، انه لا يعتبر الطبيعة في ذاتها بل بالنسبة الى النشاط الانساني ، انها لا تمنيه الا بقدر ما يحولها هذا النشاط فتصير نتاج عمل الانسان ، تعين قواه الخالقة ، تحقق كينونته عيانيا . ص ١٧٠ . « الطبيعة متميزة في ذاتها ، بطريقة مجردة ، خارج الانسان ، هي لا شيء بالنسبة له » . ص ١٢٢ . « الطبيعة كما يخلقها الانسان عبر التاريخ ... هي الطبيعة الحقة بالنسبة للانسان » .

(٣) ص ٨٨ . « الحيوان لا ينتج الا بمقياس وحسب حاجات النوع الذي ينتمي اليه ، بينما الانسان يستطيع ان ينتج بمقياس اي نوع من الانواع وان يطبق على كل موضوع المقياس اللازم له » .

الا حين يتحرر من الخضوع للحاجات الفيزيائية ويفلت من أسر التحديدات والارغابات التي تفرضها عليه (١) .

هذا الطابع الواعي والكلي لنشاطه يتفق مع الطابع النوعي – العام *générique* للانسان ، مع طابع النوع الانساني الخاص *espèce* ، الذي يتميز بجوهره الكلي الكوني عن الانواع الحيوانية (٢) .

هذا الطابع الكلي للفاعلية الانسانية تستجيب له كلية ميدانها . ففاعلية الانسان تتسع لمجموع الطبيعة ، التي يشتق منها ليس فقط ، كالحوان ، ما هو ضروري لبقائه الفيزيائي ، بل ايضا ما يخدمه كمادة واداة شغل ، عناصر فاعليته العملية والنظرية (٣) .

بانتاجه عالما من الموضوعات التي تحمل رسم شخصيته والتي فيها يوضع كينونته ، يخلق الانسان نفسه بشغله .

في سيرورة الانخلاق هذه ، التي خلالها يحول اكثر فاكثر العلاقات المباشرة القائمة في الاصل بينه وبين الطبيعة الى علاقات مع نتاج شغله ، مع الموضوعات التي يخلقها ، هذه الموضوعات تذوت (*sont subjectivés* ) تصير ذاتية ، تكتسب الطابع الذاتي ) باستيعابها في سيرورة الانتاج الذي يجعلها تعين الكائن الانساني ، بينما الانسان يوضع فيها قواه الخالقة .

بهذا الذوت للموضوع الذي وان كان معارضا للانسان فقد تعرض لنفوذ ماهيته بوصفه تعين قواه وبهذا التوضع للانسان فيه ، تتحقق واقعا الوحدة العضوية للذات والموضوع ، للانسان والطبيعة التي تصير اكثر فاكثر صورة ، انعكاس خلق الانسان لذاته .

كما ان الطبيعة بتحولها تدريجيا الى عالم مخلوق من قبل الانسان لا تبقى اكثر فاكثر ذات معنى الا بالنسبة الى الانسان الذي ينتجها من جديد ، كذلك الانسان لا يبقى اكثر فاكثر ذا معنى الا بالنسبة الى الطبيعة التي يحولها والتي هي اداة تحوله ذاته .

بتعين كينونته في منتوج شغله ، يصل الانسان الى المعرفة المليئة لذاته ، وهو

(١) ص ٨٨ .

(٢) ص ١٦٢ . « ليس الانسان فقط كائنا طبيعيا ، انه كائن طبيعي انساني ، اي ... كائن نوعي – عام ، يجب ان يؤكد نفسه ككائن نوعي – عام في سلوكه وبعلمه على حد سواء » . ص ٨٧ . « الانسان يتظاهر ككائن نوعي – عام ليس فقط بجمله نوعه والانواع الاخرى موضوع فاعليته العملية والنظرية ، بل ايضا ... باعتباره نفسه تجسيد النوع الانساني ويتصرفه على هذا الاساس ككائن كلي وحر » . ص ٨٨ « بطلقة العملي لعالم موضوعي ، بتحويله الطبيعة غير العضوية ، يؤكد الانسان نفسه ككائن يعتبر ان النوع يتجسد فيه كما انه تجسيد النوع » .

(٣) ص ٨٧ .

يشني نفسه ليس فقط فكريا في الوعي ، بل ايضا عمليا ، واقعيا ، في الموضوعات التي ينتجها ، آخذا بواسطتها وعي قوته الخالقة التي تمكنه من تحويل العالم ومتعرفا على نفسه في العالم الذي يخلق .

هذا التحويل للطبيعة يحصل في آن معا بالفاعلية العملية ، بالانتاج ، الذي يتيح للانسان اعادة انتاج الطبيعة لتصير ملائمة لحاجاته ، وبالفن الذي يولد حين سهل تقدم الانتاج تملكا كليا للطبيعة من قبل الانسان والذي بفضل الانسان يعيد انتاج ( = ينسخ reproduct ) الطبيعة في ملامحها الجوهرية (١) .

ان عمل الانسان في الطبيعة تحدد تلبية حاجاته . ان صلة الحاجة بالموضوع الذي فيه تجد اشباعها تحدد مع تحديدها علاقات الانسان مع الطبيعة صلاته مع البشر الآخرين . اذ بالوساطة بين الحاجة وموضوعها التي تقوم بواسطة الشغل يتجاوز الانسان المباشرة في علاقاته مع الطبيعة ويدخل البشر في صلات فيما بينهم بشفاغة اعمالهم ، صلات ترتدي شكل علاقة ذات الى ذات بواسطة الموضوع .

ان تأنيس الانسان او نزع انسيته بالفاعلية يتوقف على طبيعة الحاجات التي يريد تلبيتها . في حين ان تلبية حاجات باطلة ، كحاجة المال التي ينجمها نظام الملكية الخاصة ، تدفع الى البحث عن ثروات كاذبة والى خلقها وبذلك عينه الى نزع انسانية الانسان ، فان تلبية حاجاته الحققة تؤدي الى تأنيسه التدريجي . اذ بتلبية الحاجة الجوهرية التي هي بالنسبة للانسان ان يكون نفسه بشكل مليء ، وهو ينمي انسانيته وانسانية البشر الآخرين ، تتفتح كل الحاجات الانسانية ويخلق الانسان نفسه في امتلاء كينونته (٢) .

نرى هكذا كيف يتميز ماركس عن هيجل وعن الاقتصاديين في تصويره لتشكيل الانسان . الانخلاق الهيجلي للانسان الذي يتساوى مع الكون وهو يفكره من جديد ، تأنسنه ببلوغه وعي ذات اكثر فاكثر رفعة بفضل معرفة للعالم اكثر فاكثر عمقا ، يعارضهما ماركس بانخلاق الانسان بالفاعلية العملية ، بالشغل ، الذي يعطيه طابعا مختلفا تماما .

اجل هيجل يتصور هذا الانخلاق كانبساط جدلي ينجم عن كون الانسان يخلق نفسه بتجاوز دائم للتحديدات والعلاقات التي لا تتفق وكينونته ، تجاوز يجعله يبلغ

(١) ص ٨٨ .

(٢) ص ١٢٣ - ١٢٤ . « نرى كيف انه محل الفنى والبؤس كما يتصورهما الاقتصاد السياسي ، يوجد الانسان الفنى والحاجة الانسانية الفنية . الانسان الفنى حقا هو الذي يطمح الى جملة التجليات الانسانية ، الذي يعاني كضرورة داخلية حاجة ان يتحقق واقعا بشكل مليء . ليس فقط الفنى بل الفقر ايضا يتغدان في الاشتراكية دلالة انسانية وبالتالي اجتماعية . فالفقر يصبح فيها الرابطة التي توحد الانسان مع الانسان الآخر ، جاعلة اياه يشعر ان حاجته اليه هي ثروته الاكبر » .

تفهما افضل للعالم ولنفسه ، ولكن بما ان هيجل يحذف الموضوعية بروحنة الانسان والعالم ، فان التعارض بين الذات والموضوع ، بين الانسان والعالم ، يعود الى التعارض بين الوعي وموضوعه الذي يجري على صعيد الفكر ، بحيث ان حركة انخلاق الانسان الجدلية تنقلص الى حركة الروح . بما ان ماركس ، بخلاف هيجل ، يعتبر الانسان والطبيعة في واقعهما العياني ، فان الفاعلية الانسانية ، بدلا من ان تنقلص الى فاعلية روحية جوهرية ، تتخذ عنده طابع فاعلية عيانية ، طابع شغل ، يكون اساس العلاقات الانسانية . ولذا فان الانبساط الجدلي الذي يجري على صعيد مادي جوهرية ليس ، كما عند هيجل ، ذا طابع ظاهري ، شكلي ، من جراء ان الواقع الملقى في النظر ليس ملفى في العمل ، بل يرتدي طابعا واقعيا وينتهي الى حذف فعلي لكل ما يعارض تحقق الكينونة الانسانية الكامل (١) .

مع اعطائه ، كالاقتصاديين ، اهمية اولية لفاعلية الانسان العملية ، المنتجة ، ماركس ينفصل عنهم ايضا بتصوره للشغل الذي يجب ان يكون له كهدف لا انتاج الثروات المادية تحت رسم الانخلاع بل اغناء متبادل للبشر بخلق قيم انسانية حقيقية . ان خلق الانسان لذاته هو ثمرة شغل جماعي ، وله ، بحكم ذلك ، طابع اجتماعي بالضرورة . فالانسان لا يستطيع ان يحقق كينونته بكيفية معزولة ، انه لا يستطيع ذلك الا بتعاونه مع البشر الآخرين ، وهو هكذا ليس انسانيا حقا الا ككائن اجتماعي ، الا بقدر ما يندمج تكامليا في المجتمع (٢) .

ان الطابع الاجتماعي لفاعلية كل فرد ينجم ليس فقط عن واقع ان عناصر فاعليته المادية والروحية على حد سواء ( مواد اولية ، أدوات ، تقنيات ، لغة ) مقدمة له من قبل المجتمع ، بل ايضا عن واقع ان كل عمله المحدد من قبل المجتمع الذي في اطاره ينسبط يتجه الى تفتح كينونته بأنسنة البشر الآخرين (٣) .

هذه الانسنة تحصل بحركة جدلية هي ، اذ تقود من الذات الى الموضوع وبالموضوع الى ذات أخرى ، تنتهي بتذويت الموضوع الى اقامة علاقات ذاتية وموضوعية في آن بين الذات وبالتالي باشباع الحاجات الجماعي الى تشكل المجتمع

(١) ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٢) هذا الرافض للفردوية بوصفها انعكاس نمط الحياة المحدد من قبل نظام الملكية الخاصة الذي يضع البشر بعضهم ضد بعض فيجعلهم افرادا منزولين وانانيين ، كان قد وجد تعبيره في اطروحة الدوكتوراه ، حيث رفض ماركس كل تصور يحول المجتمع الى ذوات ، ثم في المؤلفات التالية ، حيث انتقد الماديين الذين يقاصون كل شيء الى حركات ميكانيكية لذرات والفردوية الفوضوية لـ « المتقين » . (٣) ص ١١٦ . « حتى حين امارس فاعلية علمية ... فان فاعليتي لها طابع اجتماعي ، بحكم كونها فاعلية انسانية . ليس فقط مادة واداة نشاطي - بما في ذلك اللغة التي هي اداة الفكر - مطعنان لسي بوصفهما منتوجين اجتماعيين ، بل ان وجودي عينه هو فاعلية اجتماعية ، اذ ان ما اعمله من نفسي انما اعمله للمجتمع اخذا وعي صفتي ككائن اجتماعي » .

الذي يؤلف العنصر المقرر في خلق الانسان لذاته .

مع تحقيقه لنفسه بأعماله ، بفضل تعاون البشر الآخرين ، يسهم الفرد بها في انستهم لانها ليست فقط موضوعات بها يؤكد وينمي شخصيته بل هي ايضا موضوعات بها تتحقق كينونة البشر النوعية - العامة ، الجماعة الانسانية (١) .

اذ يستخدم الموضوعات المنتجة من قبل البشر الآخرين ( ماكينات ، ادوات ، اعمال فنية ) والتي طبعوها بوسم شخصيتهم ، الفرد يفتني بكيونوتهم مع اغناؤه لهم بالمقابل بالموضوعات التي ينتج ، بحيث ان البشر يتبادلون الاغناء بالعلاقات التي تخلق بينهم بواسطة اعمالهم (٢) .

هكذا في المجتمع فقط ، بالتقدم المتدرج المتوازي لتأنس الطبيعة الذي يجمل الواقع الموضوعي واقعا انسانيا ولتأنس البشر الذين يتبادلون الاغناء بأعمالهم ، يحقق الفرد كينونته بشكل مليء واضعا وجوده الخاص في خدمة الجماعة (٣) .

بما ان وجود الفرد مرتبط بالمجتمع ارتباطا لا ينفك ، لذا لا يمكن فصله عن هذا الاخير ولا وضعه في معارضته . فلئن كان الانسان فردا خاصا ، ذا طابع نوعي

(١) ص ٥٣٥ - ٥٣٦ . « ان تبادل الفاعلية الانسانية في اطار الانتاج ومنتجات هذه الفاعلية هو تظاهر الفاعلية النوعية - العامة للانسان والروح الانسانية التي تجد تعبيرها العياني والواعي والحق في انسانية ، بوصفهم تجسيدا للنوع الانساني ، يخلقون الجماعة الانسانية ، كينونتهم الاجتماعية . هذه انسانية ، بوصفهم تجسيدا للنوع الانساني ، يخلقون الجماعة الانسانية ، كينونتهم الاجتماعية . هذه الكينونة الاجتماعية ليست قوة مجردة تعارض الافراد ، بالمعكس انها مكونة من عين جوهر كل فرد ، من فاعليته ، حياته ، روحه ، ثرواته . ليس من فعل تفكير تولد الجماعة الانسانية الحققة ، انها ثمرة الضرورة التي يطيعها الافراد ، ثمرة انانيتهم ، نتاج فاعليتهم المباشر . ليس متوقفا على البشر ان توجد او لا هذه الجماعة ، ولكن ، طالما ان الانسان لم يأخذ وعي صفته كإنسان ولم ينظم العالم بكيفية انسانية ، فان هذه الجماعة تتظاهر في شكل الانخلاع ، لان ذاتها ، الانسان ، كائن منخلع . البشر ، لا في شكلهم الجرد ، بل كأفراد واقعيين ، احياء ، خاصين ، هم الذين يكونون جوهرها ، هي ما هم » .

(٢) ص ١١٩ . « الانسان لا يضع في موضوعه ، اذا صار هذا الاخير بالنسبة له موضوعا انسانيا ، تعين طبيعته الانسانية ، وهذا غير ممكن الا اذا صار بالنسبة له موضوعا اجتماعيا ، الا اذا تصرف هو ازاده ككائن اجتماعي ، واذا تجسد المجتمع بالنسبة له في هذا الموضوع . حين في المجتمع ، تصير الموضوعية بالنسبة للانسان تعين القوى الانسانية ، واقعا انسانيا ، وبذلك عينه واقع كينونته ، كل الموضوعات تصير بالنسبة له تعين كينونته ، موضوعات تحقق وتثبت شخصيته ، تصير موضوعاته ، ويصير بذلك هو نفسه موضوعا » .

(٣) ص ١١٦ . « الفاعلية والروح لهما ، فيما يخص محتواهما وانبساطهما على حد سواء ، طابع اجتماعي ، انهما فاعلية اجتماعية وروح اجتماعية . ان جوهر الطبيعة الانسانية ليس موجودا الا للانسان الاجتماعي ، ففي المجتمع فقط هي تكون الرابطة بين البشر ، نمط وجود الفرد للآخرين والآخرين له ، العنصر الحي في الواقع الانساني . في المجتمع فقط تشكل أساس الحياة الانسانية ، تصير حياة الانسان الطبيعية وجودا انسانيا ، وتأنس الطبيعة . هكذا يحقق المجتمع الاتحاد العميق بين الانسان والطبيعة ، « طبعنة » الانسان التامة و « تأنس » الطبيعة الكامل » .

وبذلك عينه ذا مفردية تميزه عن البشر الآخرين ، فانه في الوقت نفسه يجسد بفكره وبأفعاله جملة المجتمع الفكرية (١) .

ان تفتح الانسان تفتحاً مليئاً ، الذي يحصل هكذا ب « تطبع » ه ، اي بتعين كينونته في اعماله وبتأنس الطبيعة الموزي ، ينوسم بتحول حياته محض البيولوجية الى حياة اجتماعية تميزه اكثر فاكثر عن الحيوان (٢) .

ان حلول الحاجات الانسانية المتزايدة الفنى والتركيب محلل الحاجات الحيوانية والعقل محل الغريزة يؤدي الى التوسع الدائم لسلطة الانسان على الطبيعة . من هذا التحرر المتدرج للانسان من سيطرة الاشياء تولد الحرية التي لا يحصرها ماركس ، كما يفعل هيجل ، في فعل تحرر روحي بتفهم معقولة العالم ، بل يتصورها فعل تحرر فعلي بالغاء جميع الانخلاعات التي تعارض تحقق الكينونة الانسانية .

مع تأنس الطبيعة والانسان بالشغل وصير الموضوعات الطبيعية موضوعات انسانية بتحولها الى منتوجات للشغل ، الحواس ايضا تتخذ طابعا انسانيا لم يكن لها في الاصل . طالما الانسان ليس له مع الطبيعة سوى علاقات مباشرة ، حواسه لا تميز جوهريا عن حواس الحيوان وليست سوى ادوات حياته البيولوجية ، وهي تتأنس بالقدر الذي فيه يملك الانسان ، بواسطتها ، الطبيعة المحولة بتموضع قواه (٣) .

ان أنسنة الواقع الحسي والحواس هي نتاج كل تاريخ البشرية . فقد كان من اللازم ان ينشر الانسان كل كينونته في سير تطوره ، كي تنال الحواس طابعا ملائما لكل ثروة الانسان والطبيعة المؤنسنة ، كي ، بتفتح الكائن الانساني ، تصير الاذن حساسة لتناسق الاصوات والعين حساسة لتناسق البنى والاشكال (٤) .

بتصرفها الانساني ازاء موضوعاتها وبأسلوب تملكها هذه الموضوعات ، صارت الحواس تعبير تأنس الانسان الذي يتأكد كإنسان ليس فقط بالفكر بل ايضا بكل حواسه ، الامر الذي يجعل ماركس يقول ان هذه الحواس صارت منظرة ، قاصدا

(١) ص ١١٦ - ١١٧ . « المجتمع ينتج الانسان بصفته انسانا وهو في الوقت نفسه منتج من قبله .. يجب قبل اي شيء ان نتجنب وضع « المجتمع » كتجريد في وجه الفرد . الفرد هو الكائن الاجتماعي ، وجوده ... هو بالتالي تعبير ، تثبيت الحياة الاجتماعية . ليست حياة الفرد وحياة النوع مختلفتين احدهما عن الاخرى ...

الانسان ، مع كونه فردا خاصا - وهذه الخصوصية بالفيض تجعله فردا ، فردا واقعا ، اجتماعيا - يجسد ، في الوقت نفسه ، جملة المجتمع الفكرية idécce ، وجوده الذاتي ... » .

(٢) الشكل الاول والاساسي لأنسنة الانسان قوامه ، حسب ماركس ، العلاقات بين الرجل والمرأة ، التي لها طابع طبيعي واجتماعي معا ( انظر المرجع نفسه ، ص ١١٣ ) . بنتيجة تطوّر الانتاج ، هذا الشكل الاول من تأنس متبادل تعمم على الصعيد الاجتماعي ، بغلق علاقات اكثر تعقيدا بين البشر ، علاقات تقوم بواسطة اعمالهم .

(٣) ص ١٦٢ .

(٤) ص ١٢٠ - ١٢١ .

بذلك انها تترجم على صعيد الوعي الحسي عن تقدم البشرية الذي يجد تعبيره المجرد في الفكر (١) .

ان تأنس الحواس يحصل بتملكها الموضوع ، الكيفية التي بها يتحقق هذا التملك تتوقف على الطابع الخاص لكل موضوع وعلى الحاسة المتكيفة مع تملكه . ان خصوصية العلاقة بين الموضوع وأسلوب تملكه تختلف مع كل حاسة ، هكذا فالموضوع للعين ليس نفسه للأذن وأسلوب تملكه من قبل العين يختلف عن أسلوب تملكه من قبل الأذن (٢) .

بالحواس الانسانية ، التي بواسطتها يدخل الانسان في تماس مع الطبيعة المحولة من قبله والتي تتفق مع كلية كينونته ، ماركس يعني ليس فقط الحواس الخمس بل ايضا الفكر ، التأمل ، الارادة ، اي كل الوسائل التي هي بتصرف الانسان بنية تملك العالم والتي هي ايضا لم تأنس تدريجيا الا بانتشار كل ثروة الانسان (٣) .

بما ان كل علاقة للانسان مع العالم قائمة بواسطة الحواس كما بواسطة الفكر ، التأمل والعمل وسلوك هذه ازاء موضوعها ، هي تعبير انسنة الانسان والطبيعة معا بالترايط ، ينجم عن ذلك ان التغير الذي يلحقه الانسان بالطبيعة يتطلب تعديلا لعضائه لا يمكن ان يتخطى ما يشترطه تملك الموضوعات من قبلها .

هذا التأنس المتدرج للحواس بالتطور الاجتماعي للانسان يفسر طابعها الخاص الذي يميزها عن حواس الحيوان . وهو يفسر ايضا كون حواس الانسان المؤنس مختلفة عن حواس الانسان المحروم من انسانيته . هكذا فحواس الانسان الخضع لحاجات فظة تبقى محدودة وفظة ، وأذن الانسان المفتقر الى تربية موسيقية لا تحس الموسيقى ، والانسان المثقل بالهموم لا يملك حس - معنى Sens الاشكال (٤) .

ان التحقق الكامل للانسان بانبساط كينونته المتناسق ، بتأنس حواسه وموضوعاتها ، الذي يمكنه من تأكيد نفسه ليس بالفكر فقط بل ايضا بطريقة حسية ، في منتج فاعليته (٥) لا يمكن ان يحصل في نظام الملكية الخاصة ، بسبب الانخلاع العام الذي تنجبه ، من هنا ضرورة استبدال هذا النظام بنظام شيوعي .  
ان خلق الانسان لذاته بتحويل الطبيعة يؤلف التاريخ الانساني . بما ان هذا التاريخ مرتبط ارتباطا وثيقا ، عضويا ، بتاريخ الطبيعة ، ينجم عن ذلك ان كل درجة

(١) ص ١١٨ - ١١٩

(٢) ص ١١٩ .

(٣) ص ١١٨ ، ١١٩ .

(٤) ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٥) ص ١١٩ - ١٢٠ .

في تحول الطبيعة توافقها مرحلة في تطور البشرية (١) .  
ان العنصر المقرر - المحدد في سيرورة خلق الانسان لذاته هو تلبية الحاجات  
بواسطة الانتاج الذي يدعو ماركس بكلمة عامة هي الصناعة (٢) . على هذا الاساس ،  
ان تطور التاريخ يتطابق في الهوية مع تطور الصناعة التي بفضلها يجعل الانسان  
الطبيعة مؤلفه .

ماركس يستعير من الاقتصاديين هذا التصور عن الاهمية الاولى للانتاج ،  
ولكنه بعكسهم لا يعتبره من وجهة نظر نفعية ضيقة ، اذ يرى فيه بشكل خاص  
وسيلة الانسان لتحقيق كينونته بالشغل .

بتحويلها علاقات الانسان المباشرة مع الطبيعة الى علاقات مع انتاجه وبخلقها  
هكذا شروط تفتح الانسان تفتحاً كاملاً ، تترجم الصناعة ، في انبساطها ، عن التقدم  
اللامتناهي للانسان في انتشار انسانيته .

ان تقدم الصناعة ، وقد حصل حتى الآن تحت نظام الملكية الخاصة الذي  
لا ينكر ماركس عنه فضل تسهيل تطور التقنية ، قد سبب تفاقمًا دائمًا للانخلاع  
الانساني بدلًا من الاسهام في أنسنة البشر . في الوقت نفسه ، مع ذلك ، ان تطور  
الصناعة في ظل نظام الملكية الخاصة قد خلق ، بزيادة حدة الصراع الطبقي بين المالكين  
وغير المالكين ، شروط نضال البروليتاريا الثوري الذي سيحرر البشرية باحلال النظام  
الشيوعي محل النظام الرأسمالي (٣) .

عن تشكل وتطور منظومة الملكية الخاصة وعن ضرورة استبدالها بمنظومة  
شيوعية ينجم انقسام التاريخ الى طورين كبيرين : طور ما - قبل - التاريخ الذي  
يشمل كل مرحلة انبساط الانسان تحت حكم الانخلاع وطور اعادة تأنس وكامل  
تحقق الانسان بانبساط كينونته الكلي الذي يعطي التاريخ معناه ومداه .

هذا التصور المادي للتاريخ ، المؤسس على مفهوم انخلاق الانسان بتحويل  
الطبيعة ، في اطار صراعات طبقية هائلة ينتجها نظام الملكية الخاصة ، يعطي ، مع

(١) ص ١٦٢ . « كما ان كل ما هو طبيعي قد تشكل تدريجيا ، كذلك الانسان هو ايضا تشكل عبر  
التاريخ ، الذي هو بالنسبة له ، بخلاف ما هو عليه بالنسبة للطبيعة ، انبساط يعيه الانسان ويرتدي  
شكل نفي مستمر . التاريخ هو التاريخ الطبيعي الحقيقي للانسان » . ص ١٢٣ . « التاريخ الانساني  
هو جزء فعلي من تاريخ الطبيعة ، انه تاريخ أنسنة الطبيعة » .

(٢) ص ١٢٢ . « الصناعة تمثل العلاقة التاريخية الواقعية التي تربط الطبيعة وبالتالي علوم الطبيعة  
بالانسان » . ص ١٢١ - ١٢٢ . « في الصناعة العادية ، المادية ... لدينا في شكل موضوعات حسية ،  
خارجية اذانا ومفيدة ، اجل تمثل في هيئة مخلفة ، تعين قوى الانسان » .

(٣) ص ١١٤ . « من السهل ان نرى ان كل الحركة الثورية لها اساسها التجريبي الحسي والنظري  
سواء بسواء في حركة الملكية الخاصة ، اي في الاقتصاد » .

اعطائه تفسير التطور الاقتصادي والاجتماعي ، تفسير الايديولوجيات التي انجبها هذا التطور .

بما ان الانسان محدد اجتماعيا في فاعليته العملية وفي فاعليته النظرية سواء بسواء ، ينجم عن ذلك ان ايدولوجياه ، اي اشكال فكره : الدين ، الفلسفة ، الاخلاق ، الحقوق ، العلوم ، ما هي الا انعكاسات تطوره الاجتماعي المحدد بدوره من قبل تطور الانتاج (١) .

بين مختلف اشكال الايديولوجيا ، ماركس لا يعالج بشيء من التفصيل سوى الدين والفن وخصوصا العلوم .

الدين ، الانعكاس الروحي للانخلاع الذي ينجمه نظام الملكية الخاصة ، يضاعف خطورة هذا الانخلاع باضافته الى العبودية التي تثقل كاهل الانسان المستغل خضوعه لله وبتسويفه هذه العبودية بتقديمها على انها اثر الارادة الالهية .

بعكس الدين ، الفن يمثل الشكل الاعلى لتحقيق الكائن الانساني ، اذ معه يبلغ نسخ ( اعادة انتاج ) الطبيعة ، المعتبرة في جوهرها ، أعلى درجة من درجات الكمال . كالدين ، ولكن بكيفية مختلفة - فالدين نفسي الكينونة الانسانية بينما الفن اعلى تظاهراتها - ، الفن يعلل بالتطور التاريخي الذي سمح له بأن يولد وان ينمو بفضل تأنس الحواس وموضوعها .

في تحليله للعلوم ، يقيم ماركس ترابطا وثيقا بين علوم الطبيعة والعلوم الانسانية ، بحكم قاعدتهما المشتركة التي هي التحول الذي يلحقه بالطبيعة شغل الانسان .

ماركس يعتبر ، مع فويرباخ ، ان الطبيعة تشكل اساس كل العلوم (٢) ، ولكنه ، بخلاف فويرباخ ، يتصور الطبيعة لا كما تحضر للانسان في شكلها الاول بل بقدر ما تحول بشغله ، بالانتاج ، بالصناعة (٣) .

ان تاريخ الصناعة يعطي ، على حد قوله ، مفتاح تفسير كل العلوم التي لا يمكن ان تفهم الا بالنسبة اليها . لانهم حتى الآن نظروا الى العلوم بشكل مجرد ، خارج علاقاتها مع الصناعة ، لذلك لم يستطيعوا تأسيس علم حقيقي .

(١) ص ١١٥ . « الدين ، العائلة ، الدولة ، الحقوق ، الاخلاق ، العلوم ، الفن ، الخ ، ما هي الا انماط خاصة للانتاج وهي محكومة بقوانينه » .

(٢) ص ١٢٣ . « الواقع الحسي ( انظر فويرباخ ) يجب ان يؤلف قاعدة كل العلوم . فقط حين ننتقل من هذا الواقع المعتبر في هيئته المزدوجة كوعي حسي وكعاجية عيانية ، فقط حين ينطلق العلم هكذا من الطبيعة ، يكون علما حقيقيا » .

(٣) ص ١٢٢ . « الطبيعة كما تتحول خلال التاريخ الذي هو فعل خلق المجتمع الانساني هي الطبيعة الحقيقية بالنسبة للانسان ، ان الطبيعة المحولة بالصناعة - رغم ان هذا التحول جرى حتى الان في شكل الانخلاع - هي الطبيعة الانسانية الحقيقية » .

العيب الاساسي لكل العلوم مرده انهم لم يروا ان الانسان هو الموضوع المباشر لعلوم الطبيعة وان الطبيعة هي الموضوع المباشر للعلوم الانسانية وانهم هكذا فصلوا علوم الطبيعة عن علوم الانسان .

فعلوم الطبيعة ليس لها معنى حقيقي الا اذا كان لها كموضوع دراسة الطبيعة المحولة من قبل الانسان واذا كانت ترمي الى تطوير التقنية والصناعة (١) .

رغم التطور الهائل الذي اتخذته ، ظلت العلوم الطبيعية مجردة وناقصة ، بسبب كونها لم تتخذ كموضوع اساسي لدراستها الطبيعة المحولة من قبل الانسان . بالصناعة ، التي سهلت العلوم الطبيعية ازدهارها ، اسهمت فعلا هذه العلوم اكثر فاكثر في تحويل الحياة الانسانية (٢) ، ولكن عليها ان ترتبط ارتباطا اوثق ايضا بالفاعلية العملية للبشر ، كي تصير علوما حقيقية وكي تخدم كقاعدة للعلوم الانسانية .

لئن ظلت العلوم الطبيعية مجردة وناقصة لكونها لم تحسب حسابا للتاريخ الانساني ، فان العلوم الانسانية ظلت كذلك هي ايضا لكونها لم تعتبر ان الطبيعة المحولة من قبل الانسان هي اساس الحياة والفاعلية البشريتين (٣) .

هذا يفسر ان التاريخ قليلا ما اهتم بالتطور الاقتصادي والاجتماعي وحصر اهتمامه او تقريبا في السياسة والدين والادب والفن ، منظورا اليها خارج هذا

(١) ص ١٢٢ . « الصناعة هي الرابطة الحقيقية التي توحد الطبيعة مع التاريخ وبالتالي علوم الطبيعة مع الانسان . حين نعتبرها نخرج قوى الانسان ، نصل الى تفهم الجوهر الانساني للطبيعة والجوهر الطبيعي للانسان . حينئذ تفقد العلوم الطبيعية طابعها المادي الجرد او بالاصح اتجاهها المثالي وتفقد قاعدة العلوم الانسانية ، كما سبق ان اصبحت - ولو في شكل الانخلاع - قاعدة حياة الانسان العيانية . والحال ، انه لامر متناقض ان نعتبر ان الحياة لها اساس والعلوم لها اساس آخر » .

(٢) ص ١٢٢ .

(٣) ص ١٢٣ . « الانسان يشكل موضوع العلوم الطبيعية المباشر . الطبيعة المباشرة ، المحسوسة للانسان ، هي الواقع الحسي الانساني كما يحضر له في البشر الآخرين . فواقعه - هو المحسوس لا يصير واقعا انسانيا بالنسبة له الا بوساطة البشر الآخرين . الطبيعة ، من جهتها ، تشكل موضوع العلوم الانسانية المباشر . فالموضوع الاول بالنسبة للانسان هو الانسان الذي هو كائن طبيعي ، حسي ، وقوى الانسان الخاصة ، الحسية ، التي لا تستطيع ان تتعمق الا في موضوعات طبيعية ولا يمكن حقيقة التعرف عليها وفهمها الا بتحليل لجوهر الطبيعة . ان عنصر الفكر الذي يسمح بتعبيره ، اللفظ ، هو نفسه ذو طبيعة حسية . ان الواقع الاجتماعي للطبيعة والعلم الطبيعي للانسان حدان متماثلان ، كائتمان لهما هوية واحدة » . ص ١٢٢ . « العلوم الطبيعية تطورت تطورا هائلا وتمثلت كمية متزايدة من المواد . بيد ان الفلسفة ظلت غريبة عنها بقدر ما ظلت هي غريبة عن الفلسفة . وحدتهما الموقنة ( كما تحققت في منظومتني هيغل وشيلنغ - ا. ل. ) كانت محض وهم . اجل كانت هناك ارادة تحقيق هذه الوحدة ولكن القدرة كانت مفقودة . التاريخ لا يحسب حسابا للعلوم الطبيعية الا بشكل تابع ، لا يحسب حسابها الا بقدر ما هي تسمح بتفسير طابع وفائدة الاختراعات الكبرى » .

## التطور (١) .

هذا الطابع المجرد للعلوم الانسانية الذي منعها حتى الآن من ان تتكون كعلوم حقة يبرز بشكل خاص في السيكولوجيا ( « علم النفس » ) التي انفت القيام بدراسة الانسان دلاراسة واقعية ، عملية (٢) .

بحكم الاتصال الوثيق بين علوم الطبيعة والعلوم الانسانية لا يوجد في الواقع سوى علم واحد يشمل دراسة الانسان ودراسة الطبيعة (٣) . التاريخ مفهوما على النحو المذكور يعطي ايضا حل المسائل النظرية ، كمسالة العلاقات بين الوجود والجوهر ، الذاتية والموضوعية ، الحرية والضرورة ، الفكر والكيونة ، وهي مسائل مرتبطة بالتطور الاجتماعي ، ولا تجد الا به تفسيرها وحلها . ان حل هذه المسائل لا يمكن بلوغه الا اذا اعتبرناها في علاقاتها مع الحياة الاجتماعية ، عندئذ تفقد طابعها الميتافيزي الذي تحته درست حتى الآن (٤) .

بالحقيقة هذه المسائل تنجم عن الطابع التناقضي للعلاقات الاجتماعية في النظام الرأسمالي . التناقضات الايدولوجية ليست الا انعكاس التناقضات الواقعية التي تمثل بكيفية مجردة تحت شكل مفاهيم طباقية ( anrêthêtuqs متنافية ) . مقدمة هكذا ، هذه التضادات الثنائية تبقى بلا حل ممكن . لا يمكن ان تجد حلها الا

(١) ص ١٢١ - ١٢٢ . « نرى هكذا كيف ان تاريخ الصناعة وانسائها الواقعي هما كشف ( اعلان ) قوى الانسان والروح الانساني العيانية . هذا الروح لم يدرس حتى الآن في علاقاته مع جوهر الانسان بل في علاقات خارجية ازاده ، لانهم الى هنا لم يكبو الا على ادراك جوهر الانسان مجردا ، منغلقا ، كما يحضر في الدين ، وجوهر التاريخ مجردا كما يحضر في شكل السياسة ، الفن ، الادب ، منظورا اليها على انها تعبيرات واقعية لقوى الانسان الجوهرية ، تجليات لكيونته الجماعية » .

(٢) ص ١٢٢ . « ان سيكولوجيا تجهل هذا التظاهر للجوهر الانساني ( الا وهو الصناعة - ا. ل. ) ، اي الجزء الاكثر راهنية والاقرب مثلا من التاريخ ، لا يمكن ان تصير علما واقعيا وحيا . ماذا يجب ان نفكر عن علم يدير ظهره لهذا الجزء الجوهرية من التاريخ ، لا يعي قصور ذاته ، وعنده لا يشر ميدان من الفاعلية الانسانية بهذا الاتساع وهذه الثروة من تفكيرات سوى كلمات « حاجات » ، « حاجات مبتدلة ! » .

(٣) ص ١٢٣ . « التاريخ الانساني جزء لا يتجزأ من تاريخ الطبيعة ، انه تاريخ انسنة الطبيعة . على هذا الاساس ، ان علوم الطبيعة سوف تشمل في زمن لاحق علوم الانسان ، كما ان العلوم الانسانية سوف تشمل العلوم الطبيعية ، بحيث لن يكون سوى علم واحد » .

(٤) ص ١٢١ . « نرى كيف ان الذاتية والموضوعية ، الروحانية والمادية ، الفصل والعذاب ، يفقدون ، حين نعتبرهم في علاقاتهم مع المجتمع ، طابعهم التناقض ونمط كيونتهم كحدود متناقضة . نرى كيف ان حل التعارضات النظرية لا يمكن اكتسابه الا على صعيد الممارسة ، الا بالفاعلية العملية الانسانية ، وكيف ان هذا الحل ليس باي حال مهمة للمعرفة وحدها ، بل مهمة تنطرح على الحياة بعينها ، مهمة لم تستطع الفلسفة حلها ، لان الفلسفة لم تكن تنظر الى هذه المسائل الا على الصعيد النظري » .

بتحويل فعلي للعلاقات الاجتماعية ، الا بالشيوعية التي تحذفها بالفعل (١) .  
هكذا فالتعارض بين الوجود والجوهر يعود الى التنافر الموجود في النظام  
الرأسمالي بين طبيعة الانسان الحققة ، جوهره ، وشروط وجوده ، التنافر الذي  
يجعل الانسان في هذا النظام يعيش حياة منخلعة تضعه في معارضة جوهره ، طبيعته  
الحققة . هذا التناقض بين الوجود والجوهر ، المنجب من قبل النظام الرأسمالي ،  
لا يمكن ان يلقى الا باقامة نظام شيوعي ، فيه هذان الحدان اذ يكفان عن التعارض  
بصيران متكاملين .

كذلك التعارض بين الذاتية والموضوعية مرده واقع ان خلق الانسان لذاته في  
النظام الرأسمالي بتعين ، بتموضع قواه ، بشكل ليس تأكيد ، تحقيق كينونته  
الحقيقية ، ذاتيته ، بل نفي هذه الذاتية .

كذلك ان حل معضلة الحرية والضرورة لا يمكن نيله الا اذا تصورناهما  
لا تجريديا ، ميتافيزيا ، بل في علاقاتهما الجدلية . ماركس يعتبر ، مع هيغل ، ان  
الحرية الانسانية لا تنفصل عن الشروط التي فيها يمكن ان تمارس والتي تشكل  
بالنسبة لها عنصر الضرورة ، بحيث انه لا يمكن ان يكون ثمة حرية بلا ضرورة ، اي  
حرية مطلقة . ولكنه ، بعكس هيغل الذي يعتقد ان الحرية تولد من تفهم معقولة  
العالم ، يفكر ان الحرية تتولد لا من الفاعلية الروحية المحضة البسيطة ، من النظران ،  
بل من الفاعلية العملية للانسان الذي يوسع باستمرار ميدان حريته بالسيطرة التي  
يمارسها على الاشياء .

وكذلك من وجهة نظر الفاعلية العيانية ، العملية ، يدرس ماركس مشكلة  
المعرفة ، اي مشكلة العلاقات بين الفكر والكيونة . سابقا كان هيغل قد تصور  
مفهوميا ان تملك العالم من قبل الانسان هو ثمرة فاعليته الروحية ، فكره ، وهو  
ينجم عن اعادة انتاج تحديدات العالم الواقعية في الروح ، ولكنه ، باعادته الواقع  
الموضوعي الى مفاهيم ، كان يقلص تملك العالم من قبل الانسان الى تملك نظري ، الى  
معرفة قوانينه .

بعكس هيغل ، ماركس يفكر ، مع فويرباخ ، ان الطبيعة لها واقعية خاصة ،  
مستقلة عن الانسان ، هي مع ذلك قابلة لان تدرك ، بحكم الوفاق العميق الموجود بين  
الحساسية وموضوعها ، ولكنه ، متجاوزا فويرباخ ، يعتبر ان الواقع الموضوعي مكون  
جوهريا ، بالنسبة للانسان ، من مجموع العلاقات الاقتصادية والاجتماعية الناجمة  
عن فاعليته العملية ، وان وحدة الكيونة والفكر تتحقق في وبهذه الفاعلية .

(١) ص ١١٤ . « هذه الشيوعية ( الشيوعية الحققة - ا. ل. ) هي ، بوصفها التحقيق الكامل  
لثانسن الطبيعة ولتعيين و « تطبعن » الانسان ، الحل الحقيقي للتعارض الذي يفصل الانسان عن الطبيعة  
وعن كينونته ، الحل الحقيقي للتناقض بين الوجود والجوهر ، بين تعين قوى الانسان وتحقيق كينونته ،  
بين الحرية والضرورة ، بين الفرد والنوع » .

في الفاعلية العملية يقوم اتحاد بين الانسان والطبيعة ، الذات والموضوع ، الفكر والكينونة ، الذين لا يمكن اعتبار بعضهم بصورة مستقلة عن بعضهم الآخر . رغم كونهما من طبيعة مختلفة ، الفكر والكينونة متحدان بشكل وثيق في الفاعلية الاجتماعية . فالفكر ، الوعي ، لهما طابع اجتماعي (١) . في الفكر ، في الوعي ، الانسان يكرر ويعيد انتاج حياته الاجتماعية ، بحيث ان الفكر ليس سوى انعكاس هذه الحياة ، شكلها النظري (٢) .

هذا التصور للتاريخ ، الذي يعتبر تطور الطبيعة والانسان نتيجة سيرة انخلاق هذا الاخير ، يقود الى نفي نظرية الخلق التي تنكر عن الطبيعة والانسان كل واقعية خاصة بهما فتضع خارجهما علة وجودهما وتطورهما (٣) . ولا بأس من الاشارة الى ان هذه النظرية قد دحضتها الجيولوجيا التي تبين كيف تشكلت وتطورت الارض (٤) . رافضا فكرة ذات خالقة تحدد تطور العالم ، ان المفكر الاشتراكي يرى في هذا الاخير علة كينونته (٥) .

ماركس يختم هذا التحليل لانخلاق الانسان بتحليل للملامح العامة لجريان التاريخ . ان طور ما - قبل - تاريخ الانسان الذي يؤلف مرحلة تطور الحياة الانسانية تحت حكم الانخلاع سيعقبه الان طور اعادة تانس انسان . هذا التانس الجديد سيحصل بحذف كل الانخلاعات المنجبة من قبل نظام الملكية الخاصة . هذا الحذف الذي سيتيح للبشر ان يعيشوا حياة متفقة مع طبيعتهم الحقبة سيكون عمل الاتحاد والشيوعية المتضافر .

(١) ص ١٢٣ - ١٢٤ . « التناحر المجرد بين الحس والروح يحصل بالضرورة ، طالما ان حس الانسان للطبيعة ، حسه الانساني عنها وبذلك عينه الحس الطبيعي للانسان ، ليس نتاج شفه » . ص ١١٦ . « الفاعلية والروح للهما ، من حيث محتواهما ومن حيث نمط تشكيلها ، طابع اجتماعي ، انهما فاعلية اجتماعية وروح اجتماعية » .

(٢) ص ١١٦ - ١١٧ . « وعيي ليس سوى الشكل النظري لهذا الذي حياتي الواقعية ، حياتي الاجتماعية ، هي شكله الحي . في اسلوب الحياة المنخلع ، ليس الوعي سوى تجريد لهذه الحياة الواقعية وهو هكذا يظهر معارضا اياها . بوصفها انعكاسا لحياتي الواقعية ، ان فاعلية وعيي تشكل وجودي النظري بوصفي كائنا اجتماعيا ... »

في وعيه ، الانسان يثبت حياته الواقعية ، الاجتماعية ، وينسخ وجوده الواقعي في الفكر ، كما بالمقابل يجد الكائن الانساني نفسه مثبتا في الوعي حيث يأخذ وعي كليته » .

(٣) ص ١٢٤ - ١٢٥ . ص ١١٤ . « كل حركة التاريخ هي سريرة انخلاق الانسان الواقعية - صك ميلاد وجوده التجريبي - و ، بالنسبة للفكر ، حركة صيرورته حركة واعية . »

في العائلة المقدسة ، ماركس يلاحظ ان فويرباخ قد دحض تماما في مبادئ فلسفة المستقبل نظرية الخلق لهيغل ، مبينا انه ، بحسب هذه النظرية ، تفقد المادة ، بوصفها تخريجا للروح ، تفقد كل واقعية خاصة بها . ( ص ٣١٨ ) .

(٥) ص ١٢٥ .

(٤) ص ١٢٤ .

بما ان العبودية المادية والعبودية الروحية مترابطتان بشكل وثيق وتكيف كل منهما الاخرى ، فان حذفهما سيحصل على نحو مترابط ايضا ، بالاحاد الذي سيحرر الانسان على الصعيد الروحي معطيا اياه بنفي الله مفهوم طبيعته الكلية ، وبالشيوعية التي ستحرره على الصعيد المادي متيحة له ان يحقق كينونته بشكل مليء .

ان الاحاد والشيوعية اللذين يسمان مع انتهاء ما قبل التاريخ مجيء عالم جديد لا يشكلان انتهاء التاريخ . فبعد حذف كل الانخلاءات ، لن تكون الاشتراكية بحاجة الى المرور بوساطة الاحاد والشيوعية لكي تحقق طبيعة الانسان الحق ، لانها ستبلغ مباشرة وعي الانسان الحق والواقع الانساني الحق (١) .

### ★ ★ ★

ان مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة ، المكتوبة تحت التأثير المباشر للبروليتاريا الثورية الباريسية ، تسم منعطفا حاسما في تطور فكر ماركس ، بانضاج تصور مادي جديد عن العالم ذي طابع جدلي وتاريخي .

ان انضاج هذا التصور المحدد من قبل انتقاله الى الشيوعية يحصل بنقد للمنظومة الرأسمالية وفلسفة هيغل . ماركس يذهب ، في نقده للمنظومة الرأسمالية من التصور الهيجلي للانسان . في فينومينولوجيا الروح ، كان هيغل قد بيّن ان الانسان يخلق نفسه وهو ينفذ في جوهر العالم الذي يفقد طابعه الموضوعي فيصير بالتدرج نتاج عمل الانسان الذي يفكره من جديد .

عند هيغل ، كانت هذه السيرورة ذات طابع مثالي ، من جراء روحنة الانسان والواقع الموضوعي التي تعيد انخلاق الانسان الى تحول للوعي الانساني ، الى تطور للروح .

بما ان خلق الانسان لذاته يفترض انه يجد نفسه ثانية في منتج فاعليته ، فقد كان هيغل يلقي كل انخلاع فعلي للانسان ، معيدا تطوره الى تطور الفكر الذي لا يمكن ان يخلع في موضوعه .

(١) صص ١٢٥ - ١٢٦ . « ولكن الاشتراكية ، بوصفها الاشتراكية ، لا تعود بحاجة الى وساطة كهذه ، فهي تذهب من فكرة الانسان النظرية والعملية كمفهوم اساسي . انها تشكل وعي الانسان ، وعيه المباشر وليس الوسط بحذف الدين ، كما ان الحياة الواقعية تشكل ، على نحو مباشر وليس بوساطة حذف الملكية الخاصة بالشيوعية ، واقع الانسان . الشيوعية هي ، تحت شكل نفي نفسي الانسانية ، المرحلة الضرورية في التطور التاريخي القريب ، التي هي مرحلة تحرر واعادة تانسج الانسان . الشيوعية هي الشكل الضروري ومبدأ العمل للمستقبل القريب ، ولكنها ليست بوصفها كذلك هدف تطوّر البشرية ، الشكل النهائي للمجتمع الانساني » . ص ١٦٦ . « فقط بحذف هذه الوساطة ( بالشيوعية - ا.ل.د. ) ، الوساطة التي هي الشرط الضروري لتطور البشرية القادم ، ستولد الانسانية الايجابية التي لها في نفسها علة وجودها . »

بعكس هيفل ، كان ماركس يفكر ، مع فويرباخ ، ان الانخلاع يؤلف السمة الاساسية للعصر الحاضر وان تحرر الانسان يقتضي الغاء كل انخلاع الغاء كاملا ، ولكنه ، بخلاف فويرباخ ، كان كمدافع عن المصالح الطبقية للبروليتاريا يعتبر الانخلاع تحت الشكل الاكثر وطأة على كاهل هذه البروليتاريا ، تحت شكل الشغل المنخلع ، الذي ينتجه النظام الرأسمالي .

من وجهة نظر الشغل المنخلع يقوم بنقد الاقتصاد السياسي البرجوازي والمنظومة الرأسمالية . يبين ان خلق الانسان لذاته بفاعليته الحرة ، الواعية والكلية ، يجعل مستحيلا في هذه المنظومة التي تنزع انسانية العلاقات الاجتماعية بتحويلها الى أشياء .

ففي هذه المنظومة يتحول منتج الشغل الى سلع تصبح غريبة عن الانسان الذي يخلقها ، منتج الشغل المنخلع على النحو المذكور يضبط ويحكم ، في هذه المنظومة ، العلاقات الاجتماعية التي تغدو جوهريا تبادل سلع . بتحوله الى فاعلية مفرّبة ومفرّبة ، مسلوّبة وسالّبة ، مخلوعة وخالعة ، يفقد الشغل ، مع فقدانه طابعه الانساني الذي يتيح للانسان ان يحقق كينونته ، وظيفته الاجتماعية التي هي اقامة علاقات انسانية بين الناس .

اذ يعتبر الاقتصاديون البرجوازيون الشغل خارج الشغل واذ يهملون هكذا الطابع المنخلع الذي يتخذه في النظام الرأسمالي ، فانهم لم يستطيعوا القيام بتحليل صحيح لا لهذا النظام ولا لمقولاته : تبادل ، تجارة ، قيمة ، سعر ، مال ، التي ليست سوى آثار وتعبيرات خاصة للشغل المنخلع .

محللا عواقب الشغل المنخلع في النظام الرأسمالي ، يبين ماركس ان منتج الشغل ، في هذا النظام ، يصبح غريبا عن الشغل الذي يفقر وينحط قيمة بالقدر الذي فيه ينتج ، ان الشغل بعينه ، بدلا من ان يكون العنصر الخالق والتعبير عن كينونته ، يصبح نفيها ، ان هذا الانخلاع راكب على جميع البشر في نظام الملكية الخاصة ، ان الانسان حين يخلق عالما من الموضوعات المنخلعة يصبح عاجزا عن انسنة الطبيعة ، وان هذا الاسلوب الحياتي المنخلع يجعله غريبا ليس فقط عن نفسه بل ايضا عن البشر الاخرين ، اذ ان المراحة المتولدة من نظام الملكية الخاصة تحدد تعارضا عاما بين البشر وانقسام المجتمع الى طبقات متناحرة .

هذا الانخلاع العام للانسان يجد تعبيره في تزييف الحاجات التي ، اذ تكف عن كونها حاجات انسانية ، تتحول أكثر فأكثر الى حاجات مال . بوصفه وسيطا كليا للمبادلات ، المال ينزع انسانية العلاقات الاجتماعية وينزل الانسان تحت عالم الأشياء . المنظومة الرأسمالية تنجب مع الانخلاعات الاقتصادية والاجتماعية انخلاعات ايدولوجية تخدم في تسويغ وتوطيد المجتمع البرجوازي ولا يمكن ان تفهم الا في

طابعها الطبقي .

من تحليله الشغل المنخلع يخلص ماركس الى ضرورة الغاء النظام الرأسمالي واستبداله بنظام شيوعي . هذا الاخير لا يظهر عنده بوصفه يوتوبيا ، مكانا طوباويا خياليا ، بوصفه منحصر أثر مطلب اخلاقي ، بل بوصفه النتيجة الضرورية لتطور النظام الرأسمالي الذي ، بصراع الطبقات بين البروليتاريا والبرجوازية ، يقود الى الثورة الشيوعية . الشرط الاساسي لاقامة الشيوعية الحققة هو الغاء كل الانخلاعات بحذف الملكية الخاصة حذف جذريا . من هنا رفض ماركس الاشتراكية الاصلاحية التي ترضي اشكالا برجوازية صغيرة للملكية الخاصة ، والشيوعية المتذلة التي تريد تعميم نظام الملكية الخاصة بتوزيعها توزيعا متساويا .

ان الغاء الملكية الخاصة سيسمح باقامة نظام جماعي للانتاج والاستهلاك ، فيه سيستطيع الانسان ان يعيش بشكل انساني ، فالانتاج سيتجه ، كاستهلاك ، الى بسط وتطوير طبيعة الانسان الكلية بتوسيع واغناء دائم للعالم المؤنس .  
بنظرية الانخلع التي كانت تمكنه من القيام ، من وجهة نظر الشغل المنخلع ، بنقد متعمق للمنظومة الرأسمالية ، كان ماركس يصل الى فكرة متزايدة الوضوح والدقة عن الدور المقرر - المحدد للشغل ، للفاعلية العملية ، للبراكسيس ، في تطور الحياة الانسانية والتاريخ .

بالارتكاز على مفهوم « البراكسيس » ، الذي يحل آنذاك تدريجيا عنده ، كمفهوم مركزي ، محل فكرة الانخلع ، التي لم تكن تصلح بقدره لخلق نظرية ثورية ، ملائمة لمصالح البروليتاريا الطبقيّة ، ينضج ماركس تصورا جديدا للعالم مؤسسا على المادية الجدلية والتاريخية (1) .

يوضح ويدقق هذا التصور بنقد لفلسفة هيغل المثالية . بعد الاعتماد على التصور الهيجلي لانخلع الانسان ، في نقده للمنظومة الرأسمالية ، يقدم له تصور « البراكسيس » الذي يخرج من هذا النقد ، الحجة الفاصلة ضد الفلسفة المثالية الهيجلية .

بتحويله روحيا الانسان والطبيعة والفاعلية الانسانية ، هيغل يعيد حياة الانسان الى سير فكري ثقافي ، والتاريخ الى انبساط الروح ، الى منطق يجد خلاصته الخاتمة في العلم المطلق ، حيث يتحقق تماثل الذات والموضوع ، الفكر والكيونة .

هذه الروحنة للانسان والطبيعة تجمل وهما اتحادهما الواقعي ، العضوي . اذ لا يمكن الوصول الى تصور عضوي حقيقي عن العالم ، الا باعتبار الانسان والطبيعة

(1) لئن كان ماركس يحل ، كاساس لتصوره العام عن العالم ، محل فكرة الانخلع فكرة « البراكسيس » التي تمكنه من تفسير التطور التاريخي على نحو افضل ، فانه مع ذلك يحتفظ بفكرة الانخلع بقدر ما تمكنه من تفسير بعض سمات المنظومة الرأسمالية ، وبشكل خاص الطابع الصنوعي للسلع .

في واقعهما الحسي ، العيني . عندئذ الفاعلية الانسانية لا تظهر محض فاعلية الروح ، بل فاعلية عينية ، عملية ، للانسان ، الذي يخلق نفسه بنفسه بتخريج قواه المادية . ان حامل Sujer هذه الفاعلية لم يعد هو الفكر المجرد ، وعي الذات ، بل ذاتية قوى الانسان المادية ، ونتاجها ليس مكتوتا من « شيئيات » بل من موضوعات عينية تجعل الطبيعة ، باعادة انتاجها في شكل مؤنس ، صنع الانسان .

ان هذا التحويل ، هذا التائيس للطبيعة بالفاعلية الانسانية ، بالشغل ، هو ما يطبع الانسان ويميزه عن الحيوان . الانسان هو ، كالحیوان ، كائن طبيعي ، حياته مرتبطة بحياة الطبيعة ، ولكنه ، بخلاف الحيوان ، قادر على الفعل في الطبيعة وعلى تحويلها بفاعليته الحرة ، الواعية والكلية .

هذا « التائيس » للطبيعة ، الذي خلاله يحول الانسان علاقاته الاصلية ، المباشرة ، معها ، الى علاقات مع انتاجه هو ، ليس ممكنا الا لان الانسان كائن اجتماعي . فالانسان لا يستطيع ان يمارس فاعليته الا بفضل اعمال البشر الاخرين ، التي فيها يجد كينونتهم المطبوعة عليها . يفتني بهذه الاعمال وهو يستخدمها ، كما ان البشر الاخرين يفتنون بمنتوج شغلهم ، الامر الذي يجعل ان البشر يتكاملون ويتأنسنون تبادليا بأعمالهم .

هذه الانسنة المتبادلة للبشر تكون اساس المجتمع ، لذا لا يمكن فصل الانسان كفرد عن المجتمع ووضعه في معارضته . المجتمع يشكله الافراد ، ولكن به فقط يحقق هؤلاء كينونتهم ، اذ في المجتمع فقط توجد الطبيعة في هيئتها الانسانية وتخدم كرابطة بين البشر وكاساس لوجودهم .

كما ان موضوعات الطبيعة المباشرة لا تنال طابعا انسانيا الا بالشغل الاجتماعي للانسان ، كذلك فان حواس الانسان لا تصير انسانية الا حين يكون موضوعها ، العالم الحسي ، قد حول بالشغل . اذ فقط بتفتح كل الثروة الانسانية في اعادة انتاج الطبيعة تكتسب الاذن الحس الموسيقي والعين حس جمال الاشكال ، مما يتيح للانسان ان يؤكد نفسه كائن ليس بالفكر فقط بل ايضا بالحواس .

ان الخلق الذاتي للانسان بانسنة الطبيعة يشكل اساس التاريخ الانساني . بما ان هذا الخلق الذاتي مرتبط عضويا باعادة انتاج الطبيعة ، فان التاريخ الانساني مكون جوهريا من « طبعة » الانسان ، من تعين كينونته في منتوج فاعليته ، ومن « انسنة » الطبيعة بالتلازم .

ان العنصر المقرر المحدد لسيرورة انخلاق الانسان هو تلبية الحاجات بتطور الانتاج ، الذي يعينه ماركس بكلمة « صناعة » ، بحيث ان جريان التاريخ عائد بالواقع الى جريان الصناعة .

ان تطور الصناعة الحاصل الى هنا تحت نظام الملكية الخاصة قد استتبع تفاقم دائما للانخلاق الانساني ، ولكنه في الوقت نفسه خلق ، بزيادة حدة الصراع الطبقي

بين البرجوازية والبروليتاريا ، شروط الثورة البروليتارية التي ستحرر البشرية  
بإحلال النظام الشيوعي محل النظام الرأسمالي .

عن تشكل منظومة الملكية الخاصة وعن ضرورة الفائها ينجم انقسام التاريخ الى  
طورين كبيرين : طور ما - قبل - التاريخ الذي يشمل مرحلة تطور البشرية تحت  
حكم الانخلاع وطور تأنس الانسان من جديد بالانبساط الكلي لكيونته ، الذي يعطي  
التاريخ معناه ومداه .

هذه المفهمة المادية للتاريخ تفسر ، مع تفسيرها التطور الاقتصادي والاجتماعي ،  
الايدولوجيات التي ينجمها : دين ، فلسفة ، اخلاق ، قانون ، سياسة ، علوم ، والتي  
لا يمكن ان تفهم الا بالنسبة الى هذا التطور ، وهي تعطي أيضا حل المسائل النظرية :  
جوهر ووجود ، ذاتية وموضوعية ، حرية وضرورة ، فكر وكيونة ، التي يجب هي  
أيضا أن تعالج لا على نحو مجرد وميتافيزي ، بل جدليا ، بالنظر اليها في علاقاتها مع  
التطور الاجتماعي .

معتمدا هكذا على مفهوم « البراكسيس » ، الذي يسمح له بأن يخرج من بقايا  
المثالية المتضمنة في تصور الانخلاع ، الذي بما انه ما يزال يعتبر الانسان من وجهة  
نظر ميتافيزية فقد كان يعارض الانسان « المنخلع » بالانسان « الحق » ، يضع  
ماركس أسس المادية الجدلية ، بتبينه ان الانسان والطبيعة يجب تصورهما في  
علاقاتها العضوية ، أن الطبيعة ، الواقع المادي ، الموضوعي ، هي العنصر الاول ،  
الاساسي ، الذي في حضنه تنمو الحياة الانسانية ويتطور الوعي الانساني ، وأن  
« البراكسيس » تعطي حل ليس فقط المعضلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية  
بل أيضا المسائل الايدولوجية والنظرية (١) .

يقيم في الوقت نفسه الاطروحات العامة للمادية التاريخية . فهو يشدد على أن  
التطور الاجتماعي محدد من قبل التطور الاقتصادي ، وعلى أنه يستتبع في النظام  
الرأسمالي صراعا طبقيًا بين البرجوازية والبروليتاريا يؤلف العنصر الاساسي في  
التاريخ الحديث ، وعلى أن استفحال هذا الصراع يقود الى ثورة شيوعية . ويبين  
أيضا العلاقات بين الايدولوجيا البرجوازية والمصالح الطبقية للبرجوازية .  
في انصاج تصوره المادي للعالم ، سيكب ماركس بادئ ذي بدء على بسط  
وانماء نظرية المادية التاريخية ، ذات الفائدة الاكثر فورية لنضال البروليتاريا الطبقي .  
هذا ما سيفعله الآن في العائلة المقدسة التي يحرقها بالتعاون مع انجلز ، مباشرة  
بعد مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة ، حيث سيعالجان عددا من المسائل  
الفلسفية والاجتماعية والسياسية من وجهة نظر المادية التاريخية .

(١) من هنا نرى كم قليلا مؤسسة المحاولات المتكررة دوما على يد مفكرين برجوازيين يريدون ان  
يخرجوا من تصور الانخلاع ، منظوروا اليه كمفهوم اساسي للفكر الماركسي ، « انسانية » ماركسية تمثل  
في نظرم النهب الحقيقي لماركس ويضعونها في معارضة الماركسية الثورية .

# الفصل الثالث

## العائلة المقدسة ،

### فر . انجلز - حالة انكلترا

بينما كان ماركس ينضج في باريس ، في مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة ، السمات الأساسية للمادية الجدلية والتاريخية ، كان انجلز يتابع في انكلترا دراسة التطور الاقتصادي والسياسي والاجتماعي لهذا البلد . مقالاته المنشورة في الصحيفة الراينية ، و عالم خلقي جديد ، و الجمهوري السويسري ، و الحوليات الفرنسية الالمانية ، لم تكن سوى دراسات تمهيدية لعرض أعم عن حالة انكلترا ، نشره بعد زوال الحوليات الفرنسية الالمانية في جريدة الى الأمام .

بعد دمار اقوة الكولونيالية الفرنسية وهزيمة نابوليون ، التي جعلت من انكلترا القوة المهيمنة في العالم ، كانت الصناعة والتجارة الانكليزيتان قد تطورتا بوتيرة متسارعة (١) .

الا ان أزمة اقتصادية خطيرة كانت قد انفجرت بعد سقوط نابوليون مباشرة ، اثارتهما الستوكات الهائلة من السلع التي كان قد كدسها الصناعيون في أواخر الحروب ضد نابوليون والتي لم تجد التصريف المنشود من جراء افقار أوروبا . وكان يزيد وطأة هذه الازمة الاقتصادية على كاهل الطبقة العاملة أن ال ٣٠.٠٠٠ جندي وبحار المسرحين من الخدمة كانوا يربكون سوق الشغل . كان هبوط الاجور المقرون ببقاء الاسعار في مستوى عال يزيد باستمرار من خطورة حالة العمال . يضاف الى ذلك أنه ، لاستخدام الآلات بمردود كامل ، كان يوم العمل يمدد بشكل دائم ، بالفا مدة ١٦ وحتى ١٨ ساعة ، وأن الرجال في المصانع كانوا يستبدلون أكثر فأكثر بنساء وأولاد كانوا يستغلون بوحشية أكبر أيضا .

هذا الاستفحال الدائم لشروط حياتهم كان يشير ترمذات دائمة عند العمال ويوطد حركة النقابات العمالية . والحالة لم تكن أفضل كثيرا في الريف ، حيث كانت

(١) في ١٨٢٢ كان مجموع الانتاج الصناعي لفرنسا والولايات المتحدة لا يعادل سوى ثلث الانتاج الصناعي لانكلترا . كانت الصادرات الانكليزية تصعد من ١٨٢٠ الى ١٨٢٥ من ٤٨ الى ٥٦ مليون جنيه استرليني ، والواردات من ٢٢ الى ٤٤ مليون .

تحصل كذلك انتفاضات عديدة للفلاحين .

تحت ضغط البرجوازية ، تم التصويت على قانون انتخابي رفع عدد الناخبين من ٢٢٠.٠٠٠ الى ٦٧٠.٠٠٠ . هذا القانون ، الذي كان في صالح الحزب الليبرالي ( حزب الاحرار ) ، حزب الهويغ whiys لم يكن يعطي أي شيء يستحق الذكر للطبقة العاملة ، التي كانت قد ساندت الحملة لصالح هذا القانون بأمل أن يحسن وضعها .

اذ احرزوا نصرا كبيرا في انتخابات ١٨٣٠ ، نظم الاحرار ، الذين كانوا خلال عقود بلا انقطاع تقريبا في الحكومة ، حملة ضد رسم الحماية الجمركية الباهظ ، الذي كان بابقائه سعر الحبوب المرتفع يخدم مصلحة الملاكين العقاريين ، سند خصومهم السياسيين ، وهم المحافظون Tories

مدافعين عن مصالح البرجوازية الصناعية والتجارية ، الاحرار كانوا يريدون أن يجنسوا من الغاء قانون الحبوب كسبا مزدوجا : اضعاف التوري ، المحافظين الزراعيين ، وبالنسبة للصناعيين امكانية تخفيض الاجور أكثر أيضا بفضل هبوط سعر الخبز .

على الصعيد السياسي ، كانت هزيمة المحافظين تستتبع توطد سلطة مجلس العموم على حساب مجلس اللوردات ، سند المحافظين الزراعيين والتاج . من جهة أخرى ، كان ازدهار الصناعة ، الذي كان مع زيادته القوة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للبرجوازية يحدد تطورا موازيا للبروليتاريا ، كان يستتبع توطد نقابات العمال والحزب الشارتي ، المدافع عن مصالح الطبقة العاملة .

لم تلبث سياسة الاحرار الاجتماعية الرجعية ، خصوصا قانون الفقراء الصادر عام ١٨٤٣ أن أقيمت البروليتاريا الانكليزية أنها خدعت بالوعود الانتخابية للاحرار الذين كانوا يتكشّفون عن كونهم معادين لمصالحها بقدر عدااء المحافظين . كان قانون الفقراء يستجيب لرغبة البرجوازية الصناعية في تخفيض نفقات اعاله العاطلين عن العمل أقصى تخفيض ممكن وفي تحطيم عمل الطبقة العاملة المطلبي ، وذلك بأن يقام في بيوت الشغل المكرّسة للعاطلين عن العمل نظام عقوبات أشد هولا من النظام المخصص لأكثر العمال بؤسا .

ان غيظ الطبقة العاملة ضد الاحرار أمّن نجاح المحافظين في انتخابات ١٨٤١ ، ولكن هؤلاء ، اذ كانوا مضطرين للتسليم بالوامر الاقتصادية ، فقد واصلوا بالفعل ولو بشكل أكثر اعتدالا سياسة الاحرار المؤيدة لنظام التبادل الحر (١) . احتجاجا على استفحال بؤسهم ، نظم العمال تحريضا جماهيريا بلغ ذروته في الاضراب الكبير

(١) عن هذا الطور في تاريخ انكلترا ، انظر ا.ل. مورتون A. L. Morton: تاريخ الشعب الانكليزي برلين ، ١٩٥٦ ، صص ٤٠٢ - ٤٥١ .

لسنة ١٨٤٢ في صناعة النسيج .

كانت الدراسة المتزايدة العمق لحالة انكلترا والمذاهب الاقتصادية قد قادت انجلز الى أن يتصور بشكل متزايد الوضوح ان التطور الاقتصادي يحدد التطور السياسي والاجتماعي وان الصراعات الطبقة الناجمة عنه تؤلف العنصر المحرك في التاريخ .

تحت تأثير تماسه المباشر مع الحياة الاقتصادية والاجتماعية الانكليزية وبشكل خاص مع التحرك الثوري للبروليتاريا الانكليزية ، كان أنجلز أولا بأول قد تحول ، مع تحوله عن مثالية الهيغلين - الشباب ، عن شيوعية هس Hess العاطفية ، متوجها نحو تصور مادي للتاريخ . كان هذا التطور قد حصل بالتدريج ، تاركا عنده لمدة لا بأس بها خليطا من مثالية ومن مادية . هكذا كان في ديسمبر ١٨٤٢ ما يزال يعتبر ان التقدم التاريخي لا تقرر مصلح مادية بل تقرر مبادئ (١) ، الامر الذي لم يكن يمنعه من ان يلاحظ في الوقت نفسه ان المبادئ ، في انكلترا ، بعيدا عن أن تحدد التطور السياسي والاجتماعي ، هي بالعكس محددة من قبله (٢) ، وأن يرى ان تفاقم الصراع الطبقي بين البرجوازية والبروليتاريا لا بد أن ينجب ثورة شيوعية (٣) .

ان الاستبعاد المتزايد السرعة لبقايا التصورات المثالية ، المحدد من قبل معرفته المتزايدة العمق للحياة الانكليزية ، كان يتظاهر في مقالاته في الحواليات انفرنسية - الالمانية ، بشكل خاص في « مسودة نقد للاقتصاد السياسي » ، حيث ، اعتمادا على

(١) انظر فر. انجلز ، الصحيفة الراينية ، ١٨٤٢/١٢/٩ : « الازمات الداخلية » . انظر ميغا ، ١ ، ج ٢ ، ص ٣٣١ .

« انه لامر بدعي في ألمانيا ، ولكن الانكليز العنيدون لا يفهمونه ، ان المطالغ المادية لا يمكنها ابدا ان تكون عناصر مستقلة ، ضابطة ومنظمة للتاريخ ، وانها ، بصورة واعية او لا ، في خدمة مبدا يكون العنصر المقرر للتقدم التاريخي » .

(٢) انظر ميغا ، ١ ، ج ٢ ، ص ٣٥٢ . « في انكلترا ، على الاقل في الاحزاب التي تتطاحن حاليا على السلطة ، عند الاحرار والمحافظين ، لا يعرفون صراعات المبادئ بل فقط صراعات تشبهها مصالح مادية » .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٥٥ . « الكسب الذي جناه الاجراء منه (من اضراب ١٨٤٢ الكبير - ا.ل.د.) هو ان ثورة ما لا يمكن أن تتحقق بوسائل سلمية وان تحويلا جذريا للتنظيم الاجتماعي غير الانساني والاطاحة بالارستقراطية الاقطاعية والصناعية هما وحدهما يستطيعان تحسين حالة البروليتاريين . ان ما لا يزال يقف عائقا امام هذه الثورة هو الاحترام المثير للفضول الذي يكنه الانكليز للقانون ، ولكن ، في وضع انكلترا الحالي ، ثمة مناجاة لا مفر من وقوعها قريبا وستجعل ان الخوف من الجوع سيفلب عند البروليتاريا احترام القانون . هذه الثورة محتومة في انكلترا ، ولكن ، كما هي الحال بالنسبة لكل ما يجري في هذا البلد ، لن تكون المبادئ بل المصالح هي ما سيطبق ويقود هذه الثورة ، اذ على قاعدة المصالح وحدها تبسط وتنمو فيه المبادئ ، الامر الذي يعني ان هذه الثورة لن تكون سياسية بسبل ستكون اجتماعية . »

تحليل نقدي للمنظومة الرأسمالية ، كان يرسم تطورها من وجهة نظر مادية .  
من وجهة النظر هذه بعينها كان يحلل الحالة العامة لانكلترا في مقاله في جريدة  
**اللي الامام** (١) . رغم انه قام بوصف هذه الحالة في وقت كانت فيه النقابات  
والشارتية (٢) قد تلقت بقسوة انعكاس فشل الاضراب الكبير لعام ١٨٤٢ ، فقد كان  
يحتفظ بايمان لا يتزعزع في النصر الاخير للبروليتاريا والشيوعية . باقيا على تماس  
وثيق مع القادة الشيوعيين لـ « رابطة العادلين » ، كـ . شابر K. Schapper هـ . باور  
H. Bauer ، ي . مول J. Moll ، ومع القائد الشارتي هارني Harney ، ومع  
صحيفة انصار اوين Owen ، **العالم الاخلاقي ( المعنوي ) الجديد** ، ومعززا في تعاطفه  
مع البروليتاريا بتعرفه على عاملة ايرلندية شابة ، ميري برنز Mary Burns  
ستصبح رفيقته ، كانت المصلحة الطبقية للبروليتاريا هي التي تلهم الخط العام  
لمقاله . من هنا الموضوعان الاساسيان في هذا المقال : تصور الدور المقرر الذي تلعبه  
الحركة الاقتصادية والصراعات الطبقة النابعة منها في تطور التاريخ وتحليل هذا  
التطور في منظور الثورة الشيوعية التي ستفضي اليها هذه الصراعات حتما .

ان تحليل حالة انكلترا الذي كان يمضي فيه انجلز اكثر فأكثر كان يتيح له ان  
يتخلص بشكل تام تقريبا من بقايا التصورات المثالية وان يعطي تصوره الجديد  
التاريخي والمادي للعالم قاعدة أكثر صلابة .

في هذا التحليل ، يشدد باديء ذي بدء على انه ، بسبب الدور الحاسم  
للصراعات الطبقة ، فان التاريخ ، في انكلترا ، بالتعارض مع ألمانيا وفرنسا حيث  
الصراعات الفلسفية والسياسية تلعب دورا مقرا ، ذو طابع اجتماعي بشكل بارز .  
ان تاريخ انكلترا الحديث محدد من قبل الثورة الصناعية التي تحققت فيها منذ  
أواسط القرن الثامن عشر والتي كانت آثارها أعمق بكثير من آثار الثورة الفلسفية في  
ألمانيا والثورة السياسية في فرنسا (٣) .

في اعتقادهم بجزروت الافكار ، الألمان سعوا الى تغليب المصالح العامة للبشرية  
بطريق الفلسفة . رافضين هذا التصور المثالي ، الفرنسيون فكروا ان هذه المصالح

(١) فر . انجلز : حالة انكلترا ، ١ ، القرن الثامن عشر ، ١ ، الدستور الانكليزي . انظر الى -  
الامام ، ٤٤ ، ٧ ، ١١ ايلول ، و ١٨ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٨ ايلول ، ٥ ، ١٦ ، ١٩ اكتوبر ١٨٤٤ . ميفاء ، ١ ،  
حـ ، صص ٢٩١ - ٣٢٤ . هذا المقال حرر في شباط - آذار ١٨٤٤ .

(٢) الحركة الشارتية الكبرى التي كانت تعزز على الصعيد السياسي عمل نقابات الشغل كانت  
بلغت ذروتها في سنة ١٨٤٢ ابان تسليم العريضة الكبرى الثانية لصالح الميثاق Charte الى البرلمان .  
فشل اضراب ١٨٤٢ الكبير سدد لها ضربة جديدة ، عواقب هذا الفشل كانت اخطر ايضا على نقابات  
الشغل التي نهضت منه بصعوبة .

(٣) حالة انكلترا ، ١ ، القرن الثامن عشر . انظر ميفاء ، ١ ، حـ ، ص ٢٩١ .

لا يمكن ان تنتصر الا بالعمل السياسي ، باصلاح الدولة (١) .  
 بعكس الالمان والفرنسيين ، الانكليز اكثر ميلا الى التجريبية منهم الى اعتبارات  
 عامة فلسفية وسياسية ، هذا ما يفسر كونهم اكثر تعلقا واهتماما بالمصالح الخاصة  
 منهم بالمصالح العامة وكون العنصر الاجتماعي يلعب عندهم دورا مسيطرا (٢) .  
 بالمقارنة معه ، لا تلعب السياسة الا دورا ثانويا ، فقط لان الانكليز ما يزالون  
 يعتقدون بعمل الدولة الحاسم ما زالت المسائل الاجتماعية ترتدي عندهم طابعا  
 سياسيا (٣) .

التحول العميق الذي تحقق في انكلترة هو نتيجة التطور ليس فقط الاقتصادي  
 والاجتماعي بل أيضا العلمي والفلسفي الذي حصل في هذا البلد اثناء القرن الثامن  
 عشر . فقد حصل فيه تجدد ليس فقط في علوم الطبيعة بل أيضا في العلوم التاريخية  
 والسياسية ، التي تكونت آنثذ بشكل حقيقي كعلوم ، الاولى بتحديد قوانينها ،  
 الثانية بالعلاقات التي قامت بينها وبين مذاهب الاقتصاد السياسي الجديدة (٤) .  
 هذا التطور للعلوم رافقه نضال ضد الروحانية المسيحية واتجاه متزايد  
 الوضوح نحو المادية والريبية التي تستجيب على الصعيد الايديولوجي للاتجاه الى  
 الفاعلية العملية الغالب عند الانكليز (٥) .

بموازاة هذا التحول في العلوم وفي تصور العالم ، حصل في انكلترة تطور  
 اجتماعي يعرض انجلز أصوله بكيفية نصف - مثالية .  
 بخلاف العالم القديم Antique المؤسس على الرق ، رغم أنف حقوق الافراد ،  
 العالم المسيحي - الجرمانى ، معترفا بهذه الحقوق في المبدأ ، حذف الرق نظريا ،  
 ولكنه احتفظ به عمليا ، تحت شكل القنانة (٦) .

كما أن الرق في العصور الوسطى لم يبلغ الا في الظاهر ، كذلك فان القنانة لم  
 تلغ الا بكيفية وهمية في المجتمع الحديث المؤسس على الملكية الخاصة والمحكوم بالمال .  
 تحت تأثير غلبة المصالح الخاصة ، صار الانسان عبد المال ، هذه العبودية ، التي تجد  
 تعبيرها في بيعية عامة كلية ، اكثر عمقا واشد لانسانية من تلك التي كانت تثقل كاهن  
 الاقنان (٧) .

(١) المرجع نفسه ، صص ٢٩٢ ، ٢٩٥ .

(٢) المرجع نفسه ، صص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٣) المكان نفسه ، ص ٢٩٦ .

(٤) صص ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٥) صص ٢٩٢ - ٢٩٣ ، ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٦) ص ٢٩٧ .

(٧) صص ٢٩٧ - ٢٩٨ . « ان عاقبة واقع ان المصلحة صارت الرابطة بين البشر كانت انحلال  
 المجتمع الى افراد منزولين ، تحوله الى عالم من ذوات متقابلة متعارضة . هذا التفريد ، العاقبة

هذه العبودية التي تشير الى أعلى درجة في الانخلاع الانساني هي مع ذلك الشرط الضروري لانعتاق الانسانية . اذ ان نزع انسانية البشر الذي بلغ معها ذروته له كعاقبة لا مفر منها تدمير المجتمع البرجوازي والاستعاضة عنه بنظام اجتماعي عقلي وانساني (١) .

ان الثورة التي ستحرر البشر قريبة . ستنشأ بادية بدء في انكلترا ، حيث بلغ تطور المنظومة الرأسمالية أعلى درجاته (٢) .

هذه الثورة هي النتيجة الضرورية لتطور انكلترا الاقتصادي والاجتماعي منذ القرن السادس عشر ، الذي أحل بالتدريج محل النظام الاقطاعي النظام الرأسمالي . ان ازدهار التجارة والقوة البحرية المتزايد وكذلك الاستيلاء على المستعمرات في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، قد سهلا تشكل طبقة وسطى متعاظمة القوة ، وقفت ضد طبقة النبلاء الاقطاعيين وحددت انفصالا متزايدا الحدة بين الصناعة والتجارة والزراعة (٣) .

كانت الزراعة آنذاك تشمل ثلاثة اصناف من الملاكين العقاريين هي : كبار الملاكين النبلاء أو Landlords ، الملاكون المتوسطون العوام أو Squires ، الفلاحون الصغار (٤) . التجارة كانت متركزة في لندن . الصناعة الرئيسية كانت صناعة النسيج التي كانت تتطور بصورة رئيسية في الريف وفي جوار المدن . مناجم الفحم



القصوى للذاتوية المسيحية ، يسم مآل العالم المسيحي . طالما ان التعبير الاساسي للانخلاع الانساني في شكل الملكية الخاصة باق ، فان المصلحة ترتدي بالضرورة شكل مصلحة خاصة تتجلى سيطرتها في سيطرة الملكية الخاصة . ان حذف العبودية الاقطاعية قد جعل من المال الرابطة الوحيدة بين البشر . الملكية الخاصة ، هذا العنصر الطبيعي للانسان المعارض للعنصر الروحي الانساني ، ملكة ، وبها المال ، شكلها المجرد ، صار ملك العالم . الانسان الذي كف عن كونه عبد البشر الاخرين صار عبيد الاشياء ، انقلاب العلاقات الانسانية الحققة ناجز ، والعبودية ، وليدة عالم « الاعمال » الحديث مع البيعية العامة التي تحكمه ، اشد لا انسانية واكثر كلية من تلك التي تخص القناة ... » . ايضا ص ٢٠٧ .

(١) ص ٢٩٨ . « العالم المسيحي بلغ درجة تطوره القصوى ، يجب الان ان ينهار مغليا المكان لعالم عقلائي وانساني . الدولة المسيحية هي اخر شكل ممكن للدولة ومعها ستزول الدولة . ان تحلل الانسانية الى كتلة من ذرات منعزلة ، متعارضة فيما بينها ، اذ يؤدي الى دمار مصالح هيئات الحرف والمصالح القوية ، يسم درجة التطور الاخيرة التي تقود الى تحرر البشرية واعادة تكوينها . ان اكتمال الانخلاع المطبوع بهيمنة المال يشكل المرحلة الضرورية التي تقود الى استرجاع الانسان من قبل نفسه . »

(٢) ص ٢٩٨ .

(٣) ص ٢٩٨ .

(٤) ص ٢٩٩ .

لم تكن مستثمرة كثيرا ، فالفحم كان يستخدم بصورة رئيسية للحاجات الاهلية (١) . هذه الحال تغيرت بسرعة حوالي منتصف القرن الثامن عشر ، تحت فعل الثورة الصناعية التي سهلتها سلسلة من الاختراعات الكبيرة الحاصلة بين ١٧٦٠ و ١٧٨٥ : الآلة البخارية لواط watt ، مكنة صناعة الفخار ، آلات الفزل ل هارغريس و آركرايت ، آلات الحياكة ل كرومبتن و كارترايت (٢) . هذه الاختراعات اثارت انقلابا في أسلوب الانتاج ، انقلابا شمل تدريجيا كل فروع الصناعة التي انتقلت بسرعة من مرحلة الانتاج الحرفي الى مرحلة المصنع Fabrique (٣) .

كانت صناعة النسيج ، وهي آنذاك الفرع الصناعي الرئيسي ، أول صناعة تتطور تطورا خارجا عن المألوف بمكنة المفازل والمناسج . كانت صناعة الصوف وكذلك صناعة الكتان والحري تعرف تطورا مماثلا لتطور صناعة القطن (٤) .

العمل اليدوي كان يستعاض عنه أكثر فأكثر بعمل الآلات ، بفضلها كان طفل في الثامنة من عمره ينتج أكثر مما كان عشرون عاملا ينتجون في السابق ، كان ٦٠٠.٠٠٠ عامل ، نصفهم من النساء والاولاد ، ينجزون عملا يحتاج في الوضع السابق الى ١٥٠ مليون عامل (٥) .

الصناعات الأخرى كان لها ان تستفيد من نهوض مماثل ، تحت دفع تطور الآلات وسكك الحديد والملاحة البخارية ، عرفت صناعة المعادن نهوضا خارقا رافقه تطور سريع جدا للصناعات المنجمية : استخراج الحديد والتحاس وخصوصا الفحم الحجري المستخدم أكثر فأكثر لأغراض صناعية (٦) . وتطور الصناعة والتجارة أدى

(١) صص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٢) صص ٣٠١ - ٣٠٣ .

(٣) ص ٣٠٣ . « الشغل المنفذ عائليا ، في المنزل ، حل محله الشغل الجماعي في المانيفاكتورات ، والشغل اليدوي حل محله شغل الآلات البخارية » . ص ٣٠٤ - ٣٠٥ . « عواقب هذا الدافع الماخوذ من التصنيع لا حد لها . فقد انتشر التصنيع من فرع صناعي الى آخر . قوى الانتاج الجديدة تطلب استخدامها ... ، مع السكان - العمال الجدد تولد علاقات اجتماعية جديدة وحاجات جديدة . مكنة الصنع تخفص سعر المصنوعات المصنوعة ، الأمر الذي يخفف تكاليف تلبية الحاجات ويجبر تخفيضا للأجور وتوسع السوق . ما ان تم الاعتراف بمزايا المكنة حتى شملت كل فروع الصناعة . ان تطور الحضارة ، النتيجة اللازمة عن تطور الصناعة ، يخلق حاجات جديدة وبذلك مينه فروع انتاج جديدة وتحسينات صناعية جديدة . »

(٤) صص ٣٠٢ - ٣٠٣ . هذه الصناعة كانت تشغل منذ سنة ١٨٣٧ مليونا ونصف المليون من العمال ، استيراد القطن الخام ارتفع من ١٧٧٠ الى ١٨٣٦ من ٥ الى ٣٦٤ مليون جنيه .

(٥) صص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٦) صص ٣٠٤ - ٣٠٦ . تصدير المنتجات التعدينية تصاعف اربعة اضعاف بين ١٨٠٠ و ١٨٣٤ . استخراج الفحم انتقل من ١٧٠.٠٠٠ طن في ١٧٤٠ الى ٥٥٣.٠٠٠ طن في ١٨٣٥ .

الى توسع مواز في وسائل المواصلات والنقل (١) .

هذا الازدهار الصناعي والتجاري الذي كان يجب أن يسهل ، على أساس نمو الحاجات وامكانية تلبيتها ، تطور المدنية ، صار ، بسبب توسع المنظومة الرأسمالية ، وبالا على البشر . فقد استخدمت المصلحة الخاصة لاغراضها الخاصة القسوى الصناعية الجديدة التي أصبحت ، في أيدي أقلية من الرأسماليين الاغنياء ، وسائل اضطهاد واستعباد للشعب الكادح . في الوقت نفسه ، التجارة ، التي كانت الصناعة تابعة لها ، حوّلت العلاقات بين البشر الى علاقات تجارية ، الامر الذي أدى الى اخضاع جميع البشر لعالم الاشياء (٢) .

حتى تصبح كلية القدرة ، كان على الملكية الخاصة ان تقلص الى الحد الاقصى سلطة الدولة . هذا ما يفسر ان اول منظر كبير لنظام الملكية الخاصة وللمنظومة الرأسمالية ، آدام سميث ، لم يقر شرعية الدولة والسياسة والاحزاب وحتى الكنيسة الا بالقدر الذي فيه تسهل المصالح الخاصة وتجعل من الاثراء هدف الفاعلية الانسانية الجوهرية . غودون Goduin خطا خطوة اضافية في هذا السبيل بتشكيكه في ضرورة الدولة . اخيرا بنثام Bentham دفع هذا المذهب الى الحد الاقصى فاعتبر الدولة شرا ووضع كمبدأ ان الملكية الخاصة يجب ان تلعب في كل مكان دورا مقررًا . جاعلا من المنافسة المبدأ الضابط المنظم للعلاقات الانسانية ، انه يعتبر ان الانسان الحقيقي ليس الفرد المستقل والحر بل الانسان الوحشي الذي لا يطيع سوى قانون المزاخمة (٣) .

في نفس الوقت الذي كانت فيه تعدل العلاقات بين الافراد الخاضعين أكثر فأكثر لقوانين الملكية الخاصة ، كانت الثورة الصناعية تحول التنظيم الاجتماعي بشكل عميق .

بتدمير المنظومة الاقطاعية وبتطوير النظام الرأسمالي الذي كان يعجل في الازدياد المتوازي للثروة والفقر ، كانت الثورة الصناعية تدمر بعض الطبقات الاجتماعية وتخلق طبقات جديدة : البرجوازية الصناعية وبروليتاريا المدن . بينما في الريف ،

(١) صص ٢٠٦ - ٢٠٧ . البواخر الانكليزية الاولى ظهرت في سنة ١٨٢٧ ، وبلغ عددها ٥٥٠ في الخدمة سنة ١٨٢٥ ، طول السكك الحديدية بلغ ما يقرب من ٣٠٠٠ كم في ١٨٣٦ .

(٢) ص ٣٠٧ . « العاقبة الاولى ( للثورة الصناعية - ا.ل. ) كانت تأمين سيطرة المصلحة الخاصة على البشر . مسئولية على القوى الصناعية الجديدة ، المصلحة الخاصة استخدمتها لفاياتها الخاصة . هذه القوى التي كان يجب شرعا ان توضع في خدمة البشرية صارت ملك اقلية من الرأسماليين الاغنياء ووسيلة لاستعباد الجماهير . التجارة ، محرك الصناعة ، صارت كلية القدرة وكونت الرابطة بين البشر ، كل العلاقات الشخصية والقومية تحولت الى علاقات تجارية ، وهذا يعني ان الملكية الخاصة ، عالم الاشياء ، هيمن على العالم » .

(٣) صص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

كان الملاكون الصغار والمتوسطون يفقدون ملكيتهم لصالح كبار الملاكين وينزلون إلى حالة مزارعين Fermiers أو عمال زراعيين (١) ، كانت الطبقة الحرفية في المدن تصاب أكثر فأكثر بالافلاس لصالح البرجوازية الصناعية والتجارية . ان استبعاد الأرستقراطية العقارية كطبقة قائدة ، وانسحاق الطبقات الوسطى وتحولها إلى بروليتاريا ، واضطهاد الطبقة العاملة ، كان يجعل من البرجوازية الطبقة القائدة .

لما كانت الثورة الصناعية تفرض استخدام عدد متزايد من العمال ، فقد كان ينجم عن ذلك نمو لا ينقطع للبروليتاريا المدنية التي كانت ترفد على الدوام بصغار الحرفيين المفلسين وبصغار المستثمرين الزراعيين المطرودين من أراضيهم . كان بؤس البروليتاريا يستفحل بلا توقف ، بنتيجة المزاخرة ومن جراء تمرکز الصناعة المتزايد في المدن ، الذي كان يجعل مستحيلا الجمع بين الشغل الصناعي والشغل الزراعي الذي كان إلى ذلك الحين قد سهّل حياة معظم العمال .

ان برلترية غالبية السكان واثراء البرجوازية التي حلت محل الأرستقراطية العقارية كطبقة قائدة قد استتبعها انقسام المجتمع الانكليزي إلى ثلاث طبقات كبرى : الأرستقراطية العقارية ، البرجوازية الصناعية والتجارية ، البروليتاريا ، وهو انقسام يستجيب له على الصعيد السياسي انقسام الانكليز إلى ثلاثة أحزاب كبرى : توري ( محافظين ) ، هويغ ( أحرار ) ، شارتيين ، تدافع عن مصالح هذه الطبقات الكبرى الثلاث (٢) .

تزاحم بين جميع البشر ، تزايد سريع للبروليتاريا ، استثمار متعاظم لهذه الأخيرة من قبل الطبقة البرجوازية التي صارت طبقة قائدة ، تفاقم الصراع الطبقي بين المالكين وغير المالكين ، تلك هي الآثار الاجتماعية الرئيسية للانقلاب الصناعي (٣) . ان المنظومة الرأسمالية التي تمثل ، بانفلات المزاخرة من عقالها ، ذروة نزع

(١) ص ٢٩٩ .

(٢) ص ٣٠٩ .

(٣) ص ٣٠٩ . « ان أهم نتائج القرن الثامن عشر بالنسبة لانكلترا كانت خلق البروليتاريا بالثورة الصناعية . الصناعة الجديدة كانت تتطلب لفروع العمل التي لا تحصى كتلا من العمال جاهزة دوماً ، لم يوجد مثلها من قبل . حتى سنة ١٧٨٠ ، لم يكن في انكلترا سوى قليل من البروليتاريين ... ان الصناعة ركزت الشغل في الفبارك والمدن ، أصبح اتحاد العمل الصناعي والزراعي مستحيلا واضطر العمال على تركيز أنفسهم لشغل الفبركة ... ان زراعة القطع الصغيرة في الريف ازيلت ... الامر الذي أدى إلى خلق طبقة جديدة من العمال الزراعيين . المدن ضاعفت تعداد سكانها ثلاثة واربعه اضعاف ، هذه الزيادة مؤلفة من عمال فقط . كذلك تطلب استثمار المصانع الكثيف عدداً أكبر من العمال الذين يعيشون فقط من أجورهم .

من جهة أخرى ، ظهرت أرستقراطية جديدة من بين الطبقات الوسطى . بالانتاج الصناعي ضاعف اصحاب الفبارك بسرعة كبيرة رساميلهم وكذلك فعل التجار ، الراسمال الذي خلقته هذه الثورة خدم الأرستقراطية الانكليزية في مكافحة الثورة الفرنسية . »

انسانية الانسان ، يجب ان تلتفى . وستلتفى بفعل تطورها ذاته الذي لا يمكن الا ان يؤدي الى أزمة عامة تولد الثورة الاجتماعية . هذه الثورة ، عمل البروليتاريا التي تدخل اكثر فاكثري صراع مكشوف ضد الطبقات المالكة ، ستتشب في انكلترة بعد الغاء قانون الحبوب ، هذا القانون باضعافه الارستقراطية العقارية سيسمح للطبقة العاملة بأن تسدد كل ضرباتها ضد عدوها الرئيسي ، البرجوازية (١) . ان وصول البروليتاريا الى الحكم بتحقيق الميثاق ( الشارت Charter ) سيسمح باقامة مجتمع شيوعي سيحرر البشر من كل العبوديات .

في هذا التحويل الجذري للمجتمع ، لا يترك انجلز اي سهم للدولة ، التي باتت يعتبرها الآن محض اداة هيمنة للطبقات المالكة . هذا التصور كان معززا عنده بدراسة المؤسسات الانكليزية التي كانت تبين له ان الدولة الانكليزية ، سواء كانت بقيادة المحافظين او بقيادة الاحرار ، تستخدم دائما سلطتها ضد الشعب .

كان يشدد على هذا الطابع الطبقي للدولة الانكليزية في القسم الثاني من مقاله المعنون « الدستور الانكليزي » (٢) .

في تحليله وضع انكلترة السياسي ، كان يظهر ان انكلترة ، من جراء تطورها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ونشاطها العلمي والادبي ، ليست فقط اقوى بلدان اوربا واكثرها تقدما ، بل هي ايضا اكثرها حرية (٣) .

ولكن اذا لم نعتبر سوى هذا الوجه الواحد لانكلترة ، فانه لا يمكننا - على حد قول انجلز - ان نكون صورة صحيحة عن هذا البلد . فواء مظهرها التقدمي والليبرالي ، تبقى انكلترة دولة محافظة بشكل عميق ، اذ ان كل سلطة الدولة مركزة في ايدي الطبقات المالكة التي تستخدمها لصالحها ، كما يتبين من الدستور والمؤسسات الانكليزية .

ان دستور ١٦٨٨ الذي حول الدولة الانكليزية الى دولة دستورية لم يغير طابع هذه الدولة الطبقي . بأخذهم السلطة ، الهويغ الليبراليون وضعوا ، كما فعل من قبل التوري المحافظون ، الدولة في خدمة مصالحهم الطبقية ، مما يبين ان عيب الدولة العميق يخص لا شكلها بل جوهرها . ايا كانت قوتها ، الدولة طاغية . بدلا من ان يروا ان الدولة لا انسانية بالجوهر ، حاولوا في انكلترة ان يعطوها طابعاً اخلاقياً ، بتحويلها الى ملكية دستورية ، هي بالواقع تتعادل في اللااخلاقية مع سائر اشكال الدولة (٤) .

(١) ص ٢٩٨ .

(٢) صص ٣١٠ - ٣٣٤ . حالة انكلترة ، ٢ . الدستور الانكليزي .

(٣) صص ٣١٠ - ٣١١ .

(٤) صص ٣١٢ - ٣١٣ .

المبدأ الاساسي للدستور الانكليزي هو التوزيع المتساوي للسلطة بين التاج ومجلس اللوردات ومجلس العموم . بالواقع ليس التاج ذا سلطة فعلية ، رغم ان الدستور ينص على ان الملك يمثل جوهر الدولة (١) .

الامر كذلك تقريبا بالنسبة لمجلس اللوردات ، الذي اصبح نشاطه ، كنشاط الملك ، محض شكلي . ولكن ، كما ان تقديس التاج نما بقدر ما كانت الملكية تفقد سلطتها ، كذلك احترام الشعب لمجلس اللوردات زاد بقدر ما هبطت اهميته السياسية (٢) .

تتركز سلطة الدولة في مجلس العموم الذي يصنع القوانين ويقود الدولة بواسطة الوزراء الخاضعين له . على اساس القدرة الكلية لمجلس العموم ، المنبثق مباشرة من الارادة الشعبية ، قد يفكر المرء ان في انكلترة نظاما ديمقراطيا حاكما ، ولكن تلك ليست الحال . فبسبب النظام الانتخابي القائم على دفع ضريبة حق الاقتراع ، يتألف مجلس العموم بصورة رئيسية من ممثلين عن الطبقات المالكة : كبار الملاكين العقاريين ، الصناعيون والتجار .

في الريف ، كل الناخبين تقريبا مزارعون تابعون بشكل وثيق لكبار الملاكين العقاريين ، بحيث ان غالبية النواب العظمى من حزب المحافظين ، في المدن ، حيث يلعب الصناعيون والتجار دورا مهيمنًا ، غالبية النواب العظمى من حزب الاحرار ، الطبقة العاملة عمليا مجردة من كل حق سياسي ، فقط في المدن الصناعية الكبرى يتمكن العمال من انجاح مرشحهم ، وهذا يفسر العدد المحدود نسبيا من النواب الشاربيين في مجلس العموم (٣) .

هكذا فان الطبقات المالكة هي التي تمسك بالسلطة . مجلس العموم تحت هيمنة المحافظين او الاحرار ، الذين يدافعون عن مصالح ارسقراطية الارض وارسقراطية المال . فقط بقدر ما تمارس الارسقراطية العقارية بفضل ثروتها غير المنقولة تأثيرا على الانتخابات تشكل قوة سياسية . بالواقع ، ان البرجوازية الصناعية ، التي اصبحت قوتها الاقتصادية والاجتماعية غالبية ، هي التي تحكم ، هذا ، على كل حال ، ليس ممكنا - يضيف انجلز - الا لان الشعب ، الذي لم يدرك بعد ما هي الملكية الخاصة حقا ، يقبل الخضوع لطغيانها (٤) .

ثمة هكذا تناقض صارخ بين النظرية والعمل في الدستور الانكليزي . بعكس المبدأ الاساسي ، مبدأ انقسام السلطة بين التاج ومجلس اللوردات ومجلس العموم ،

(١) صص ٢١٢ - ٢١٤ .

(٢) صص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٣) صص ٢١٥ - ٢١٨ .

(٤) صص ٢١٨ - ٢١٩ .

هذا الاخير هو الملك الحاكم في الواقع ومعه البرجوازية (١) .

ان طابع الدولة الانكليزية المناهض للديمقراطية يعززه واقع انها بموجب الدستور دولة مسيحية . الكنيسة الانجليكانية معترف بها رسميا ديناً للدولة . المذاهب الدينية الاخرى معتبرة هرطقات ، الامر الذي يفسر الملاحقات ضد المنشقين والكاثوليك الذين عوملوا كمجرمي دولة (٢) .

ان طابع الدولة الانكليزية المناهض للديمقراطية يتجلى ليس فقط في هيمنة الطبقات المالكة والكنيسة بل ايضا في ممارسة الحقوق .

بمكس البلدان الاخرى ، ان حقوق الافراد مكرسة مسن قبل العرف ، مع الاعتراف بها من قبل القانون . هذه الحقوق الاساسية : حرية الفكر والتعبير ، حق الالتقاء والاجتماع ( حق الاجتماع وتشكيل جمعيات ) ، و « هابياس كوريس » ( Habers Corpus ، املك جسديك ) اي الحق الذي يحمي الفرد ضد كل توقيف عسفي ، اوسع مما هي في اي مكان آخر ، ولكنها مقيدة في تطبيقها بقدر ما تستطيع الطبقة العاملة الاستفادة منها .

حق حرية الفكر والتعبير ، اساس حرية الصحافة ، محدود بالقوانين التي تعاقب على المنشورات والخيانة العظمى والشتائم ، بحيث ان تطبيق هذا القانون رهن ارادة الحكومة ، مع هذا التحفظ الا وهو انها مضطرة ، في حال ملاحقات ضد الصحافة ، ان تحسب حساب الراي العام (٣) .

حق الاجتماع ايضا مقيد بواقع ان كل اجتماع يجب ان يكون هدفه ابداع عريضة ويمكن ان يحل من قبل الشرطة (٤) . ممارسة حق التجمع ( تشكيل جمعيات ) يجر نفقات كبيرة بحيث انه عمليا امتياز للاغنياء (٥) . وكذلك الحال بالنسبة للـ « هابياس كوربوس » : فممارسة هذا الحق ، حق كل متهم بأن يبقى حرا حتى افتتاح المحاكمة ، خاضعة لدفع كفالة ، وهي تبقى اذا وقفا للاغنياء (٦) .

ان طابع الدولة الانكليزية المناهض للديمقراطية يتجلى بشكل خاص في ميدان القضاء ، الذي هو قضاء طبقي . مثل سائر الحقوق ، حق المرء في ان يحاكم من قبل اقرانه امتياز للاغنياء . فالقير يحاكم من قبل اعدائه الطبقيين ، القضاة والمحلفون ينتمون للبرجوازية وفي احكامهم يحفظون رحمتهم للاغنياء وقسوتهم للفقراء (٧) .

(١) صص ٢١٩ - ٢٢١ .

(٢) صص ٢٢٢ - ٢٢٥ .

(٣) ص ٢٢٥ .

(٤) صص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٥) ص ٢٢٦ .

(٦) ص ٢٢٦ .

(٧) صص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

فضلا عن ذلك ، ان الفقير ، العاجز عن توكيل محام جيد ، يجد نفسه مغبونا ، من جراء ان طابع القوانين غير المحدد يعطي المحامي دورا جوهريا في المحاكمات (١) .  
هذا الفرق نفسه في العاملة بين الفقراء والاغنياء يتظاهر أيضا في تطبيق العقوبة .  
بينما يستفيد الاغنياء من حق العفو ، يجب على الفقراء ان يتحملوا كل صرامة عقوبات بربرية لدرجة انها بمثابة اعدام بطيء (٢) .

ملخصا انتقاداته للدولة والمؤسسات والعدالة ، يقول انجلز في الخاتمة : « كل سلطات الدستور : التاج ، مجلس اللوردات ، مجلس العموم ، انكشفت في وجهها الحقيقي ، لقد رأينا ان ما يدعى بحقوق الانكليز الاساسية ما هي الا كلمات باطلة ، ان هيئة المحلفين زائفة ، ان القوانين وهمية ، ان الدولة تنكر بنفسها الاساس الدستوري الذي اتخذه . . . وان الدستور الانكليزي . . . اكذوبة واسعة (٣) . »

ان هذه الحالة المثيرة للغضب المكرسة لحماية امتيازات المالكين يجب ان تُلغى .  
النضال ضدها قد بدأ ، هذا النضال تخوضه الديمقراطية ، لا الديمقراطية السياسية وليدة التعارض بين البرجوازية والملكية المطلقة بل الديمقراطية البرجوازية وليدة التنافي بين الطبقة العاملة وارشترراطية المال والهادفة الى الاشتراكية : « ان كفاح الممارسة ضد النظرية ، الواقع ضد التجريد ، الحياة ضد الجمل ، باختصار كفاح البشر ضد الانسانية يجب ان يقاد الى النهاية ، لا يمكن الشك في الجهة التي سيميل النصر اليها . . . ان المستقبل المباشر في انكلترة ملك للديمقراطية ، لا الديمقراطية كما حققتها الثورة الفرنسية التي كانت تناضل ضد الملكية والاقطاعية ، بل الديمقراطية التي تعارض الطبقة المالكة . هذا ما يبينه تطور التاريخ . السلطة في أيدي المالكين ، والفقير ، المحروم من كل الحقوق ، مسحوق وفضلا عن ذلك مظلوم من قبل الدستور والقانون ، كفاح الديمقراطية ضد الارشترراطية هو في انكلترة كفاح الفقراء ضد الاغنياء . الديمقراطية التي ستظفر في انكلترة هي الديمقراطية الاجتماعية . الديمقراطية البسيطة غير قادرة على شفاء الشرور الاجتماعية . المساواة الديمقراطية خرافة ، كفاح الفقراء ضد الاغنياء لا يمكن ان يحسم على صعيد الديمقراطية السياسية . هذه لا تشكل سوى مرحلة انتقالية . . . يولد منها عنصر جديد ، مبدأ يتجاوز كل عنصر سياسي ، مبدأ الاشتراكية (٤) . »

في هذا المقال كانت تتعبر كل ثروة الرؤى الجديدة عن اسباب وآثار الثورة الصناعية وكذلك عن دور الدولة والصراعات الطبقيّة ، التي كان انجلز قد كدسها

(١) ص ٢٣١ .

(٢) صص ٢٢٠ - ٢٣١ .

(٣) صص ٢٢٢ - ٢٣٣ .

(٤) صص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

إنشاء اقامته في انكلترة مدة عامين والتي جاءت تسوغ تصويره المادي للتاريخ .  
هذا التصور ، بالحقيقة ، لم يكن بعد الا في سير الانضاج ، ومن هنا بقايا المثالية التي نجدها في هذا المقال ، بشكل رئيسي في تفسير الحقب الكبرى الماضية التي ما يزال جزئيا يحدد طابعها ، على طريقة هيجل ، بتطور الوعي الانساني . هكذا فهو يفسر الرق في العالم القديم بواقع ان هذا الاخير كان يجهل حقوق الفرد (١) . كذلك بكيفية مثالية يفسر القنانة ، ناسبا اياها الى واقع ان العالم المسيحي - الجرمانى لم يع الا بشكل مجرد طبيعة الفرد المستقلة وبالتالي لم يستطع الغاء الرق فعليا فاحل محله القنانة (٢) . وهو يعزو ، من جهة اخرى ، تجريبة وريبة الانكليز الخاصتين الى كونهم ، بما انهم لا يستطيعون التغلب على التناقض بين ميلهم الى التدين وجاذبية الكسب ، فريسة خض داخلي يدفعهم الى الفاعلية العملية (٣) .

التعارض بين الطابع السياسي للحياة الفرنسية والطابع الاجتماعي للحياة الانكليزية معلل بكون الانكليز ، بخلاف الفرنسيين الذين يضعون في المستوى الاول المصالح العامة ، يعلقون اهمية اولية على المصالح الخاصة (٤) . الظهور المتأخر لتاريخ اجتماعي محلق بالسيطرة الطويلة للكنيسة والدولة (٥) . واخيرا ، استمرار همينة البرجوازية في انكلترة منسوب الى كون الطبقة العاملة لم تع بعد الطبيعة الحقيقية للملكية الخاصة وبالتالي لم تستطع التحرر من قبضتها (٦) .

هذه التعليقات المثالية هي بحقيقة الكلام معزولة ولا تشغل الا مكانا صغيرا في اللوحة الاجمالية التي ينشئها انجلز عن انكلترة . ما ان يفادر ميدان التاريخ الماضي ليتناول الحالة الحاضرة في انكلترة حتى تخلصي الاعتبارات المثالية المكان لاعتبارات مادية .

ان تحليل هذه الحالة ، الذي يقوده بوضوح متزايد الى ادراك ان التطور الاقتصادي يحدد التطور الاجتماعي والسياسي ، يمكنه من توضيح وتدقيق المبادئ العامة للمادية التاريخية . هذا ما يصنع فائدة واهمية هذا العرض الاجمالي الاول

(١) ص ٢٩٧ . « العصر القديم ، الذي كان لا يزال يجهل بشكل كامل حقوق الذات والذي كان تصوره للعالم بالتالي عموما ومجردا ، لم يكن يستطيع البقاء بدون الرق » .

(٢) ص ٢٩٧ .

(٣) ص ٢٩٤ .

(٤) ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٥) ص ٢٩٦ . « طالما كانت الدولة والكنيسة الشكلىن الوحيدين اللذين فيهما حقق البشر كينونتهم ، ما كان ممكنا وجود تاريخ اجتماعي . هذا ما يطل عدم وجود تطور واقعي لا في العصر القديم ولا في العصر الوسيط . الإصلاح البروتستانتي ، اول رد فصيل خجول ضد المصور الوسطى ، جاب نفرا اجتماعيا عميقا بتحويل الفن الى عامل حر . »

(٦) ص ٢١٨ - ٢١٩ .

احالة انكلترة ، التي يفسرها تفسيراً اوضح بكثير مما في مقالاته السابقة بالتطور الاقتصادي لهذا البلد . على حد قوله : « الثورة الصناعية هي أساس كل الحالة الحديثة لانكلترة ، العنصر المحرك لكل حركتها الاجتماعية » (١) .

بات من الآن يرى بوضوح ان تطور قوى الانتاج الحديثة يقرر ويحدد تغير العلاقات الاجتماعية والسياسية . هكذا يبين كيف ان الثورة الصناعية قد عجلت ، بالتحويل العميق لاسلوب الانتاج من جراء استخدام الآلات ، تفسخ المنظومة الاقطاعية ، وشددت الانفصال بين المدينة والريف ، وخلقت علاقات انتاج جديدة ، وذلك بتحويلها الملكية الخاصة التي تأخذ اكثر فاكثراً طابعاً صناعياً وتجارياً وبالمكان الذي تشغله البرجوازية والبروليتاريا في سيورة الانتاج الجديدة ، سواء بسواء .

بينما ، من جراء هذه انثورة التي تسهل خلق احتكارات ، تسحق الطبقات الوسطى ، اي اصحاب الحرف وصغار ومتوسطو الملاكين العقاريين ، تحل البرجوازية ، بفضل امتلاكها وسائل الانتاج الصناعي ، محل الارستقراطية العقارية كطبقة فائدة ، والبروليتاريا الخاضعة لاضطهاد متزايدة الوطأة عن طريق تخفيض الاجور الدائم والتمديد للانساني ليوم الشغل تدخل في صراع مكشوف ضدها .

التناحر بين الطبقات الاجتماعية يتجلى على الصعيد السياسي بالنضال بين الاحزاب : توري ، هويغ ، شارتيين ، الذين يدافعون عن مصالح الارستقراطية العقارية ، البرجوازية ، الطبقة العاملة . ان تحليل الصراعات السياسية والاجتماعية يبين اخيراً لانجلز ان الدولة ليست سوى اداة سيطرة في أيدي الطبقات الفائدة .

معتبراً ان المنظومة الرأسمالية باخضاعها البشر لعالم الاشياء تؤلف قمة نزع انسانيتهن ، انجلز يفكر انها ستلغى حتماً على يد ثورة بروليتارية تولد من احتدام الصراع الطبقي بين البرجوازية والبروليتاريا ، ثورة ستؤدي الى قيام الديمقراطية الاجتماعية اي الى قيام الاشتراكية .

بطريق مختلف جداً عن طريق ماركس ، الذي كان ، بوصوله في آن معاً الى المادية الجدلية والمادية التاريخية ، يعطي هذه الاخيرة قاعدة اوسع وامتن ، كان انجلز يصل الى نفس النتيجة الجوهرية ، الا وهي ان تطور التاريخ له ، كتطور الطبيعة ، طابع موضوعي ، انه محدد جوهرياً من قبل تحول قوى الانتاج ، وان الاقتصاد وحده يعطي تفسير التطور الاجتماعي .

## ماركس وانجلز

غادر انجلز انكلترة في اواخر آب ١٨٤٤ عائدا الى بارمن Barmen . مدفوعا بالرغبة في تعارف ارحب مع محرري جريدة **الى الامام** ، ولا سيما مع ماركس ، عرج الى باريس حيث مكث حوالي عشرة ايام .

في رسالة الى جريدة **العالم الاخلاقي الجديد** ، تتصل بهذه الاقامة ، كان يؤكد الذهنية الاممية للعمال الباريسيين الواعين للمصالح المشتركة التي عليهم ان يدافعوا عنها ضد برجوازية جميع البلدان ويسجل تقدم الشيوعية في باريس (١) .

راح يزور ماركس ، فوجده وحيدا ، اذ ان زوجته جني كانت ذهبت الى المانيا لتقدم ابنتهما الى اهلها . كانت نتيجة لقاتهما الجوهرية الحلف الذي عقدها آنشد والذي سيدوم مدى حياتهما . بعد لقاتهما الاول الحاصل قبل عامين في مدينة كولن في جو جليدي - ماركس كان يشتهه بأنه موفد من قبل « المعتقين » الذين كان قد قطع الصلة معهم لتوه - كانا يدركان انهما وصلا الى آراء متماثلة وانهما يستطيعان ان يواصلوا معا العمل الذي تابعاه حتى الان بصورة منفصلة (٢) . فقد كان انجلز بالفا ، مثل ماركس ، تصورا ماديا للتاريخ ، وكان يفكر ، مثله ، ان مهمة العصر الجوهري هي الغاء النظام الرأسمالي مولد نزع انسانية الانسانية .

ان تعاذهما ، الذي ستمضي الكفاحات التي سيخوضانها معا بصورة مشتركة في تعزيزه على الدوام ، كان مرده ليس فقط توافق آرائهما بل ايضا واقع ان معارفهما ومواهبهما كانت تتكامل بشكل مثير للاعجاب . اذ كان انجلز على اطلاع بالغ على النشاط الاقتصادي وعلى صلات مباشرة مع مختلف طبقات المجتمع ، فقد كان يشكل بالنسبة لماركس الرفيق المثالي في المهمة التي كانت مطروحة عليه الا وهي تطبيق معارفه النظرية على تحليل الوقائع الاقتصادية الاجتماعية . بالمقابل كان ماركس بوصفه متقدما على انجلز في مضمار انضاج أسس المادية الجدلية والتاريخية ، يقوي ويوسع تصورات انجلز باعطائها القاعدة النظرية المتينة التي كانت تنقصها . من هذه الحيثية كان لماركس ان يضطلع في تحالفهما بالدور القيادي ، كما سوف يعترف انجلز بذلك : « لا استطيع ان انفي انني ، قبل وبعد تعاوني مع ماركس مدة اربعين عاما ، ساهمت بنقسط ، على نحو مستقل ، في انضاج وتسويغ نظريتنا . ولكن القسم الاكبر من الافكار الموجهة ، لا سيما في المجال الاقتصادي والتاريخي والشكل الدقيق الذي

(١) ميغا ، ١ ، ح ٤ . عالم اخلاقي جديد ، رسالة انجلز بتاريخ ١٨٤٤/١٠/٥ . الاشتراكية في البر الاوروبي .

(٢) انظر فر. انجلز : تاريخ دابطة الشيوعيين . في ماركس - انجلز ، المؤلفات المختارة ، برلين ١٩٥٨ ، ح ٢ ، ص ٣٢٠ . « حين التقيت بماركس في باريس أثناء صيف ١٨٤٤ ، لاحظنا توافق آرائنا الكامل في جميع الميادين النظرية ، من هنا يبدأ تاريخ عملنا المشترك . »

نالتة هما ملك ماركس . ما اتيت به في العمل المشترك كان ماركس يستطيع ان يحققه بدوني ، فيما عدا بعض الميادين الخاصة . ولكن ما حققه ماركس ليس باستطاعتي ان أفعله . لقد كان يتجاوزنا جميعا بعلو واتساع رؤاه وبسرعة فكره . كان عبقرية ، بينما كنا في الاكثر مواهب . لولاه لما كانت نظريتنا ، ومن بعيد ، ما هي اليوم ، ولذا فهي بحق تحمل اسمه (١) . »

ان مساهمة انجلز في العمل المشترك كانت مع ذلك أهم مما يقر . هكذا ، في بداية حلفهما ذاتها ، كان يعطي ماركس ، في اللحظة التي كان فيها هذا الاخير يخرج ويبلور ، من وجهة نظر أخرى تماما ، الاطروحات الاساسية للمادية التاريخية ، مثالا مرموقا عن تطبيق هذه الاطروحات ، بتحليله لحالة انكلترا .

على أساس عدم فصل العمل الثوري عن المذهب الثوري ، كان ماركس وانجلز يعتبران ان ضعف الحركة العمالية آت بشكل رئيسي من افتقارها لقاعدة نظرية صلبة ، لذا فقد كانا يفكران ان المهمة الاكثر الحاحا هي توسيع وتعميق تصوراتهما النظرية ، بغية اعطاء العمال وعي دورهم الثوري وارشادهم في عملهم . وسوف يقول انجلز : « كنا غاطسين في الحركة السياسية ، كان لنا عدد من الانصار في الاوساط المثقفة ، لا سيما في المانيا الغربية ، وكنا على تماس وثيق مع البروليتاريا المنظمة . كنا ملزمين بأن نعطي قاعدة علمية لتصوراتنا وكان ذا اهمية بالغة بالنسبة لنا ان نكسب لافكارنا البروليتاريا الاوروبية والبروليتاريا الالمانية بادية بدء . وما ان وضعنا تصوراتنا حتى اكبنا على العمل (٢) . »

---

(١) انظر فر. انجاز : لودفيغ فويرباخ . في ماركس - انجلز ، المؤلفات المختارة ، برلين ، ١٩٥٨ ، ص ٣٥٩ .

(٢) انظر فر. انجلز ، تاريخ رابطة الشيوعيين . في ماركس - انجلز ، المؤلفات المختارة ، برلين ١٩٥٨ ، ص ٢٠ ، ص ٢٢٠ . انظر ميغا ، ٣ ، ١٠ ، ص ٧ - ٨ . رسالة انجاز الى ماركس ، ١٩/١١/١٨٤٤ : « كل هذا الركام النظري يزعجني اكثر فاكتر ، وكل الاقوال العابثة عن الانسان معتبرا في ذاته ومعها الانتقادات ... ضد اللاهوت ، الفكر المجرد او المادية البتذلة ، تثير اعصابي . من الافضل الاهتمام باشياء واقعية ، حية ، بتطورات ونتائج للتاريخ ، من اضاعة الوقت في هذه الترهات ... هذا افضل ما يتأتى علينا عمله ، على الاقل طالما نحن في موقف يفرض علينا ان نستخدم اقلامنا ولا يمكننا من تحقيق افكارنا بايدينا وعند اللزوم قبضاتنا . » . انظر المرجع نفسه ، ص ١ . رسالة انجلز الى ماركس ، ٨ - ١٠/١٠/١٨٤٤ : « الاخوان ( عمال مدينة كولن - ا. ل. ) نشيطون جدا ، ولكن نقص القاعدة النظرية محسوس جدا . طالما لم يبين في بعض الكتابات كيف ان المبادئ تتبع منطقيا وتاريخيا من التصورات الغالبة حتى ذلك الحين ومن تطور التاريخ الذي ليست المبادئ سوى نتيجته اللازمة ، فان الاختلاط في الفكر والتردد في العمل سيستمران في حكم الامور . »

## « العائلة المقدسة »

ان العمل الاول الذي اضطلع به ماركس وانجلز معا كان ضبطا لتصوراتهما بنقد الهيجليين الشباب في برلين ، الذين كان مذهبهم **النقد النقدي** يشكل على الصعيد الايدولوجي تفاعما للفلسفة النظرانية ومن وجهة النظر السياسية مساندة للرجعية (١) .

عن يد جورج يونغ Georg Yung من كولن ، كان ماركس يتلقى مجلة برونو باور Bruno Bauer الشهرية ، **الصحيفة الادبية العامة** ، التي كانت الناطقة الرئيسية بلسان الهيجليين الشباب البرلنيين . ومع ارسال المجلة اليه ، كان ج. يونغ يدعوه الى اتخاذ موقف ضد هؤلاء (٢) .

في اواخر آب ، قبل زيارة انجلز بقليل ، كان ماركس قد تلقى العدد رقم ٨ من **الصحيفة الادبية العامة** الذي كان يحوي المقالات : « ١٨٤٢ » ، مقال موجه ضد

(١) عن الهيجليين الشباب في برلين ، انظر الفصل الاول من هذا المجلد ، انظر كتاب العلوم السياسية ، **ينا** ، ١٨٩٢ ، ج٤ ، ص ١١٣١ . ف. انجلز ، ماركس هاينريش ، كارل . « في ايلول ١٨٤٤ ، فريدريك انجلز جاء يقضي بضعة ايام في باريس ، حيث التقى بماركس . كانا في صلات رسالية منذ مساهمتها في الحوليات الفرنسية - الالمانية ، من هنا بدا تحالفهما الذي لم ينقطع الا مع وفاة ماركس . الثمرة الاولى لتعاونهما كانت مجادلة ضد برونو باور الذي كانا قد انفصلا عنه في سير تفكك المدرسة الهيجلية ، المجادلة التي نشرت عام ١٨٤٥ في مدينة فرانكفورت - على - نهر الماين ، تحت عنوان : **العائلة المقدسة** . نقد برونو باور وشركاه . »

(٢) انظر رسالة ج. يونغ الى ماركس ، ٢١ تموز ١٨٤٤ . هذه الرسالة موجودة في ارشيف الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالمانى بامستردام . « ارسل اليك ، تحت ورقة اغلاق ، بالبريد ، الاعداد ٥ ، ٦ ، ٧ ، من **الصحيفة الادبية العامة** . ان ملاحظتك على برونو باور صحيحة جدا ، ولكن من المستحسن ان تحولها الى نقد ينشر في جريدة المانية ، بغية دفع باور الى الخروج من تحفظه الخفي الغريب . فهو الى هنا لم يفصح عن اي رأي واضح في اي موضوع ، حيث ان مهمة النقد على حد قوله تقتصر على تفهم الحوادث . وهو يجعل هذه المهمة سهلة جدا عليه فاضحا مع ابتسامة ساخرة التناقضات التي يكتشفها فيها ، ثم يتملص من اي تعليق . بطبيعة الحال ليس صعبا ان يحقق هكذا الانتصار البارع الذي يفاخر به الى هذا الحد الا وهو الكتابة تحت مراقبة الرقابة البروسية . صحيح ان الاخوة باور فيما لو اتت الى ذهنهم ارادة حل التناقضات التي يفصحونها لسرعان ما اعوزتهم الموهبة التي يفاخرون بها ولاصبح طريق المنفى المخرج الوحيد بالنسبة لهم . باور مفرم بهذه العادة الموهوسة في نقد كل شيء لدرجة انه كتب لي منذ امد قصير انه يجب ان لا نتنقد فقط وببساطة المجتمع ، الامتيازات ، الملاكين ، بل يجب ايضا ، وهذا امر لم يفكر به احد الى هنا ، نقد البروليتاريين ، كما لو ان نقد الاثنياء والملكية والمجتمع ليس مشتقا من نقد وضع البروليتاريا للانساني والشائن . اكتب لي ماذا تنوي عمله ضد برونو باور ، اذا كنت لا تريد ان تترك وقتا لهذا النقد ، فاننا ، انا وهسى ، نفكر باستخدام رسائلك لنجعل منها مقالا . »

الشيوعية، و « ما هو الآن موضوع النقد؟ » الذي كان بمثابة برنامج **النقد النقدي** (١).  
ماركس ، الذي كان قد هاجم بحدّة برونو باور في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** ، حيث كان قد أعلن عن نقد عام لـ **النقد النقدي** (٢) ، تحدث مع  
انجلز عن هذا المشروع . اتفقا بسرعة على أنه من الضروري فضح كلامولوجيا هذا  
النقد وطابعه الرجعي الموسوم بهجمات ضد « الجمهور » ، أي ضد الطبقة العاملة  
و ضد الليبرالية والشيوعية ، الهجمات التي كان يقنعها بمظاهر شبه - ثورية .

انجلز كتب بسرعة ما كان عنده ليقوله ودهش لسماعه بعد عدة أسابيع المدى  
الذي يعطيه ماركس لحربهما . بينما في ذهنه كان يجب أن تبقى هذه المناظرة في  
حدود تصفية حساب سريعة تحقق بأسلوب ساخر ، فقد حولها ماركس مع احتفاظه  
بهذا الأسلوب الى مناقشة معمّقة لكل المسائل التي يضعها **النقد النقدي** ، بحيث أن  
ما كان مفروضا أن لا يكون سوى كراس تحوّل الى مؤلف كبير .

كان الامر الجوهري بالنسبة لانجلز وخصوصا بالنسبة لماركس ان يحددا ،  
بمساعدة هذا النقد ، وضع تصوراتهما الخاصة . وهذا ما يفسر عظيم أهمية **العائلة  
المقدسة** في تشكل فكرهما . وقد أشارا الى الخطوط الكبرى لنقدهما في المقدمة حيث  
قالا : « **الانسانية الواقعية** ليس لها في المانيا عدو أشد خطرا من **الروحانية** أو **المثالية  
النظرانية** التي تحل محل **الفرد الواقعي** الـ « وعي » أو الـ « روح » والتي تعلّم مع  
الانجيل « ان الروح هي التي تحيي وان الجسد يستحق الإهمال » . غني عن البيان  
ان هذه الروح التي لا جسد لها ليس لها واقعية الا في خيالها . ما تكافحه في مثالية  
باور هو المضاربة التأملية الفلسفية التي تتخذ عنده شكلا **كاريكاتوريا** . انها بالنسبة  
لنا التعبير الناجز للمبدأ **المسيحي - الجرمانى** الذي ، في تجليه الاخير ، يحوّل النقد  
الى قوة متعالية خارقة .

ان عرضنا يتصل على نحو رئيسي **بالصحيفة الادبية العامة** لبرونو باور ، التي  
بين أيدينا اعدادها الثمانية الاولى ، اذ هنا بلغ نقد ب. باور ومعه حماقة **النظران  
الالمانى** أوجهما . ومما يزيد فائدة **النقد النقدي** ( نقد الصحيفة الادبية العامة )  
التنويرية أنه يكمل تشويه الواقع بالفلسفة ، محوّل اياه الى كوميديا ، وهذا ما يفعله  
بشكل خاص فاوخر Faucher وشيليفا Szeliga . **الصحيفة الادبية العامة**  
تقدم العناصر التي تسمح بافهام حتى الجمهور الكبير أو هام الفلسفة النظرانية . ذلك  
هو هدف عملنا (٣) .

- (١) انظر **الصحيفة الادبية العامة** ( ومن الآن سنرمز اليها بأحرفها الاولى ص. ا. ع. ) ، الدفتر  
الثامن ، ص ١ - ٨ ، ١٨٤٢ ، ص ١٨ - ٢٦ ، ما هو الآن موضوع النقد ؟  
(٢) انظر ميفا ، ١ ، ح ٣ ، ص ٣٣ ، ٣٤ - ٣٥ .  
(٣) ميفا ، ١ ، ح ٢٥ ، ص ١٧٩ .

## انتقادات أنجلز

الكتاب ، الذي يتألف من سلسلة من الانتقادات المتباينة الى حد لا بأس به ، يبدأ ببضع مناقشات من أنجلز ضد عاملين ثانويين في **الصحيفة العامة الادبية** : رايشهاردت ، يونفنتس ، فاوخر .

أنجلز ، أولا بأول ، يصفي بسرعة حساب المجلد - السيد رايشهاردت Reichhardt ، الذي لم يكن ، بعد اعلانه في تحليل لحالة الطبقة العاملة ضرورة انهاء الاثراء الفاضح لدى البعض الذي يقابله بؤس الآخرين ، قد وجد حلا اخر لهذه المشكلة سوى اللجوء الى حكمة الملك (١) .

ثم وجه أنجلز ضرباته ضد أرنست يونفنتس Yungnitz ، الذي كان ، بمناسبة اجراء متخذ ضد كارل ناوفرك ، الاستاذ في جامعة برلين ، قد اتهم كلية الفلسفة في هذه الجامعة بالجبن في الدفاع عن هذا الاخير ، مع امتناعه تماما عن ذكر أية اجراءات كان يجب ان تتخذ لهذا الغرض (٢) .

بهجومه على جول فاوخر Faucher ، كان أنجلز يتوجه الى خصم اكثر جدية ، وفي الوقت نفسه يتعرض لمسائل ذات فائدة اعم . ج. فاوخر ، الذي كان يعرف جيدا المسائل الانكليزية ، كان قد نشر في **الصحيفة الادبية العامة** مقالا طويلا عرض فيه عواقب الفاء رسوم دخول الحبوب وادخال يوم العمل ذي العشر ساعات (٣) . معتمدا على التصور الريكاردوي ، الذي يرى ان الاجور لا تستطيع أن تتجاوز معدلا أعلى ، كان يفكر ان هذين التدبيرين سيظللان بلا آثار على حالة العمال ، فالفاء رسوم دخول الحبوب لا بد أن يؤدي الى هبوط اكلاف المعيشة ومعه هبوط الاجور ، بينما ادخال يوم العمل ذي العشر ساعات بتسريعه استخدام الآلات سيزيد البطالة وبالتالي سيؤدي هو أيضا الى انخفاض في الاجور .

- 
- (١) ميغا ، ١ ، ح ٣ ، ص ص ١٨٠ - ١٨٢ . ف. أنجلز : النقد النقدي في وجه سيد - مجلد او النقد النقدي في ملامح السيد رايشهاردت . انظر ص.أ.ع. ، الدفتر الاول ، ديسمبر ١٨٤٢ ، ص ص ١٧ - ١٩ ، كارل رايشهاردت : مؤلفات عن الفقر ، كفاك النقد ضد تناقصات الأزمنة الحديثة .
- (٢) المرجع نفسه ، ص ص ١٨٧ - ١٨٨ ، عوق النقد النقدي او النقد النقدي في ملامح السيد ي. (يونفنتس) . انظر ص.أ.ع. ، الدفتر الرابع ، ايار ١٨٤٤ ، ص ص ٢١ - ٢٢ . أ. يونفنتس : عن المشاركة في الدولة ، لكارل ناوفرك ، لايتسيغ ، فيفان ، ١٨٤٤ . انظر المرجع نفسه ، الدفتر السادس ، ايار ١٨٤٤ ، ص ص ١٧ - ٢٠ ، ي. : السيد ناوفرك وكلية الفلسفة .
- (٣) ميغا ، ١ ، ح ٣ ، الدفتر السابع ، حزيران ١٨٤٤ ، ص ص ١ - ١٨ ، الدفتر الثامن ، تموز ١٨٤٤ ، ص ص ٢٨ - ٢٨ ، الدفتر التاسع ، آب ١٨٤٤ ، ص ص ٢٠ - ٢٢ . ج. فاوخر : مسائل راهنة انكليزية . أنجلز لم يستخدم في نقده القسم الاخير من هذا المقال .

في نقده لفاوخر (١) ، انجلز يعترض بقوله ، من جهة ، ان الغاء رسوم الدخول على الجبوب لن يؤدي بالضرورة الى هبوط في الاجور ، نظرا الى ان هذه الاجور قد خفضت الى الحد الاقصى وأن العمال لن يسلموا بهبوط جديد ، ومن جهة أخرى ، ان تقصير يوم الشغل سيستتبع اضعاف الصناعة الانكليزية بتسهيله المزاخمة الاجنبية (٢) .

ثم ، موجهها هجماته ضد برونو وادغار باور ، كان انجلز يقوم بنقد عام لمبادئ **النقد النقدي** (٣) .

رغم كونه يرعد ضد المثالية ويتبجح باحلاله محل فلسفة هيغل المجردة فلسفة تزعم احتواء « كل ثروة الحياة الانسانية والمضمون الهائل للتاريخ » (٤) ، ان **النقد النقدي** ، بتحويله كل الواقع الى مقولات مجردة ، يشكل ، على حد قول انجلز ، كاريكاتورا للتاريخ وأيضا لهيغل الذي عرض ، في شكل مصوّف ، المحتوى الواقعي للتاريخ .

بالواقع ، ليس ب. باور بل فويرباخ هو من كشف عدم المثالية ، محلا محل **جدل المفاهيم المجردة تاريخ البشر الحقيقي** (٥) .

(١) المرجع نفسه ، صص ١٨٢ - ١٨٧ . ف. انجلز : **النقد النقدي** مجسدا من قبل « طحان » او **النقد النقدي** في ملامح السيد ج. فاوخر .

(٢) المرجع نفسه ، ص ص ١٨٥ - ١٨٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ص ١٨٨ - ١٩٠ . ف. انجلز : « **النقد النقدي** في شكل طمانينة المعرفة او **النقد النقدي** في ملامح السيد ادغار : (١) فلورا تريستان Flora Tristan عن الاتحاد العمالي (٢) بيرو Béraud عن البقايا .

انظر ص.١.ع ، الدفتر الخامس ، نيسان ١٨٤٤ ، ص ص ١٨ - ٢٢ . ١. باور : **الاتحاد العمالي** ، بقلم السيدة فلورا تريستان ، اصدار شعبي ، باريس ، ١٨٤٣ . كذلك ص ص ٢٥ - ٣٥ : بيرو عن البقايا . انظر ميغا ، ١ ، ٣ ، ص ص ٢٦٤ - ٢٦٧ ، ف. انجلز : **الحملة الثانية للنقد النقدي ضد هنريش Hinrichs** ، ٢ ، **النقد وفويرباخ** . ادانة الفلسفة . انظر ص.١.ع ، الدفتر الخامس ، ص ص ٢٢ - ٢٥ . (ب. باور) : **محاضرات هنريش السياسة** ، ٢ ، ١٨٤٣ .

في هذه المحاضرات ، حيث كان يرسم لوحة عامة عن أوروبا وبخاصة عن المانيا، كان هنريش قد فصح عدم **النقد النقدي** ، من هنا حملات ب. باور عليه .

(٤) ميغا ، ١ ، ٣ ، ص ٢٦٥ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٢٦٥ . « ولكن من الذي كشف سر المنظومة ( منظومة هيغل - ا.ك. ) ؟ انه فويرباخ . من الذي اباد جدل المفاهيم ، حرب الالهة ، الحرب الوحيدة التي عرفها الفلاسفة ؟ انه فويرباخ . من الذي احل محل كل الركام المثالي العتيق وأيضا محل « وعي الذات لا حد له » ، لا « أهمية الانسان » - وكان الانسان يمكن ان يكون ذا أهمية أخرى غير أهمية كونه انسانا ! - بل الانسان نفسه ؟ فويرباخ وفويرباخ فقط . فعل اكثر ايضا . اباد منذ فترة طويلة المقولات التي يطيب للنقد ان يشموذ بها : « غنى الحياة الانسانية الحقيقي ، محتوى التاريخ الهائل ، معارك التاريخ ، صراع الجمهور ضد الروح » ، الخ » .

بتحويله الواقع الى مقولات مجردة يستطيع ان يلعب بها ما يشاء من العباب الخفة ، **النقد النقدي** افقر الفلسفة الهيغلية الى الحد الاقصى . فكل ثروة المقولات الهيغلية قد قلصت من قبله الى مقولتين : « الروح » و « الجمهور » ، كل التاريخ يتلخص بالنسبة اليه في الصراع بين هاتين المقولتين ، حيث العنصر المحرك هو الروح ، بينما « الجمهور » يؤلف العنصر اللاعقلي والخسيس الذي يقف عقبة امام تطور الروح (١) . هذا يسمح له بأن يرسم كما يريد ، بوصفه تجسيدا للروح ، سير التاريخ (٢) . ويرد انجلز : « ان التاريخ لا يصنع شيئا ، لا يملك « ثروات جبارة » ، « لا يخوض معارك » ، ان الانسان الواقع ، الحي ، هو وحده الذي يحقق ويحوز كل شيء ويخوض المعارك ، التاريخ لا يستخدم البشر ليحقق غاياته ، كما لو كان هو شخصا خاصا ، انه ليس شيئا اخر سوى فاعلية الانسان الذي يسعى الى تحقيق غاياته (٣) » .

هذا التصور المثالي للانسان والعالم والتاريخ يفسر بطلان الاحكام التي يصدرها **النقد النقدي** على كل المواضيع التي يتناولها ، بخاصة على فلسفة عصر الانوار وعلى الاشتراكية .

في حين ان ب. باور كان ما يزال في سنة ١٨٤٣ ، في كتابه **المسيحية المكشوفة** ، يمتدح فلسفة الانوار التي كان يقول عنها انها ثورت العالم ، فهو الان يدينها على كونها لم تستطع الخروج او التحرر من زمنها ، الامر الذي جعلها عاجزة عن الفعل فيه (٤) .

ان الموقف الرجعي ذاته يتجلى في الحكم الذي يصدره ا. باور على حركة العمال وعلى الاشتراكية .

فهو يدين الاشتراكية التي يرفض لها أي منظور مستقبل ، مفكرا انها وصلت الى حدها مع مذهب فوريه . ويرد انجلز بقوله ان الاشتراكية ، بعيدا عن أن تكون قد استنفدت قابلياتها على التطور مع الفورييرية و « الديمقراطية السلمية » لـ ف. كونسيديران V. Considérant ، لا تكف عن التطور وقد وجدت شكلها الحقيقي

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٦٥ . « لما كان الانسان قد جرى الاعتراف به والتعرف عليه بوصفه بشكل جوهر ، اساس الفاعلية الانسانية والعلاقات الانسانية ، فقد كان النقد وحده ما يزال قادرا على اختراع مقولات جديدة ، على تحويل الانسان نفسه الى مقولة وعلى جعله مبدا سلسلة كاملة من المقولات ... » . انظر ص ٢٦٦ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٨٣ . « ان النقد الذي يكفي ذاته بذاته ، الذي هو ناجز كامل ، لا يستطيع بطبيعة الحال ان يقبل التاريخ كما جرى فعليا ... بما ان التاريخ معرّى من طابعه « الكتلي الجماهيري » فان النقد ، الذي يأخذ كامل الحرية مع موضوعه ، يستطيع ان يقول له « هكذا وليس على نحو اخر جريت ! » . »

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٦٥ .

(٤) ص ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

في الشيوعية (١) .

موسم احتقاره الاشتراكية الى الطبقة العاملة ، ١ . باور يزعم ان العامل لا يستطيع ان يخلق شيئا ذا ديمومة وجدية ، لان شغله هو بالجوهر شغل منعزل وجزئي ، خالصا من ذلك الى عبث الجهود التي يبذلها الاشتراكيون ولاسيما فلورا تريستان بغية تحريره (٢) .

بالواقع - يقول أنجلز - العامل هو الذي يخلق كل شيء وأهمية دوره الاجتماعي تقاس بعدم النقد النقدي . ان ما يعذب الشغل ليس طابع شغله « الجزئي المعزول » بل طابعه الا انساني الناتج عن الاستغلال الرأسمالي . من هنا ضرورة انعتاقهم وبذلك عينه تسويغ العمل الذي تقوم به فلورا تريستان لتنظيم العمال بغية تحريرهم (٣) .

ويخلص أنجلز الى ان ليست الاشتراكية هي التي تظهر آثار انهالك بل النقد النقدي الذي ليس ، برغم شتائمه ضد الدوغمانية ، سوى الشكل المجرد والكاريكاتوري للفلسفة الهيغلية (٤) .

### انتقادات ماركس

في نقده للنقد النقدي ، كان ماركس يسط نفس الفكرة الاساسية ، ولكن بكيفية اكثر تعميقا . مؤجلا الى فترة لاحقة تحريره لمؤلفه عن الاقتصاد السياسي ، كان يكرس نفسه بالكامل لهذا النقد ويستخدم من أجله ليس فقط مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة بل ايضا دراساته عن المادية الانكليزية والفرنسية وعن الثورة الفرنسية .

هذا النقد ، الذي كان بالنسبة له كما بالنسبة لأنجلز مصدر فرح كبير ، كان

(١) ص ٣٣٠ .

(٢) انظر ص.١٠ع . ، الدفتر الخامس ، نيسان ١٨٤٤ ، صص ١٨ - ٢٣ . ١ . باور : الاتحاد العمالي ، بقلم السيدة فلورا تريستان ، الاصدار الشعبي ، باريس ، ١٨٤٣ .  
فلورا تريستان ( ١٨١٣ - ١٨٤٤ ) كانت تريد تأسيس اتحاد عام لكل الشغيلة الفرنسيين . كل عضو كان عليه ان يدفع اشتراكا سنويا قبره فرنكان ، وغرض هذه الاشتراكات ان تخدم في تأمين حق العمال في الشغل بتنظيم هذا الاخير .

(٣) ميف ، ١ ، ٣ ، ص ١٨٩ . « النقد النقدي لا يخلق شيئا ، العامل هو الذي يخلق كل شيء وذلك لدرجة انه يلقي العار على كل النقد بابداعات روحه ، والبرهان يطيح العمال الانكليز والفرنسيون . »

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٨٩ . « النقد يكتفي بان يحول الى صيغ مقولات الواقع ، وبخاصة فلسفة هيغل والطامع الاجتماعية ، فاعليته تستند في هذا الخلق لصيغ . رغم شتائمه على الدوغمانية ، يحكم على نفسه بالدوغمانية . »

يقدم له فرصة بسط وانماء وتطوير تصوره الجديد للتاريخ بمساعدة تحليل عدد من المسائل الفلسفية والاجتماعية . وهذا يفسر انه رغم تنوع المواضيع المعالجة ورغم الاستطرادات العديدة فان انتقاداته تتسم بوحدة عميقة .

تسهلا لفهمها ، يبدو ضروريا ان نجعلها في التسلسل الآتي . ١ ) نقد عام للفلسفة النظرانية وللنقد النقدي . ٢ ) الثورة الفرنسية . ٣ ) المادية الانكليزية والفرنسية . ٤ ) الاشتراكية . ٥ ) برودون . ٦ ) المسألة اليهودية . ٧ ) « أسرار باريس » ، تأليف سو Sue .

## ١. نقد عام للفلسفة النظرانية وللنقد النقدي

في تفنيده للنقد النقدي ، ماركس يذهب من تحليل للفلسفة النظرانية ، يلخص فيه ، من وجهة نظر جديدة ، التحليل الذي كان قد انشأه في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** . ان الفلسفة النظرانية ، على حد قوله ، وبخاصة فلسفة هيجل ، تجعل من الواقع العياني محمولا للفكرة ، من الروح جوهر العالم ، ومن التاريخ انبساط الروح . ان روحنة العالم هذه تتعبر على النحو الاكمل في **فينومينولوجيا الروح** حيث هيجل يحل محل الانسان وعي الذات ، محل الطبيعة وعي الانسان لها ، ومحل تطور الانسان والطبيعة تطور الروح . هكذا يتحول العالم الى جملة من المفاهيم التي تنبسط بكيفية جدلية ، بحيث ان كل تاريخ الانسان والطبيعة مقلص الى العلم **Savoir** . الواقع العياني ، المحذوف في النظرية على يد الفلسفة النظرانية ولكن الباقي بالفعل ، يصير ، بوصفه غير موافق للروح وعائقا امام تطوره ، العنصر المطلوب حذفه ، الامر الذي يحققه هيجل بروحنته (١) .

(١) **ميفا** ، ١ ، ٢٥ ، ص ٢٧٠ . « ان فينومينولوجيا هيجل هي التي تعطي مفتاح سر جسارة باور . بما ان هيجل يحل هنا محل الانسان وعي - الذات ، فان الواقع الانساني في هيئاته المختلفة يظهر شكلا محددا - معينا ، تحديدا - تعيينا لوعي الذات . ولكن محض تحديد بسيط لوعي الذات هو « مقولة محضة » ، « فكرة » خالصة طاهرة ، استطيع ، بذلك عينه ، ان احذفها وان اتجاوزها في الفكر « الخالص » . في فينومينولوجيا هيجل ، القواعد المادية ، الحسية ، الموضوعية ، لمختلف الاشكال المتخلطة لوعي الذات تبقى بلا تغير ، وكل هذا العمل المدمر يقضي الى اشد الفلسفات محافظة ، لانه يتصور انه انتصر على العالم الموضوعي ، على العالم المحسوس الواقعي ، فور كونه حوله الى فكرة ، الى محض تحديد لوعي الذات ، الامر الذي يتيح له ان يحذف خصمه الذي صار انثريا ، في « انسر الفكر الخاص » . الفينومينولوجيا تنتهي على نحو طبيعي تماما الى احوال العلم المطلق محمل مجموع الواقع الانساني ، لان العلم هو نمط الكينونة الوحيد لوعي الذات ولان هذا الاخير معتبر النمط الوحيد لوجود الانسان ، لانه في العلم المطلق لا يبقى لوعي الذات النظوي على ذاته عالم موضوعي يزعمه . هيجل يحصل الانسان الى وعي ذات بدلا من ان يعتبر وعي الذات وعي الانسان الواقعي لذاته ، وعي ذات الانسان الواقعي الذي يعيش في عالم واقعي ، موضوعي ، والمحدد من قبله . بهذا التحويل ، يستطيع

في تحليل لمفهوم الفاكهة كله دعابة ، يعرض ماركس آلية الفلسفة النظرانية (١) . يقول انه اذا حولنا وقلصنا الفواكه المختلفة : تفاح ، اجاص ، الخ ، الى مفهوم الفاكهة واذا جعلنا هذا الاخير جوهر كل الفواكه ، ماهيتها الحقيقية أو مادتها الحققة ، نكون حولنا الفواكه الواقعية الى تخرجات ، الى أنماط كينونة مفهوم الفاكهة . الامر الجوهري في الفواكه المختلفة ، تفاح ، اجاص ، لا يكون بعد الان كينونتها الخاصة ، كيانها الواقعي ، بل مفهوم الفاكهة الذي اخذ مكانها . الفواكه الواقعية لم تعد سوى اشكال ظاهرية يؤلف مفهوم الفاكهة ماهيتها ، مادتها .

بعد أن حول هكذا الثمار المختلفة الى مفهوم الثمرة ، يجب على النظران لكي يصل ، على الاقل في الظاهر ، الى محتوى واقعي ، أن ينتقل من مفهوم الثمرة الى الثمار الواقعية . ولكن ، لئن كان من السهل أن نسحب ، بأسلوب التجريد ، من الثمار المختلفة ، مفهوم الثمرة ، فانه من غير الممكن ، ذهابا من هذا المفهوم ، أن نصل الى الثمار الواقعية ، الا بالتخلي عن التجريد (٢) .

هذا ما تفعله ، ولكن في الظاهر فقط ، الفلسفة النظرانية . على حد قولها ، اذا كانت الثمار ، التي ليست موجودة فعلا الا بوصفها ماهية روحية ، الا بوصفها مفهوم الثمرة ، اذا كانت تظهر تحت اشكال متنوعة ، وهذا امر مضاد لوحدة الماهية ، فان ذلك يأتي من كون مفهوم الثمرة ليس كيانا ميتا ، بل واقع حي دائما في سير انبساط . الثمار الواقعية : تفاح ، اجاص ، الخ ، ليست الا تعبيرات مختلفة ، درجات متتالية ، لانبساط مفهوم الثمرة الذي يشمل كل الثمار (٣) .

هكذا فالفلسفة النظرانية ، بعد تحويلها وتقليصها الموضوعات المختلفة الى ماهية مجردة ، الى مفهوم ، تخلقها ثانية جاعلة منها تخرجات لهذا المفهوم . الموضوعات العيانية تفقد من جراء ذلك طابعها الخاص ، لا يبقى لها وجود واقعي ، وهي تصبح كائنات وهمية ، محض تظاهرات لمفاهيم . صفتها الجوهرية ليست

»»»

هيفل ان يحذف بالفكر كل الحدود - التخوم التي تبقى بشكل طبيعي بوصفها حدودا تحد الواقع العياني للانسان الواقعي . بالضرورة انه يعتبر حدا يجب حذفه كل ما يظهر حدا يحد الوعي الكلي ، اي الواقع المحسوس ، خصوصية البشر وعالمهم . كل الفينومينولوجيا تتجه الى تبيان أن وعي الذات يشكل الواقع الوحيد وكل الواقع . » .

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٧٢ - ٢٣٢ . سر البناء النظرائي . انظر الاعمال الفلسفية ، ترجمة ج. موليتور J. Molitor ، ج ٢ ، العائلة المقدسة ، باريس ، الفريد كوست ، ١٩٢٧ ، ص ٩٩ - ١٠٦ ( من الان سندكر هذا المرجع تحت عنوان موليتور ) .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .

(٣) ص ٢٢٩ .

صفتها الطبيعية ومبررها الوحيد كونها تحققات ، درجات تطور ، لمفاهيم (١) .  
 الإنسان العادي لا يعتقد انه يصّر بشيء ما مدهش حين يقول هناك تفاح  
 واجاص ، أما الفيلسوف النظرائي فهو حين يصّر بهذه الحقيقة نفسها يحقق  
 معجزة . اذ أنه ، بفعل خلق سري ، يسحب من روحه ، من ذهنه ، الذي يتمثله في  
 شكل ذات مطلقة ، موجودة خارجه ، موضوعات عيانية ، من هويات مجردة ، من  
 مفاهيم ، هنا من مفهوم الثمرة ، يسحب ثمارا واقعية ، تفاحا ، اجاصا ، ويحقق  
 هكذا ، في كل وجوده العياني الذي يصّر به ، معجزة (٢) . هذا الخلق العجيب ، لا  
 يستطيع الفيلسوف النظرائي ، بالحقيقة ، أن يحققه الا بتحميله الموضوعات التي  
 يخلقها الصفات التي لها واقعا ، الا بتحديد مجرداته بحسب طابع الموضوعات  
 الواقعي الفعلي . هذا الاسلوب في الخلق بالفاعلية المستقلة للروح المعبر ذاتا مطلقة  
 هو ما يطبع الفلسفة النظرائية (٣) .

هذه الفلسفة النظرائية بلغت ذروتها مع **النقد النقدي** . فالنقد النقدي فاقم  
 الطابع النظرائي للفلسفة الهيغلية ، باعادة الروح المطلق لهيغل الى وعي الذات الذي  
 ينسبط ، بعكس الروح المطلق ، لا في وحدته التي لا تنحل مع العالم ، بل في معارضته  
 اياه وتحويله جملة العلاقات الانسانية الى مقولات مجردة يدمرها وعي الذات  
 بوصفها تعيينات خاصة لكيونته وبالتالي غير مطابقة .

**النقد النقدي** يشكل افقارا كبيرا جدا للفلسفة الهيغلية ، حيث تطور الفكرة ،  
 بوصفها ذاتا - موضوعا ، كان مرتبطا ارتباطا لا ينحل بتطور العالم . مقلصا الى  
 تطور الوعي الكلي المعتبر في علاقاته مع الماهية ، المتصورة هي أيضا على نحو مجرد  
 كمجموع التحديدات الخاصة لهذا الوعي ، التاريخ يصير أكثر أيضا مما هو عند هيغل  
 حركة محض روحية (٤) .

من جراء ذلك ، ليس **النقد النقدي** ، كما يتبجح ، هو الذي تجاوز الفلسفة  
 الهيغلية ، التي لم يفعل سوى مقاومة طابعها التأملّي المضارب ، بل فويرباخ الذي ،  
 باحلاله محل الفكرة المطلقة الانسان ، العياني ، المعتبر في علاقاته مع الطبيعة ومع

(١) ص ص ٢٢٩ - ٢٢٠ .

(٢) ص ٢٣٠ .

(٣) ص ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٤) ص ٣٧١ . « من البدهي انه ، لئن كانت فينومينولوجيا هيغل ، رغم لوئتها الاصلية ، تقدم في  
 نقاط كثيرة عناصر تحديد واقعي لطابع الشروط الانسانية ، فان السادة برونو وشركاه لا يعطوننا سوى  
 كاريكاتور عنها ، بعزلهم هذا الطابع الخاص او ذاك لفكرة او شروط وحركات واقعية بفية تحويله الى  
 تعيين ، الى مقولة ، يقدمونها بوصفها عنصرا مميزا لهذه الفكرة ، لهذه الشروط ، لهذه الحركات ،  
 ومن ثم يدينونها بتعال رفيع ، من وجهة نظر عامة مجردة ، من وجهة نظر الوعي الكلي ، بوصفها ليست  
 سوى تعيين خاص لهذا الاخير . »

البشر الآخرين ، دمر جدل المفاهيم الخاص بالفلسفة النظرانية (١) .

بنقد د. ف. شتراوس D. F. Strauss أنى ب. باور الملامح الجوهرية للفلسفة النقدية . الصراع بين شتراوس و ب. باور يقع داخل الفلسفة الهيفلية التي تتضمن ثلاثة عناصر : ماهية سبينوزا ، وعي الذات ليفخته ، والروح الذي هو تركيبهما . العنصر الاول ، الماهية ، هو القناع الميتافيزي للطبيعة ، المعتبرة خارج الانسان . العنصر الثاني ، وعي الذات ، هو القناع الميتافيزي للانسان ، المعتبر خارج الطبيعة . العنصر الثالث ، الروح ، هو القناع الميتافيزي لوحدتهما الحقيقية ، القناع الميتافيزي للانسان الواقعي . شتراوس بسط العنصر الاول في فلسفة هيفل ، جاعلا الماهية المطلقة ، ب. باور بسط الثاني ، معتبرا ان هذا الثاني قوامه الوعي الكلي . بانماثهما على نحو منطقي منسجم واحدا من مبادئ الفلسفة الهيفلية ، بقيا كليهما في ميدان التأمل المضارب ، شتراوس بجعله الماهية و ب. باور بجعله وعي الذات ، ذاتا ميتافيزية ، مطلقة (٢) .

متجاوزا هيفل ، الذي كان يعيد انبساط التاريخ الى انبساط الروح الموضوعي الذي لا يأخذ الفيلسوف وعيه الا بعد تحققه الواقعي (٣) ، ب. باور يجعل من الوعي الكلي الذي يتجسد في الارواح - النخبة اي في الفلاسفة « النقيدين » العنصر الخالق والضابط المنظم للتاريخ (٤) .

ان انبساط التاريخ ، المعاد الى انبساط الوعي الكلي ، يحصل ، لا كما عند هيفل حيث هو نتيجة حركة الروح الموضوعي الجدلية في اتحاد وثيق مع العالم ، بل في تعارض معه ، مع الماهية المحولة الى مقولات ، الى تحديدات خاصة تعارض كلية

(١) ص ٣١٦ . باحلالة محل الروح المطلق ، الميتافيزي ، الانسان الواقعي المؤسس على الطبيعة ، فويرباخ اكمل مع نقد هيفل ... نقد الدين ، ووضع المبادئ الخادمة كاساس لنقد النظران الهيفلي وبالتالي كل ميتافيزياء .

(٢) ص ص ٣١٥ - ٣١٦ .

(٣) ص ٢٥٧ . « التصور التاريخي لهيفل يفترض روحا مجردا او مطلقا ينسبط على نحو لا تكون معه البشرية سوى كتلة تخدمه ، بشكل واع كثيرا او قليلا ، كمسند . انه اذا يجعل تاريخا نظرائيا باطنيا يجري في اطار التاريخ التجريبي ، الظاهري . وتاريخ البشرية يفدو تاريخ روح البشرية المجرد ، الغريب عن الانسان الواقعي . »

(٤) ص ص ٣١٤ - ٣١٥ . « عند ب. باور ، وعي الذات هو ايضا الماهية المحولة الى وعي ذات او وعي الذات المحول الى ماهية ، بدلا من ان يكون محمولا للانسان ، وعي الذات يفدو هكذا ذاتا مستقلة . ذلك هو الكاريكاتور الميتافيزي - اللاهوتي للانسان الفصول عن الطبيعة . ان جوهر وعي الذات هذا ليس اذا الانسان ، بل الفكرة ، التي هو يؤلف وجودها الواقعي . انه الفكرة المجسدة وبالتالي اللامتناهية . »

الوعي وبلغها الوعي حسب مشيئته (١) .

بنفي كل ماهية ، النقد النقدي يلغي الطبيعة سواء في شكلها الخارجي ازاء الانسان أو بوصفها عنصرا مكونا لكيونته ، ويفضي هكذا الى نفي كل موضوع وكل كائن مختلف عن نفسه (٢) .

ان روحنة العالم هذه التي كانت تميز سابقا الفلسفة الهغلية والتي يكملها ب. باور تفسر التماثل الذي يقيمه بين النظرية والممارسة ورفضه لكل نظرية وكل ممارسة تضع لنفسها مهمة أخرى غير مهمة الغاء مقولات خاصة على يد الوعي الكلي (٣) .

(١) ص ص ٢٥٧ - ٢٥٨ . « عند هيجل أيضا كان الروح المطلق للتاريخ يستعير مواده من الجمهور - الكتلة ، ولكنه لا يجد تعبيره الحقيقي الا في الفلسفة . الا ان الفيلسوف ليس ، عنده ، سوى الاداة التي تخدم الروح المطلق ، خالق التاريخ ، في اخذ وعي نفسه بعد انجاز التاريخ . في هذا ينحصر نصيب الفيلسوف في تطور التاريخ الذي يحققه الروح المطلق بكيفية غير واعية ، انه لا يتدخل الا بعد تحققه الواقعي .

باور يوجه لوما مزدوجا لهيجل . مع اعلانه ان الفلسفة تشكل وجود الروح المطلق ، هيجل يمتنع عن اعتبار الفيلسوف من حيث هو فرد تجسيدا للروح المطلق . من جهة أخرى ، في الظاهر فقط التاريخ محقق من قبل الروح المطلق . بما ان هذا الاخير لا يعني ، على يد الفيلسوف ، الا بعد وقوع الوقائع ، انه الروح الخالق للعالم ، فان خلقه للتاريخ غير موجود فعلا الا في الوعي ، في روح الفيلسوف ، اي في التخيل النظرائي . باور يصحح هاتين النقيصتين باعلانه من جهة ان النقد هو الروح المطلق وانه هو يجسد النقد . بما ان « الجمهور » مطرود من النقد و النقد مطرود من « الجمهور » ، فان النقد يعلم انه يتجسد لا في « الجمهور » بل في نخبة صغيرة تتألف فقط من السيد باور وحوارييه . يصحح نقيصه هيجل الاخرى بادائه - بخلاف روح هيجل الذي لا يعني نفسه الا بعد خلقه التاريخ - بكيفية واعية وبمعارضة جمهور البشرية دور روح العالم ، بتحديدده بكيفية واعية ومتبصرة سير التاريخ بالمعارضة التي يقيمها بينه وبين الجمهور . »

(٢) ص ص ٣١٨ - ٣١٩ . « السيد باور ، الذي يبسط في كل الميادين فلسفته عن وعي الذات او عن الروح بمعارضة الماهية ، لا يمكن ان يكون له عمل في كل الميادين الا مع اختراعاته . النقد يخدمه في تحويل كل ما يزعم امتلاك وجود مادي خاص خارج الوعي الكلي الى محض ظاهر عادي ، الى فكرة خالصة . ما يكافحه في الماهية ليس الوهم الميتافيزي بل هو الواقع المادي للطبيعة كما هي موجودة خارج الانسان وكما هي ايضا تؤلف كيونته . نفي الماهية في كل الميادين يعني اذا بالنسبة له عدم الاعتراف بأي كائن مختلف عن الفكرة ، باية قدرة طبيعية مختلفة عن الروحية ، باية فاعلية انسانية مختلفة عن النظرية ، باية جماعة انسانية مختلفة عن عمومية المجردات ، باي انت مختلف عن الانسا . ب. باور اذا منسجم مع نفسه، حين يذهب الى حد مماثلة ذاته مع الوعي الكلي ، مع الروح ، والى احلال خالقهما محلها . كذلك منطقي من جانبه ان يرفض كجمهور محدود ضيق ومادة بخسة العالم الذي يعاند في اعتبار نفسه شيئا ما مختلفا عن مخلوقات ذهنه . »

(٣) ص ٣٧١ . « لما كان « العالم الديني بوصفه كذلك » غير موجود الا بوصفه عالم وعي الذات ، فان الناقد النقدي الذي هو بالجوهر عالم لاهوت لا يستطيع ان يتصور انه من الممكن وجود عالم فيه الكائن مختلف عن الوعي ، عالم يبقى موجودا حين احذف وجوده الروحي ، وجوده من حيث هو مقولة



النظرية ، التي تتطابق في الهورية مع الممارسة على النحو المذكور ، لها كموضوع واحد وحيد تدمير كل ماهية لها وقاحة زعم وجود مستقل عن الوعي الكلي ، وهذا الوعي الشمولي ينتصر عليها بسهولة بمجابهة خصوصيتها مع شموليته (١) .

ان انبساط التاريخ ، المعاد الى التعارض بين الوعي الكلي والماهية ، يتقلص بالواقع الى التعارض بين الوعي الكلي و « الجمهور » ، الذي يرمز الى العنصر المادي غير القابل لنفوذ الروح . كل علاقات البشرية ، كل العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، معادة الى علاقة اساسية واحدة ، الى العلاقة التي تقوم بين الحكمة المطلقة **للقند النقدي** ، تجسيد الوعي الكلي ، وحماقة او تفاهة الجمهور المطلقة ، التي ليس لها قياس ولا علاج ، العلاقة التي يقلص اليها ب. باور كل التاريخ الانساني (٢) .

ان « الجمهور » متصورا هكذا ، هو ، على حد قول ماركس ، مختلف كل الاختلاف عن الجمهور الواقعي الذي يمثل مجموع البشر ، هذا « الجمهور » ، المقلص الى مقولة مجردة والذي دوره ان يكون ، بوصفه نفي الوعي الكلي ، عنصر التاريخ المنفعل ، ليس موجودا في هذا الشكل الا بالنسبة **للقند النقدي** (٣) .

هذا التعارض بين الوعي الكلي و « الجمهور » ليس الا شكلا واحدا للتعارض بين الله او الروح المطلق والعالم ، الذي هو أساس وجوهر الفكر الهيفلي

»»»→

فكر ... اي حين اعدل وعيي الذاتي دون ان اعدل بشكل عياني الواقع الموضوعي اي دون ان اعدل واقعي الموضوعي الخاص ، واقعي وواقع البشر الآخرين . ان التماثل النظرائي الصوفي بين الكينونة والفكر نجده ثانية في تصور التماثل الصوفي هو ايضا بين الممارسة والنظرية ، من هنا غضب النقد ضد الممارسة التي تزعم انها شيء اخر غير النظرية وضد النظرية التي تزعم انها شيء اخر غير تقليص مقولة محددة الى الكلية اللامحدودة لوعي الذات . ان نظريته هو تكثفي باعلان ان كل ما هو محدد هو في تناقض مع الشمولية اللامتناهية لوعي الذات وهو بذلك عينه غير موجود ، غير واقعي ، هكذا مثلا الدولة والملكية الخاصة . «

(١) ص ٢٥٥ .

(٢) ص ٢٥٨ . « هناك من جهة « الجمهور » ، عنصر التاريخ المادي المنفعل والاحق والعاقل ، ومن الجهة الاخرى الروح ، النقد ، السيد برونو واقرانه ، مصدر كل فعل تاريخي . الفاعلية الاجتماعية مقلصة هكذا الى الفاعلية الدماغية للنقد النقدي .

ان العلاقة بين النقد الجسد في السيد برونو واقرانه وبين الجمهور هي ، بالحققة ، العلاقة التاريخية الوحيدة للزمنة الحاضرة . كل التاريخ الراهن عائد الى انبساط حدي هذه العلاقة . كل التعارضات مقلصة الى هذا التعارض الوحيد بين النقد والجمهور . النقد النقدي ، الذي لا يحقق نفسه الا بمعارضته الجمهور البليد ، مضطر الى ان يخلق لنفسه بصورة دائمة هذا التعارض » . ص ٢٥٠ . « كل علاقات النقد مقلصة الى العلاقة بين حكمته المطلقة وبلاهة الجمهور المطلقة . هذه العلاقة الاساسية هي التي تحدد معنى واتجاه وشعارات الاعمال التي خاضها الى هنا النقد النقدي » .

(٣) ص ٢٣٢ ، ص ٢٥٥ .

والمسيحي (١) . هذا التصور ، الخاص بكل النظريات الرجعية (٢) ، عن تعارض جذري بين روح مطلق ، عال خارق ، عنصر التاريخ الفاعل ، و « الجمهور » الذي هو عنصره المنفعل ، يحدد في آن فكر وفعل **النقد النقدي** .

هذا الفعل ، عمل افراد النخبة الذين فيهم يتجسد الوعي الكلبي ، قوامه الحملات التي يوجهها **النقد النقدي** ضد « الجمهور » . هذه الحملات مقلصة بالواقع الى فضح الطابع الزائف والوهمي لكل تصورات ومشاريع الجمهور والى اعلان الحقيقة بتدمير هذه الاوهام ، بحيث ان التاريخ معاد ، عند ب . باور كما عند هيفل ، الى اخذ وعي الحقيقة المطلقة (٣) .

هذه الحملات يسوقها **النقد النقدي** جزئيا بواسطة مراسلين يعرضون له ما يضعهم في معارضة « الجمهور » ويحثونه على الذهاب الى الحرب ضده (٤) .

**النقد النقدي** يؤلف اكمال الفلسفة الهيفية معتبرة تحت هيئتها اللاهوتية . انه مثلها كشف روح فوق البشر ، خالق العالم والتاريخ (٥) . اذ مثل الفكرة المطلقة ، الوعي الكلبي يلغي ، بعمل **النقد النقدي** ، العالم بوصفه غير مناسب لجوهره ، ليعيد صناعه على صورته (٦) .

عازلا نفسه عن العالم الذي يتخيل ان بمقدوره تحويله كما يشاء بسلطة الروح العجائبية ، **النقد النقدي** ، تجسيد الوعي الكلبي ، يتحول الى روح الهي . نظيرين للآلهة ، ممثلوه يجلسون على عرش في وحدانية مملكة الروح ، من حيث يطلقون مثل

(١) ص ٢٥٧ . « ان العلاقة ( بين الروح والجمهور ) المكتشفة من قبل السيد برونو ليست سوى الامال الكاريكاتورية لتصور هيفل التاريخي الذي ليس بدوره سوى التعبير النظرائي عن العقيدة الجرمانية - المسيحية عن التعارض بين الروح والمادة ، بين الله والعالم . هذا التعارض يتعبّر في التاريخ وفي البشرية على النحو الاتي : بعض الافراد المختارين الذين يؤلفون عنصر البشرية الفاعل ينتصبون في وجه بقية البشر المعتبرة كتلة بلهاء ، مادة محضة . »

(٢) ص ٢٥٧ .

(٣) ص ٢٥٠ . « الانسان ليس موجودا الا لاجل التاريخ والتاريخ لاجل البرهنة على حقائق . لا يفعل النقد سوى تكرار هذا المبدأ تحت هذا الشكل المتلذذ ، مبدأ الفلسفة النظرانية ، الا وهو ان الانسان والتاريخ غير موجودين الا لكي تستطيع الحقيقة وعي ذاتها .

بالنسبة للسيد باور ، الحقيقة هي ، كما بالنسبة لهيفل ، شيء يتبرهن اوتوماتيكيا . دور الانسان ان يتبعها . وعلى هذا الاساس ليست نتيجة التطور التاريخي شيئا اخر سوى البرهنة على الحقيقة ، سوى الحقيقة التي جعل البشر يعونها . »

(٤) ص ص ٣٢١ - ٣٢٥ .

(٥) ص ٢٥٧ . ص ٣٢٨ . « ان النقد النقدي ، الذي يقع خارج البشرية ، لا يعبر عن الفاعلية الجوهرية للانسان الواقعي الذي يعيش ويعاني في المجتمع الحاضر مشاركا في الفراحه وآلامه . ان الفرد الواقعي لا يلعب عنده سوى دور تابع ثانوي ، انه ليس سوى الشكل المادي الذي يتخذه النقد النقدي لينكشف فيه كماهية اذلية . »

(٦) ص ٣١٢ .

الله ، يوم الدينونة ، لعناهم على الجمهور منتهك المقدسات (١) .  
هذه الهجمة من **النقد النقدي** على « الجمهور » ، على الشعب المعتبر عدو البشرية والتقدم ، التي تتيح له ان يوفر ، تحت مظاهر ثورية زائفة ، اعداءهما الحقيقيين ، تبين طابعه الرجعي .

ان العدو الحقيقي للانسانية والتقدم هو ، كما يقول ماركس ، لا « الجمهور » بل نزع انسانية العلاقات الاجتماعية الذي ينجمه النظام الرأسمالي (٢) . ان تحويل هذا النظام لا يمكن ان يكون نتاج قتالات ايديولوجية ، كتلك التي يخوضها **النقد النقدي** ، بل فقط نتاج النضال الثوري الذي يخوضه الجمهور (٣) .

ان مثلثة التاريخ المدفوعة الى اقصى حد تفسر بطلان الاحكام التي يصدرها **النقد النقدي** على كل المواضيع التي يتناولها . هذه الاحكام يخضعها ماركس لنقد لا يرحم ، مشددا على ان تحليلا معمقا للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، وهو التحليل الذي ينال من جانب **النقد النقدي** اكبر ازدراء ، هو وحده يسمح بحل المسائل الفلسفية والسياسية والاجتماعية التي يتناولها هذا الاخير (٤) .

(١) ماركس يخط هنا موضوعه الايديولوجيا الالمانية واصفا تجلي النقد النقدي ربانيا بعد ظفـره النهائي على الشر وصعوده الى السماء . انظر ص ٣٣٩ . « بعد ان كافح كفاح هرقل بغية الانفصال عن الجمهور الديني وعن العالم اجمع ، انتهى النقد النقدي الى الانزلال والاستحكام في وجود يكفي ذاته بذاته ، وحداني ، الهي ، مطلق . ولئن كانت هذه المرحلة الجديدة ، في تظاهراتها الاولى ، ما تزال تشير الى ان العالم القديم الديني يحتفظ ببعض السلطة عليه ، فاننا سنراه الان يتمثلن ، منفردا عن كل شيء ، يتجلى نورانيا ويتوب حتى يستطيع ، مثل مسيح جديد ظافر ، ان يعلن يوم دينونة النقد وان يرتفع مطمنا الى السماء ، بعد انتصاره النهائي على تنين الشر . »

(٢) ص ٢٥٤ . « ان اعداء التقدم ، خارج الجمهور ، هم نتاجات انبغاسه ، انخلاءه ، التي تتأكد ازاده كمناصر تتمتع بحياة وطابع خاصين بها . يقف الجمهور ضد نتاجات انخلاءه التي هي مصدر ووسم اذلاله ، كما يقف الانسان ضد تدينه نافيا وجود الله . بما ان منتوجات انخلاءه موجودة بشكل عياني في العالم الواقعي ، فان الجمهور مضطر ان يكافحها بشكل عياني ايضا . لا يستطيع ان يخلصها على انها منتوجات تصوره ، محض انخلاءات لـ وعيه ، وان يلفيها بفعل محض روحي . »

(٣) ص ٢٥٤ . « لقد تعلم النقد المطلق ... من فينومينولوجيا هيجل فن تحويل السلاسل الواقعية ، الموضوعية ، الخارجية ، الى سلاسل محض فكرية ، ذاتية ، داخلية ، وان يحول هكذا الفراءات الخارجية ، الواقعية ، الى محض صراعات افكار . » ص ٢٥٣ . « مع تعمق العمل التاريخي نرى تعاقب الجمهور الذي يحققه . بالطبع ، في التاريخ النقدي حيث ليس الامر ، في الاعمال التاريخية ، لا جماهير فاعلة ، ولا اعمال واقعية ، ولا مصالح عيانية هي بواعث هذه الاعمال ، بل هو فقط افكار تجري الامور بشكل مختلف . »

(٤) ص ٣٢٧ . « النقد النقدي هل يعتقد ان بوسعه ان يبلغ ولو بدايات معرفة الواقع التاريخي ، وهو يطرد من التطور التاريخي علاقات الانسان النظرية والعملية مع الطبيعة اي العلوم الطبيعية والصناعية ؟ هل يعتقد انه يعرف طورا تاريخيا ايا كان بدون ان يكون قد درس صناعة هذا الطور اي اسلوب انتاج الحياة المباشر ؟ ان النقد الناقد الروحاني واللاهوتي لا يعرف - على الاقل بالتصور ،

←

## ٢ - الثورة الفرنسية

في نقده لبرونو باور بصدد الثورة الفرنسية ، ماركس ينطلق من واقع ان هذه الثورة لم تكن ، كما يفكر ب. باور ، كفاحا ايدولوجيا في سبيل الحرية والمساواة ، بل صراعا طبقيًا جبارا بين البرجوازية وانصار العهد القديم (١) .

على باور الذي كان يعزو فشل هذه الثورة الى كون الافكار التي تظهر منها لا تتجاوز بالواقع حالة الاشياء التي كانت تريد الغاءها (٢) ، يعترض ماركس بقوله ان الافكار بحد ذاتها عاجزة عن خلق أي شيء . « ان الافكار لا تستطيع ان تتجاوز حالة تاريخية معينة ، تستطيع فقط ان تتجاوز الافكار التي تستجيب لهذه الحالة . بالواقع ، الافكار لا تستطيع ان تحقق شيئا . لتحقيق الافكار ، يلزم رجال يتصرفون بقوة واقعية (٣) . »

الافكار لا تستطيع ان تنتصر الا حين تمثل مصالح واقعية ، مصالح طبقية ، في الحالة المعاكسة انها تهزم دوما . لئن كانت الصراعات السياسية والاجتماعية كثيرا ما ترتدي شكل صراعات افكار ، الامر الذي اناح الاعتقاد بأن المسألة في الثورة الفرنسية كانت مسألة صراع ايدولوجي ( فكرولوجي ) ، فذلك مرده ان المصالح الطبقية التي تحدد هذه الصراعات تتخذ هيئة مصالح عامة ، حين هي ، متجاوزة حدود طبقة معينة ، ترتدي شكل افكار مجردة ، افكار عامة (٤) .

تلك كانت الحال اثناء الثورة ، حيث البرجوازية الفرنسية وضعت نفسها مدافعا عن المصالح العامة للشعب المضطهد من قبل الاقطاعية والاستبدادية ، وحيث من جراء ذلك تعبرت مصالحها الطبقية في شكل افكار الحرية والمساواة والاخاء ،



بالخيلة - سوى الوقائع الكبيرة السياسية والادبية واللاهوتية في التاريخ . كما هو يفصل الفكر عن الحواس ، النفس عن الجسد ، وذاته عن العالم ، كذلك يفصل التاريخ عن العلوم الطبيعية والصناعة ، لذا بالنسبة له ليس الميدان الذي يتبسط فيه التاريخ هو ميدان الانتاج المادي والفظ ، الحاصل على الارض ، بل ميدان الفيوم البخارية التي تسبح في السماء . »

(١) ص ص ٢٩٤ - ٣٠٠ . كفاح النقد الناقص ضد الثورة الفرنسية . موليتور . انظر العائلة المقدسة ، ٢٠ ، ص ص ٢١٢ - ٢٢٢ و ص ص ١٤٣ - ١٤٥ .

(٢) ميفا ، ص ٢٩٤ . موليتور ، ص ٢١٢ .

(٣) ميفا ، ص ٢٩٤ . موليتور ، ص ٢١٢ .

(٤) ميفا ، ص ٢٥٣ . « الفكرة جعلت نفسها على الدوام شيئا مثيرا للضحك والسخرية ، حين انفصلت عن المصالح الواقعية . من السهل ، من جهة اخرى ، ان نفهم ان كل مصلحة اجتماعية وهي تتحقق في التاريخ تخطي كثيرا ، حين تشرع في التظاهر على مسرح العالم ، حدودها الواقعية ، متخذة شكل فكرة ، شكل تصور مجرد ، ومتطابقة هكذا في الهوية مع المصلحة العامة الانسانية . وهذا الوهم هو الذي يعطي ما يدعوه فورير Fourier نفهم كل عصر تاريخي . »

العامية . باسم هذه الافكار سر الكفاح ولكن ذلك لم يكن سوى وهم . فالموضوع الفعلي للصراع كان المصالح الطبقية للبرجوازية ، وهذه المصالح احرزت فعليا النصر على الافكار ، حين اوضحت هذه الافكار غير قابلية للاتفاق مع شروط اعتناق البرجوازية .

بعيدا عن ان تكون فشلا للبرجوازية ، كما يزعم ب. باور ، كانت ثورة ١٧٨٩ نجاحا ساطعا لها (١) . لم تكن فشلا الا بالنسبة للجمهور ، بالنسبة للشعب ، الذي لم تكن مصالحه الحقيقية تتطابق مع الاهداف الواقعية للثورة . هذا ما يفسر ان الثورة لم تمثل بالنسبة له سوى فكرة ، ولم تكن بالنسبة له سوى باعث حماسية عابرة (٢) .

ب. باور يعتبر ان احدى السمات المميزة للثورة تكمن في واقع انه ، بعد حذف النظام الاقطاعي ، انتصرت الانانية الخالصة سواء في الدولة حيث تجلت في ابراز مبدأ القومية ووضعه في مكان الصدارة ، او عند الافراد ، الذين اثار انفصالهم وتذرهم انفلاتا خلقيا حاولت السلطة ان تلجمه باقامة عبادة الكائن الاسمي (٣) . هذا الانماء لمبدأ القومية وهذا الاختلال في الاخلاق يؤلفان ، في نظر ب. باور ، الاسباب الجوهرية لاختفاق الثورة الفرنسية .

ان مبدأ القومية - يجيبه ماركس - هو التعبير الطبيعي لانانية كل دولة ، ولا يفصح المرء عن شيء ذي أصالة ما حين يقول ان مبدأ القومية كان سبب فشل الثورة الفرنسية ، لانه قاد ايضا الى سقوط اليونان وروما (٤) .

اما بخصوص الانانية التي ولدتها الثورة الفرنسية عند الافراد ، الذين يقارنهم

(١) ميفا ، ص ٢٥٢ . « في ثورة ١٧٨٩ ، ان مصالح البرجوازية ، بعيدا عن ان تكون عرفت الفشل ، قد احرزت نصرا كاملا واصابت النجاحات الاكثر دواما ، حتى بعد خمود الثوران العاطفي وذبول ازهار الحماس التي زينت مهدها . هذه المصالح كانت قوية قادرة لدرجة انها غلبت قلم مارا ومقصلة الارهابيين وسيف نابوليون وكذلك صليب آل بوربون ودمهم الملكي . »

(٢) ص ٢٥٢ . « الثورة لم تكن فشلا الا بالنسبة للجمهور الذي لم تكن مصالحه الواقعية ومبادئ الحيوية تتطابق لا مع الفكرة السياسية للثورة ولا مع مبادئها الاساسي والذي كانت شروط انتفاقه مختلفة بالتنام عن شروط اعتناق البرجوازية والمجتمع البرجوازي . لئن اصبحت الثورة ، التي جسدتها كل اعمال العصر التاريخية الكبرى بكبو او اخفاق ، فان ذلك مرده فقط ان الطبقة ، التي كانت الثورة دافعا عن شروط وجودها ، كانت تؤلف جمهورا خاصا - جزئيا ، محدودا ، لا يشمل جملة المجتمع . لئن اخفقت فذلك ليس لان الجمهور اهتم بها ( راي فيها مصلحة له ) وتحمس لها ، بل لانه ، بالنسبة للجمهور الكبير المتميز عن البرجوازية ، لم يكن مبدأ الثورة بتطابق مع مصالحه الواقعية ، لم يكن يؤلف مبداء الثوري الخاص به ولم يكن من جراء ذلك ممكنا ان يكون بالنسبة له سوى فكرة ، سوى موضوع حماس سطحي وموقت . »

(٣) ص ٢٩٥ .

(٤) ص ٢٩٥ .

باور بالذرات ، فان ماركس يلاحظ اولاً بأول انه من غير الممكن مماثلة الافراد بالذرات ، التي ليس لها نفس طابع البشر ولا نفس العلاقات فيما بينها (١) . ان الفرد الاناني ، البرجوازي ، اجل يستطيع ان يفكر عن نفسه انه ذرة اي كائن مطلق ، بلا علاقات مع الافراد الآخرين ويكفي نفسه بنفسه . ولكن الحياة التي تقتضي تلبية حاجاته وتظاهر غرائزه وممارسة فاعليته تفرض عليه الاعتقاد بوجود وسطه اي المجتمع (٢) . ان اشباع حاجاتهم المتبادل يجمع اعضاء المجتمع البرجوازي ، وعليه فان الرابطة الحقيقية هي الحياة الاجتماعية وليس ، كما يفكر باور ، الحياة السياسية ، اي الدولة التي هي ذاتها محددة من قبل التنظيم الاجتماعي (٣) .

ان بطلان تصور باور بصدد العلاقات السياسية والعلاقات الاجتماعية ، التي يعتبرها جوهرية مختلفة ومتعارضة فيما بينها ، يظهر في الفكرة التي لديه عن حكومة الارهاب بقيادة روبسبير وسان - جوست . فهو يعتبر ان سبب سقوطهم كان انهم ، اذ ارادوا صهر شعب حر في دولة يحكمها العدل والفضيلة ، فقد اصطدموا بأنانية الافراد ، الامر الذي ارغمهم على اللجوء الى تدابير اهابية أدت الى سقوطهم (٤) . ان هذا السقوط - يرد ماركس - يعلل لا بتعارض بين مثلهم الاعلى ، الفضيلة المدنية - الوطنية civique ، وأنانية البرجوازيين ، بل بتصورهم الخاطيء للدولة والمجتمع وعلاقاتهما .

لقد خلطوا الدولة القديمة المؤسسة على الرق مع الدولة السياسية الحديثة التي تركز على شكل العبودية الحديث الذي ينجمه المجتمع البرجوازي . ان غلطتهم الرئيسية كانت ارادتهم في ان يفرضوا على هذا المجتمع طابعاً يفترضون انه طابع الدولة القديمة . اذ اعتبروا العدالة والفضيلة الصفتين الاساسيتين للدولة الخاصة بالاغريق والرومان ، الشعبين النموذجيين الاولين للشعوب الحرة ، فقد ارادوا ان

(١) ص ٢٩٦ .

(٢) ص ٢٩٦ . « اجل يستطيع الفرد الاناني في المجتمع البرجوازي ، في التصور المجرد الذي لديه عن نفسه ، ان يعتبر نفسه ذرة ، اي كائناً بلا علاقات مع الكائنات الاخرى ، بلا حاجات ، سعيها وكاملاً . لسوء الحظ ، ان الواقع لا يبالى بهذا التصور الخيالي ، والفرد المذكور يرى نفسه مرغماً ، بكل من حواسه ، على الايمان بالعالم الخارجي وبالافراد الآخرين ... ان كلاماً من فاعليته ، من كفاءته ( صفاته ) ، من مطامحه ، يصبح حاجة ، ضرورة ، تدفعه الى البحث خارجه عن اشياء اخرى وبشر اخرين . »

(٣) ص ٢٩٦ . « انها اذن الضرورة الطبيعية ، انها الصفات الجوهرية للانسان ... انها المصلحة هي التي توحد اعضاء المجتمع البرجوازي ، وهكذا فان رابطتهم الواقعية ليست الحياة السياسية بل الحياة الاجتماعية . ليست الدولة هي التي تعقل فيما بينهم اعضاء المجتمع البرجوازي ... الذين ليسوا ذرات الا في تصورهم ، في مخيلتهم ... وليسوا بالواقع سوى افسراد انانيين تربطهم علاقات اجتماعية . الوسواس السياسي وحده يستطيع ان يتخيل في ايمان ان الدولة هي العنصر الضابط المنظم للمجتمع ، بينما بالعكس الدولة محددة من قبل المجتمع . »

(٤) ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

ينظموا المجتمع الحديث على مثال هذه الدولة القديمة المثلثة (١) .

ب. باور يعتبر ان العاقبة الاولى لسقوط روبسبير وسان - جوست كانت سحق الليبرالية السياسية ، أس وهدف الثورة (٢) . ان العاقبة الجهورية لهذا السقوط - يجيبه ماركس - كانت بالعكس ظفر المجتمع البرجوازي الذي ، بتحرره من قيود الاقطاعية ومن اضطهاد الارهاب ، أعطى نفسه ، مع حكومة الادارة Directoire ، شكل الدولة المناسب لحاجاته الاقتصادية والاجتماعية ، والذي استطاع في كنفها وحمايتها ان يأخذ كامل انبساطه . « بعد سقوط روبسبير ، الليبرالية السياسية ، التي كانت اذ ارادت ان تتجاوز نفسها قد ارتكبت خطيئة الحماس المتجاوز ، تبدأ وحسب في التحقق فعلا . في ظل حكومة الادارة ، المجتمع البرجوازي ، الذي كانت الثورة قد حررته من القيود الاقطاعية واعترفت به رسميا ، رغم ان الارهاب كان قد أراد أن يضحي به على مذبح شكل قديم للحياة السياسية ، يظهر كل حيويته : ركض الى المشاريع التجارية ، رغبة في الاثراء ، سكر الحياة البرجوازية الجديدة ، التي ما يزال تظاهرها الاول ذا طابع جسور ، مندفع ، طائش ، مسكر ، تحرر الملكية العقارية ، التي حطمت مطرقة الثورة تنظيمها الاقطاعي والتي يخصمها الملاكون الجدد في حمى الامتلاك الاولى لزراعة كثيفة ، توسع الفاعلية الاقتصادية المحررة ، تلك هي بعض تجليات المجتمع البرجوازي الجديد . البرجوازية التي تفقد هذا المجتمع دشنت نظامها وعلى هذا الاساس فان حقوق الانسان كفت عن ان لا تكون موجودة الا في النظرية (٣) . »

ب. باور يرتكب خطيئة مماثلة في حكمه على انقلاب نابوليون الاول ، الذي يسم في نظره فشل الليبرالية السياسية النهائي . ان ما يميز نابوليون ، على حد قول ماركس هو كونه يمثل آخر محاولة في اخضاع البرجوازية لارهابية ثورية . بخلاف روبسبير ، نابوليون لم يقد هذا الكفاح ضدها باسم مثل أعلى مستلهم من الدولة القديمة بل باسم السلطة السيدة للدولة التي كان يجعلها غاية في ذاتها . لم يكن ، كما كان روبسبير ، صاحب رؤيا نورانية بل بالعكس كان صاحب فكرة صحيحة ودقيقة عن المجتمع البرجوازي ، الذي كان يريد حمايته ضد التهديدات الثورية . حقق

(١) ص ٢٩٨ . « روبسبير وسان جوست وحزبهما سقطوا لانهم كانوا يغلطون الدولة الواقعية الديمقراطية القديمة المؤسسة على الرق مع الدولة الدستورية الحديثة الروحانية والديمقراطية المؤسسة على شكل العبودية الخاص بالمجتمع البرجوازي . يا لها من خطيئة جبارة ان يكونوا من جهة مضطرين ، في حقوق الانسان ، الى الاعتراف بـ والمصادقة على المجتمع البرجوازي الحديث ، مجتمع الصناعة ، مجتمع تزاحم المصالح الخاصة العمم الذي لا يعيقه عائق في ملاحة اهدافها ، مجتمع الفوضى ... وان يريدوا من جهة اخرى ان يلفوا عند الافراد تظاهرات هذا المجتمع وان يشكلوا تنظيمه السياسي ، الدولة ، على الطريقة القديمة . »

(٣) ص ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٢) ص ٢٩٨ .

ارهابية - الدولة باعلانه محل الثورة الدائمة الحرب الدائمة . بذلك اعطى رضى للقومية الفرنسية ولكنه انتهى الى ابيداء المصالح لا السياسية فقط بل ايضا الاقتصادية للبرجوازية ، بحروبه الطويلة والمكلفة ، وان تطبيق اجراءات كانت تذهب بعكس مصالح البرجوازية ادى الى سقوطه كما كان قد حدد سقوط الارهاب (١) . كما ان نظام الارهاب الثوري عارض من جديد البرجوازية مع نابوليون ، كذلك رأت ينتصب ضدها من جديد العهد القديم مع عودة آل بوربون . اقل ايضا من نابوليون ، استطاع البوربون ان يبقوا في وجهها ، لانهم كانوا يصدمون بشكل اقوى ايضا من هذا الاخير مصالحها الطبقية بمحاولتهم اعادة الحكم المطلق وبمحabbاتهم النبلاء (٢) .

البرجوازية حققت نهائيا ظفر مصالحها الطبقية مع ثورة ١٨٣٠ ، بخلقها مع الدولة الدستورية أداة هيمنتها التي بفضلها حققت اهدافها ، ليس الآن كما في ظل ثورة ١٧٨٩ وهي تفكر ان هذه الاهداف تعبر عن المصالح العامة للبشرية بل مع الفكرة الواضحة انها تستجيب لمصالحها الطبقية (٣) .

ثورة ١٨٣٠ لم تمض بالحركة الثورية الى نهايتها . لم تحقق سوى هدف واحد من هدفها ثورة ١٧٨٩ : الحرية . الهدف الآخر ، المساواة ، ولد الفكرة الشيوعية التي تشكل المبدأ الاساسي للعالم الجديد (٤) : « ان الحركة الثورية التي تكونت في

(١) ص ص ٢٩٩ - ٣٠٠ . « نابوليون كان اخر معركة للارهابية الثورية ضد المجتمع البرجوازي وسياسته التي دشنتها الثورة . اجل نابوليون كان يفهم منذذ طبيعة الدولة الحديثة ، كان يدرك انها مؤسسة على الانبساط الحر للمجتمع البرجوازي ، على اللعب الحر للمصالح الخاصة . قرر الاعتراف بهذا الاساس وحمائته . لم يكن ارهابيا حاملا رؤيا نورانية دينية . ولكن نابوليون كان يعتبر الدولة غاية في ذاتها ويرى في المجتمع البرجوازي عنصرا تابعا مروؤسا ، لا يجوز ان يكون له ارادة خاصة ودوره الجوهري ان يقدم له الاموال التي كان بحاجة اليها . حقق الارهابية وهو يظن محل الثورة الدائمة الحرب الدائمة . اعطى كامل الرضى للقومية الانانية الفرنسية ولكنه اشترط بالمقابل ان يضحي بالاعمال واللثة والثروة كلما تطلبت ذلك اهداف الفتح السياسية . لئن كان يصطهد ، اضطهاد مستبد حقيقي ، ليبرالية المجتمع البرجوازي ، مثاليته السياسية ، فانه ايضا لم يكن يوفر اكثر من ذلك المصالح المادية الاكثر جوهرية لهذا المجتمع ، مصالح التجارة والصناعة ، في كل مرة كان فيها نزاع بينها وبين مصالحه السياسية الخاصة . كان احتقاره لرجال الاعمال يكمل احتقاره للايديولوجيين . هكذا مثلا اعلن لمجلس الدولة انه لن يسمح بان يكون ملاكو الاراضي الكبرى قادرين ، كما يطيب لهم ، ان يزدعوها او ان يزدعوها . وهكذا ايضا صمم على اقامة مونوبول ( احتكار ) النقل على عجلات ، بغية اخضاع التجارة للدولة . بالمقابل ، ان الحدث الذي سدد الضربة الاولى لقوة نابوليون قد هياه تجار فرنسيون . بانارتهم بصورة مغلقة مجاعة ، ارغم مضاربون باريسيون الامبراطور على تأجيل افتتاح حملة روسيا مدة شهرين وبالتالي على بدنها في فصل متقدم . »

(٢) ص ٣٠٠ . موليتور ، ص ٢٢٢ .

(٣) ص ٣٠٠ . موليتور ، ص ٢٢٢ .

(٤) ص ٣٠٠ . موليتور ، ص ٢٢٢ .

سنة ١٧٨٩ في الحلقة الاجتماعية ، التي كان ممثلها الرئيسيان في منتصف تطورها  
 لوكليرك Leclerc ورو Roux والتي سحقت موقتا مع مؤامرة بابنف Babeuf  
 كانت قد فتحت الفكرة الشيوعية التي عاد بوناروتي Buonarotti ، صديق بابنف  
 وادخلها ثانية الى فرنسا بعد ثورة ١٨٣٠ . هذه الفكرة ، مبسطة في كل نتائجها ،  
 تؤلف مبدأ العالم الجديد (١) . »

### ٣ - المادية (٢)

في نقده للمادية ، ب. باور يعترف للماديين بمأثرة اعتبار ان العالم مكون من  
 حركة المادة ، ولكنه يلومهم على كونهم لم يروا ان هذه الحركة لم تصبح حقيقة حركة  
 العالم الا حين اتخذت شكل انبساط الوعي الكلي (٣) . على حد قول ماركس ، تلك  
 طريقة فريدة في فهم المادية ان تحولها الى ضدها ، الى مثالية . فالوعي الكلي يغدو  
 في هذا التصور هو الواقع الجوهري الذي ليس خارجه شيء ، انه يكون العنصر  
 الخالق للعالم الذي بما انه ليس سوى تخريجه فانه يفقد كل واقعية خاصة .

ب. باور يجعل المادية مشتقة من مذهب سبينوزا Spinoza الذي منه ، على  
 حد قول باور ، خرجت في نفس الوقت مع الالهية theisme . انها تشكل وايها  
 وجهي العقلانية التي هيمنت على الفكر الفرنسي حتى سحق الثورة (٤) . ذلك - حكم  
 اجمالي متسرع . بالواقع ، ان المادية ، التي كانت في البداية متضمنة مع السبينوزية  
 في الروحانية ، خرجت تدريجيا منها وشكلت تيارين : الاول الذي يستمد أصله من  
 ديكارت Descartes ذو طابع ميكانيكي وقد تظاهر بصورة رئيسية في ميدان علوم  
 الطبيعة ، الثاني المتحدد من لوك Loche ذو طابع اجتماعي وقد افضى الى  
 الاشتراكية ، وقد تصالب هذان التياران في سير تطورهما (٥) .

المادية تشرع تتحرر في فرنسا من الروحانية مع ديكارت الذي ، بفصله الفيزياء  
 عن الميتافيزياء ( الطبيعية عن ما وراء الطبيعة ) ، يعبر في فيزيائه المادة قوة خالقة  
 ويتصور الحركة الخاصة بها في شكل ميكانيكي . في اطار فيزيائه ، المادة تؤلف الماهية  
 الوحيدة ، اساس الكينونة والمعرفة (٦) .

بعده ، يحصل الانفصال بين المادية والروحانية عن طريق نبذ الروحانية نبذا

(١) ص ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٢) ص ص ٣٠٠ - ٣٠٧ . قتال النقد ضد المادية الفرنسية .

(٣) ص ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٤) ص ٢٠٠ .

(٥) ص ٢٠١ .

(٦) ص ٢٠٢ .

متزايد الحدة . هذا الصراع يبدأ وديكارت ما يزال حيا ، مع غاسندي Gassendi الذي يعارض الروحانية الديكارتية بمادية ابيقور (١) .

الرجل الذي دشّن بعده في فرنسا الكفاح الحاسم ضد الروحانية هو بيار بيل Pierre Bayle الذي يشكك ويظمن في الاطروحات الدينية والميتافيزية (٢) .

في القرن السابع عشر ، الميتافيزياء لم تكن بعد منفصلة عن العلوم ، والميتافيزيون الكبار ، امثال ديكارت ولايبنتس Leibniz ، كانوا علماء يحققون اكتشافات مرموقة في ميدان الرياضيات والفيزياء . ولكن منذ بداية القرن الثامن عشر ، تنفصل العلوم اكثر فاكثر عن الميتافيزياء التي تنقلص كل ثروتها الى افكار خالصة ، الى اشياء سماوية ، الامر الذي يجعلها تفقد كل حظوة (٣) .

الكفاح الذي يخاض في القرن الثامن عشر ضد الميتافيزياء له كاسباب عميقة علل محض فلسفية أقل مما له علل اجتماعية ، فهو يجد تفسيره في اسلوب الحياة المادي الذي ينتشر اكثر فاكثر في فرنسا والذي يستهدف اللذة والمصلحة . هذا النمط الحياتي كان لا بد ان تتوافق معه نظرية مادية ، مناهضة للاهوت وللميتافيزياء (٤) .

ان متابعي ديكارت الرئيسيين في القرن الثامن عشر ، لوروا Leroy ، لا متري La Mettrie ، كابانيس Cabanis ، اذ يلفظون ميتافيزيائه ، يعتبرون الانسان آلة معقدة ويعيدون الافكار الى حركات ميكانيكية (٥) .

الى جانب هذه المادية التي تحتفل بأعظم نجاحاتها في ميدان علوم الطبيعة ، ينمو وينبسط خلال القتال الموجه من قبل البرجوازية ضد الدين والحكم المطلق تيار مادي آخر ذو طابع اجتماعي يستلهم الاحساسية Sensualisme الانكليزية . ان تطورا مشابها لذلك الذي كان يحصل في فرنسا ، من الروحانية الى المادية ، يتحقق في انكلترة بدءا من بيكن Bacon ، ابي المادية الانكليزية .

حسب بيكن ، الذي يعتبر علم الطبيعة ، خصوصا الفيزياء ، العلم الوحيد ، ان الحواس تؤلف المصدر الوحيد للمعرفة وبذلك ذاته للعلم Science ، الذي لا يمكن ان يكون له اساس آخر سوى التجربة . بخلاف ديكارت ، يتصور الحركة ، التي يعتبرها هو ايضا الصفة الاساسية للمادة ، لا في وجهها الميكانيكي بل في وجهها الديناميكي ، بوصفها العنصر المحرك للمادة . رغم ان نظريته ما تزال تحوي عناصر مثالية عديدة مردها انه لا يتحرر تماما من اللاهوت ، فان مذهبه يحوي بذور بسط

(١) ص ٣٠٢ .

(٢) صص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٣) ص ٣٠٢ .

(٤) صص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٥) صص ٣٠٢ ، ٣٠٦ - ٣٠٧ .

كلي (١) .

هذا البسيط يتحقق بادئ بدء على صعيد محدود . الواقع الحسي الذي يشمل ، عند بيكن ، جملة الكائنات والاشياء ، يعاد الى واقع الهندسة المجرد ، والحركة الفيزيائية الى الانبساط الميكانيكي والرياضي . آخذة هكذا في اعتبارها عناصر الواقع المجردة ، المادية الانكليزية تبقى في البداية غريبة في كثير او قليل عن الانسان ، مع اسهامها كثيرا في تطور العلم والمعرفة (٢) .

بتحليل المعرفة ينمو ويتطور المذهب الاحساسى الانكليزي . مستلهما مذهب بيكن ، وطاردا منه بقايا المثالية الدينية ، هوبس Hobbes ، منطلقا من مبدأ انه ليس ثمة ماهية غير جسمية وان الحساسة هي قاعدة المعارف ، يبين ان الفكر لا يمكن ان يفصل عن الحساسة وان الافكار ليست سوى انعكاس العالم المادي ، المحسوس . على هذا الاساس ، لا يمكن الزعم ان هناك افكارا موجودة بذاتها ، بصورة مستقلة عن العالم القابل لان يحس ، الذي هو وحده قابل لان يدرك وان يعرف ، من هنا نفى الله . بما أن الانسان مرتبط بالعالم الحسي وخاضع لقوانين الطبيعة ، ينجم عن ذلك ايضا ان الخير لا يمكن ان يكون شيئا آخر سوى موضوع الميول الطبيعية (٣) .

في مؤلفه عن أصل الفهم ، لوك Loche يستنتج من تصورات هوبس فلسفة للحس العالم ( الادراك السليم Sens commun ) ، مرتكزة على معطيات الحواس وعلى العقل الذي تؤلف هذه المعطيات اساسه (٤) .

مستلهمين احساسية لوك ، ولكن مستبعدين العنصر المثالي في فلسفته ، الهيتة ، كونديلياك Condillac وهلفيسيوس Helvétius وهولباخ Holbach يخرجون منها مذهبا اجتماعيا يعطي المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر طابعها الخاص .

في محاولته عن أصل المعارف الانسانية ، كوندياك يبين ان الافكار ، المؤسسة على الاحساسات ، تأتي من التجربة ، وان الانسان هو مثلها نتاج التجربة ، اي نتاج الظروف والتربية (٥) . مطبقا مذهب لوك على دراسة الحياة الاجتماعية ، هلفيسيوس يشدد في كتابه عن الانسان على العلاقات بين تقدم الصناعة وتقدم العقل . واضعا في المبدأ طيبة ومساواة البشر الطبيعيتين ، يعتبر ان الانانية اي المصلحة الشخصية التي تؤلف الدافع الجوهري للفاعلية الانسانية يجب ان تتطابق في الهوية مع المصلحة العامة بفضل النفوذ المقرر والتأثير المحدد للذين تتمتع بهما التربية وخصوصا البيئة التي

(١) ص ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢) ص ٢٠٥ .

(٣) ص ٢٠٥ .

(٤) ص ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٥) ص ٢٠٦ .

يجب ان تنظم بشكل عقلي (١) . هولباخ اخيرا يبسط في كتابه منظومة الطبيعة ، مذهباً مماثلاً بدرجة محسوسة . بما أن غريزة الانسان الاساسية هي الانانية التي تحمله ، عن مصلحة فهمت جيداً ، على حب البشر الآخرين ، الذين يعلم أنهم ضروريون لرفاهه ، ينجم عن ذلك أنه من غير الممكن وجود تناحر بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة وأن تطور المجتمع منجب بالضرورة سعادة البشرية (٢) .

### ٤٠ اشتراكية (٣)

الاشتراكية هي مآل المادية الفرنسية للقرن الثامن عشر . كما أن فويرباخ قد جاء ، في كفاحه ضد الاتجاهات الرجعية وضد الميتافيزياء ، الى الانسية ، بطريق المادية ، كذلك فمن مذهب مادي القرن الثامن عشر الفرنسيين النابع من كفاحهم ضد الدين والاقطاعية والحكم المطلق خرجت المذاهب الاشتراكية والشيوعية الحديثة (٤) .

بدلاً من أن يسعى الى تفسير أصل وطابع الاشتراكية ، يكتفي ب. باور بأن يصدر ضدها أحكاماً دوغمائية . اهتمامه بالاشتراكية استيقظ حين بدأت الكتابات الاشتراكية تنشر في ألمانيا فكرة ان الفاعلية الانسانية لها طابع اجتماعي جوهرياً (٥) . نتيجة نفوره من الشعب ، من « الجمهور » ، اتخذ من الوهلة الاولى موقفاً عدائياً ازاء الاشتراكية ، التي يدينها بوصفها تعبيراً نموذجياً عن مطامحه وتطلعاته . يرى فيها محاولة لتنظيم الجمهور ، يعزو عدم نجاحها الى تحالفها معه ، ويخلص ، في نقده للاشتراكية الذي يقرنه مع نقده للرايكاكية الليبرالية ، الى ان السبيل الواحد المؤدي الى انعتاق الانسان هو سبيل النقد النقدي (٦) .

على هذا الزعم لباور الذي فحواه ان تطور البشرية انما يقرره النقد اي عمل الروح ، يعترض ماركس بقوله أن تقدم الروح ، كما أبرز ذلك الاشتراكيون والشيوعيون ، قد تترجم الى هنا بنزع انسانية المجتمع . هذا النزع للانسانية لا يمكن ان يلغى بمحض النقد ، أي بنضالات روحية ، ان الفناء يشترط كفاحات

(١) صص ٣٠٦ ، ٣٠٩ .

(٢) صص ٣٠٧ ، ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٣) صص ٣١٠ - ٣١٢ . موليتور ، ص ٢٤٠ - ٢٤٥ .

(٤) ص ٣٠١ . « هذه ( الميتافيزياء ) ستسقط نهائياً تحت ضربات المذهب المادي الهيا بعمل النظائر والذي يتطابق في الهوية مع المذهب الانساني . ان الاشتراكية والشيوعية الفرنسية والانكليزية تمثلان في الميدان العملي ما يمثلته فويرباخ في ميدان النظرية ، اتحاد الانسية والمادية . »

(٥) ص ٣١٠ .

(٦) ص ٣١٠ . « لقد اقام الفرنسيون سلسلة من المنظومات لتبيان كيف يجب تنظيم الجمهور . »

قاسية سياسية واجتماعية لا يستطيع ان يخوضها الا « الجمهور » المستغل (١) .  
ليست الاشتراكية والشيوعية سوى التعبير النظري عن هذا النضال الثوري  
الذي يخوضه الجمهور من أجل اعتاقه ، النضال الذي ساندته المذاهب الاشتراكيون  
والشيوعيون بنقدهم للمجتمع البرجوازي (٢) .

بعكس هؤلاء ، ان **النقد النقدي** ، اذ يعتبر أن تطور التاريخ كان فشلا دائما  
للروح ناجما عن عجز « الجمهور » عن المساهمة بشكل مفيد في ظفر العقل ، فهو  
يدين كل حركة ثورية تعتمد عليه .

رابطا الاشتراكية بالراديكالية الالمانية ، ب. باور يعلل مولدها بهزيمة هذه  
الاخيرة في سنة ١٨٤٢ ، الهزيمة التي سادت الراديكاليين الى ان يتوجهوا نحو  
الاشتراكية والى ان يرتكبوا هكذا ، بتحالفهم على نحو أوثق مع « الجمهور » اثما ضد  
الزوح (٣) .

بدلا من ان يرى ان الاشتراكية الالمانية هي نتاج الاشتراكية الانكليزية  
والفرنسية ، ب. باور ، عاكسا العلاقات الحقيقية بينهما ، يحكم على الاشتراكية  
الانكليزية والفرنسية بحسب الاشتراكية الالمانية ، يدينهما كما يدين هذه الاخيرة  
لكونها ارتبطت بـ « الجمهور » ، ويقص كل مذهب وكل عمل الاشتراكية الى واقع  
واحد : تنظيم « الجمهور » .

اذا استثنينا **النقد النقدي** — يقول ماركس — ليس من مكان يجري فيه الحديث  
عن تنظيم الجمهور ، بالمقابل كثيرا ما يجري الحديث عن تنظيم الشغل ، وهو الشعار  
الذي أطلقه في فرنسا الحزب الراديكالي الذي حاول بذلك ان يربط عمله بعمل  
الاشتراكية (٤) .

الاشتراكيون والشيوعيون يدركون تماما ، بخلاف ب. باور ، ان الجمهور  
ليس بأية حاجة الى ان ينظم ، فتنظيمه يولد من تنظيم المجتمع البرجوازي ويتطابق  
معه في الهوية . وهدف الاشتراكية والشيوعية هو ارشاده ، على الصعيد النظري  
والعملي معا ، في كفاحه التحرري (٥) .

الاشتراكية والشيوعية تملان بالتطور التاريخي الحديث . بوصفهما نظرية ،

---

(١) ص ٢٥٤ . « بما ان آثار خلع جمهور البشر لذاتهم موجودة بكيفية حسية في العالم الواقعي ،  
لذا فان « الجمهور » مضطر لان يكافحها بكيفية ايضا فعلية . انه لا يستطيع ان يعتبر منتوجات خلقه  
لذاته اشباحا ، محض انخلاعات لوعيه ، ولا ان يزعم الفادها بفعل محض روحي ... ولكن النقد المطلق  
تعلم من فينومينولوجيا هيجل فن تحويل الاصفاد الواقعية ، الموضوعية ، الوجودية خارجي ، الى اصفاد  
محض روحية ، ذاتية ، داخلية ، وبذلك تحويل الصراعات الخارجية ، العينية ، الى محض صراعات  
افكار . »

(٢) ص ٢١٠ .

(٣) ص ٢٥٠ .

(٤) ص ٢١٠ .

(٥) ص ٢١١ .

انهما مشتقتان من الاتجاه الاجتماعي لمادية القرن الثامن عشر الفرنسية التي ،  
بوضعها في المبدأ مساواة البشر الطبيعية وبتأكيدا الدور الحاسم الذي تلعبه البيئة  
في تكوينهم ، فتحت الطريق للاشتراكية . فلو كان الانسان مشكلا من قبل بيئته ،  
اذن يجب تنظيم هذه البيئة بحيث تساعد على انسنة البشر ، ولئن كانت الانانية هي  
الحافز الاساسي للفاعلية الانسانية ، اذن يجب العمل بحيث تتطابق المصلحة الخاصة  
مع الصالح العام (١) .

ان انبساط الاشتراكية والشيوعية موسوم بتعاقب نظريات تذهب من نظريتي  
بابف وفوريه الى نظريتي كابيه Cabet ودزامي Dezamy ، حيث هذه الاخيرة تؤلف  
بماديتها تعبير الانسية العملية التي هي اساس الشيوعية . « فوريه يستلهم مباشرة  
مذهب الماديين الفرنسيين . اتباع بابف كانوا ماديين فظين ، بلا ثقافة ، ولكن  
الشيوعية الاكثر تطورا تأتي هي ايضا مباشرة من المادية الفرنسية . اذ ، تحت الشكل  
الذي اعطاها اياه هلفيسبيوس ، هذه المادية عادت الى وطنها - الام ، انكلترا . في  
انكلترا ، بنتام Bentham يؤسس منظومته عن المصلحة المفهومة جيدا على اخلاق  
هلفيسبيوس ، وذهابا من منظومة بنتام ، يضع اوين Owen أسس الشيوعية  
الانكليزية . منفيا الى انكلترا ، الفرنسي كابيه Cabet ، مفتونا بالافكار الشيوعية  
يعود الى فرنسا ليصير فيها المثل الاكثر شعبية ولكن ايضا الاكثر ابتذالا للشيوعية .  
الشيوعيون العلميون الفرنسيون ، دزامي Dezamy ، غي Gay ، الخ ، يبسطون ،  
مثل اوين ، مذهب المادية بوصفه مذهب الانسية الواقعية ، بوصفه الاساس المنطقي  
للشيوعية (٢) . »

## ٥٠ برودون (٣)

ان النقد الذي كان ادغار باور قد سلطه على برودون (٤) يعطي ماركس فرصة

(١) ص ٣٠٧ - ٣٠٨ . « كما المادية الديكارتية تجد مآلها في العلوم الطبيعية ، الاتجاه الاخر في  
المادية الفرنسية ينتهي مباشرة الى الاشتراكية والى الشيوعية . لا حاجة لفظة خارقة كي يرى ما يربط  
بالضرورة نظريات المادية عن الطبيعة الاصلية والذكاء التساوي للبشر ، عن كلية قدرة التجربة ، العادة ،  
التربية ، عن تأثير الظروف ، عن اهمية الصناعة ... الخ ، بالشيوعية والاشتراكية . اذا كان الانسان  
يستمد كل معرفته من العالم الحسي ومن خبرته بهذا العالم ، يجب تنظيم هذا الاخر بحيث يجد الانسان  
فيه ويتمثل فيه ما هو انساني فعلا ، بحيث ينمو وينبسط فيه كائنات . لئن كانت المصلحة المفهومة  
جيدا هي مبدا كل اخلاق ، يجب ان تتطابق مصلحة الانسان الخاصة في الهوية مع المصلحة الانسانية  
العامة ... اذا كان الانسان مشكلا من قبل الظروف ، يجب اعطاء هذه الظروف طابعا انسانيا . »

(٢) ص ٣٠٨ . (٣) ص ١٩٢ - ٢٢٥ .

(٤) انظر ا. باور : برودون ( مختارات من : ما هي الملكية ؟ ، ترجمة وتعليق ا. باور ) . ص. ا. ع. ،  
الدفتر الخامس ، نيسان ١٨٤٤ ، ص ٣٧ - ٥٢ .

أن يوسع ، مع نقده للنقد الناقد بصدد الاشتراكية ، نقده لبرودون ، النقد الذي كان قد بدأه في مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفية (١) . كان ماركس لا يزال يقدر كثيرا برودون ، الذي أعلنه ماركس ، في مجادلته ضد روجه ، أعظم منظر للبروليتاريا الفرنسية (٢) .

كان استحقاقه الرئيسي ، في نظره ، أنه شق الطريق لنقد أساسي للملكية الخاصة وللمجتمع البرجوازي ، نقد لم يستطع دفعه إلى النهاية ، نظرا لأنه لا يريد إلغاء الملكية الخاصة إلغاء جذريا . إذ لم ير أن الطابع اللاإنساني للمجتمع البرجوازي يأتي من عين طبيعة الملكية الخاصة التي هي قاعدته ، فانه لا يخلص من نقده للملكية الخاصة إلى ضرورة إلغائها المطلق . في هذا تكمن حدود وعيوب منظومته .

ما يأخذه ١. باور على برودون ليس كونه لم يدخل بشكل أعمق في العمل الثوري بل بالعكس كونه لم يتحول عنه لينصرف ، مثل النقد النقدي ، إلى التأمل المضارب (٣) . على برودون الذي أخذ على الفلسفة بقاءها نظرائية وإبتعادها عن العمل ، يرد ١. باور أن الفلسفة ، بعيدا عن أن تزج نفسها في العمل ، يجب عليها بالعكس أن تتحرر منه تماما . هذا التصور ، على حد قول ماركس ، يأتي من كون ١. باور فيلسوفا نظرائيا ، بالنسبة له ليست الحياة والفاعلية الإنسانية موجدتين حقا إلا تحت شكل تجريدات ، وفي نظره كل المسائل تجد حلولها على الصعيد الروحي (٤) .

من وجهة نظر الفلسفة النظرانية ، التي ، بدلا من أن تشارك في الكفاحات السياسية والاجتماعية ، تحلق فوقها ، يدين باور برودون ، لأنما إياه على كونه يؤمن ، كالطوباويين واللاهوتيين ، بالأفكار المطلقة ، وعلى كونه حاكم وادان المجتمع البرجوازي باسم أفكار العدالة والمساواة (٥) .

(١) ميفا ، ١ ، ح ٣ ، ص ص ٤٢ ، ٩٨ ، ١٢٨ .

(٢) المكان نفسه ، ص ١٨ .

(٣) ص ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٤) ص ٢١٠ . « بينما فويرباخ ينتهي إلى هذه النتيجة ... وهي أن الفلسفة يجب أن تنزل من سماء النظائر نحو أعماق البؤس الإنساني ، السيد ادغار يعلمنا بالعكس أن الفلسفة مرتبطة كثيرا بالعمل . يبدو بالآخرى أن الفلسفة بما أنها التعبير الخارق المتعالي والمجرد عن وضع الأشياء الواقعي كان لا بد ، بسبب طابعها المتعالي والمجرد وبسبب الفرق الذي تقيمه بينها وبين العالم ، أن تتخيل أنها تترك بعيدا تحتها العالم الواقعي والبشر العيانيين ، بما أنها من جهة أخرى لا تختلف فعليا عن العالم الواقعي ولا تستطيع أن تعارضه واقعا وإن تمارس عليه فعلا واقعا ، فقد اضطرت إلى الاكتفاء بفعل روحي ، مجرد . لم تكن « سوبر عملا » ( فوق الممارسة ) إلا بهذا المعنى ، بمعنى أنها خلقت فوق العمل ... حين النظائر ... يتكلم عن الإنسان ، فانه لا يعتبر الإنسان العياني ، بل فقط الإنسان المجرد ، في شكل فكرة ، روح » .

(٥) ص ص ٢٠٣ - ٢٠٤ . انظر ص. ١. ع. ، الدفتر الخامس ، ص ص ٤٠ و ٤٨ .

ويقول ماركس ان برودون ، بعكس **النقد الناقد** الذي يحول جميع المسائل الى مسائل نظرائية ، يؤسس نقده ، بوصفه مدافعا عن مصالح الطبقة العاملة على وقائع اقتصادية واجتماعية عيانية ، ان عمله له من جراء ذلك مدى اكبر من مدى **النقد الناقد** ، اذ بدلا من ان يكون محض ثرثرة كهذا الاخير يمهّد الطريق للثورة الاجتماعية (١) .

بعيدا عن ان يكون طوباويا ، برودون اكب على نقد نظام الملكية الخاصة ، أساس المجتمع البرجوازي والسبب العميق لبؤس العمال ، وقد ارتكز على هذا النقد ، لا لكي ينصرف على طريقة **النقد النقدي** الى مضاربات نظرية مجردة ، بل لكي يصوغ مطالب واضحة محددة لصالح الطبقة العاملة .

في نقده المجتمع البرجوازي ، يذهب برودون من مسألة معرفة ما اذا كان البؤس ، الذي يؤلف في هذا المجتمع نصيب غالبية البشر ، ضرورة طبيعية لا مفر منها . داربها أسباب البؤس ، يبين ان النظام الرأسمالي الذي ينبجه لا يمكن ان يتفق مع مبدأ المساواة الذي يجمع الفلاسفة والاقتصاديون البرجوازيون على الاعتراف به مبدأ اجتماعيا أساسيا (٢) .

لئن كان يعتمد في هذا النقد على فكرة المساواة ، وهو أمر يلومه ا. باور عليه ، فلأن هذه الفكرة هي ، في فرنسا ، التعبير الايديولوجي للعلاقات التي يجب او يفترض او يراد ان تكون موجودة بين البشر ، ولانها تؤلف أساس مذهب ثوري (٣) . ان كون الملكية الخاصة تنجب ، مع اللامساواة الاجتماعية بين البشر ، الثروة

(١) ص ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٢) ص ٢١١ . « برودون يطرح على نفسه السؤال الاتي : كيف يحصل ان المساواة التي يجمعون منها المبدأ الخالق والمبرر للملكية غير موجودة بينما بالعكس موجود نفيها في شكل الملكية الخاصة . يبين « ان الملكية بالحقيقة ليس لها مبرر لا نظريا ولا عمليا » ( ص ٢٤ ) ، انها تتناقض وتدمر نفسها بنفسها ، انها ، بلغة المانية ، تعبّر المساواة في شكلها المتخلع والمتناقض . ان حالة الاشياء الموجودة في فرنسا ، ومعها ملاحظة الانخلاع المتولد منها ، تدفعان برودون الى التفكير ، بحق ، بان الملكية الخاصة يجب ان تُلغى فعلا . »

(٣) ص ٢٠٩ . « فيألف السيد ادغار وليقارن برهه المساواة الفرنسية والوعي الكلي الالمانى وسيرى ان هذا يعبر ، بالطريقة الالمانية اي في اطار الفكر المجرد ، عما تعبّر عنه المساواة بالطريقة الفرنسية اي في لغة السياسة وفي اطار الفكر العياني . وعي الذات هو الانسان متساويا مع نفسه على صعيد الفكر الخالص . المساواة هي الوعي الذي لدى الانسان عن نفسه في العمل ، في الممارسة ، بالتالي هي ايضا وعيه ان كل انسان اخر هو مساويه وان سلوكه ازاده يجب ان يكون سلوكا ازاء مساو . المساواة هي التعبير الفرنسي عن وحدة الجوهر الانساني ، هي تعبّر وعي وسلوك الجنس البشري ، تعبّر الهوية العملية التي يجب ان توجد بين البشر وفي علاقاتهم . كما في المانيا حاول النقد المدمر ، قبل بلوغه مع فويرباخ تصور الانسان الحقيقي ، ان يلغى كل واقع محدد ، بارتكازه على مبدأ وعي الذات ، كذلك حاول النقد المدمر في فرنسا ان يصل الى النتيجة ذاتها مرتكزا على مبدأ المساواة . »

للبيض والبؤس للبيض الآخر ، يقوده الى دراسة العلاقات بين الملكية الخاصة والبؤس واستنتاج ان الغاء البؤس يتطلب الغاء الملكية الخاصة .

ان الكيفية التي بها يتصور برودون ويعالج المسألة الاجتماعية تبين الفرق الاساس الذي يفصل مذهبا ثوريا عن **النقد النقدي** الذي يقلص الصراعات السياسية والاجتماعية الى صراعات ايدولوجية ، الى معارك بين مقولات ، بين افكار مجردة . هذا يظهر ، بشكل خاص ، في طريقة نظر ا. باور وبرودون الى العلاقات بين الملكية الخاصة والبؤس . ا. باور يقلص الملكية الخاصة والبؤس الى مقولتي avoir و non - avoir ( فعل الملك والاملك ، عندي وليس عندي ) .

مجردتين من كل صفة ( من كل كيف ) ومن كل اهمية اجتماعية ، يستطيع ا. باور ان يلعب بهما على راحته ، بفضل الفضيلة السحرية للمحاكمة النظرانية المضاربة ، الامر الذي يعفيه من كل دراسة عينية للمسألة الاجتماعية ومن اي اتخاذ لموقف سياسي (١) . مختالا بكونه قلص مسألة العلاقات بين الملكية الخاصة والبؤس ، كما يفعل مع كل المسائل ، الى علاقات بين افكار مجردة ، بين مقولات ، يلوم برودون على كونه انحاز للملكية الخاصة ضد البؤس ، بدلا من ان يعاملهما باللامبالاة السلطانية للفيلسوف النظرائي (٢) .

ماركس يلاحظ له ان « عندي » و « ليس عندي » ، في شكل الحيابة واللاحيابة ، ليست أبدا افكارا مجردة . فاللاحوز هو التعبير العياني عن نزاع انسانية العامل المفصول عن والمحروم من منتج شغله ، نزاع الانسانية الذي لا يمكن أن يلقى بطريق النظران (٣) ، بل فقط بالعمل المتضافر للنقد ولعمل البروليتاريا الثوري . « ان

(١) ص ٢٠٥ ، ص ٢٠٧ ، ص ٢١٢ و ٢٠٧ . « حسب السيد ادغار ، الحوز واللاحوز هما بالنسبة لبرودون مقولتان مطلقتان . لا يرى النقد النقدي في اي مكان سوى مقولات . هكذا فان الحوز واللاحوز ، الاجر ، نصيب الشغل ، البؤس والحاجة ، الشغل الهادف الى تلبية الحاجات ، هذا كله ليس سوى مقولات ... »

الحوز واللاحوز نالا التكريس الميتافيزي للتناحرات النظرانية . يد النقد النقدي وحدها تستطيع ان تلمسها بدون ان ترتكب اثم انتهاك المحرمات . ليس للراسمالين والعمال ان يهتموا بملاقاتهم . » (٢) ص ٢٠٤ .

(٣) ص ٢١٢ . « لو لم يكن على المجتمع ان يتحرر سوى من مقولتي الحوز واللاحوز ، لشد ما كان سهلا على جدلي ، حتى اضعف من السيد ادغار ، ان يسهل له حذف هاتين المقولتين ! والسيد ادغار ، من جهة اخرى ، يعتبر هذا كله نافعا لدرجة انه يرى ان الامر لا يستحق عناء اعطاء شرح لمقولتي الحوز واللاحوز ردا على برودون . والحال ، بما ان اللاحوز ليس محض مقولة ، بل هو واقع كئيب ، بما ان في ايماننا الانسان الذي ليس عنده شيء هو لا شيء ، بما ان هذا الانسان المقطوع عن كل وجود ليس له اية علاقة مع الحياة ، بما ان حالة اللاحوز هي الحالة التي فيها الانسان مفصول تماما عن واقعه الموضوعي ، فان اللاحوز يبدو ، بحق ، بالنسبة لبرودون ، الموضوع الاسمي للتفكير ، لا سيما ان هذا الموضوع نادرا ما كان ، قبله والاشتراكيين الفرنسيين ، موضع تفكير . اللاحوز هو الروحانية في شكلها

←

العمال الفرنسيين والانكليز، الذين يشتغلون في معامل مانشستر وليون، لا يتصورون ان بإمكانهم يوما ان يتحرروا من أسيادهم ومن اذلالهم بفضيلة « الفكر المحض » والاستدلال وحدها . انهم يشعرون بالم بالغ الفرق الموجود بين **الكيونة والفكر** ، بين **الوعي والحياة** . انهم يعلمون ان الملكية والراسمال والمال والشغل المأجور الخ ليست نتاجات للخيال ، بل بالعكس هي نتاجات واقية وعيانية لانخلاعهم ، نتاجات يجب ان تلتفى ايضا بشكل عملي ، عياني ، كي يصير الانسان حقا انسانا ، ليس فقط في **الفكر** ، في **الوعي** ، بل ايضا في **الوجود العيني** ، في الحياة الواقعية . اما **النقد الناقد** فيعلمهم بالعكس ، يعلمهم انهم يكفون عن كونهم في الواقع اجراء ، اذا حلدوا بالفكر فكرة الشغل المأجور ، اذا كفوا بالفكر عن اعتبار أنفسهم اجراء ، واذا كفوا ايضا ، طبقا لهذا الوهم ، عن تقاضي اجرهم كاجراء . اذ هكذا صاروا مثالين طاهرين ، كائنات اثيرية ، يستطيعون بالطبع ايضا ان يعيشوا من اثر الفكر الخالص . **النقد النقدي** يعلمهم انهم يحذفون الراسمال الواقعي بالفائهم في **الفكر** مفهوم الراسمال ، انهم يتحولون **فعليا** ويصيرون بشرا حقيقيين بتحويلهم في الوعي **انا هم المجرد** ، بازدرائهم بوصفه عملية غير جديرة بالنقد كل تحويل عياني لوجودهم الواقعي ، كل تحويل فعلي لشروط وجودهم الواقعية ، اي **لانا هم الواقعي** . ان « **الروح** » الذي لا يرى في الواقع سوى مقولات بعيد بشكل طبيعي كل فاعلية الانسان العملية الى الفكر الجدلي **للنقد الناقد** . في هذا تتميز اشتراكية **النقد النقدي** عن الاشتراكية والشيوعية **العامةيتين** (١) .

تبيانه ان الملكية الخاصة هي منبع اللامساواة والبؤس ، برودون فضح الرذيلة الاساسية للاقتصاد السياسي ، الذي يجهد لتسويق المنظومة الرأسمالية رغم لا انسانيته ، معتبرا عقلانيا وضروريا نظام الملكية الخاصة الذي عليه ترتكز (٢) . وقد بين في الوقت نفسه التناقضات الملازمة للاقتصاد السياسي ، بشكل خاص تلك التي تتصل بنظريته عن الاجر ونظريته عن القيمة . الاقتصاد السياسي يضع ، في المبدأ ، ان الاجر يمثل حصة منتج الشغل التي تعود شرعا الى الاجر ، ولكن في الواقع الاجر يثبت دوما على المعدل الأدنى . أما القيمة ، فالاقتصاد السياسي يزعم ان مقدارها يتحدد بحسب تكاليف الانتاج وفائدة الموضوع ، في حين أنه بالواقع يتحدد بكيفية عسفية (٣) .

»→

اليأس ، لا واقعية الانسان المطلقة وبالمقابل واقعية ما هو غير انساني الكاملة ، انه شكل حيازة ايجابية جدا ، انه حيازة الجوع والبرد والأمراض والجرائم والاندلال والבלامة وكل ما هو معاكس للانسان والطبيعة .

(١) ص ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٢) ص ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٣) ص ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

في الوقت نفسه الذي فيه يشدد ماركس على مآثر برودون ، الذي فتح نقده الطريق امام تحليل علمي للاقتصاد السياسي ، يبين ماركس حدود وعيوب منظومته (١) . هذه العيوب ، ماركس لا يعللها ، كما سيفعل بعد بضع سنوات في **بؤس الفلسفة** ( ١٨٤٧ ) ، بموقع برودون الطبقي الذي يقوده بوصفه مدافعا عن الطبقات الوسطى ، عن صفار الفلاحين والحرفيين ، الى تسويغ شكل الملكية الخاص بهذه الطبقات ، الملكية الصغيرة ، بل بكونه ، بما أن نقده للاقتصاد السياسي البرجوازي كان اول حملة أساسية على هذا الاخير ، لم يكن في استطاعته ان يتحرر تماما من مبادئه وبالتالي ان يتجاوزه تماما (٢) .

لقد عمل كل ما يمكن ان نعمله مع بقائنا على صعيد الاقتصاد السياسي ، اي على صعيد الملكية الخاصة ، بما انه لم ينبذ ، بشكل جذري ، مطلق ، الملكية الخاصة ، فانه لم يستطع ان يدفع الى القاع نقد هذه الملكية الخاصة وبذلك عينه نقد الاقتصاد السياسي (٣) .

أجل يريد حذف نظام يرغم العامل على خلع قوة شغله ومنتوج هذا الشغل وفيه من لا يحوز شيئا هو لا شيء ، ولكنه ، اذ يدين أساس هذا النظام ، الملكية الخاصة في شكلها غير المحدود ، المطلق ، يضع في معارضتها ، بوصفه أسلوبا للملكية ظاهرا أكثر عدالة ، حق ملكية محدودا ، حق الحيازة ، بدون أن يرى ان الحيازة مصابة باللوثة الأساسية التي تلازم كل شكل للملكية الخاصة . possession.

(١) ص ٢٠١ . « في كل انماءاته ، الاقتصاد السياسي ينطلق من واقع الملكية الخاصة ، التي يعتبرها ، في شكل بدئية ، واقعا يحمل تسويغه في ذاته ولا يخضعه لاي فحص نقدي ... ولكن ها هنا يأتي برودون ويضع قاعدة الاقتصاد السياسي ، الملكية الخاصة ، لفحص نقدي وبالحقيقة لأول فحص نقدي كامل وعلمي . هذا هو التقدم العلمي الكبير الذي حققه ، التقدم الذي قلب الاقتصاد السياسي رأسا على عقب والذي جعل ممكنا تحوله الى علم حقيقي . ان مؤلف برودون « ما هي الملكية ؟ » له بالنسبة للاقتصاد السياسي الحديث نفس الاهمية التي كانت لمؤلف Sieyès « ما هي الطبقة الثالثة ؟ » بالنسبة للسياسة الحديثة . »

( « الطبقة الثالثة » ، tiers état ، عمليا : البرجوازية . الطبقة الاولى هي الاكليس والثانية النبلاء ، في فرنسا « العهد القديم » . كتاب الاب سيبس صدر في عشية ثورة ١٧٨٩ ، وظل صاحبه شخصية بارزة في الجمعية التأسيسية والتشريعية ، ثم في المؤتمر ، ثم في الادارة ، في القنصلية ... ) . (٢) ص ٢٠١ . « ان اول نقد لاي علم يذهب بالضرورة من مبادئ العلم الذي هو يكافحه ، وهذا يفسر كون برودون في مؤلفه ما هي الملكية ؟ ينقد الاقتصاد السياسي من وجهة نظر هذا الاخير ... ان مؤلف برودون يتجاوزه النقد الاساسي للاقتصاد السياسي بما فيه الاقتصاد السياسي كما يتصوره برودون . هذا النقد ، على اي حال ، لم يكن ممكنا الا بفضل برودون نفسه ، كما ان نقده لم يكن ممكنا الا بفضل نقد الماركسيين على يد الفيزيوقراطيين ، والفيزيوقراطيين على يد آدام سميث ، وآدام سميث على يد ريكاردو ، وكذلك بفضل اعمال فورييه وسان - سيمون . » (٣) ص ٢٠٣ .

« القول بأن برودون يريد حذف الملكية الخاصة ، أسلوب الملكية القديم ، معناه القول بأنه يريد حذف حالة الاشياء التي فيها صار الانسان موضوعيا غريبا عن نفسه ، الشكل الاقتصادي للانخلاع . ولكن بما أنه في نقده للاقتصاد السياسي لم يتحرر من مبادئ هذا الاخير فان تملك العالم الموضوعي ما يزال متصورا من قبله في شكل الملكية الذي هو شكل خاص بالاقتصاد السياسي . ان برودون لا يعارض ، كما يزعم النقد النقدي ، اللاحياسة بالحياسة . انه يعارض أسلوب الملكية القديم ، الملكية الخاصة ، بالحياسة معلنا انها وظيفة اجتماعية . والحال ، ما هو مثير للاهتمام في وظيفة اجتماعية ليس طرد الغير منها بل السماح للانسان بأن يؤكد ويحقق بواسطتها قواه الخاصة .

برودون لم ينجح في بسط هذه الفكرة كما يجب . ان تصور « الحياسة المتساوية للجميع » هو ، لكن في الشكل المنخلع الذي يتخذه في الاقتصاد السياسي ، التعبير عن فكرة أن الموضوع ، بوصفه ... تحقق الانسان موضوعيا ، هو في الوقت نفسه أسلوب وجود الانسان للغير ، علاقته الانسانية مع البشر الاخرين ، شكل العلاقات الاجتماعية بين البشر . أجل يلقي برودون الانخلاع الاقتصادي ، ولكنه لا يفعل ذلك بعد الا في اطار هذا الانخلاع (١) . »

اذ يريد تعميم الملكية الخاصة في شكل الحياسة ، برودون لا يستطيع بلوغ تصور جديد ، تصور حقا انساني للعلاقات الاجتماعية ، فيه بحذف الملكية الخاصة حذفاً جذرياً ينحذف كل شكل من اشكال الانخلاع .

بهذا يختلف برودون اختلافا عميقا عن انجلز ، الذي بين ، في نقده للنظام الرأسمالي ، أن المقولات الاقتصادية : تبادل ، قيمة ، سعر ، المعتبرة من قبل الاقتصاديين البرجوازيين طبيعية وضرورية ، هي في الواقع محددة من قبل هذا النظام وأن منظومة الملكية الخاصة مصيرها الدمار على يد الطبقة الثورية المتولدة منها ، البروليتاريا (٢) .

نظرا لكونه يسوّغ الحياسة ، التي يريد تعميمها ، لم ينجح برودون ، بخلاف انجلز ، في تبين بأي طريق اللامساواة الاجتماعية والبؤس يمكن ويجب ان يلغيا فعليا . بالفعل ان الغاءهما لا يمكن أن ينتج عن تخفيف التعارض الطبقي بين الحائزين وغير الحائزين ، التخفيف الذي نحوه تتجه منظومة برودون ، بل بالعكس عن اشتداد هذا التعارض ، عن احتدام الصراع الطبقي بين البرجوازية والبروليتاريا الذي يقضي الى الثورة الاجتماعية .

أجل برودون يدرك ان المسألة الاجتماعية هي مسألة عملية قبل كل شيء ،

(١) ص ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(٢) ص ٢٠٢ .

ولكن بما انه لا يرى ان الثروة والبؤس المتولدتين من النظام الرأسمالي لا يمكن ان يلغيا الا بالتطور الجدلي لهذا النظام ، فانه لا يعتبر في البؤس سوى البؤس ، الذي يريد حذفه بتخفيف آثار هذا النظام دون أن يدرك قيمته التحريرية ، دون ان يرى ان تعمم البؤس يقود الى حذفه باشتداد الصراع الثوري . « البروليتاريا والثروة هما اثنان - في - تناقض وتؤلفان على هذا الاساس كلا واحدا . انهما شكلان لعالم الملكية الخاصة . والمطلوب تحديد المكان الذي تحتله هذه وتلك في هذا العالم ، اذ لا يكفى القول انهما وجها لحال واحد .

الملكية الخاصة ، بوصفها كذلك ، اي بوصفها ثروة ، مضطرة مع ابقائها ذاتها ان تبقي ضدها ، البروليتاريا . انها تؤلف وجه التناقضية **الواجب** ، الملكية الخاصة التي تجد في نفسها رضاها . والعكس بالعكس ، البروليتاريا مضطرة لكسي تحذف نفسها كبروليتاريا أن تحذف ضدها ، الملكية الخاصة ، الذي يحدد شرطها . انها تؤلف وجه التناقضية **السالب** ، الملكية الخاصة غير الراضية عن نفسها والتي تطمح الى حذف نفسها .

الطبقة الحائزة والطبقة البروليتارية هما كليهما تعبير الانخلاع الانساني . ولكن بينما الاولى راضية في الانخلاع ، الذي به تجد نفسها مثبتة كطبقة حائزة والذي تعلم انه مصدر قوتها والذي يمنحها مظهر وجود انساني ، الثانية بالعكس تشعر انها معدمة على يد هذا الانخلاع الذي ترى فيه مصدر عجزها ووجودها للانساني ... في اطار هذه التناقضية الثنائية ، الحائزون يشكلون **الحزب المحافظ** والبروليتاريون **الحزب الهادم** ، اولئك يعملون على ابقاء وهؤلاء على هدم هذا التعارض .

بتطورها ، الملكية الخاصة تخلق بنفسها شروط الفائها ، تفعل ذلك على نحو غير واع وغير ارادي ، وهي تخلق البروليتاريا كبروليتاريا ، مولدة معها البؤس الواعي سقوطه المعنوي والمادي ، اللانسانية الواعية ذاتها والساعية هكذا بالضرورة الى حذف نفسها . ان البروليتاريا لا تفعل سوى تنفيذ الحكم الذي تصدره الملكية الخاصة ضد نفسها بتوليدها البروليتاريا ، كما انها لا تفعل سوى تنفيذ الحكم الذي يصدره الشغل المأجور ضد نفسه بانواجه مع ثروة الغير يؤسه الخاص (١) .

بانجابها البروليتاريا ، الملكية الخاصة تخلق بنفسها ، دون أن تريد ذلك ، أداة دمارها ، فدور البروليتاريا هو تنفيذ الحكم الذي تصدره الملكية الخاصة ضد نفسها بخلقها اياها . لئن كان الشيوعيون يحملون البروليتاريا هذا الدور ، فهذا ليس ، كما ينكر **النقد النقدي** ، لانهم يؤلهونها ، بل لان البروليتاريا عليها ، لكي تعتق نفسها ومعها البشرية كافة ، ان تدمر المجتمع البرجوازي . « مع احرازها النصر ، البروليتاريا لا تصير بموجب ذلك العنصر الممثل للمجتمع . فهي لا تستطيع بالفعل

ان تكون منتصرة الا بحذف ذاتها وبحذف العنصر المضاد الذي يحددها ، الملكية الخاصة ، بحيث يزولان كليهما .

لئن كان الكتاب الاشتراكيون يعزون اليها هذا الدور العالمي ، فذلك ليس أبداً ، كما يجب النقد النقدي أن يعتقد ، لانهم يؤلهونها . بالاحرى العكس هو الصحيح . لان البروليتاريا ، الواصلة الى انبساطها المليء ، تجسد نفي ليس فقط كل انسانية بل أيضا كل مظهر من انسانية ، بنتيجة ان شروط وجودها تمثل أعلى درجات اللانسانية في المجتمع البرجوازي . لان الانسان ، اذ يضع نفسه تماما فيها فانه يجد نفسه ، في الوقت الذي يعي فيه لانسانيته ، مرغما على الثورة على هذا المجتمع ، لذلك فالبروليتاريا يمكن ويجب ان تتحرر . انها لا تستطيع أن تتحرر بدون أن تحذف شروط حياتها ولا تستطيع ان تحذف شروط حياتها بدون أن تلغي كل الشروط الحياتية اللانسانية التي تطبع المجتمع الراهن والتي تجد اختصارها في البروليتاريا . ليس عبثا تمر البروليتاريا بمدرسة الشغل القاسية ولكن الحافزة . ليس ذا أهمية كبيرة ان نعلم ما هو الهدف الموقت الذي يريده هذا البروليتاري او ذاك او حتى البروليتاريا بأسرها . الامر الجوهري هو أن نعلم ما هي البروليتاريا وما عليها تاريخيا أن تعمل بحكم ما هي . ان هدفها وعملها التاريخي مرسوم لها على نحو واضح ولا رجوع عنه من قبل شروطها الحياتية ومن قبل التنظيم الحاضر للمجتمع البرجوازي . من النافل أن نبرز هنا أن قسما كبيرا من البروليتاريا الانكليزية والفرنسية قد وعى من الان رسالته التاريخية وهو يجهد بشكل دائم لتوضيح هذا الوعي تماما (١) . «

## ٦ - المسألة اليهودية

في مقالين كبيرين صدرا في سنتي ١٨٤٢ و ١٨٤٣ ، كان ب. باور قد عالج مسألة اعتناق اليهود التي كانت آنذاك مسألة ذات راهنية بالغة (٢) . مرتكزا على واقع ان اليهود كانوا يزعمون انهم شعب ، مختار ، ذو امتياز ، كان ينكر عليهم حق أن يتحرروا سياسيا ، على أساس ان التحرر السياسي يتضمن نبذ كل امتياز (٣) . ردا على الانتقادات العديدة التي تسببت عن مقاليه ، كان ب. باور قد أصدر في

(١) ص ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٢) أنظر برونو باور : المسألة اليهودية ، في الحوليات الالمانية ، ١٧ و ١٩ نوفمبر ١٨٤٢ . برونو باور : قابلية يهود ومسيحيي اليوم للاعتناق ، في ال ٢١ ورقة من سويسرة ، زوريخ وفترنود ، ١٨٤٣ ، ص ص ٥٦ - ٧١ .

(٣) أنظر الجزء الثاني من هذا المؤلف .

الصحيفة العامة الادبية مقالين ثبتت فيهما اطروحته (١) .

في نقده ، ماركس يوسع تنفيذ هذه الاطروحة الذي سبق ان كان موضوع مقاله في الحوليات الفرنسية - الالمانية عن المسألة اليهودية (٢) .

بدلا من دراسة مسألة تحرر اليهود السياسي كما هي مطروحة فعلا ، ب. باور ، على حد قول ماركس ، يفيض في اعتبارات طويلة عن الدين اليهودي والدولة المسيحية (٣) . يحلل الدين اليهودي ، دون أن يأخذ حساب الاسباب الاجتماعية ، يعلل اليهودي بدينه بدلا من أن يعلل الدين اليهودي بأسلوب حياة اليهود ، ولا يهتم فعلا باليهودي الا بقدر ما هو موضوع اللاهوت (٤) .

بما ان الكفاح الحقيقي الوحيد بالنسبة له هو كفاح الوعي الكلي ضد الدين وبما أنه يعتبر نقد الدين الطريق الوحيد الذي يقود الى التحرر ، فانه يعيد قابلية اليهود والمسيحيين للتحرر الى قابليتهم لان ينقدوا الدين ، القابلية التي يعتبرها اكبر عند المسيحي منها عند اليهودي بسبب كلية أو كونية دينه (٥) .

هذا التصور للانعتاق يفسر ، على حد قول ماركس ، بتطوره السياسي - الديني . الحركة السياسية التي ولدت في سنة ١٨٤٠ حررت من تصوراته الارثوذكسية في مضمار الدين والمحافظة في مضمار السياسة . سلطة الدين والكنيسة اخلت المكان لسلطة الدولة ، التي لم يكن يتصورها من جهة أخرى الا في علاقاتها مع الدين وكخصم للدين (٦) . هذا التصور للدولة ، المعتبرة جوهريا في علاقاتها مع الدين ، يحدد تصوره للانعتاق ، الذي لا ينظر اليه الا في شكل انعتاق سياسي والذي لا يمكن تحقيقه ، في نظره ، الا على يد دولة محرة من كل نفوذ ديني . هذا يقوده الى التفكير ان الدولة البروسية لا تستطيع ، بوصفها دولة مسيحية ، أن تحرر رعاياها ، وانه من الوهم ، من جانب اليهود ، الاعتقاد بأنهم يمكن أن يحرروا من قبلها (٧) .

(١) انظر برونو باور : مؤلفات حديثة العهد عن المسألة اليهودية ، في ص.١٠ع ، الدفتر الاول ، ديسمبر ١٨٤٣ ، صص ١ - ١٧ ، والدفتر الرابع ، آذار ١٨٤٤ ، صص ١٠ - ١٩ . برونو باور : ما الذي هو الان موضوع النقد ؟ ص.١٠ع ، الدفتر الثامن ، تموز ١٨٤٤ .

(٢) ميغا ، ١ ، ٣٥ ، صص ٢٥٩ - ٢٦٢ . ك. ماركس : المسألة اليهودية ، رقم ١ ، وضع المسائل ، صص ٢٦٧ - ٢٧١ . المسألة اليهودية ، رقم ٢ . اكتشافات حققها النقد في صدد الاشتراكية والقضاء والسياسة ( القومية ) ، صص ٢٨٠ - ٢٩٤ . المسألة اليهودية رقم ٣ .

(٣) ص ٢٦٢ .

(٤) ص ٢٨٣ .

(٥) صص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٦) صص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٧) ص ٢٨٥ .

ويلاحظ ماركس باديء بدء ان تصور ب. باور للتحرر يأتي من تصوره المجرد للحرية . فهو اذ يعتبر الحرية فعل انعتاق ذا طابع روحي في الجوهر يخلص من ذلك الى ان اليهود لا يمكن ان يحرروا الا بقدر ما هم يتحررون بأنفسهم نظريا . في الواقع ، يتطلب التحرر ، خارج فعل روحي ، شروطا بالغة العينية والمادية لكي يتحقق . هذا ما يحسه ويشعر به بشكل واضح تماما الجمهور ، الطبقة العاملة ، التي ، بعكس **النقد النقدي** ، ترى من الضروري اللجوء الى أفعال ثورية من أجل الانعتاق . « لليهود الذين ينتسبون الى الجمهور ، لليهود المعلقين بالمادة ، يقدم المذهب **المسيحي** ، مذهب الحرية الروحية ، الحرية النظرية ، هذه الحرية الروحانية التي تتخيل انه يمكن أن يكون المرء حرا وهو مثقل بالسلاسل ، التي تجد السعادة الكاملة في مملكة الافكار والتي لا يمكن الا أن تزعج من قبل تحققها الفعلي .

« اليهود هم حاليا محررون بقدر ما هم محررون نظريا ، هم أحرار بقدر ما يريدون أن يكونوا أحرارا . » . هذه الجملة تسمح بأن نقيس مباشرة الهوية التي تفصل الشيوعية والاشتراكية **المتبدلتين** والديويتين عن الاشتراكية **المطلقة** . ان المبدأ الاول للاشتراكية الدنيوية ( غير المقدسة ) يرفض التحرر **النظري المحض** باعتبار أنه وهم ، مقدرا ان تحقق الحرية **الفعلي** يتطلب ، عدا ارادة التحرر ، شروطا جد مادية . نرى بذلك كم أدنى من النقد القديس **الجمهور** الذي يعتبر ضرورية لا غنى عنها تحويلات عميقة مادية ، عملية ، على الاقل بغية احرار الوقت والوسائل اللازمة للاهتمام **بالنظرية** ( ١ ) . »

ان الانعتاق ، من جهة أخرى ، يجب ان يعتبر لا في شكله الديني والسياسي بل في شكله الاجتماعي . فكل المسائل ، حتى تلك التي ترتدي مظهرا سياسيا أو دينيا ، لها بالفعل طابع اجتماعي . هذا جلي بالنسبة للمسائل السياسية . أما المسائل الدينية ، فلا يستطيع البقاء على الاعتقاد بأنها مسألة دين فقط سوى رجل لاهوت ( ٢ ) . لهذا ، يقول ماركس ، هو اعتبر ، في مقاله في **الحوليات الفرنسية - الألمانية** ، اليهودي لا تحت هيئته الدينية ، كمؤمن ، بل تحت هيئته الاجتماعية كعضو في المجتمع البرجوازي ، وعرف موقعه في هذا المجتمع . فقط بعد اخراجه اليهودي من لباسه الديني وتبيان ما هو واقعه الاجتماعي ، استطاع ان يصل الى حل واقعي للمسألة اليهودية . هذه المسألة تتطابق في الهوية مع المسألة الاجتماعية منظورا اليها في هيئتها الاعم . لما كان العالم الحديث ، العالم الرأسمالي ، قد انطبع بالروح اليهودية المتميزة بروح الكسب ، فان انعتاق اليهود يتطابق في الهوية مع انعتاق المجتمع الحديث ، المجتمع البرجوازي ، من اليهودية ، أي من نمط حياة لا

( ١ ) ص ٢٦٧ .

( ٢ ) ص ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

انساني طابعه هيمنة المال (١) .

معتبرا اليهودي في هيئته الدينية وليس في هيئته الاجتماعية ، ب. باور لم ير انه ، مثل المسيحي ، متولد دائما ، فيما يتصل بلامحه الجوهرية ، من المجتمع البرجوازي ، لذا لم يستطع اعطاء حل صحيح لا للمسألة اليهودية ولا للمسألة الاعم ، مسألة الانعتاق الانساني (٢) .

غير متصور انعتاق اليهود في شكله الحقيقي ، في شكله الاجتماعي ، بوصفه انعتاق اليهود من اليهودية الواقعية ، أي من الرأسمالية ، انه يقصر انعتاق اليهود على الانعتاق السياسي ، الذي لا يميز من قبله عن الانعتاق الحقيقي ، عن الانعتاق الانساني . بما انه يعتبر ان دولة محررة من الوصاية الدينية هي وحدها قادرة على أن تعتق سياسيا ، فانه ينكر هذه القدرة بالنسبة للدولة البروسية ، التي يضعها بوصفها دولة مسيحية في معارضة الدولة الدستورية الحديثة ، التي ، بما أنها على حد قوله قد ألغت كل الامتيازات بما في ذلك الامتياز الديني ، تستطيع هي وحدها أن تمنح الانعتاق السياسي ، دون أن يرى ان هذه الدولة ليس فقط لم تلغ الامتيازات بل عززتها وانها بالتعارض الذي قام بينها وبين المجتمع هي الدولة المسيحية الحقيقية (٣) .

الدولة الحديثة ولدت من اشتداد التعارض بين المجتمع البرجوازي ، دائرة المصالح الخاصة ، الذي تكون بتطور الصناعة والتجارة المحررتين من جميع قيود هيئات الحرف ، والدولة دائرة المصالح العامة . ان هذا الانفصال الكامل بين المجتمع والدولة هو الذي يجعل الدولة الحديثة الدولة المسيحية حقا ، فيه فقط تستطيع هذه الدولة الحديثة ان تلعب ازاء المجتمع بوصفها تجسيدا وهما للمصالح العامة الدور الذي تلعبه السماء ، في الدين ، ازاء الارض ، بحيث أن الدولة المسيحية الحقيقية ، الدولة التي تخدم كأساس واقعي للدين والتي الدين انعكاسها حقا ، هي لا كما يفكر ب. باور الدولة الرجعية البروسية بل الدولة الحديثة المنعقدة تماما من وصاية الدين .

رغم تعارضهما ، تعارضا هو بالواقع ظاهري أكثر منه واقعي ، الدولة السياسية

(١) ص ٢٨٣ .

(٢) ص ٢٨٢ .

(٣) ص ٢٩١ . « كما ان النشاط الصناعي لم يحذف بالفاء امتيازات الحرف والحرفين والهيئات وان الصناعة لم تبدأ تتطور حقا الا بعد حذف هذه الامتيازات ، كما ان الملكية العقارية لم تحذف بالفاء الملكية العقارية ذات الامتياز ولم تبدأ ، بالعكس ، تتطور تماما الا مع حذف هذه الامتيازات واقامة حرية التجزئة والبيع الكاملة ، كما ان التجارة لم تحذف بالفاء الامتيازات التجارية بل بالعكس لم تنفتح الا مع حرية التجارة ، كذلك فان الدين لا ينسبط ويتطور في كل امتلاته ( ونفكر بالولايات المتحدة الاميركية ) الا حيث لم يعد يوجد دين ذو امتياز . » انظر ايضا ص ٢٩٢ .

والمجتمع البرجوازي لهما علاقات وثيقة فيما بينهما . ان تحرر كل الروابط الاقتصادية والاجتماعية بانفلات المراحة قد ولّد فوضى عامة ، تؤلف السمة الاساسية للمجتمع البرجوازي (١) . تحت هذا الظاهر ، ظاهر الفوضى والحرية الكاملة والاستقلال الكامل للأفراد المحرّرين من كل قيد ، يحكم ، بالواقع ، في المجتمع البرجوازي ، من جراء هيمنة الملكية الخاصة ، اكبر عبودية وأكمل لانسانية (٢) .

رغم كونها في الظاهر معارضة تماما للمجتمع البرجوازي ، الدولة السياسية لها بالواقع كوظيفة أولية ضمان النظام الاجتماعي البرجوازي . الحرية ، التي تؤلف جوهر هذه الدولة ، ليست شيئا آخر سوى الانعكاس الايديولوجي للفوضى ، منجبة للانسانية ، التي هي طابع المجتمع البرجوازي ، بحيث أن الدولة السياسية والمجتمع البرجوازي ، رغم تعارضهما الظاهر ، يحدد ويكمل كل منهما الآخر (٣) .

في المجتمع البرجوازي ، ليست حرية الافراد سوى انفلات العناصر المنخلعة لحياتهم : الملكية ، التجارة ، الصناعة ، التي صارت مستقلة عنهم والتي يخلطونها مع حريتهم ذاتها ، ان هذه الحرية هي التي تؤلف أساس الدولة السياسية وهي التي تتركسها هذه الدولة .

هذا الطابع الاساسي للمجتمع البرجوازي وللدولة الحديثة هو الذي يوافقه

(١) ص ٢٩١ . « الصناعة الحرة والتجارة الحرة ، بحذفهما الانزال الذي كان يبقى فيه ذو الامتياز وتصاراتهم ، قد أحلتا محل الانسان ذي الامتياز الانسان المحرر تماما ... الذي لم يعد معلقا بالبشر الاخرين حتى يظهر رابطة جماعية ، واثارتا بذلك صراعا عاما بين كل البشر . المجتمع البرجوازي ليس الا تعبير هذه الحرب بين الافراد الذين لم يعودوا يختلفون بعضهم عن بعض الا بفردياتهم ، ليس الا انفلات القوى الابتدائية المحررة من عوائق الامتيازات . »

(٢) ص ص ٢٩١ - ٢٩٢ . « الرق الواقعي للمجتمع البرجوازي يرتدي مظهر اكبر حرية ، لأن الفرد ، المستقل تماما في الظاهر ، يأخذ انفلات عناصره الحيوية ، المحررة من كل عائق والتي ليست الا تعبير انخلاعه ، يأخذه على أنه تجلي حريته الخاصة ، حريته هو ، في حين انه ليس الا تعبير عبوديته الكاملة ولا انسانيته المطلقة . »

(٣) ص ص ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٨٨ . « ان ما يكون قاعدة ... الدولة الحديثة ليس ، كما يفكر النقد ، مجتمع الامتيازات ، بل مجتمع الامتيازات اللغاة ، المجتمع البرجوازي البسوط . الفوضى هي قانون المجتمع البرجوازي المحرر من الامتيازات ، هذه الفوضى هي قاعدة الدولة anarchie الحديثة التي من جهتها تضمنها . هكذا ، رغم تعارضهما ، الدولة والمجتمع البرجوازي يقرر ويحدد كل منهما الآخر ... لقد بين ان الاعتراف بحقوق الانسان من قبل الدولة الحديثة ليس له معنى آخر غير الاعتراف بالرق من قبل الدولة القديمة . ان قاعدة الدولة القديمة كانت الرق ، وقاعدة الدولة الحديثة هي المجتمع البرجوازي ، انسان المجتمع البرجوازي ، الانسان المستقل الذي تربطه المصلحة الخاصة والفروقات الطبيعية وحدها بالبشر الاخرين ، عبد العمل النفهي ، عبد حاجاته الانانية وحاجات البشر الاخرين الانانية . هذه القاعدة الطبيعية ، الدولة الحديثة اعترفت بها باصدارها حقوق الانسان . »

الانعتاق السياسي ، الذي ليس ، كما تبين ذلك حقوق الانسان ، سوى الاعتراف بحقوق الفرد الاناني . الدولة الحديثة ليس فقط تستطيع أن تعتق اليهود بوصفهم أعضاء في المجتمع البرجوازي بل هي اعتقتهم فعلا (١) .

حين يطالب اليهودي بتحرره السياسي مع زعمه المحافظة على دينه ، وهما أمران يبدوان متناقضين لبرونو باور ، فانه لا يضع شروطا لا تتفق مع تحرره السياسي . ان انفصال الإنسان الى مواطن محرر من الوصاية الدينية والى انسان خاص دين لا يسير ، بالفعل ، ابداً ضد تحرره السياسي . كما ان الدولة تعتق من الدين بكفها عن الاعتراف بدين للدولة مع تركها الدين يبقى كدين ، فان الفرد يتحرر سياسيا بأن لا يعتبر دينه بعد الان قضية عامة بل قضية خاصة .

ان الانعتاق السياسي ، الذي ، بعيدا عن تحرير الانسان من الانخلاعات التي تنزع انسانيته ، يعزز هذه الانخلاعات ، هو عكس الانعتاق الحقيقي ، الانعتاق الانساني ، الذي يشترط الفاء الملكية الخاصة الفاء كاملا والذي لن يتحقق الا بالشيوعية .

## ٧ . « أسرار باريس »

الجزء الاكبر وان ليس الاهم من العائلة المقدسة مكرس لرواية أوجين سو Eugène Sue : أسرار باريس (٢) .

كان أوجين سو كاتباً ذا لون اشتراكي ، كان ، مستفيداً من الاهتمام المتعاظم الذي كانت تثيره آنذاك المسألة الاجتماعية ، يعالجها على نمط عاطفي ، كفيل بآثاره شفقة النفوس الحساسة على بؤس الناس الفقراء دون اقلاقها مع ذلك بذكر نضالات ثورية . الامر الجديد عنده انه كان ، بخلاف كتاب آخرين مثل Balzac و جورج ساند Georges Sand كانوا ايضا يعالجون المسألة الاجتماعية ، كان يصف ، وان تحت شكل ممثل ، شروط حياة الشعب .

أسرار باريس (٣) صدرت أولاً في حلقات سلسلة في اكبر جريدة آنذاك وهي جريدة المناظرات Journal des Débats . وقد نالت نجاحاً هائلاً ، ليس فقط في فرنسا ، بل أيضاً خارجها ، لاسيما في ألمانيا ، حيث صدرت ترجمات وتقليدات

(١) ص ٢٨٨ .

(٢) ص ص ٢٢٥ - ٢٤٩ ، الفصل الخامس ، النقد النقدي في دور بائنة أسرار او النقد النقدي في ملامح السيد شيليفا ، ص ص ٣٢٩ - ٢٨٧ ، الفصل الثامن ، الحياة الارضية والتجلي الرباني للنقد النقدي او النقد النقدي في ملامح رودولف ، امير جيرولشتاين .

(٣) انظر أوجين سو : أسرار باريس ( ٤ مجلدات ) ، بروكسل ١٨٤٣ .

عديدة (١) .

مستندا على خياله الفياض ومضاربا على ذوق الجمهور المحب للغريب والفظيع ، كان Sue ، في روايته التي كانت تتمدد في حلقات لا تنتهي ، يسوق القارئ في الاحياء المظلمة حيث الرذيلة والجريمة ليجمعه يصل اخيرا الى دائرة فيها تهيمن الفضيلة .

من أجل فهم نقد ماركس ، يمكن تلخيص هذه الرواية على النحو التالي . بعد أن تزوج في السر من شابة محبة للدسائس ، هي الأنسة ساره سيتون Miss Sarah Seyton ، رودولف Rodolphe ، أمير جيرولشتاين ، يقطع الصلة معها لأنها خانته ، ويطوف العالم ، مكرسا حياته من الآن فصاعدا لمعاقبة الاشرار . ومكافأة الاخيار ونجدة البؤساء ومداواة الادواء التي تعذب البشرية . خلال رحلة في فلوريدا ، ينتزع خلاسية ، اسمها سيسيلي Cecily ، من أيدي غارس ظالم ، ويجعلها تتزوج طبيبته . وتعيش سيسيلي حياة منحلة فيجعلها تحبس في بيت للإصلاح . ثم يرحل الى باريس ، حيث كانت ساره سيتون قد تخلصت ، بمساعدة كاتب بالعدل سافل ، اسمه جول فران Jules Ferrand ، من الطفل الذي أنجبته من رودولف . أثناء زهرة في حي ساقط ، رودولف يتنطع للدفاع عن مومس شابة ، اسمها Fleur de Marie أي زهرة - مريم ، كان يقسو عليها حاميتها واسمه le Chourineur أي القاتل بالسكين . اذ يعلم انها ابنته ، يقرر رفعها ويسلم تربيتها لكاهن . في الوقت نفسه يأخذ في خدمته القاتل بالسكين ، الذي يحميه ضد اثنين من الاشقياء ، هما « أستاذ المدرسة » و « البومة » . ثم يعاقب كاتب العدل فران ، المسؤول عن سقوط زهرة مريم ، مرغما اياه على تكريس ثروته لأعمال خيرية . مساقاة على يد الكاهن الى التوبة والتكفير ، زهرة مريم تدخل في دير حيث تموت . هذه الرواية كانت منذ صدورها موضع عدد لا بأس به من الكتابات النقدية في ألمانيا .

في مقال نشر في مجلة برلين الشهيرة (٢) ، كان شترنر Stinner يؤكد ان

(١) الترجمة الالمانية الصادرة في لايتسيف ، عند فيغان ، بلغت ١١ طبعة . انظر : اسرار برلين ، تاليف اوغست براس ( ٥ مجلدات ) ١٨٤٤ - ١٨٤٥ . اسرار برلين تأليف ل. شويارت ( ١٢ جزء ) ١٨٤٤ - ١٨٤٧ . اسرار برلين ، استنادا الى اوراق مؤلف امن في برلين ( مجلد واحد ، برلين ، ١٨٤٤ ) . ان مشاريع الإصلاح الاجتماعي لا سو كانت موضع اهتمام كبير لدرجة ان سيدة برلينية غنية عرضت مبلغا كبيرا لتحقيقها .

( ٢ ) رواية سو لم تفقد كل شعبيتها في القرن العشرين ، حيث نالت طبعة او طبعات و ... فيلما سينمائيا ) .

(٢) مجلة برلين الشهيرة ، ص ٣٠٢ - ٣٣٢ . اسرار باريس ( م . شميدت ) . انظر الفصل الاول من هذا المجلد .

المسيحية ، التي يقترحها سو علاجا للشروع الاجتماعية ، لا تفعل في الواقع سوى زيادة خطورتها . كان يبين ذلك بمثال زهرة مريم التي صارت ، تحت تأثير الكاهن المكلف بتربيتها ، فريسة الندم وانقطعت عن الحياة بدخولها الدير . كان ينقد أيضا مشاريع سو في الإصلاح الاجتماعي ، دون ، على كل حال ، ان يذكر هو كيف يجب ان تحل المسألة الاجتماعية (١) .

ان كاتباً آخر من الهيفيلين - الشبان ، اقل شهرة بكثير ، شيليفا Szeliga ، نشر في **الصحيفة العامة الادبية** تقريراً طويلاً عن **أسرار باريس** (٢) ، التي كان يرى فيها كشف أسرار المجتمع ومعه حل المسألة الاجتماعية (٣) .

في تحليل دقيق يمتد على ٨٠ صفحة ويظهر أطول على أساس ان لا رواية سو ولا نقد شيليفا كان يسوّغ هذا الاتساع ، يسخر ماركس من هوس شيليفا في تحويل أشد السوقيات ابتذالا الى أسرار ويفضح في الوقت نفسه عدم هذه الرواية التي كانت تحت قشور انسانية زائفة تستلهم أحط الاخلاق البرجوازية (٤) .

شيليفا يجعل من رودولف ، وجه الرواية المركزي ، ممثلاً للنقد النقدي بالغ الاستحقاق . رسالته ، كرسالة **النقد النقدي** ، كشف جوهر أسرار . السر الاول الذي يصطدم به هو سر انحطاط المجتمع الذي يتظاهر بالتعارض الذي قام بين الاغنياء والفقراء والذي مرده ، يقول شيليفا ، ان الاغنياء لا يظهرون اي تفهم للبؤس (٥) .

هذا الفهم ، يجيبه ماركس ، بعيد عن ان ينقصهم . ان ممثليهم الجديرين على الصعيد العلمي ، وهم الاقتصاديون ، قد حللوا تماماً أسباب البؤس ، ولكنهم لم يقترحوا له أي دواء ، فالبؤس نسخة سجل محتومة للثروة (٦) .

الامر كذلك بالنسبة للجريمة والمجرمين . اذا كان رودولف يجب ان يغواط المجتمع فلكي يكتشف أسباب الشر والجريمة ، هكذا يفكر شيليفا . ذلك تصور مبسّط تماماً ، يعترض ماركس . ان هذه الاغواط تؤلف الوسط الاجتماعي الطبيعي للمجرم كما العشب جزء لا يتجزأ من حياة العصفور (٧) ، الجرائم والمجرمون ليس لها أسباب خفية سرية ، بل ينجمها النظام الاجتماعي وتعاقبها عدالة طبقية مخصصة

(١) المرجع نفسه ، صص ٣٢٩ - ٣٣٢ .

(٢) ص. ١. ع ، **الدفت السابع** ، حزيران ١٨٤٤ ، صص ٨ - ٤٨ . شيليفا : **أوجين سو : اسرار باريس** . عن شيليفا انظر الفصل الاول من هذا المجلد .

(٣) ص. ١. ع ، **الدفت السابع** ، حزيران ١٨٤٤ ، صص ٨ - ٤٨ . شيليفا : **أوجين سو : اسرار**

(٤) ميفا ، ١ ، ٣ ، صص ٢٢٤ - ٢٢٥ ، ٣٤٠ .

(٥) المرجع نفسه ، صص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٦) ص ٢٢٦ .

(٧) ص ٢٢٧ .

لحماية هذا النظام ضد كل تعد .

رغم ان العدالة هي مبدئيا متساوية للجميع ، فان الفقراء والاغنياء يعاملون بالواقع معاملة بالغة التفاوت ، اذ ان العدالة تبدي الرحمة للاغنياء بقدر ما تبدي القسوة مع الفقراء (١) .

ان التفاوت الاجتماعي ، الذي هو سمة المجتمع البرجوازي ، يتجلى بشكل خاص في القدر المفروض على النساء وبصورة رئيسية النساء الفقيرات في هذا المجتمع (٢) . مستلهما فوريه Fourier ، ماركس يقول ان عصرا من العصور يتميز بحالة المرأة في المجتمع وان درجة انعتاق المرأة تسم درجة الانعتاق الانساني في هذا المجتمع (٣) .

ان انخاس المرأة في المجتمع البرجوازي يرافقه اللؤم الخاص بهذا المجتمع ، اللؤم الذي يدفع كل اعضائه ولاسيما النساء الى تقنيع طبيعتهم الحققة . هذا يظهر عند جميع أشخاص الرواية من النساء ، لاسيما عند ريفوليت Rigolette وزهرة مريم . ريفوليت ( المازحة ) شابة مرحة لطيفة مقادة الى اخفاء طبيعتها المندفعة البسيطة لتكيف سلوكها مع السلوك اللئيم للبرجوازيات (٤) . ويحصل تقنيع مماثل عند زهرة مريم . بينما في الاغواط التي كانت تعيش فيها ، كانت قد احتفظت بسجية قوية وفرحة ، فان الكاهن الذي تسلمها من رودولف من أجل رفعها يدمر هذه السجية جاعلا منها آثمة تائبة . بتحويله خطئها الذي لم تكن تعيه الى جريمة ضد الله ، يجعل الكاهن شعور سقوطها امرا لا يطاق ولا علاج له . بينما في نزعتها الاولى مع رودولف كانت ما تزال تظهر مليئة بالمرح والحياة ، معبرة عن كل الفرح الذي يولده فيها جمال الطبيعة ، فانها سرعان ما تعتبر كل مسرات الحياة اشياء دنيوية وبذلك عينه مذنبه وما تعذب نفسها لتصبح جديرة بالنعمة الربانية . ما ان ينفرس عار الخطيئة في نفسها حتى تغدو فريسة الندم والحاجة الى التكفير . واذا تشكو للكاهن كون حياتها تحولت هكذا الى عذاب الشهداء ، يجيبها ان عليها ان تعتبر نفسها سعيدة بالنعمة التي اسبغها الله عليها بان فتح لها طريق الخلاص . وهي لا تتحرر من شعور الذنب الا بتخليها نهائيا عن العالم وانسحابها الى دير حيث تموت (٥) . « ما ان يكون الانسان قد فهم ان اخطاءه هي جرائم لا حد لها ضد الله ،

(١) ص ٢٢٦ .

(٢) ص ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

(٣) ص ٣٧٤ . « يمكن ان نحدد التغيرات الحاصلة في طور تاريخي بعلاقات المرأة ازاء الحرية ، لانه بعلاقات المرأة ازاء الرجل ، الضعيف ازاء القوي ، يقاس على النحو الافضل انتصار الطبيعة البشرية على البهيمية . ان درجة انعتاق المرأة يؤلف المقياس الطبيعي للانعتاق الانساني . »

(٤) ص ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٥) ص ص ٢٤٦ - ٢٥٤ ، زهرة مريم .

حتى لا يكون بوسعه ان يؤمن **النعمة والخلاص** الا بان يعطي نفسه **بالتكامل** لله ، بأن يموت **بالتكامل** بالنسبة للعالم والمشاكل الأرضية . ما ان فهمت زهرة مريم انها بمعجزة **الهية** انتزعت من وضعها الانساني حتى اضطرت الى أن تتحول الى **قديسة** لكي تكون جديرة **بمعجزة** كهذه . بات على حبها الانساني أن يخلي المكان للحب الديني ، على رغبتها في سعادة أرضية أن تخلي المكان للسعادة الابدية ، على رضاها الديني أن يخلي المكان للرجاء المقدس ، على تواصلها مع البشر أن يخلي المكان للمناولة مع الله . الله يجب أن يأخذها بكاملها . وهي تكشف لنا بنفسها السبب الذي يمنع الله من ذلك . انها بعد لم **تعط** ذاتها **كاملة** له ، قلبها ما يزال مفرما بأشياء أرضية . ولكن هذا اخر نفضة لسجيتها . وهي تعطي نفسها تماما لله بموتها للعالم ودخولها **الدير** (١) . »

هكذا يفضي رودولف ، بمنهجه في التربية ، الى أن يجعل من خاطئة بريئة مسروقة بالحياة ثابتة لا تجد طريقا اخر للخلاص سوى الانقطاع عن العالم . وهذا من جهة أخرى يؤلف عنده منظومة فداء حقيقية . هكذا يدرّب « السكاكنجي » كما تدرب الكلاب ويجعل من هذا الذي كان في الامس القريب جزارا متوحشا خادما مطيعا وجلا ، مرنا مثل كلب صغير أمين أمام سيده (٢) .

تجاه « استاذ المدرسة » ، وهو رجل ذو قوة هرقلية صار مجرما ، يستعمل وسيلة تقويم أكثر جذرية ، يعميه ويلقي عليه في الحبس خطابات طويلة ليسوقه الى الندم (٣) . هذه الطريقة في التقويم التي تضيف الى عقاب العدالة التعذيب المعنوي (٤) يطبقها بدوره « استاذ المدرسة » . بعد أن أعمى « البومة » ، لخيانته

(١) ص ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٢) ص ص ٢٤١ - ٢٤٣ .

(٤) ص ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ . « ان ما يزعج رودولف في القمع الديني هو الانتقال السريع من

(٣) ص ص ٣٥٤ - ٣٥٨ .

المحكمة الى المقصلة . فهو يريد بالمعكس ان يكون انتقام المجتمع النازل بالمجرم مصحوبا بندم المجرم وتبكت ضميره . يريد ان يجمع العقاب الجسدي والعقاب المعنوي ، التعذيب الفيزيائي مع تعذيب الندامة اللامادي . يجب ان يكون العقاب الديني في الوقت نفسه وسيلة للتربية مسيحية واخلاقية .... فصل الانسان عن العالم الخارجي ، حبسه في قرارته الداخلية المجردة ، اعمائه ، من اجل اصلاحه ، تلك نتيجة ضرورية للمذهب المسيحي الذي يرى أن الخير قائم في التحقيق الكامل لهذا الانفصال ، في هذا التقصص المطلق للانسان الى اناه الروحي . لئن كان رودولف لا يذهب ، على غرار ما كان يجري في بيزنطية وفي امبراطورية الافرنج ، الى درجة حبس استاذ المدرسة في دير واقعي ، فانه على الاقل يحبسه في دير مثالي ، في دير ليل سميك لا ياتي اليه في يوم من الايام نور العالم الخارجي ، في دير الوعي - الوجدان غير الفاعل وشعور الاخطاء المرتكبة الذي لا تسكنه سوى ذكريات شجية ... انه ( رودولف ) يريد ان يعلمه ان يصلي . هذا اللص ذو القوة الهرقلية ، يريد ان يحوله الى راهب لئلا يكون له من عمل سوى الصلاة . كم اكثر انسانية ، بالمقارنة مع هذه القسوة المسيحية ، نظرية



له ، يلقي عليه خطابات طويلة تصف له الحياة التي باتت تنتظره في الظلمات (١) .  
هذه الطريقة ، التي اذ توحد في ذاتها العقاب الجسدي مع أسلوب الاصلاح  
المسيحي بتبكيك الضمير والندم هي اشد لانسانية من الطريقة العادية في معاقبة  
المجرمين ، تجد تطبيقها الكامل في الكيفية التي بها تعاقب الخلاسية سيسيلسي .  
تحبس في سجن انفرادي لا يترك للمجرم ، بالانعزال المطلق الذي يفرضه عليه ، مصيرا  
آخر سوى الجنون (٢) .

في معارضة هذه الطريقة في العقاب التي تترجم عن كل لانسانية المجتمع  
البرجوازي (٣) ، ماركس يضع طريقة اكثر انسانية بموجها يقرر المذنب بنفسه  
العقاب الذي يستحق . هذه الطريقة ، التي سبق ان اقترحها هيفل لا يمكن ان  
تحقق الا في مجتمع اشتراكي ، حيث لن يرى المذنب في البشر الاخرين كائنات مكلفة  
بمعاقبته بل بالعكس سيري فيهم كائنات مستعدة لمساعدته على النهوض (٤) .  
ان النشاط الاجتماعي لرودولف يتجلى ايضا في مشاريع اصلاحات : تربية  
الاولاد الفقراء من قبل الدولة ، تنظيم الشغل .

أخذا من جديد الحاجة التي كان قد اعتمدها ضد روجه ، ماركس يبين أن  
تربية الاولاد الفقراء على يد الدولة يتعادل عمليا مع حذف البروليتاريا وبذلك عينه

→

العقاب العادية التي تكتفي بقطع راس الانسان الذي تريد اعدامه ! من البدهي اخيرا ان التشريع البتذل  
قد اظهر ، في كل مرة اراد فيها اصلاح المجرمين ، ذكاء اكبر بكثير وانسانية اكبر بكثير من هاروننا  
الرشيد الالاني ... كما ان رودولف يقتل شخصية زهرة مريم بتسليمها للخوري وتبكيك الضمير ، كما  
يقتل شخصية الجزار بنزع كل طابع انساني عنه وبانزاله الى مرتبة كلب ، كذلك يقتل شخصية استاذ  
المدرسة بفقاع عينيه ليتعلم الصلاة .

(١) ص ص ٣٦١ - ٣٦٢ . « يصف استاذ المدرسة بشكل دقيق حالة الانسان المعزول عن العالم  
الخارجي . الانسان الذي بالنسبة اليه يتحول العالم الحسي الى محض فكرة يرى بالمقابل الافكار تتحول  
بالنسبة له الى كائنات حسية . تتخذ هذيانا دماغه اشكالا مادية . يخلق في روحه عالما من اشباح  
يقبض عليها ويلمسها . هذا هو سر كل الرؤى الثقية وهو ايضا الشكل العام للجنون . استاذ المدرسة  
الذي يردد جمل رودولف من قوة الندامة والتفكير الوحيدين مع اعمال تعذيب وحشية يفعل ذلك في حالة  
نصف - جنون ويثبت بذلك العلاقات الوثيقة الموجودة بين وعي ( وجدان ) الغبيظة المسيحي والجنون .  
كذلك حين يؤكد ان التبكيك والتكفير يحولان الحياة الى ليل طويل مليء بالهذيان ، فهو يعرض سر  
النقد النقدي واسلوب الاصلاح المسيحي الذي قوامه بالتحديد جعل الانسان شعبا وتحويل حياته الى  
حياة منام . »

(٢) ص ٣٦٢ .

(٣) ص ٣٦٥ .

(٤) ص ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٥) ص ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

مع إلغاء المجتمع البرجوازي . والامر كذلك بالنسبة لتنظيم الشغل الذي لا يمكن ان يتحقق الا بالشيوعية (١) .

واعطا بالمثال ، رودولف يقيم نفسه رائدا لمشروعين ، مصرف للفقراء ومزرعة نموذجية ، غرضهما تخفيف البؤس وهكذا مصالحة الفقراء مع الاغنياء . هدف بنك الفقراء مساعدة العاطلين عن العمل . دخله السنوي ١٢٠.٠٠ فرنك ، وهو يمنح العاطلين عن العمل قروضا تتراوح بين ٢٠ و ٤٠ فرنكا ، تسدد ابتداء من اللحظة التي فيها يجد المستدين عملا . ماركس يلاحظ أولا بأول ان تواضع دخوله لا يسمح للمصرف بأن يتجدد اكثر من ٤٠٠ عامل في السنة ، اي عشر العمال العاطلين في دائرة واحدة من دوائر مدينة باريس . من جهة أخرى ، مع القرض الممنوح للعاطل ، لا يكون بتصرفه سوى ٢٧ سنتيما في اليوم له ولاسرته ، أي نصف المبلغ الذي تخصصه الدولة لاعالة سجين واحد . أخيرا بفرضها على العامل ان يسدد المال المقدم له ، الدولة تحكم عليه بأسوأ حالات البؤس عندما يجد عملا (٢) .

لئن كان بنك الفقراء يبدو بخيلا حريصا على دراهمه ، فان مزرعة بوكفال النموذجية ترتكب الذنب المعاكس ، ذنب كرم مفرط ، اذ ان العمال الزراعيين يتقاضون فيها أجرا يعادل اربعة امثال الاجر الطبيعي . بالمقابل عليهم ان ينجزوا عملا يعادل مثلي عمل الفلاح المتوسط الفرنسي . بما أن هذا الاخير بالغ الاجتهاد ، فان عمال بوكفال الزراعيين يجب ان يكونوا أبطال رياضة كي ينجزوا مهمتهم ، وهذا ما يفسر أطباق اللحم الكبيرة التي تقدم لهم (٣) .

بعيدا عن أن تكون ، كما يفكر شيليفا ، ملحمة عن رفع البشرية ، ليست أسرار باريس سوى رواية لا طعم لها ، هدفها الجوهرى خدمة المصالح الطبقيّة للبرجوازية بالتجاوز على القاريء بمساعدة نزعة عاطفية من طراز واطيء .

بعيدا تماما عن ارادة حذف الاسباب الواقعية للبؤس والجريمة حذفنا فعليا بالتعرض للنظام القائم ، رودولف لا يفكر سوى بتوطيد هذا النظام . فهو ، تحت مظاهر قاض يقيم العدل ويعمل لخير البشر ، لا يسترشد الا بأنانية طبقية يخفيها تحت قشرة من الفضيلة (٤) . عاهلا مستبدا صغيرا ، مسرورا بالدور السهل ، دور رافع للضمير ومنقذ هبط من السماء ، انه نموذج الاناني الذي يمتص بلده الصغير

(١) ص ٢٧٥ . « أخيرا على الدولة ان تهتم بمسألة تنظيم الشغل الهائلة . عليها ان تعطي المثال المنقذ ، مثال اشتراك الرساميل والشغل ، مثال اشتراك نظيف ، ذكي ، عادل ، يؤمن رفاه العامل دون المساس بثروة الفني ، يقيم بين هاتين الطبقتين روابط ود واعتراف بالجميل ، وهكذا يفهم الى الابد طمأنينة الدولة . »

(٢) ص ص ٢٧٦ - ٢٧٨ .

(٣) ص ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٤) ص ص ٢٧٩ - ٢٨٧ : رودولف : كشف سر كل الاسرار .

وكانه خفّاش ، ولا يهتم بالمجرمين الا لانهم يعطونه وعي امتياز طبيعته وفرصة الترويح عن النفس (١) . انه يكشف بكل سلوكه وبكل افعاله طبيعته الحقيقية التي هي طبيعة المجتمع الذي عنه هو يدافع . فنظامه للانهاض كما للعقاب يتميز بلا انسانيته . انه لا ينتزع زهرة مريم من برائن الجزار الا كي يسلمها للكاهن الذي يكتب لها الموت بالندم والتوبة ، وهو في العقوبات التي ينزلها بأستاذ المدرسة وبسيسيلي يشدد العقاب الجسدي بالعذاب المعنوي .

من جهة اخرى ، في مشاريعه للاصلاح الاجتماعي ، انه لا يرمي الى تحويل واقعي للمجتمع ، اذ انه لا يريد ابدا المساس بالملكية الخاصة ، التي يعتبرها مقدسة ، والاصلاحات التي يقترحها لا تستهدف في الواقع سوى توطيد النظام القائم بكسبه له هؤلاء الذين هم ضحاياه .

### مدى واعداد « العائلة المقدسة »

بعد ان كان قد عرّف في مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة الملامح الاساسية للمادية الجدلية والتاريخية ، كان ماركس يوضح في العائلة المقدسة مبادئ المادية التاريخية بتحليل المسائل الفلسفية والاجتماعية والسياسية .

في نقد جديد للفلسفة النظرانية ، يسترجع من حيث الجوهر النقد الحاصل في مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة ، كان يبين أن هذه الفلسفة قد دفعت الى حدها الاقصى من قبل النقد النقدي ، من جراء الانفصال الجذري الذي كان يجريه بين التطور الروحي والتطور التاريخي . من هنا ينتج عجزه عن فهم الطبيعة الحقيقية للمسائل التي يعالجها وعن اعطائها حلا صحيحا .

معلا ، بعكس هذا النقد ، الثورة الفرنسية بالجهد التحرري للبرجوازية ، التي كانت تدافع ، باسم مبادئ الحرية والمساواة والاخاء ، لا عن مصالح الشعب العامة بل عن مصالحها الطبقية ، ماركس يبين ان فشل الارهاب ونابوليون يأتي من كون سياستهما تذهب في النهاية ضد مصالح البرجوازية ، وأن هذه البرجوازية ، بوصولها نهائيا الى السلطة بثورة ١٨٣٠ ، قد خلقت شكلا للدولة يتفق مع مصالحها الطبقية وهي الان تستخدم السلطة بشكل واع للدفاع عن هذه المصالح .

معلا ، بموجب المبادئ نفسها ، تشكل المادية الانكليزية والفرنسية بالتطور الاقتصادي والاجتماعي لانكلترا وفرنسا ، يشدد على ان الاتجاهين العلمي والاجتماعي لهذه المادية يأتيان من التطور الصناعي ومن نهوض البرجوازية ، التي تصير ، مع صيرها مناهضة للاقطاعية والحكم المطلق ، مناهضة للدين والميتافيزياء ، وعلى ان هذا الاتجاه الثوري قد ولّد نظرية الحق الطبيعي التي مالها المنطقي هو

(١) ص ص ٢٨١ - ٢٨٤ .

الاشتراكية ، وعلى أن حدود هذه المادية مردها عين حدود الايدولوجيا البرجوازية .  
مبرزا ، في تحليله للمذهب برودون ، الطابع الثوري لنقده للاقتصاد السياسي ،  
يبين أن عجزه عن دفع هذا النقد ومعه نقد النظام الرأسمالي الى النهاية يأتي من كونه  
لا يستهدف التدمير الكامل للملكية الخاصة ، التي يسوّغها في شكل الحياة ، وهذا  
يعمل عجزه عن اعطاء حل صالح للمسألة الاجتماعية .

الدراسة الجديدة للمسألة اليهودية تتيح له أن يبين ، بتحليل أكثر تعمقا  
للدولة السياسية وللمجتمع البرجوازي ، مع الطابع الطبقي للدولة البرجوازية ،  
العيب العميق للانعتاق السياسي ، الذي ، بعيدا عن الغاء نزع الانسانية الناجم عن  
النظام الرأسمالي ، يوطده .

أخيرا ، تحليل رواية أسرار باريس يقوده الى أن يؤكد ، مع تأكيد زيف  
التصورات الاجتماعية للنقد النقدي ، زيف الاصلاحات التي يقترحها سو .

ان الرؤيات الجديدة التي كان ماركس وانجلز يصلان اليها في **العائلة المقدسة**  
والتي كانت تعطي ركيزة امتن لتصورهما المادي التاريخي تبين أهمية هذا العمل في  
تطور فكرهما ، ونفهم انهما ، في طور لاحق ، في وقت كانا فيه قد انضجا بشكل كامل  
مذهبهما ، استطاعا أن يتحدثا عن **العائلة المقدسة** بوصفها عملا ليس عليهما أن يخجلا  
منه (١) .

**العائلة المقدسة** حرّرت بسرعة . في نهاية نوفمبر - تشرين الثاني ١٨٤٤ كان  
الكتاب ناجزا . عنوانه الاصلي ، **نقد النقد النقدي** ، حوّل ، بناء على نصيحة الناشر  
لفنتال ، الى عنوان رديف ، وأخذت محله كعنوان أساسي أول صيغة أكثر لفتنا  
للاتنباه ، **العائلة المقدسة** ، وهي التسمية التي كان يطلقها ماركس وانجلز على  
ب. باور وأصدقائه الذين كانوا ، بعد تأليفهم الوعي الكلي ، قد قدّسوا أنفسهم  
بوصفهم تجسيدا لهذا الوعي وبذلك تحولوا الى عائلة مقدسة (٢) .  
ماركس كان في البداية يريد اصدار الكتاب عند فروبل (٣) . ولكن ، من جهة ،

(١) ميغا ، ١١١ ، ٢ ، ص ٢٨٢ . رسالة ماركس الى انجلز ، هانوفر ، ١٨٦٧/٤/٢٤ : « لقد  
دهشت وسرت لرؤيتي انه ليس علينا أن نخجل من هذا العمل ( العائلة المقدسة - ا.ل. ) ، رغم ان  
التكريم الذي تقدمه فيه لفويرباخ يعطي الان اثرا طريفا جدا . »

لينين كان يقول عن العائلة المقدسة انها تسم عند ماركس الانتقال من الهغلية الى الاشتراكية .  
(٢) انظر رسالة لوفنتال الى ماركس ، فرانكفورت - على - الماين ، ١٨٤٤/١٢/٢٧ ( آرشييف  
الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالمانى القديمة ، حاليا في أمستردام ) : « أرجوك ان تسمح لي بآن  
اعطي كتابك عنوانا أقصر وأكثر استعراء لالانباه هو العائلة المقدسة او نقد النقد النقدي ضد برونو باور  
واقرائه . هذا العنوان أكثر قدرة على الاثارة ويجب ان نأمل ان محتوى الكتاب ، المحتوى الذي كثيرا  
ما هو مازح مداعب ، سيبرره . »

(٣) انظر فريتش بروغل : تاريخ اصدار العائلة المقدسة ، في الكفاح ، مجلة شهرية اشتراكية  
ديمقراطية ، فيينا ، اكتوبر ١٩٢٨ ، ج ٢١ ، صص ٥٠٦ - ٥١٠ .

كان الكونتوار الادبي لهذا الاخير يعاني آنذاك من صعوبات مالية ، من جراء العوائق التي كانت تضعها الدول الالمانية امام انتشار كتبه في المانيا . ومن جهة اخرى ، كان روجه ، بوصفه شريكا وصيا ، قد حظّر على فـرء بل بشكل قطعي أن يصدر أي كتاب لماركس (١) . بعد فشل هذا المشروع ، توجه ماركس الى بورنشتاين ، مدير **الى الامام** ، من أجل نشر هذا الكتاب عند ناشر الجريدة (٢) . ولما فشلت هذه المحاولة هي ايضا كتب ماركس الى الدكتور لوفنتال ، المدير - الشريك مع ي. روتن لـ « دار المنشورات الادبية » في فرانكفورت - على - الماين ، الذي قبل بنشر الكتاب ، الذي صدر في اواخر شباط - فبراير - ١٨٤٥ .

بعد أن تلقاه ، انجلز أبدى في رسالة الى ماركس تخوفه من المتاعب التي قد يثيرها له عنوان الكتاب لدى أسرته التي كانت شديدة التقوى (٣) . بعد أيام قليلة ، أعرب له عن كل الفرح الذي أصابه وهو يقرأ الكتاب ، ولكن في الوقت نفسه أبدى مع دهشته بصدد الاتساع الذي اتخذته الكتاب بعض التحفظات بصدد طابعه المجرد بصورة زائدة ، الذي يجعله غير سهل المنال بالنسبة لمتوسط القراء (٤) .

(١) انظر ٢. روجه ، مراسلات ، مرجع مذكور انفا ، ص ٣٧٩ ، رسالة روجه الى فروبل ، باريس ، نوفمبر ١٨٤٤ : « ما دمت ذا مصلحة في الكونتوار الادبي ، سيكون عليك ان لا تنشر كتابا لماركس ... » . انظر نفس المرجع ، ص ٢٨٠ ، رسالة روجه الى فروبل ، باريس ٦ ديسمبر ١٨٤٤ : « ماركس دائما تحت هيمنة حقد ما . طالما انطظ له في راسه لن يستطيع أن يكتب شيئا دون ان يشتمني ... من جهة اخرى سيعتبرني رجلا غيبيا اذا ما استطاع ان ينشر كتابا عندنا دون علمي وضد ارادتي وهو يفضل الانتحار على ان يطلب موافقتي . انني لا امنعك من ان تستعمل حقاك ضدي ، ولكن في هذه الحال سيكون عليك ان تختار بينه وبينني ، بين صداقته وصداقتي . »

(٢) انظر ف. بروجل ، مرجع مذكور انفا ، ص ٥٠٨ . رسالة ماركس الى بورنشتاين : « سيدي . ساكون في غاية الامتنان لك اذا ما علمتني قبل الثلاثاء عما اذا كان فرانك يريد او لا التكفل باصدار الكراس ضد باور . ليس لي مصلحة كبيرة في قراره ، اذ من السهل جدا علي ان احصل على ناشر في الخارج . غير انه يسرني كثيرا ان يطبع هذا الكراس ، حيث كثيرا ما يتوقف كل شيء على كلمة ، تحت بصري وان اتولى بنفسني تصحيحه . دكتور ماركس . اضافة : لما كان الكراس الموجه ضد برونو باور لا يحوي بوجه الاحمال سوى قليل من الاشياء التي يمكن ان تتعرض لها الرقابة ، فاني لا اعتقد ان نشره في المانيا يمكن ان يصطدم بكثير من الصعوبات . »

(٣) ميفسا ، ١١١ ، مراسلات ماركس - انجلز ، ١٥ ، ص ١٦ . رسالة انجلز الى ماركس ، ١٨٤٥/٢/٧ .

(٤) الرجوع نفسه ، ص ١٩ . رسالة انجلز الى ماركس ، ١٨٤٥/٢/١٧ . « النقد النقدي ... كتاب هائل . ان نقدك المسالة اليهودية والمادية والاسرار رائع وسيكون له اثر كبير . الا انني اجد الكتاب ضخما من حيث الحجم . الازدراء السلطاني الذي نظهره ازاء « الصحيفة العامة الادبية » يتنافر مع العدد الكبير من الصفحات التي تكرسها لنقدها . فضلا عن ذلك ، ما نقوله عن النظران وعن الكائسن الجرد ليس في متناول الجمهور الواسع وقادرا على اثارة اهتمامه الا قليلا . بعد هذه التحفظات ، الكتاب مكتوب بشكل رائع وتتلوى من شدة الضحك . لن يستطيع السادة باور ان يجيبوا بشيء .

مخاوف انجلز كان يشاظرها الناشر الذي كان ، مع تقديره البالغ لسخرية الكتاب الطبية المذاق، يتساءل ما اذا كان سيجد كثيرا من القراء بسبب طابعه الخاص نوعا ما (١) .

بالواقع لم تصب العائلة المقدسة سوى نجاح ضيق ، جزئيا لان الموضوع المعالج كان خصوصيا لدرجة لا تمكنه من اثارة اهتمام الجمهور الواسع وايضا لان تنوع المواضيع المعالجة الكبير كان يخفي وحدة الكتاب العميقة ويسيء الى فهمه .

صدر عنه نقد تقييبي في مجلة باخرة فستغاليا (٢) . ماركس وانجلز اعتبراه تافها ومشوشا (٣) . من جهة أخرى ، نشر ج. يوليوس ، المحرر السابق في صحيفة لايتسيغ العامة ، تقريراً عن الكتاب ، ينبذ فيه ، بوصفه ليبراليا ، في أن أطروحات ب. باور الفوضوية المنحى وأطروحات ماركس وانجلز الشيوعية (٤) .

ان صدور العائلة المقدسة أعطى روجه فرصة فيض آخر من الشتائم ضد ماركس . أجل كان يجد في الكتاب بعض المقاطع الجيدة ، ولكنه كان يشجب اتجاهه ويرى فيه بالدرجة الاولى تعبيرا عن حقد مبتذل وواطىء من جانب ماركس وانجلز



سيكون بامكان برجس ، في تقريره لمجلة بتمان ، ان يذكر لماذا لم استطع ان اكتب سوى اشياء قليلة ، بسبب اقامتي القصيرة في باريس ، وان لا اعالج سوى المسائل التي لم تكن تستلزم تحليلا عميقا . «

(١) انظر رسالة لوفنتال الى ماركس ، فرانكفورت ، ١٨٤٥/١/١٥ ( ارشيف الحزب ... حاليا في أمستردام ) : « يجب ان لا نخفي عن انفسنا ان كتابكم لن يظهر بدرجة كافية اصيلا مبتكرا للجمهور الواسع ولن يكون ذا جذب كبير بالنسبة له ، نظرا لانه يتعلق على نحو زائد بـ « الصحيفة العامة الادبية » ويذكرها بشكل دائم ... » . انظر ف. بروجل ، مرجع مذكور ، ص ٥٠٩ . رسالة لوفنتال الى الدكتور ه. ابتر ( مراسل « صحيفة أوغسبورغ العامة » ) ، ١٨٤٥/٢/٢٤ : « ارسل اليك كتاب انجلز وماركس ضد ب. باور ، الذي خرج لتوه من المطبعة ... انه ينقد بشكل لاذع الاتجاه الفلسفي والاجتماعي لباور واخوانه . انجلز وماركس يشكلان فئة من الشيوعية وهما اذا جزء من المتطرفين . ان حملتهما ضد الثروة اللدنية لجماعة باور تسدد لها ضربات لن تقوم منها بعد الان . على أي حال ان الكتاب سيحدث ضجة . وسأكون ممتنا لك اذا ما قدمت تقريراً عنه لـ « الصحيفة العامة » يكون مفصلا بعض الشيء . »

(٢) باخرة وستغاليا ، ١٨٤٥ ، صص ٢٠٦ - ٢١٥ : العائلة المقدسة او نقد النقد النقدي ضد باور وشركاه ، تأليف ف. انجلز و ل. ماركس .

(٣) ميف ، ١ ، ده ، ص ٥٤١ .

(٤) مجلة فيغان الفصلية ، لايتسيغ ، ١٨٤٥ ، ٢٥ ، صص ٢٢٦ - ٢٢٣ . الصراع بين الكنيسة الانسانية الرئية والكنيسة الانسانية غير الرئية او نقد نقد النقد النقدي بقلم ج. يوليوس .

ازاء اصدقاء قدامى (١) . كان يعارض العائلة المقدسة بكتاب شترنر الوحيد وخاصيته ، مادحا هذا الكتاب بحماس ، بسبب دفاعه عن الفردوية (٢) .  
برونو باور لم يعط سوى جواب ضعيف اكتفى فيه بالقول ان ماركس وانجلز لم يفهما (٣) .

## طرد ماركس

بعد تحرير العائلة المقدسة بقليل انتهت فترة اقامة ماركس في باريس بطرده . السبب كان مساهمته في جريدة الى الامام ، التي كانت ، مع تشديدها تحت ادارة برنيس Bernays اتجاها الراديكالي على نحو متزايد ، تهاجم الليبرالية بسبب سياستها الوسطية ، والنقد النقدي بسبب حياده السياسي (٤) ، وتتنهج بوضوح نحو انسية شيوعية (٥) .

(١) انظر آ. روجه . رسالة روجه الى بروتس ، ١٨٤٥/٥/٦ ( المعهد الدولي للتاريخ الاجتماعي ، أمستردام ) : « الكتاب ضد باور وجماعته يحوي بعض المقاطع الجيدة ... ان ما يلفت النظر بوجه خاص هو روح المؤلفين الشريرة ضد اصدقائهم السابقين . انجاز الذي كان يعبد الاخوة باور في برلين يعبد الان الد اعدائهم ويستخدم كل ما تعلمه منهم . هاتان الزمرتان تتساويان في الابتذال والشر . »  
(٢) انظر روجه ، المراسلات ، ١٤ ، ص ٣٩٥ . رسالة روجه الى فلايشير ، ١٨٤٥/٥/٢٧ .  
وايضا ص ٢٨٩ - ٢٩٠ . رسالة روجه الى ناوفرك ، باريس ، ١٨٤٤/١٢/٢١ : « ان كتاب شترنر لا يمكن الا ان يكون ذا آثار جيدة ، رغم احتوائه على اشياء غير قليلة تستحق الطعن تماما ... يجب مساعدة ونشر هذا الكتاب . فهو تحرير من اشد جميع الحماقات حماقة ، من دوغماية الحرفيين الاجتماعية ، من هذه المسيحية الجديدة التي يبشر بها بسطاء الروح والتي من شأنها ان تجعلنا نعيش كما نعيش ماشية رخيصة ... الانسان الذي يعي قيمته ويؤكدها ، الاناني الذي يرفض ان يكون رقها وان يدع نفسه يجز ، يعيد شيئا من النشاط والشعر في بؤس عصرنا . اذا لم يكن هناك سوى بانسين ، لن يكون بالامكان الفاء البؤس . »

(٣) مجلة فيقان الشهرية ، لايبتيغ ، ١٨٤٥ ، ج٢ ، ص ١٣٨ وبعدها . برونو باور : تحديد طابع لودفيغ فويرباخ . ماركس رد على هذا المقال في مجلة المجتمع ، البرفلد ، يناير - كانون الثاني ١٨٤٦ . انظر ميغا ، ١ ، ده ، ص ٥٤١ - ٥٤٤ .

(٤) الى الامام ، رقم ٥٥ ، ١٨٤٤/٦/١ : حماقة الليبراليين . رقم ٦٦ ، ١٧ - ٨ - ١٨٤٤ : منظورات المستقبل لالانبا . رقم ٧٦ ، ١٨٤٤/٩/٢١ : نقد برونو باور .

(٥) الى الامام ، ١٨٤٤/١٢/٤ . « ان هدف هذه الحركة الادبية هو اقامة مجتمع حر ومساواتي ، فيه سيلقى انخلاع الانسان في الدين والدولة والمجتمع البرجوازي وسيخالي المكان لتنظيم اجتماعي يقوده رجال يعون تمام الوعي صفتهم الانسانية ... ان جريدتنا لها ، كموضوع وهدف ، من جهة ، نقد كل ما ينهب بعكس الحقيقة والحرية ، ومن جهة اخرى ، اعداد مستقبل فيه يحقق الانسان كل كينونته . هذا يسوغ الرنة الراديكالية التي اتخذناها وبشكل خاص ضراوة هجماتها على الليبرالية الصائرة فقيرة اكثر فاكثر فكرا وعملا . »

هذا الاتجاه ، الذي كان قد تظاهر منذ تموز ١٨٤٤ (١) ، أثار حذف الجريدة وطردها محرريها ومعاونيها . الحكومة البروسية ، التي كانت منذ شباط ١٨٤٤ طلبت طردهم ، تدرعت بمقال لبرنيس حول محاولة اغتيال الملك فريدريك غليوم الرابع على يد رئيس البلدية تشش ، كان يدعو فيه الملك الى تلبية مطالب الشعب العادلة (٢) ، لتدعو الحكومة الفرنسية الى ملاحقة برنيس قضائيا والى حذف **الى الامام** .

واذ كان غيزو Guizot يتردد في اتخاذ تدابير بهذه الجذرية خوفا من الصحافة المعارضة فقد اكتفى بملاحقة برنيس، بوصفه محررا مسؤولا ، على كونه لم يدفع الكفالة المطلوبة للجريدة . وحكم برنيس في ١٣ ديسمبر بالسجن لمدة شهرين وبغرامة مالية قدرها ٣٠٠ فرنك (٣) . ولكن محرري **الى الامام** لم يدعوا انفسهم للخوف وقرروا تحويل الجريدة الى مجلة شهرية لا تحتاج الى اية كفالة (٤) . وبناء على الطلب الاكثر الحاحا من جانب السفير البروسي ، حزم غيزو امره واتخذ اجراءات شديدة . في ٢٥ يناير كانون الثاني ١٨٤٥ ، أصدر وزير الداخلية ، دوشاتل Duchâtel ، أمرا بطرد محرري أو معاوني **الى الامام** : ه. هاينه ، بورنشتاين ، برنيس ، ماركس ، باكونين ، برجس ، روجه ، الذين دعوا الى مغادرة أرض فرنسا فوراً (٥) .

هذا الاجراء أثار عاصفة من الاحتجاج في الصحافة المعارضة التي لامت الحكومة على نزولها الى مصاف أداة قمع بيد الحكومة البروسية وطردها رجالا جريمتهم

(١) الى الامام ، ٢٤ - ٧ - ١٨٤٤ ، حركة العمال في بوهيميا . ٢١ - ٧ - ١٨٤٤ ، الفقر في بروسيا . ٣ - ٨ - ١٨٤٤ ، حركة العمال في درسدن . ٢١ - ٨ - ١٨٤٤ ، حركة العمال في المانيا . ٢٤ - ٤ - ١٨٤٤ ، الربا في دولة بالاتينا . ٣١ - ٨ - ١٨٤٤ ، الاجتماعات الاشتراكية في بيلفلد . ٣٠ - ١٠ - ١٨٤٤ ، العمال اللان . ٣٠ - ١٠ - ١٨٤٤ ، الرقيق الاسود والرقيق الابيض . ٣٠ - ١٠ - ١٨٤٤ ، المال .

(٢) الى الامام ، العدد ٦٢ ، ٣ - ٨ - ١٨٤٤ ، ( برنيس ) : محاولة اغتيال ضد ملك بروسيا . ايضا العدد ٦٦ ، ١٧ - ٨ - ١٨٤٤ . ميفا ١ ، صص ٢٤ - ٢٧ ، ك. ماركس : تعليق على تمارين الانشاء الجديدة لفريدريك غلهلم الرابع .

(٣) ه. بورنشتاين : خمسة وسبعون عاما في الماين القديم والجديد ، لايتسيغ ، ١٨٨١ ، ص ٣٥٢ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٣٥٢ .

(٥) انظر المرجع نفسه ص ٣٥٢ . انظر ارشيف الدولة السري ،وزارة الداخلية ، R + ٧٧ ، + D رقم ١٠ ، ص ٨١ . وثائق تتصل بالجمعيات الثورية بين الحرفيين ، باريس ، ١ - ٢ - ١٨٤٥ . « الشيوعيون ماركس ، ٢ . فايل (وهو بالحقيقة لا يؤمن بآية عقيدة ويكتب لكل شخص يدفع له الثمن) ، هرفغ ، برنيس ( وهو حاليا في السجن ) ، ه. بورنشتاين ( وهو بلا عقيدة وليس سوى مستثمر ادبي ) ، وآخرون ، يسمون للحصول من الحكومة على عدم طردهم من باريس . »

الوحيدة أنهم يحبون فرنسا ويدافعون عنها (١) .

هذا الاحتجاج كان له على الأقل أن حد من تطبيق مرسوم الطرد . هـ . هاينه لم يزعج ، نظرا لشهرته العالمية . روجه ، الذي كان قد فرح سرا بحذف الجريدة (٢) ، أخبر من قبل ماركس ، الذي بعكسه لم يكن يتقاد لاعتبارات شخصية واطئة فسي سلوكه السياسي (٣) . بعد أن أبدى في رسالة الى أمه دناءة الموافقة على هذا الاجراء الذي كان يأمل أن لا يصيبه (٤) ، نجح ، استنادا الى كونه من رعايا ساكسونيا ، في الحصول على اذن بالبقاء في باريس موقتا . بورنشتاين لم يطرد مقابل تعهده بعدم اصدار الجريدة بعد الآن (٥) . برنيس ، الذي أرسل من سجن سانت - بيلاجي ، حيث كان يقضي مدة حكمه ، رسالة الى كل الصحف الديمقراطية استطاع هو أيضا البقاء في باريس (٦) .

في النهاية لم يطرد سوى ماركس ، باكونين ، برجس ، وأيضا بنتيجة التباس

(١) انظر بورنشتاين ، مرجع مذکور ، ص ٢٥٣ . انظر جريدة الإصلاح ١٤ - ٢ - ١٨٤٥ : (ولكن لم يكن كافيا ان توضع قوانين ايلول في خدمة رقابة برلين . بعد قتل الكتابات ارادوا ضرب الرجال ، وفي هذه اللحظة لا تخجل الحكومة الفرنسية من جعل نفسها أداة ارباب واحقاد الحكومة الروسية . ان رجالا يتميزون بسمو موهبتهم ، يوصي بهم البعد الذي يكونه للافكار الفرنسية وتعاطفهم معنا ، تلقوا الآن امر مفادرة فرنسا هذه ، التي جريمتهم أنهم احبوها ودافعوا عنها ... » . انظر ايضا الإصلاح ٣١ - ١ و ٤ - ٢ - ١٨٤٥ ، الاخاء آذار ١٨٤٥ ، البريد الفرنسي ٣٠ - ١ و ١١ - ٢ - ١٨٤٥ ، الامة ، صحيفة فرنسا ، القرن ، ١٧ - ٢ - ١٨٤٥ .

(٢) أ . روجه ، مراسلات ، ١٥ ، ص ٣٧٩ . رسالة روجه الى فروبل ، باريس ، نوفمبر ١٨٤٤ . (٣) الى السيد الدكتور آرنولد روجه ، باريس ، شارع نوتردام لوريت ، ٣٠ مكر : السيد دكتور روجه . علمت من مصدر موثوق أنه توجد في مديرية الشرطة اوامر متخذة ضده وضدي وبعض الآخرين ، وتدعوهم الى مفادرة فرنسا في اقصر مهلة . اعتقدت من المفيد ، في حال لم يصل اليك هذا النبا بعد ، ان اخبرك اياه . لـ . ماركس .

- اشكر الكتبة فلترينيلي في ميلانو التي تفضلت بابلافي هذه الرسالة والسماح لي بنشرها -

(٤) أ . روجه ، مراسلات ، ١٥ ، ص ٣٩١ . رسالة روجه الى والدته ، ٢٦ - ١ - ١٨٤٥ : « تصوري ان بروسيا نجحت في جعل غيزو يطرد ١٢ المانيا ، محددين بموجب لائحة قدمتها السفارة . توجهت بالطبع الى سفارتي ويبدو ان الامر سيتدبر . كل رجال الى الامام : هاينه ، ماركس ، الف ، هم بالطبع في القائمة ... بذلك عينه يوضع حد لسفاهتهم الكتابية . لو كان السيد فون آرنيسم ، السفير البروسي ، قد استشارني ، لكنت نصحته بهذه الخطوة لصالح الحرية . جعلها نفسها مضحكة ، المعارضة تسير نحو هزيمتها ، و « الى الامام » كانت تجعلها مضحكة . » . روجه ، الاعمال الكاملة ، ٥٥ ، ص ٤٠٠ - ٤٠١ . رسالة روجه الى هس ، باريس ، يناير ١٨٤٥ : « ما كان ممكنا توسيخ واسقاط حظوة حرية الصحافة والمعارضة وشعار الانسانية النبيل اكثر مما فعلت ذلك الى الامام . »

(٥) هـ . بورنشتاين ، مرجع مذکور آنفا ، ص ٣٥٤ .

(٦) الإصلاح ، ١٤/٢/١٨٤٥ .

ورغم احتجاجات السفير البروسي ، آدالبرت فون بورنشتدت ، العميل السري لبروسيا والنمسا ، ورئيس التحرير السابق لجريدة **الى الامام** ، الذي التجأ الى بلجيكا (١) .

في ١٤ نيسان - أبريل ١٨٤٤ ، كانت الحكومة البروسية قد أصدرت أمرا بتوقيف ماركس وروجه وهائنه بوصفهم محرري ومعاوني **الحوليات الفرنسية - الألمانية** فيما اذا حضروا على الحدود . في ١٣ شباط - فبراير ١٨٤٥ جددت هذا الامر مضيقة اسمي بورنشتاين وبرنيس (٢) . اذ لم يكن باكونين وبرجرس مشمولين بهذا الامر فقد استطاع الاول ان يذهب الى درسدن والآخر الى كولن . ماركس غادر باريس في أول شباط - فبراير ١٨٤٥ . بعد اقامة قصيرة في لياج ( بلجيكا ) ، وصل في ٩ شباط الى بروكسل ، حيث سيبقى حتى ثورة ١٨٤٨ (٣) .

بمنع **الى الامام** ، كانت الحكومة البروسية قد أصابت هدفها وأسكتت ، على الاقل لوهلة ، الراديكالية الألمانية . بيد ان هذه الاخيرة لن تلبث ان تسمع صوتها من جديد وبصورة اشد خطرا ، مع ماركس وانجلز اللذين صارا الناطقين بلسان البروليتاريا الدولية .

---

(١) انظر لوك سومروهن : انسية كارل ماركس الفاعلة ، باريس ١٩٤٦ ، ص ٧٤ ، الهامش ٣ .  
ازشيف الامن العام البلجيكي ، اصابة بورنشتدت ، الوثيقة رقم ٨ .

(٢) انظر وثائق ادارة شرطة برلين عن هنري بورنشتاين ، كارل ماركس ، ه. هائنه ، ل. برنيس .... في هذه الوثائق نجد البيان التالي عن ماركس ( ص ٧٩ ) : مولود في ترير ( Trèves ) ، عمره ٢٢ سنة ، الطول ٥ اقدام و ٢ بوصة ، لون الشعر والحاجبين اسود ، جبهة مستقيمة ، عينان داكنتان ، وجه بيضوي الشكل ، سحنة فاتحة ، انف افطس ، فم متوسط ، ذقن مستديرة .

نجد فيها ايضا الوصف التالي عن هائنه : كاتب ، عمره ٥٠ سنة ، قامة متوسطة ، انف ذلق ، ذقن مستدقة ، نموذج يهودي واضح . انه عرييد ، هزال جسمه يشهد على نفاذه . ايضا . « حسب نبا من باريس بتاريخ ١/٢٥ ، منشور بتاريخ ١/٣١ في العدد ٣١ من الصحيفة العامة البروسية ، هؤلاء الكتاب ٢. روجه ماركس وبورنشتاين وبرنيس طردوا من باريس واقتيدوا تحت اشراف مفوض شرطة الى كاله Calais . » برلين ، ١/٣١/١٨٤٥ . وزير الداخلية . كونت آرنييم .

(٣) رسالة من بني ماركس الى كارل ماركس ، باريس ، ٩ و ١٨٤٥/٢/١٠ ، الاصل : معهد من اجل الماركسية اللينينية ، موسكو . « هائنه كان في وزارة الداخلية ، حيث قالوا له انهم لا يملكون شيئا على الاطلاق . لودرو - رولن Ledru - Rollin سيتكلم عن ذلك في المجلس ، فور الفلات الجميع . هل قرأت جريدة الإصلاح ؟ كم هي حمقى وبائسة . كل ما تقوله اكثر اساءة من اقوى هجمات الآخرين . هذا هو عمل هذا الرجل العظيم ، كما يجب ان يكون ، السيد باكونين ، الذي مع ذلك جاء يلقي علي درسا في علم البلاغة ليسكب امامي جوهر نفسه . هرفغ يلعب مع الطفلة . افريك لا ينقطع عن الكلام عن الشroud المتواصل للسيد برجرس ، وابن الشعب ، السيد فايل ، حامي الخاص ، جاوني يقدم النجدة . »

## الخلاصة

ان اقامة ماركس في باريس ، من أواخر ١٨٤٣ حتى أوائل ١٨٤٥ ، تشكل انعطافا حاسما في تطور فكره وعمله . التحول العميق لتصوره العام عن العالم ، الذي يحصل آنذاك عنده ، كان قد مهّده نقد ماركس لـ « فلسفة الحق عند هيجل » (١٨٤٣) ، النقد الذي كان قد بيّن له أن الحل النظري والعملي على حد سواء للمسألة الاجتماعية ، التي كانت تبدو له الآن المسألة الأساسية ، لا يمكن أن ينجم الا عن إلغاء المجتمع والدولة البرجوازيين اللذين يقومان على أساس مشترك هو نظام الملكية الخاصة .

مقادرا باعتناقه الشيوعية الى اتخاذ موقف الدفاع عن مصالح البروليتاريا ، كان يعرض في مقالته في **الحواليات الفرنسية - الألمانية** : « المسألة اليهودية » و« مدخل الى نقد فلسفة الحق عند هيجل » أن الاعتناق الانساني يستلزم الحذف الجذري لنظام الملكية الخاصة وان هذا الحذف لا يمكن ان يكون الا نتاج عمل البروليتاريا الثورية .

بما أنه لم يكن بعد يدرك ان الثورة البروليتارية لا يمكن أن تنتج الا عن احتدام الصراع الطبقي بين البرجوازية والبروليتاريا الناجم عن تطور المنظومة الرأسمالية بعينه ، لذا كان يتصور هذا الصراع بشكل ما يزال الى حد ما تخطيطيا مبسّطا ، وكان يرى في البروليتاريا تجسيد النوع الانساني الذي سقط الى اخر درجات ضياع انسانيته ، ويرى انها بحكم ذلك مدعوة الى أن تصبح أداة أنسنته من جديد .

ان مقالة أنجلز « محاولة في نقد الاقتصاد السياسي » ، التي كانت تبين له كيف ان الثورة الشيوعية تنجم حتما عن تطور المنظومة الرأسمالية التي تولد مع البروليتاريا ، نفيها هي ، تقوده الى أن يبحث ، في المجتمع البرجوازي ، عن علل الفائه .

لهذه المهمة يكرّس نفسه في فترة اقامته في باريس ، التي كان مكتوبا لها أن تكون بالنسبة له خصبة بقدر ما كانت خصبة بالنسبة لأنجلز اقامته في انكلترا .

اذ يجد في باريس ، وهي عاصمة بلد أكثر تطورا بكثير من ألمانيا اقتصاديا واجتماعيا ، تراثا ثوريا طويلا ، يكبّ بادية ذي بدء على دراسة الثورة الفرنسية ، وبشكل خاص حقبتها الحاسمة ، عهد المؤتمر ( ١٧٩٢ - ١٧٩٥ ) ، مخرجا منها

تعاليم مفيدة لنضال البروليتاريا . هذه الدراسة ، التي تسمح له بفهم طابع وحدود ثورة برجوازية ، تسهم ، بالفعل ، اسهاما كبيرا في توضيح رؤياته عن تشكل الطبقات وعن دور الصراعات الطبقيّة في تطور المجتمع وسير التاريخ . وتبين له كذلك أن طبقة قائدة لا تتخلى أبدا بملء ارادتها عن السلطة وعن امتيازاتها وأن ثورة اجتماعية تتطلب أقصى الكفاحات .

يوسع هذا التصور للانبساط التاريخي ، المؤسس على فكرة دور صراعات الطبقات المقرر - المحدد ، بدراسته المؤرخين الفرنسيين العظام الذين كانوا قد شددوا على هذا الدور في تحليلهم لتشكّل وتطور البرجوازية .

معتبرا الشيوعية المآل الضروري الحتمي للتطور الجدلي للنظام الرأسمالي ، ماركس يقاد ، في الوقت نفسه ، الى دراسة أساس هذا النظام ، الاقتصاد الرأسمالي ، الامر الذي يتيح له ادراك علل وآلية سيرورة نزاع الانسانية المتولد عن هذا النظام ، وأيضا أسباب الغائه الحتمي واحلال نظام شيوعي محله .

ان دراسة الثورة الفرنسية ، الموصولة مع دراسة الاقتصاد السياسي ، تقدم له عناصر انضاج تصور جديد للعالم ، مادي وجدلي ، قابل لان يكون أساسا لعمل البروليتاريا الثوري .

متجاوزا مادية القرن الثامن عشر ، التي يرى في آن معا عظمتها وحدودها بوصفها ايدولوجيا البرجوازية الصاعدة ، ينضج تصوره المادي والجدلي والتاريخي عن العالم بتحليل نقدي للاقتصاد السياسي البرجوازي وللمنظومة الرأسمالية ، يخرج منه مفهوم البراكسيس ، وينقد لفلسفة وجدل هيغل المثاليين ، يحققه معتمدا على هذا المفهوم .

ينطلق في تحليله للاقتصاد السياسي وللمنظومة الرأسمالية من المبادئ الاساسية لهيغل وفويرباخ .

يحفظ من هيغل تصور الانبساط الجدلي للتاريخ المحدد بقوانين موضوعية وفكرة أن محتواه الجوهري مكوّن من سيرورة انخلاق الانسان المعتر في علاقاته مع الطبيعة . في **فينومينولوجيا الروح** ، كان هيغل قد بيّن أن الانسان يخلق نفسه بتجاوز لكيونته دائم ، نافذا في جوهر الطبيعة ، مدركا معقوليتها ، مما يتيح له أن يتساوى مع العالم . هذا الانخلاق للانسان بفاعليته لا يمكن أن يتحقق الا اذا لم يجد الانسان نفسه مخلوعا في هذه الفاعلية .

بعكس هيفل الذي كان يحذف كل انخلاع بروحنة الانسان والطبيعة ، ماركس يفكر ، مع فويرباخ ، ان الانخلاع يؤلف السمة المميزة لحالة الانسان في المجتمع البرجوازي وان الفناء هو الشرط الضروري للاعتاق الانساني ، ولكنه ، بخلاف فويرباخ ، يعتبر الانخلاع لا في شكله الديني بل في شكله الاقتصادي - الاجتماعي كسغل منخلع ، المتولد من نظام الملكية الخاصة الذي هو الشكل الاساسي لانخلاع البشر ، وبصورة خاصة البروليتاريين ، الذين يتلقون ثقله الاكبر .  
في تقده المنظومة الرأسمالية ، يبين انه ، في هذه المنظومة ، حيث منتج السغل المنخلع يتخذ شكل سلع ، يحصل تشيؤ للعلاقات الاجتماعية ، المحولة الى تبادل سلع .

بحكم السغل المنخلع ، ان العامل ، المفصول عن سغله الذي بدلا من ان يكون تعبير شخصيته يصير نفيها وعن منتج سغله الذي ليس ملكا له ، يضعف وينحط بقدر ما ينتج . هذا الانخلاع ، الذي يزن ليس فقط على الشغيلة بل ايضا على كل البشر في النظام الرأسمالي ، يمنهم من ان يخلقوا أنفسهم على نحو انساني ، بأنسنة الطبيعة . يجعلهم بذلك عينه غريبين عن كينونتهم ، ويضع بعضهم في معارضة بعضهم الآخر بالراحمة ، الامر الذي يؤدي الى انقسام المجتمع الى طبقتين متنافيتين : البرجوازية والبروليتاريا .

ان المنظومة الرأسمالية تخلق بنفسها ، بتطوير وانماء البروليتاريا ، شروط اعادة أنسنة البشر بحذف كل الانخلاعات . هذه الأنسنة الثانية ، ماركس لا يضعها كمسئلة أخلاقية ، بل يبين انها النتيجة اللازمة عن اشتداد الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا الذي يقضي الى الثورة الشيوعية .

بالتنظيم الانساني للانتاج والاستهلاك ، ستلغي الشيوعية كل الانخلاعات الاقتصادية والاجتماعية والايديولوجية المتولدة من نظام الملكية الخاصة وستسهل تفتح طبيعة الانسان الكلية .

ان تحليل السغل المنخلع ، الذي يبين لمراكز الدور الجوهري للسغل ، للفاعلية العينية ، العملية ، للانسان ، للبراكسيس ، في تطور المجتمع الانساني والتاريخ ، يقوده الى ان يحل بالتدرج ، كمفهوم مركزي ، محل فكرة الانخلاع التي كانت سمحت له باجراء نقد متعمق للاقتصاد الرأسمالي ، مفهوم البراكسيس الذي كان يصلح اكثر من تلك الفكرة لانضاج المادية الجدلية والتاريخية ايديولوجية للبروليتاريا الثورية .

يذهب في هذا الانضاج من نقد فلسفة وجدل هيغل المثاليين محققا من وجهة نظر البراكسيس .

يبين ان هيغل ، بروحنته الانسان والطبيعة والفاعلية الانسانية ، يجعل من انخلاق الانسان ، المعبر في علاقاته مع الطبيعة ، عملية روحية . فتقليص الانسان الى وعي الذات ، والطبيعة الى موضوع وعي الذات ، انما يقلص التاريخ الى انبساط الروح ، الفكرة المطلقة ، التي فيها يتحقق تماثل الفكر والكينونة والتي تصير خالقة العالم .

للوصول الى التصور الحقيقي للانسان والطبيعة وانبساطهما العضوي ، يجب ان نعتبرهم ، يقول ماركس ، في واقعهم العياني . ان ذات ( حامل ) الفاعلية الانسانية لا يكون عندئذ تجريد الانسان ، وعي الذات ، بل ذاتية قوى الانسان العيانية ، ومنتوج هذه الفاعلية لا يعود مكونا من مجردات ، من « شيئات » ، بل من تعين ، من تموضع هذه القوى الذي يتيح للانسان ان يحول الطبيعة باعادة انتاجها على نحو انساني .

بخلاف الحيوان ، الذي بما انه لا يتميز عن الطبيعة فانه لا يستطيع ان يفعل فيها بعمق ، الانسان يستطيع ان يحولها بفاعليته الحرة ، الواعية والكلية ، مكيفا اياها مع حاجاته . من جراء ذلك ، تصير علاقاته مع الطبيعة على نحو متزايد علاقات مع انتاجه الخاص ، الامر الذي يحدد اتحادا عضويا متزايدا الوثوق معها .

هذا الخلق الذاتي للانسان بتحويل الطبيعة ليس ممكنا الا لان الانسان كائن اجتماعي . فالانسان لا يستطيع ان يحقق كينونته الا باعمال البشر الآخرين . انه يفتني بأعمالهم التي طبعوها بشخصيتهم ، كما هو يفنيهم بأعماله . هكذا البشر يكمل بعضهم بعضا بأعمالهم ، الامر الذي يجعل انه من غير الممكن فصل الفرد عن المجتمع ولا وضعه في مقابل المجتمع . ففي المجتمع فقط يستطيع الانسان ان يخلق نفسه بصورة حقيقية ، اذ فيه فقط تصير الطبيعة بتأنسها الرابط بين البشر واسس وجودهم .

ان خلق الانسان لذاته بانسنة الطبيعة يؤلف جوهر التاريخ الانساني ، الذي يتطابق انبساطه في الهوية مع انبساط الانتاج ، الصناعة .

هذه الصناعة انبسطت حتى الآن في اطار الملكية الخاصة ، مولدة الانخلاع . هذا الطور التاريخي ، طور نزع انسانية الانسان ، يؤلف ما - قبل - تاريخ الانسان ،

الذي سيعقبه طور اعادة انسانيته التي ستتحقق بالالحد والشيوعية والتي ستعطي التاريخ معناه الحقيقي .

هذا التصور المادي الجدلي والتاريخي للعالم يعطي ليس فقط تفسير التطور الاقتصادي والاجتماعي والايديولوجي بل يعطي ايضا تفسير وحل المسائل النظرية : الجوهر والوجود ، الحرية والضرورة ، الفكر والكائن ، التي لا يمكن ان تحل الا اذا اعتبرناها في علاقاتها مع التطور الاجتماعي .

نرى كيف ان ماركس يخرج من فكرة البراكسيس ، التي يضعها على نحو متعاضم في مركز تصوراته ، المبادئ الاساسية للمادية الجدلية والتاريخية ، متصورا سيورة خلق الانسان لذاته نتيجة تطور الانتاج الذي يحدد التحول المتوازي المترابط للانسان والطبيعة .

ان نواقص مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة مردها ان هذه المخطوطات ليست سوى مرحلة اولى في انضاج الفكر الاساسي لماركس الذي لم يكن بعد يخرج تماما من الافكار الفويرباخية .

ان تطور فكره يتميز باستبعاد التصور الانتروبولوجي ( الانسانولوجي ) لفويرباخ استبعادا جذريا وبوضع مفهوم الانخلاع في المستوى الثاني وعدم استعماله الا لتحديد طابع بعض اشكال المنظومة الرأسمالية .

هذا يبين كم واهية الاساس المحاولات المتكررة دوما من جانب المفكرين البرجوايين الذين يضعون كمفهوم مركزي واساسي للماركسية لا فكرة البراكسيس بل فكرة الانخلاع ، كي يرموا العنصر الثوري في الفكر الماركسي ويقلصوا هذا الفكر الى طوباوية اخلاقية ، الى « انسية » يكون هدفها تحقيق الانسان « الحق » ، غير المتمايز اجتماعيا .

بتصوره المادي للعالم ، الذي كان يجعله ماركس اساس الشيوعية ، كان ماركس ينفصل اكثر فاكثر عن جميع تيارات الفكر البرجوازي والاشتراكية الطوباوية .

كان سابقا قد قطع الصلة مع « المعتقين » ، الذين ، بفردويتهم الفوضوية المنحى وبهجماتهم ضد الليبرالية والشيوعية ، يخدمون عمل الثورة المضادة . كذلك كان يبتعد عن الديموقراطيين البرجوازيين ، من طراز روجه ، الذين كانوا منذ احتكاكهم

الاول مع البروليتاريا الثورية ينحازون ضدها .

ولما كان ماركس لا يزال في سير انضاج تصوراته الجديدة ، فانه لم يكن بعد ينحاز بشكل واضح ضد انسانية فويرباخ ، وشيوعية باكونين الفوضوية المنحى ، واشتراكية برودون البرجوازية - الصغيرة ، واشتراكية هس « الحقبة » ، وشيوعية فايتلنغ الطوباوية . ولكن تدريجيا كانت تنحفر هوة بينه وهذه المذاهب ، التي سيكون عليه بقدر ما يتوضح فكره أن يخضعها بالتتالي لنقد صارم .

ان تصفية الحساب الاولى حصلت مع روجه بمناسبة مقال كان قد نشره هذا الاخير حول موقف ملك بروسيا من ثورة عمال النسيج في سيليزيا . مخفضا اهمية هذه الانتفاضة ، كان روجه يعتبرها حدثا يمكن اهماله ، ذا مدى محلي ، وكان ينكر بهذه المناسبة عن البروليتاريا كل امكانية في تحقيق ثورة حقيقية ، من جراء افتقادها الروح السياسية . على هذا يرد ماركس أن انتفاضة عمال النسيج ، بعيدا عن أن تكون حدثا ثانويا ، هي أول عمل ثوري كبير للبروليتاريا الالمانية . يلوم روجه على كونه لا يعتبرها الا من وجهة نظر المصالح الطبقة البرجوازية ، الامر الذي يسوقه الى أن يرفض للبروليتاريا حق الاعتناق بعملها هي والى أن يخلط في الهوية الاعتناق السياسي المحدود المدى ما دام يقتصر على استبدال سيطرة طبقة بسيطرة طبقة أخرى ، مع الاعتناق الانساني الذي هدفه تحرير الانسانية كافة .

ماركس كان محفوظا في تطور فكره وعمله الثورين بروابط الصداقة العميقة التي كان يعقدها آنذاك مع فريدريك انجلز . ان أساس هذه الصداقة لم يكن فقط اشتراكهما في الآراء والاهداف ، بل كان ايضا واقع ان صفاتهما تتكامل بشكل يثير الاعجاب .

اذ كان ماركس ذهننا اعمق وانفذ من انجلز ، فقد كان يدفع الى ابعاد تحليل المفاهيم الاساسية التي تخدم بوصفها قاعدة لمذهبهما . بالمقابل ، انجلز ، الذي كان على صلات مباشرة اكثر ووثيقة اكثر مع الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، كان بارعا في تطبيق مبادئهما على تحليل للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية .

هكذا كان ابان لقائهما يقدم لماركس ، بمقاله عن الحالة في انكلترة ، نموذج تحليل اجتماعي ، حقق من وجهة نظر المادية التاريخية .

فجعل له السمات الجوهرية للحالة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في انكلترة مشتقة من الثورة الصناعية العظيمة ، الحاصلة فيها منذ اواخر القرن الثامن

عشر ، كان يبين ان تطور الصناعة المتسارع كان قد قلب العلاقات الاجتماعية في هذا البلد ، وقرر انتصار الاحرار ممثلي البرجوازية على المحافظين المدافعين عن مصالح الارستقراطية العقارية ، وافضى في الوقت نفسه الى تشكل بروليتاريا وافرة العدد وقوية ، كان يبرز ايضا ان تفاقم الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا يخلق شروط ثورة اجتماعية ستؤدي الى اقامة الديمقراطية الحققة اي الاشتراكية .

مجتمعين في كفاحهما ، ماركس وانجلز قررا ان يصفيا اولاً باول حساب اصدقائهما السابقين ، « المعتقين » في برلين ، الذين كانوا في جريدتهم ، **الصحيفة الادبية العامة** ، يطبقون مبادئ **النقد النقدي** ، الذي كان كاريكاتورا للمثالية الهيجلية ، على تحليل المسائل الفلسفية والاجتماعية والسياسية .

في حربهما ضد « المعتقين » التي هي موضوع **العائلة المقدسة** ، كان انجلز وبالاخص ماركس يوضحان المبادئ الاساسية للمادية التاريخية بتحليل لاطروحات **هذا النقد الناقذ** .

معتمدا على النقد الذي كان قد أجراه للمثالية الهيجلية في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** ، ماركس يفك الآلية التي بها هذه المثالية تفضي بروحنة العالم الى ميثولوجيا مفاهيم . ثم يبين كيف ان **النقد النقدي** دفع هذه الميثولوجيا من المفاهيم الى الحد الاقصى ، بالتعارض الذي يقيمه بين الوعي والماهية ، بين الفكر والكيونة ، اللذين بقيا عند هيجل على ترابط وثيق ، وكيف ان هذه المثالية المطلقة ، باضاعتها كل تماس مع الواقع ، تحول التاريخ الى مشهد أشباح .

الاحكام الصادرة عن **النقد النقدي** على الثورة الفرنسية ، والمادية ، والاشتراكية ، وبرودون ، والمسألة اليهودية ، و « أسرار باريس » ، كانت تعطي ماركس مناسبة تحليل هذه المسائل من وجهة نظر المادية التاريخية .

بعد ان ادرك بدراسته للثورة الفرنسية الدور المقرر الذي لعبته فيها صراعات الطبقات ، يبرز الآن ان هذه الثورة حصلت فقط لصالح البرجوازية التي حققت ظفر مصالحها الطبقية باسم مبادئ الحرية والمساواة والاخاء ، ان البرجوازية قلبت الارهابيين ونابوليون كونهم نهجوا سياسة مضادة لمصالحها ، وانها اذ وصلت الى السلطة بقلبها آل بوربون بثورة ١٨٣٠ فقد خلقت شكل الدولة الذي يستجيب لمصالحها الطبقية . يبين ايضا أنه مع استلامها السلطة انفتح عهد ثوري جديد ، هدفه تحقيق المساواة ، التي تستجيب للمصالح الطبقية للبروليتاريا .

ثم ، محلا مادية القرن الثامن عشر ، ماركس يعرض ان تيارى هذه المادية ، التيار العلمي والتيار الاجتماعي قد ولدا من تطور المنظومة الرأسمالية . ان نهوض الصناعة سهل نهوض العلوم ، والتطور العلمي عزز من جهته الاتجاه المناهض لما وراء - الطبيعة ، ومن هنا تبلور المذهب الاحساسى الذي ولد تصورا ماديا للعالم . في موازاة هذا التيار العلمي ، المناهض للميتافيزياء والاحساسى ، تطور تيار اجتماعى مولود من اتجاه البرجوازية المناهض للدين والاقطاعية والحكم المطلق . من هذا التيار المرتكز على فكرة انه بما ان الانسان مشكل من قبل بيئته لذا يجب تنظيم هذه البيئة بشكل يستطيع معه الانسان ان يعيش بكيفية انسانية ، ولدت الفكرة الاشتراكية التي مآلها هو الشيوعية .

ناقدا اشتراكية برودون الاصلاحية ، ماركس يبرز ، مع ابرازه مآثرته التي هي كونه فتح الطريق لنقد الملكية الخاصة نقدا جذريا ، حدود وعيوب مذهبه . ولما لم ير بعد ان هذه الحدود والعيوب مردها الى موقعه البرجوازي - الصغير ، فهو يعزوها الى كون برودون ، لانه لم ير ان الملكية الخاصة تنجب تحت جميع اشكاله انخلاع الانسان اي ضياع انسانيته ، قد انساق الى المناداة لا بفناء الملكية الخاصة الفناء كاملا ، بل بتوزيعها المتساوي في شكل حيازة ، اي ملكية صغيرة .

أخذا من جديد المسألة اليهودية التي عالجها سابقا في مقالته في **الحوليات الفرنسية - الألمانية** ، ماركس يبين ان ب. باور ، بوصفه برجوازيا ، مثل روجه لا يتصور الانعتاق الا في شكل انعتاق سياسى ، انعتاق جزئي يقتصر على تحرير طبقة من العبودية السياسية بأخذ السلطة . في مقابل الانعتاق السياسى يضع ماركس الانعتاق الانسانى ، انعتاقا جامعاً وكلها يحرق البشر ليس فقط من العبودية السياسية بل ايضا وخصوصا من العبودية الاجتماعية ولا يمكن ان يتحقق الا بثورة بروتيتارية .

عائدا اخيرا الى عدم جدوى الاشتراكية الاصلاحية التي تبقى بلا فعل لانها لا تتعرض لقاعدة المجتمع البرجوازي ذاتها ، للملكية الخاصة ، ماركس يبين كل تفاهة الاصلاحات الاجتماعية التي يدعو اليها سو في **اسرار باريس** .

ان خطوات التقدم الايدىولوجي التي خطاها ماركس في **العائلة المقدسة** موسومة بالاهمية الاصغر بكثير التي تلعبها فيها التصورات الفويرباخية وبالاستبعاد الكامل تقريبا لمفهوم الانخلاع لصالح مفهوم البراكسيس الذي عليه يرتكز ماركس في تفسيره للمشكلات الاجتماعية والسياسية والايدىولوجية .

انطلاقا من هذا المفهوم يقيم المبادئ العامة للمادية الجدلية والتاريخية ، المبادئ

التي تخدم كأساس لتصور جديد للشيوعية .

متجاوزا الكلية محض المفهومية للفكر البرجوازي ، يصل بالارتكاز على تصوره لانخلاق الانسان ، الى فهم كلية تطور الانسان والطبيعة العضوي والتاريخي .

ساعيا وراء العلاقات التي تقوم خلال التاريخ بين الانسان معتبرا ككائن اجتماعي والطبيعة ، يضع الاسس الاولى للمادية الجدلية .

ينطلق ، لهذا الغرض ، من الفكرة الفويرباخية القائلة بوجود عالم مادي مستقل عن الروح ، وبعدم وجود روح مطلق مستقل عن المادة ، وبوجوب النظر الى الانسان والطبيعة في واقعهما العياني ، ولكنه يفكر ، بخلاف فويرباخ ، ان العلاقات بين الانسان والطبيعة تضع نفسها لا على صعيد التأمل بل على صعيد العمل وان الانسان والطبيعة يجب ان يتصورا مفهوما في اطار التطور التاريخي الذي يحدد وجود ووحي الانسان سواء بسواء .

مستندا ، في تصوره عن خلق الانسان لذاته ، الى الفكرة الهيفلية عن وحدة الذات والموضوع متصورة بوصفها اتحاد الانسان والطبيعة العضوي الذي يتحقق في سير التاريخ ، ماركس يعتبر ان العلاقة الاساسية بين الانسان والطبيعة مكونة من اعادة انتاج الانسان للطبيعة التي يؤنسها ، والتي تصير تدريجيا اهم من الفعل الذي تفعله في البداية الطبيعة في الانسان .

ان تحويل الطبيعة من قبل الانسان ، التحويل الذي هو انتاج حياته الواقعية ، حياته الاجتماعية ، يؤلف العنصر الاول الاساسي للوجود الانساني ، فتطور الوعي ليس سوى انعكاس الحياة الاجتماعية .

في الوقت الذي يقيم فيه على النحو المذكور الملامح العامة للمادية الجدلية ، ماركس يضع بالتوازي والترابط ملامح المادية التاريخية . اذ يعتبر العلاقات بين الانسان والطبيعة علاقات اجتماعية ، فانه بذلك يدرج مباشرة المادية التاريخية في المادية الجدلية .

فهو يبين ان تطور الانتاج - في سيرورة خلق الانسان لذاته - يحدد تطور المجتمع ويؤدي في ظل نظام الملكية الخاصة الى انقسام المجتمع الى طبقتين متناحرتين : البرجوازية والبروليتاريا . هذا الصراع الطبقي يؤلف العنصر المحرك للتاريخ الحديث ، وتفاقمه يخلق شروط ثورة اجتماعية ستحل محل النظام الرأسمالي نظاما شيوعيا .

ان تطور الانتاج يحدد ، مع تحديده تطور المجتمع ، ايدولوجيا هذا المجتمع ، بحيث ان الايدواوجيا في مجتمع منقسم الى طبقات لها بالضرورة طابع طبقي ولا يمكن تحليلها الا به .

بهذا التصور ، تصور المادية الجدلية والتاريخية ، كان ماركس ، ملغيا الانفصال بين النظر والعمل ، بين العلم والفاعلية الاقتصادية والاجتماعية ، يوحد في مذهب واحد الاقتصاد السياسي والتاريخ والفلسفة .

جاعلا هكذا من مذهبه علم الواقع علما جامعا ، كان مقادا الى نبذ كل حقيقة مطلقة ، ميتافيزية ، وبذلك عينه كل دوغمائية وكل طوباوية ، تجعلان التطور التاريخي ينبثق لا من اسباب ملازمة محيثة بل من مبادئ خارجية عن الاشياء .

بالمادية الجدلية والتاريخية ، كان ماركس يصل الى تصور جديد للشوعية يستجيب لوعي طبقي اعلى لدى البروليتاريا ويتخطى في الوقت نفسه كل المذاهب الفلسفية والاجتماعية الاخرى .

يتجاوز بادىء بدء فلسفتي اعظم مفكرين برجوازيين لزمانه ، فلسفة هيغل الجدلي الروحاني وفلسفة فويرباخ المادي غير الجدلي ، اللتين يستخدم عناصرهما الخصبة معطيا اياها معنى جديدا .

مبرزا ان هيغل يصوف الواقع بروحنته ، يبين ان هيغل ، بتقليصه الوجود الى وجود مضعد في شكل مفاهيم والفاعلية الانسانية الى المعرفة ، كان مقادا الى الاعتقاد بان الواقع يمكن ان يحول بالطريق النظرائي ، في حين انه لا يمكن ان يحول الا بالعمل .

مع نبذه فلسفة هيغل المثالية ، ماركس يحفظ منه تصور الحركة الجدلية التي تولد من التعارضات والتناقضات الملازمة لكل الواقع ، ولكنه يعارض الجدل المثالي الهيجلي الذي يعيد انبساط العالم الى انبساط المفاهيم والذي يجد اساسه في الفكرة ، التي تحقق فيها اتحاد الفكر والكيثونة ، بجدل مادي مؤسس على انبساط الواقع وترجم عن حركته .

يحل بذلك عينه محل التحرر الهيجلي للانسان بالفكر تحرره بالعمل ، بحيث ان النظران يتحول عنده الى علم لشروط هذا العمل .

مع تجاوزه هيغل ، ماركس يتجاوز في الوقت نفسه فويرباخ ومعه ماديي القرن

الثامن عشر ، الذين لم يبلغوا تصور خلق الانسان لذاته بتحويله الطبيعة .  
مع اعترافه لفويرباخ بمأثرة كونه اقام الاسس الحقة للمادية ليس فقط بوضعه  
اولية الواقع المادي بل ايضا بتصوره هذا الواقع في شكل علاقات الانسان مع الطبيعة  
ومع الناس الآخرين ، ماركس يأخذ عليه اعتباره هذا الواقع موضوعا للتأمل لا للعمل  
وتركه هكذا خارج اعتباراته التطور الاقتصادي والاجتماعي وبذلك عينه الجدل  
والتاريخ . متصورا الطبيعة خارج الفاعلية الانسانية وعلاقات الانسان مع الطبيعة  
ومع البشر الآخرين كعلاقات طبيعية لا كعلاقات اجتماعية ، فويرباخ ينتهي الى  
تصور انتروبولوجي للانسان يمنح هذا الاخير طابعا غير متمايز ومجردا ، مما يقوده  
الى اعطاء المسائل الاجتماعية حلا مثاليا .

ماركس اخيرا يتجاوز الاشتراكيين والشيوعيين الطوباويين ، وبخاصة برودون  
وهس وفيتلنغ .

اجل برودون ، يفكر ماركس آنذاك ، ذو مزاج ثوري ، ولكن بما انه يريد تعميم  
منظومة الملكية الخاصة التي لا يرى انها تنجب في كل أشكاله انخلاع الانسان ونزع  
انسانيته فانه لم يتمكن من الانتهاء الى نظرية ثورية حقا .

هس ، بخلاف فويرباخ ، يعتبر الانخلاع على الصعيد الاجتماعي ، ولكنه اذ  
لا يتصور التطور الاجتماعي كتطور تاريخي وجدلي فقد انساق ، مثل فويرباخ ، الى  
اعطاء المسألة الاجتماعية حلا مثاليا .

الامر كذلك عند فيتلنغ ، الذي ، لانه لا يرى ان الشيوعية هي النتاج الضروري  
للتطور الجدلي للمجتمع الرأسمالي ، ينتهي ، مثل هس ، الى الطوباوية .

بعد العائلة المقدسة ، سيكون الآن عمل ماركس وانجلز ان يبسطا وينميا بصورة  
رئيسية ، كما فعلا في هذا المؤلف نفسه ، نظرية المادية التاريخية ، المفيدة بصورة  
مباشرة اكثر لكفاح البروليتاريا الطبقي . سيفعلان ذلك أولا كل بمفرده ، ماركس في  
الاطروحات عن فويرباخ ، انجلز في حالة الطبقة العاملة في انكلترا ، ثم بصورة مشتركة  
في الايديولوجيا الألمانية .

# جدول تاريخي متواقت

## مساعد للقارئ العربي

- ١٧٥٠ أرقام تقديرية عن السكان : العالم ٧٥٠ مليون ، آسيا ٥٠٠ ، أوروبا ١٤٥ ، فرنسا ٢٢ ، انكلترا ٧ ، امبراطورية النمسا ١٣ ، ايطاليا ١٥ ، روسيا ٢١ .
- ١٧٥١ بداية صدور الموسوعة ( ١٧٥١ - ١٧٧٢ ) برئاسة ديدرو ودالمير ، ومشاركة فولتير ، مونتسكيو ، روسو ، الخ . ديدرو : رسالة عن الصم والبكم .
- ١٧٥٤ كوندياك : كتاب الاحساسات . ديدرو : افكار عن تاويل الطبيعة .
- ١٧٥٥ وفاة مونتسكيو ، فولتير في فرني ، روسو : اصل التفاوت بين البشر ، كوندياك : كتاب الحيوانات ، موريلي : شريعة الطبيعة . كنط : تاريخ الطبيعة ونظرية السماء ( اول ضربة للتصور الميتافيزي للطبيعة ) . تاسيس جامعة موسكو .
- ١٧٥٦ وزارة بيت Pitt في انكلترا ( ١٧٥٦ - ١٧٦١ ) . فولتير : بحث في اخلاق وروح الامم .
- ١٧٥٨ هلفيسسيوس : عن الروح ( الذهن ) . كهني Quesnay : اللوحة الاقتصادية ( المذهب الفيزيوقراطي ) .
- ١٧٥٩ آدام سميث : الشعور الاخلاقي .
- ١٧٦٠ بداية الازمة الدستورية في انكلترا ( ١٧٦٠ - ١٧٨٣ ) : محاولة الملك جورج الثالث توجيه الحكم والانتخابات واختيار الوزراء . - الجيش الروسي في برلين - . فرانكلين يخترع نازع الصاعقة .
- ١٧٦٢ اعدام كالاس ( في فرنسا : تاجر انهم زورا بقتل ابنه لمنعه من ترك البروتستانتية واعتناق الكاثوليكية . فولتير يساهم في رد الاعتبار له في السنوات التالية ) . روسو : اميل او التربية ، و ، العقد الاجتماعي . بداية عهد كاترين الثانية امبراطورة روسيا ( ١٧٦٢ - ١٧٩٦ ) .
- ١٧٦٣ نهاية حرب السبع سنوات : فرنسا تخسر الهند وكندا والسنغال ، بريطانيا اكبر قوة عالمية .
- ١٧٦٤ منع رهبنة اليسوعيين في فرنسا . مفزل هارغريفس ( انكلترا ) . فولتير : القاموس الفلسفي .
- ١٧٦٦ ترغو : تشكل وتوزع الثروات ( فيزيوقراطي ) .
- ١٧٦٧ مرسييه دو لا ريفير : النظام الطبيعي والجوهري ( فيزيوقراطي ) .
- ١٧٦٨ مفزل محرك بقوة الماء .
- ١٧٦٩ جيمس وات : الآلة البخارية ( ١٧٦٩ - ١٧٨١ ) .
- ١٧٧٠ كوك يستكشف شواطئ أستراليا . هولباخ : منظومة الطبيعة .

١٧٧٢ أول تقسيم لبولونيا .

١٧٧٣ الحرب الفلاحية الكبرى في روسيا بقيادة بوغاتشف ( ١٧٧٣ - ١٧٧٥ ) .

١٧٧٤ بداية ثورة المستعمرات الانكليزية في اميركا الشمالية . بداية عهد لويس السادس عشر ، اخر ملوك « العهد القديم » ( او « النظام القديم » ) في فرنسا . معاهدة كوتشوك - كينارجي ( بين روسيا وتركيا ) . بريستلي : الاوكسيجين . غوته : فرتر .

١٧٧٥ جنر Jenner : التلقيح . بريستلي : كتاب الذهن الانساني .  
١٧٧٦ اعلان استقلال الولايات المتحدة الاميركية مع بيان بحقوق الانسان . وزارة ترغو في فرنسا . آدام سميث : ثروة الامم .

١٧٧٧ لافوازيه : الاحتراق ، تأسيس علم الكيمياء الحديث .  
١٧٧٨ فرنسا تدخل الحرب ضد الانكليز الى جانب الولايات المتحدة . وفاة فولتير .  
١٧٨٠ بداية عهد جوزيف الثاني امبراطور النمسا ( ١٧٨٠ - ١٧٩٠ ) نموذج العاهل ( المستبد ) المستنير .

١٧٨١ سقوط وزارة نيكري في فرنسا . الفاء القنانة ومرسوم التسامح الديني في النمسا . كنط : نقد العقل الخالص .

١٧٨٣ معاهدة فرساي : نهاية حرب الاستقلال الاميركية ، فرنسا تسترجع السنغال .  
نهاية الازمة الدستورية في انكلترا بتوطد النظام البرلماني .

١٧٨٤ تسويط الحديد puddlage ( بريطانيا ) . هررد : فلسفة التاريخ . تنظيم المستعمرات الروسية في آلاسكا .

١٧٨٥ النول الميكانيكي .

١٧٨٦ وفاة فريدريك الثاني الكبير ( ملك بروسيا ١٧٤٠ - ١٧٨٦ ) . الاختزال الحديث .

١٧٨٧ مونتسارت : اوبرا دون جوفاني . بنتام : دفاع عن الربا .

١٧٨٨ الازمة المالية في فرنسا ، تمرد « البرلمان » ( وهو في فرنسا العهد القديم : هيئة قضائية عليا ) على الملك ، دعوة مجلس ( او مجالس ) الطبقات العامة Etats généraux الى الانققاد . كنط : نقد العقل العملي . اختراع الدراسة batteuse

١٧٨٩ بداية الثورة الفرنسية البرجوازية الكبرى : انتصار « الوطنيين » او « القوميين » ( او « الطبقة الثالثة » ) في الانتخابات ، مجلس الطبقات العامة يتحول الى جمعية تأسيسية ( ١٧٨٩ - ١٧٩١ ) : سقوط الباستيل ،

١٧٨٩ العلم المثلث الالوان ، الفاء الامتيازات ، انهيار « العهد القديم » ، الاحزاب في الى المجلس ، الصحافة ، النوادي . بيان حقوق الانسان والمواطن ، منح حقوق المواطن للبروتستانت واليهود ، الفاء حق الابن البكر ، اعلان مبدأ حرية العمل عهد والتجارة - الفاء هيئات الحرف والجمارك الداخلية ، منع تشكيل الجمعيات الجمعية المهنية ( اذن النقابات ) وتحريم الاضراب . حروب واعادة الملك ، انجاز التأسيسية الدستور والمصادقة عليه ( ١٧٩١ ) .

الأب سيبس Sieyès : ما هي الطبقة الثالثة ؟ ( - لا شيء . ماذا يجب ويمكن ان تكون : كل شيء . - صدر الكتاب في عشية الثورة ) . - ١٧٩٠ : كسط : نقد الحكم ، غوته : استحقاقات النباتات ، برك : تأملات عن ثورة فرنسا ( اول كتاب يمثل الانعطاف الرجمي في تاريخ الفكر البرجوازي ، ظهر في انكلترة بقلم انكليزي حر ارتد على الحرية ) ، راديتشف : رحلة من بطرسبرج الى موسكو . -

١٧٩١ : المتر وحدة اساس نظام القياس المتري ( الذي سيؤكد في ١٧٩٥ ويجعل الزاميا في فرنسا عام ١٨٣٧ ) .

١٧٩٢ عهد الجمعية التشريعية ( ١٧٩١ - ١٧٩٢ ) : ظهور المعتدلين والثوريين في الجمعية ، اعلان الحرب على النمسا وبداية حروب فرنسا الثورة والسدول الاوروبية . سقوط النظام الملكي . موقعة فالمي . بروز دانتون ، روبسبير ، مارا . اعلان مبدأ التعليم الابتدائي المجاني والالزامي . اختراع الانارة بفاز الفحم .

١٧٩٣ عهد المؤتمر الوطني Convention ( ١٧٩٢ - ١٧٩٥ ) . انقسام الحزب الثوري الى معتدلين ( جيرونديين ) ويعاقبة او جبليين ، اعدام الملك . سقوط الجيرونديين . لجنة الانقاذ العام ، الممثلون المفوضون في الاقاليم ، الارهاب ، كومونة باريس ، روبسبير . ثاني تقسيم لبولونيا .

١٧٩٤ سقوط الجناح المعتدل ( دانتون ) والمتطرف ( هبير ) من يعاقبة . حكم روبسبير ، الارهاب الكبير ، عبادة الكائن الاسمي ، رد الخطر الخارجي . سقوط روبسبير وبداية الردة الترميدورية . انتفاضات ضواحي باريس ضد حكم جماعة شهر ترميدور وراء يعاقبة الثوريين .

انتفاضة بولونيا بقيادة كوشويسكو . كوندورسه : كتاب تقدم الذهن الانساني . فيخته : مذهب العلم .

١٧٩٥ الارهاب الابيض ( الملكي ) في فرنسا ، تمرد ملكي في باريس . بداية عهد الادارة  
Directoire ( ١٧٩٥ - ١٧٩٩ ) . ثالث تقسيم لبولونيا . كنس :  
السلام الابدي .

١٧٩٦ مؤامرة انصار المساواة برئاسة بابوف Babeuf . حملة بونابارت في ايطاليا  
( ١٧٩٦ - ١٧٩٧ ) . بابوف : بيان المتساوين . فيخته : أسس الحق الطبيعي .

١٧٩٧ اشتداد خطر الحزب الملكي وانتقال المديرين عليه في المجلسين وتثبيت النظام  
الجمهوري البرجوازي . أول احصاء للسكان والزراعة في فرنسا .

١٧٩٨ حملة بونابارت في مصر ، معركة الاهرام ، فشل الحملة على سورية ( ١٧٩٩ ) .  
الحرب بين روسيا والسويد ، ضم فنلندا الى روسيا . مالتوس : محاولة  
عن مبدأ السكان .

١٧٩٩ انقلاب ١٨ برومير واستلام نابوليون بونابارت السلطة ، انتهاء عهد الثورة  
الفرنسية وبداية عهد القنصلية . انتصار ماسينا في سويسرة على الحلفاء .  
كاباتيس : علاقات الفيزيائي والمعنوي ( الخلق ) .

١٨٠٠ تقدير عدد سكان العالم : ٨٠٠ مليون . شيلنغ : المثالية المتعالية .  
١٨٠١ جلاء الفرنسيين عن مصر . اتفاق بونابارت مع الكنيسة . سكر الشمندر .  
النسج الميكانيكي .

١٨٠٢ بونابارت قنصلا مدى الحياة . صلح آميان . مؤامرات ملكية وجمهورية ضد  
بونابارت . دو بونالد : التشريع الابتدائي ( كتاب يميني كاثوليكي ملكي ) .  
١٨٠٣ الاميركي فولتون Fulton : أول سفينة بخارية . دالتون : النظرية الذرية .  
ج.ب.سه Say : كتاب الاقتصاد السياسي ( الاقتصاد المبتذل ، عوامل  
الانتاج الثلاثة ) .

١٨٠٤ بونابارت امبراطورا وراثيا تحت اسم نابوليون الاول . بداية عهد الامبراطورية  
( ١٨٠٤ - ١٨١٤ ، ١٨١٥ ) . مجموعة التشريع المدني النابوليونية .  
دستوت دو تراسي : عناصر ايدولوجيا . شيلنغ : الفلسفة والديسن .  
- بداية ثورة الصرب الاولى على الحكم التركي ( ١٨٠٤ - ١٨١٥ ) .

١٨٠٥ معركة اوسترلitz . معركة الطرف الاغر البحرية .  
١٨٠٦ معركة بينا . نابوليون امام منزل هيفل (هيفل : رايت «العقل على حصان» ) .  
١٨٠٧ صالح تيلسيت يؤكد تقطيع واذلال بروسيا . رد الغزو الانكليزي عن مصر  
وزعامة محمد علي . هيفل : فينومينولوجيا الروح .

١٨٠٨ قطيعة نابوليون مع البابا . غزوة لاسبانيا ، وحرب الشعب الاسباني الطويلة ضد الفرنسيين . اصلاحات شتاين في بروسيا . غوته : فاوست . فيخته : خطب الى الامة الالمانية .

١٨٠٩ معاهدة فيينا . لامارك : الفلسفة الزولوجية .

١٨١٠ ثورة المستعمرات الاسبانية في اميركا ( ١٨١٠ - ١٨٢٤ ) من المكسيك الى الارجنتين .

١٨١١ أوج السيادة النابوليونية في أوروبا . مجزرة الممالك في القاهرة .

١٨١٢ حملة نابوليون في روسيا تنتهي الى كارثة . هيفل : علم المنطق ( ١٨١٢ - ١٨١٤ ) . كوفيه : ثورات الكرة الارضية .

١٨١٣ معركة لايبتيغ ( « معركة الامم » ) ضد نابوليون . اوين : رؤية جديدة عن المجتمع ( ١٨١٣ - ١٨١٨ ) .

١٨١٤ غزو الحلفاء لفرنسا ، تنازل نابوليون ، معاهدة باريس الاولى ، عودة البوربون الى فرنسا .

مؤتمر فيينا . سافيني : أهلية زمننا للتشريع والحق ( مدرسة القانون التاريخية الالمانية ) . الانكليزي ستيفنسون يخترع القاطرة .

١٨١٥ عودة نابوليون من جزيرة الباء ، عهد المئة يوم ، هزيمة واترلو ، سقوط نابوليون نهائيا . انتهاء مؤتمر فيينا . قيام الحلف المقدس ، حلف الملوك ضد الحرية والديمقراطية واستقلال الشعوب ، مطاردة الشبح العفوي . بداية عهد العود Restoration في فرنسا ( ١٨١٥ - ١٨٣٠ ) .

١٨١٦ الارهاب الابيض في فرنسا ( ١٨١٥ - ١٨١٦ ) . حكومة بروسيا تمنع اليهود من تولي الوظائف الرسمية . اول جمعية سرية للديسمبريين في روسيا .

١٨١٧ حركة الطلاب الالمان - البروشنشافت - تبلغ الذروة في اجتماع الفارتبورغ ( قومية ، ديمقراطية ، وكلام ) . ريكاردو : مبادئ الاقتصاد السياسي

والضريبة . هيفل : موسوعة العلوم الفلسفية . مقالات أوغستين تسميري Thierry عن التاريخ في الصحافة ( ١٨١٧ - ١٨٢٠ ) . كارل ريتز Ritter

الجغرافية معتبرة في علاقاتها مع الطبيعة والتاريخ الانساني .

١٨١٨ جلاء القوات الحليفة عن فرنسا قبل الموعد المقرر .

١٨١٩ في المانيا اغتيال الكاتب كوتسبو عميل القيصر . احتلال الانكليز لسنغافورة .

سيسموندي : مبادئ جديدة في الاقتصاد السياسي . دوميستر : عن البابا ( كاثوليكي ملكي ) . شوبنهاور : العالم من حيث هو ارادة وتصور ( تأثير هذا

الكتاب المثالي الرجعي يتاخر الى ما بعد فشل ثورة ١٨٤٨ ) .

- ١٨٢٠ بداية ثورة اليونان ضد الحكم التركي . مالتوس : كتاب الاقتصاد السياسي المطبق . لامارتين : التأملات . قوانين الكهريطيس ( اورستد ، آمبير ) .
- ١٨٢١ هيفل : فلسفة الحقوق . سان - سيمون : المنظومة الصناعية .
- ١٨٢٢ حكومة بروسيا تمنع اليهود من ممارسة المهن الحرة (الثقافية) ، والد ماركس يعتنق المسيحية البروتستانتية ( « وثيقة دخول في الحضارة » ، حسب هاينه ) . فرينل : عن الضوء .
- ١٨٢٣ حملة فرنسية ضد الشعب الاسباني بتكليف من مؤتمر الحلف المقدس . اعلان الجمهورية في المكسيك . مبدأ مونرو . غيزو : محاولات عن تاريخ فرنسا .
- ١٨٢٤ تكريس استقلال اميركا الاسبانية . الانكليز في بورما . أسمنت بورتلاندا . كارنسو : الترموديناميك . التصوير الفوتوغرافي . مينيه : تاريخ الثورة الفرنسية ، تيير : تاريخ الثورة الفرنسية ( ١٨٢٤ - ١٨٢٧ ) . بيتهوفن : السمفونية التاسعة . وفاة بايرون في اليونان .
- ١٨٢٥ انكلترا : الاعتراف بحق الاضراب . فرنسا : قانون ضد انتهاك المقدسات . انتفاضة الديسمبريين في بطرسبرج وبداية عهد تقولا الاول . سان سيمون : المسيحية الجديدة . وفاة سان سيمون ( ١٧٦٠ - ١٨٢٥ ) اول الاشتراكيين الطبوايين الثلاثة ( سان سيمون ، فوريه ، أوين ) . تيري : تاريخ فتح انكلترا من قبل النورماندين .
- ١٨٢٧ معركة نافارين البحرية ، تكريس استقلال اليونان ( ١٨٢٩ ) . البواخر الانكليزية الاولى . تيري : رسائل عن تاريخ فرنسا . فوريه : العالم انصناعي الجديد .
- ١٨٢٨ الحصاد . غيزو يبدأ دروسه عن تاريخ المدنية في أوروبا وينشرها في شكل كراسات . بداية الكيمياء العضوية ( تركيب البولة urée على يد الالمانسي فولر ) .
- ١٨٢٩ قانون تحرير الكاثوليك في بريطانيا . جيمس ميل : تحليل فلسفات الذهن . غيزو : تاريخ المدنية في فرنسا .
- ١٨٣٠ سقوط مدينة الجزائر ، سقوط عدن . ثورات ١٨٣٠ : ثورة تموز في باريس ، قيام ملكية تموز ( الملك لوي فيليب ، آل أورليان ) حكم البرجوازية المالية والصناعية والعقارية الكبرى ، ثورة بلجيكا واستقلالها ( ١٨٣١ ) ، ثورة بولونيا ، انتفاضات في ايطاليا ( ١٨٣٠ - ١٨٣١ ) . تكريس استقلال صربيا . تيري : سيرة الازمنة الميروفنجية . المناظرة بين كوفيهيه وجوفروا دو سانت ايلير ضد ومع تحول الانواع الحية ( ١٨٣٠ - ١٨٣٢ ) . فيكتور هوغو :

هرناني ( المسرح الرومانطيقي ) . أوغست كونت يبدأ دروسه عن الفلسفة  
الوضعية ( ١٨٣٠ - ١٨٤٢ ) .

١٨٣١ **انتفاضة عمال ليون** . سحق ثورات بولونيا وإيطاليا من قبل روسيا  
والنمسا . « إيطاليا الفتاة » برئاسة مازيني . ملاحقة بازار وانفانتان  
ورفاقهما ( انصار سان - سيمون ) قضائيا . ابراهيم باشا في سورية .

١٨٣٢ **انتفاضة جمهورية في باريس** . حزب البونابرتيين يعلن لوي بونابارت زعيما  
له . اصلاح انتخابي في انكلترا . **حركة « ألمانيا الفتاة »** ( ١٨٣٢ - ١٨٣٥ ) .  
هـ . هاينه : عن فرنسا . مروحة السفينة . وفاة بنتام ( ١٧٤٨ - ١٨٣٢ )  
صاحب مذهب حساب اللذات .

١٨٣٣ **هاينريش هاينه : مساهمة في تاريخ الدين والفلسفة في ألمانيا** . بالزرك :  
أوجيني غرانديه .

١٨٣٤ : **انتفاضات جمهورية وعمالية وشعبية في ليون ومارسيليا وباريس** . الاتحاد  
الجمركي في ألمانيا . انشاء « رابطة المنبوذين » الالمان ( مركزها في باريس ) .  
الاب لامنيه Lamennais : اقوال مؤمن ( لامنيه = مسيحية اجتماعية  
راديكالية ) .

١٨٣٥ **قوانين أيلول ( الرجعية ) في فرنسا** ( رقابة على الصحافة والمسرح الخ ) . في  
بريطانيا يبلغ عدد البواخر العاملة ٥٥ . واستخراج الفحم نيف ونصف مليون  
طن . **توكفيل : الديمقراطية في اميركا** ( توكفيل : امتداد وانماء لخطط  
مونتسكيو ، ليبرالية ) . **د. شتراوس : حياة يسوع** .

١٨٣٦ **تأسيس جمعية الشغيلة اللندنيين بقيادة لوفت** . طول السكك الحديدية في  
بريطانيا يبلغ ٣٠٠ كلم . تأسيس **رابطة العادلين** ( وهي متقدمة على رابطة  
المنبوذين وتحل محلها ) . **أوين : العالم الاخلاقي الجديد** ( ١٨٣٦ - ١٨٤٤ ) .

١٨٣٧ **بداية عهد الملكة فيكتوريا** ( ١٨٣٧ - ١٩٠١ ) . **مقوط قسطنطينة** ( في الجزائر ) .  
**جمعية الفصول** ( ١٨٣٧ - ١٨٣٩ ) بقيادة بلانكي وباربيس . وفاة قوربيه  
ثاني الاشتراكيين الخياليين . د. شتراوس : كتابات مجادلة . التلغراف  
الكهربائي ( مورس ) .

١٨٣٨ **بداية الحملة الكبيرة في سبيل الغاء رسوم القمح بقيادة الصناعي كوبيدن**  
( ١٨٣٨ - ١٨٤٦ ) . **فون شيسكوفسكي : مقدمة لفلسفة التاويخ** .

١٨٣٩ **انتفاضة عمالية باريسية بقيادة جمعية الفصول** . **جمعية الشغيلة اللندنيين**  
**تعلن ميثاق Charte الشعب** : الاقتراع العام، السري، التساوي ( مساواة  
غير المالكين بالمالكين ) ، تقسيم عادل للدوائر الانتخابية ، دفع تعويض للنائب .  
( في السنوات التالية : الجناح الثوري بقيادة الايرلندي اوكونور O'Connor )

يتجاوز المعتدل لوفت) . محمود الثاني يصدر خط شريف كولخانة .

١٨٤٠ مدينة مانشستر تبلغ ٣٥٠.٠٠٠ نسمة ( ٢٢.٠٠٠ في ١٧٧٠ ) . نهاية الحكم المصري في سورية على يد بريطانيا والدول والسلطان والطوائف . حرب الافيون ( ١٨٤٠ - ١٨٤٢ ) ، فتح الصين وبداية حركة الثورة الصينية الحديثة . وزارة غيزو في فرنسا ( ١٨٤٠ - ١٨٤٨ ) وانتهاجها سياسة يرجوازية محافظة . برودون : ماهي الملكية ؟ . لوي بلان : «تنظيم الشغل» . يوربه : عن بؤس الطبقات الكادحة في انكلترا . كارليل : الابطال . صمود فريدريك غليوم الرابع على عرش بروسيا ومعه التقوى والرجعية ، اشتداد الانقسام بين اليسار واليمين الهيفلي ، بين الشباب والمحافظين ( وكان بدا قبل قليل ) .

١٨٤١ احتلال هونغ كونغ . فويرباخ : جوهر المسيحية : برونو باور : نقد التاريخ الانجيلي . الحوليات الالمانية ( ١٨٤١ - ١٨٤٣ ) لسان الهيفليين الشباب بادارة روجه واشتر ماير . هس : الترياركية الاوروبية . - هاركس : فلسفة الطبيعة عند ديمقريط واييقور . - كونسيدران : بيان المدرسة المجتمعية . ثر . ليست : منظومة الاقتصاد السياسي القومية .

١٨٤٢ حفظ الطاقة : ماير . السوبر فوسفات ( اسمدة ) . فايتلنغ : ضمانات الحرية والتناسق . ذروة الحركة الشارتية في انكلترا ، فشل الاضراب الكبير .

١٨٤٣ كورنو : الاحتمالات . ميلر : التحليل الطيفي . فلهلم شولتس : حركة الانتاج . برودون : عن خلق النظام في البشرية . ج . ستورت ميلل : منظومة المنطق الاستنتاجي والاستقرائي . برونو باور : مسألة الحرية وقضيتي الخاصة ، المسيحية مكشوفة . هس : فلسفة العمل ، الاشتراكية والشيوعية ، الحرية واحدة وكاملة . هاركس يكتب نقد فلسفة الحق لهيفل ، المسألة اليهودية ، مدخل الى نقد فلسفة الحق لهيفل ، انجلز يكتب مسودة لنقد الاقتصاد السياسي . رواية اوجين سو : اسرار باريس .

١٨٤٤ انتفاضة عمال سيليزيا . اول تعاونية استهلاكية في انكلترا . فويرباخ : مبادئ فلسفة المستقبل . جريدة السى الامام . هاركس يكتب مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة ، ثم ( مع انجلز ) العائلة المقدسة او نقد النقد النقدي .

١٨٤٥ المجاعة الكبرى في ايرلندا ( ١٨٤٥ - ١٨٤٧ ) : موت نصف مليون وهجرة مليون ايرلندي . هاركس : الاطروحات عن فويرباخ ، انجلز : حالة الطبقات الكادحة في انكلترا . فويرباخ : جوهر الدين « شتيرنر : الوحيد وخاصيته .

١٨٤٦ فويرباخ : مسألة الخلود من وجهة النظر الانتروبولوجية . برودون : منظومة  
التناقضات الاقتصادية او فلسفة البؤس . لوفريه يكتشف الكوكب نبتون .  
التخدير بالاثير . **ماركس - انجلز** : **الايدولوجيا الالمانية** ( ١٨٤٥ - ١٨٤٦ ) .  
الولايات المتحدة تستولي على تكساس ونيو مكسيكو وكاليفورنيا .

١٨٤٧ استسلام الامير عبد القادر الجزائري . **هلمهولتس** : **حفظ القوة** . التخدير  
بالكلورونورم . **ماركس** : **بؤس الفلسفة** ( ضد برودون ) . المؤتمر الاول  
**لرابطة الشيوعيين** ، المؤتمر الثاني وتكليف ماركس وانجلز بكتابة « بيان  
الحزب الشيوعي » .

١٨٤٨ **الثورة الديمقراطية الكبرى في اوروبا** ، « ربيع الشعوب » : ايطاليا ، فرنسا ،  
المانيا ، النمسا ، المجر . الجمهورية الثانية في فرنسا ، انتفاضة حزيران  
العمالية وسحقها . « اشتعال » الحركة الشارتية في انكلترة ( وانتهأوها ) .  
**ماركس - انجلز** : **البيان الشيوعي** ( صدر عشية انفجار الثورة ) .

**تم الجزء الثالث**

**ويليه الجزء الرابع**



# الفهرس

١٩١

## صفحة

١٩٢

### الفصل الاول - حياة ماركس في باريس

٥

٦

ك. ماركس وباريس الثورية

١٣

دراسات ك. ماركس في باريس

١٦

ماركس والهيغلين الشباب

٢٥

ماركس وروجه

٢٧

ماركس وهرفنغ

٢٩

ماركس وه. هاينه

٣٨

ماركس والاشتراكية « الحقّة » . فويرباخ - م. هس - ك. غرون

٤٦

ماركس وباكونين

٥١

ماركس وبرودون

٥٧

ف. فايتلنغ والشيوعية في سويسرة

٦٤

جريدة الى الامام

٦٩

مجادلة ماركس ضد روجه

٨٤

### الفصل الثاني - مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة

٨٦

المؤثرات والدراسات

٩٣

نقد الاقتصاد السياسي

١١١

نقد المنظومة الرأسمالية والمجتمع البرجوازي

١٢٠

الشيوعية

١٢٧

نقد فويرباخ وهيفل

١٤٢

المادية الجدلية والتاريخية

### الفصل الثالث - « العائلة المقدسة »

١٦٣

فر. انجلز - الحالة في انكلترا

١٧٨

ماركس وانجلز

١٨٠

« العائلة المقدسة »

١٨٢

انتقادات انجلز

١٨٥

انتقادات ماركس

١٨٦

( ١ ) نقد عام للفلسفة النظرانية وللنقد النقدي

١٩٤

( ٢ ) الثورة الفرنسية

١٩٤

( ٣ ) المادية

٢٠٢

( ٤ ) الاشتراكية

٢٠٤

( ٥ ) برودون

٢١٢

( ٦ ) المسألة اليهودية

٢١٧

( ٧ ) « اسرار باريس »

٢٢٤

مدى واصدار « العائلة المقدسة »

٢٢٨

طرد كارل ماركس

٢٣٢

الخلاصة

## صدر حديثاً عن دار الحقيقة :

- ١ - الدفاتر الفلسفية - ٢ - : لينين
- ٢ - الدفاتر الفلسفية - ٣ - : لينين
- ٣ - فكر هيجل : روجيه غارودي
- ٤ - الاتحاد السوفياتي والصين ازاء  
الثورات في المجتمعات ما قبل الصناعية : دنكوس وشرام .
- ٥ - الماركسية السوفياتية والقضايا العربية : الياس مرقص .
- ٦ - المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف : د. سلوى الخماش .
- ٧ - مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث  
للشرق الاوسط : ز. ي. هرشلاغ .
- ٨ - مآزق العالم الثالث : بول بابروك .
- ٩ - النظرية الاقتصادية الماركسية : ارنست ماندل .
- ١٠ - مدخل الى الفلسفة : جان لويس
- ١١ - دراسات في الحرب الخاطفة : محمود عزمي
- ١٢ - الفكر العربي في العصر الحديث : د. منير موسى
- ١٣ - العرب والفكر التاريخي : عبد الله العروبي
- ١٤ - ماركس وانجلز ( ج ٢ ) : اوغست كورنو
- ١٥ - القومية والاشتراكية : هوراس وايغيز
- ١٦ - مسائل الاقتصاد السياسي للاشتراكية : اوسكار لانجه
- ١٧ - الطبقات الاجتماعية في المجتمعات الزراعية : رودولفو ستافنهاغن
- ١٨ - تاريخ العرب والشعوب الاسلامية  
منذ فجر الاسلام حتى الامبراطورية العثمانية : كلود كاهن .
- ١٩ - حول نمط الانتاج الاسيوي : جان شيف . يوجين فارغا .  
موريس غودوليه .
- ٢٠ - الاممية الثالثة بعد لينين . الاشتراكية في بلد واحد : تروتسكي .
- ٢١ - ماركس انجلز ( ج ١ ) : اوغست كورنو .
- ٢٢ - دفاتر عن دياكتيك هيفل : لينين .
- ٢٣ - الاقتصاد السياسي للتنمية : بول . ا. بارا ن .
- ٢٤ - ضرورة الفن .
- ٢٥ - مفاتيح لاجل العالم الثالث - غي دي بوشير : ارنست فيشر .

## سيصدر قريباً جداً :

- ١ - ما هي التنمية : ايف بينو
- ٢ - النظرية الاقتصادية الماركسية ( ج ٢ ) : ارنست ماندل
- ٣ - الماركسية والعالم الاسلامي : مكسيم رودنسون
- ٤ - المصائر التاريخية للواقعية : بوريس سوتخوف
- ٥ - نهب العالم الثالث : بيار جاليه
- ٦ - الاستبداد الشرقي : كارل فيتفوغل



## هذه الكتب

هو المجلد الثالث من دراسة اوغست كورنو لسيرة  
ماركس وانجلز وتطورهما ، كما يحوي عرضاً مكثفاً ودقيقاً  
لكتاباتهما . وقد نالت هذه الدراسة التقدير الذي تستحقه من  
جميع الماركسيين والعلماء المخلصين ، على اساس انه المرجع  
الأوفى والأكمل لا عن سيرة ماركس وانجلز فقط ، بل سير  
تطورهما الفكري ايضاً ..

ان اقامة ماركس في باريس من اواخر ١٨٤٣ حتى اوائل  
١٨٤٥ ، تشكل انعطافاً حاسماً في تطور فكره وعمله .  
فمن هذه الفترة صاغ ماركس وانجلز تصورهما الجديد عن العالم  
وماركس هو الذي سيقوم بالصياغة الأولى لجوهر هذا التصور  
الجديد في « مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة » وفي  
« العائلة المقدسة » يتابع ماركس خطوات التقدم الأيديولوجي .  
وفي نفس الوقت كان انجلز يتابع في انكلترا دراسة التطور  
الاقتصادي والسياسي والاجتماعي لهذا البلد .